شرح

مقامات الحريري

لأبي العباس احمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد ابو الفضل ابراهيم



الجزء الثاني

المكتبة العصرية

صيدا . بيروت

شرح مقامات الحريري

لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمّد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢-٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية عشرة وهي الساوية

حدّث الحارث بن همام ، قالَ : آنَسْتُ مِنْ قَلْبِي القَسَاوَةَ ، حِينَ حلَلْتُ سَاوَةَ ، فأخذت بالخَبَرِ المأثورِ ، في مُدَاوَاتِهَا بزيارَةِ الْقُبُورِ .

فلمَّا صِرْتُ إلَى مَحلَّةِ الأَمْوَاتِ ، وَكِفَاتِ الرُّفات ، رأَيتُ جَمْعا عَلَى قَبرٍ يُحْفَرُ ، وَمَجْنُوزٍ يُقْبرُ ، فانحَزْتُ إلَيهِمْ مُتَفَكِّرًا في المآلِ ، مُتَذَكِّرًا مَنْ دَرَجَ مِنَ الآلِ .

فلمَّا أَلْحَدُوا المَيْتَ ، وَفَاتَ قوْلُ لَيْتَ ، أَشْرَفَ شَيْخٌ مِنْ رِبَاوَةَ ، متخَصِّرًا بِهِرَاوَة ، وَقَدْ لَفَّعَ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ ، وَنَكَّرَ شَخْصَهُ لِدَهائِهِ .

* * *

الحادية عشرة ، تبنى على الفتح كبناء أحد عشر . آنست : أدركت وأحسست .

القَسَاوة : غِلَظ القلب . وقلب قاسٍ وقَسِيّ ، أى صلب ، وقلوب قاسية وقَسِيّة ؛ وهما عن الكسائىّ والفرّاء لغتان بمعنى واحد .

أبو عبيدة : القاسية مأخوذة من القَسْوَة ، والقَسِيَّة التى ليست خالصة الإيمان ، كالدرهم القسىّ وهو الذى خالطه غش من نحاس أو غيره ، وقد قسا القلبُ يقسُو قَسَاوة وقَسَاء : صَلُب .

بلد بينه وبين الرّى اثنان وعشرون فرسخاً ، وهى فى الطريق
ن والرّىّ .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى المواعظ]

ثور ، أى المحدّث به ،وهو قوله صلى الله عليه وسلم :«عُودُوا المرضَى ،
اقابر ، فإنّها تزهّد فىالدنيا ، وتذكّر الآخرة » .

نس رضىالله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كنتُ
إرة القبور ، ثم بَدَا لِى فزُورُوها ، فإنها ترقّق القلب ، وتدمع العين ،
ة » .

جل عائشة رضى الله عنها ، فقال : يا أمّ المؤمنين ، إن لى داء فهل
، ؟ قالت : وما داؤُك ؟ قال : القسوة ، قالت : بئسَ الدّاء داؤك .
واشهد الجنائز ، وتوقّع الموت .

لىّ رضى الله عنه : ما شأنك جاورتَ المقبرة ! قال : إنى أجدُهم
صدق ، يكُفُّون الألسنة ، ويذكّرون الآخرة .

عجوز فى عبد القيس متعبّدة ، فإذا جاء الليل تحزّمت ، ثم قامت
، فإذا جاء النهار خرجت إلى المقبرة ؛ فعُوتبت فى إتيان القبور ،
قلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البِلَى ، وإنّى لآتِى القبور ؛
وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنى أنظر إلى تلك الوجـــوه
ى تلك الأجسام المتغيّرة ، وإلى تلك الأكفان الدّسمة .

مون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ؛ فلمّا
بكَى ، ثم أقبل علىّ فقال : ياميمون ، هذه قبور آبائى بنى أميّة ،

كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذّاتهم وعيشهم ؛ أما تراهم صَرْعى قد خلت من قَبلِهمُ المثُلات ، واستحكم فيهم البِلَى ، وأصابت الهموم فى أبدانهم مقيلاً ، ثم بكى وقال : والله لا أعلم أحداً أنعم ممّن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ من عذاب الله .

استنشد المتوكل أبا الحسن علىّ بن محمد بن موسى بن جعفر بن علىّ بن الحسين ، فقال : إنى لقليلُ الرّواية فى الشعر ، فقال : لا بُدّ ، فأنشده :

باتُوا على قُلَلِ الأجبال تحرسُهُمْ … غُلْبُ الرجال فلم تنفعهمُ القُلَلُ[1]

واستُنْزِلُوا بعد عزٍّ عن معاقِلِهِمْ … وأُودِعُوا حُفَراً، يابئس ما نزَلوا!

ناداهُمُ صارخ من بعد ما دُفِنُوا : … أين الأسرّة والتيجان والحُلَلُ؟

أينَ الوجوهُ التى كانت منعَّمَةً … من دونها تُضرَبُ الأستارُ والكِلَلُ !

فأفصحَ القبرُ عنهم حين ساءَلهم[2] : … تلك الوجوه عليها الدُّودُ يَقْتَتِلُ

قَدْ طالمـا أكلُوا دهراً وما شَربوا

فأصبحوا بعد طولِ الأكل قد أُكِلُوا

قال عمر : لو أنْشِد شعراً فى أوصاف آبائه وبنى عمه ملوك بنى أميّة وانحطاطهم من عزّ المملكة إلى ذل المقبرة ، لم يكن إلا هذا الشعر .

أبو الحسن العلوىّ كان قد سُعِى به إلى المتوكل ، وقيل له إن فى بيته سلاحاً وكتباً وغير ذلك ، فوجّه إليه بعدّة من الأتراك ، فهجموا عليه على غفلة ممّن فى داره ، فوجدُوه فى بيت مغلَقٍ عليه وحده ، وعليه مِدْرَعة شعر ، ولا بساط فى البيت إلا الرّمل والحصى ، وعلى رأسه مِلْحَفة صوف متوجهاً إلى ربه ، يترنّم بالقرآن ، فمثلَ بين يدى المتوكل على حاله ، والمتوكّل يشرب وفى يده كأس ،

(١) المسعودى ٤ : ٩٤

(٢) فى الأصول : « فأصبح » ، والأصح ما أثبته من المسعودى

وأجلسه إلى جنبه . وعلم أنه لا يوجد عنده شيء مما قيل ، فناوله
المؤمنين ، ماخامر لحمي ولا دمي قط ، فأعفني منه ، فأعفاه ، ثم قال :
أستحسنه ، فأنشده الأبيات المتقدّمة ، فأشفق من حضر عليه من
لله لقد بكى المتوكل بكاء طويلا ، وبكى من حضر ، وقال :
أعليك دَين ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، فدفعت إليه ، ورُدَّ
رّماً ، وقال له : ما يقولُ ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب !
لون يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعته على بنيه ! فأمر له
م ، وإنّما أراد طاعة الله على بنيه فعرّض .

بق البربري[1] في المعاريض :

لخيرات تظفرْ ولا تكنْ على الإثم والعدوان ممّن يعاونُ
ما خفت يوماً مسلّطاً عليك ، ولا يحتال مَنْ لا يداهنُ
ا لونين يبدي بشاشةً وفي صدره ضَبٌّ من الغلّ كامنُ[2]

لى عرض المقامة .

لخطاب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه
إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكينا ، فقال : مايبكيكم ؟
قال : هذا قبر أمي آمنة ، استأذنتُ ربي في زيارتها ، فأذن لي ،
ن أستغفر لها ، فأبى عليّ ، فأدركني ما يدرك الولد من الرِّقّة .

ان إذا وقف على قبرٍ بكى حتى يبلّ لحيته ، فسئل عن ذلك ، فقيل

سعيد سابق بن عبد الله ، صاحب الأشعار الحسنة في الزهد ، والبربري لقب له
البربر . خزانة ٤ : ١٦٥ .
بالفتح : العداوة والنبط .

له :تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى إذا وقفت على قبر ! فقال : سمعت رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، يقول : «إنّ القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر ، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ » .

والمقصود من زيارة القبور الاعتبار للزائر والانتفاع بدعائه للمَزور ، ولا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت .

وكان رجل يشهد الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر ، فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم الله غربتكم ، وتجاوز الله عن سيئاتكم ، وقَبِل الله حسناتِكم؛ لا يزيد على هذا شيئاً . قال : فأمسيتُ ليلة ولم أدْعُ ، فبينما أنا نائم إذا خَلْقٌ كثير قد جاءونى ، فقلت : مَنْ أنتم ؟ قالوا نحن أهل المقابر ، قلت : ماحاجتكم ؟ قالوا : إنّك كنت عودتنا هديّةً عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو ، قلت : فإنى أعود لذلك ؛ فما تركتها بعد ذلك.

قوله : محلَّة الأموات ، هى المقابر التى يحُلُّون بها . كفات : قبور وأوعية وكَفتّ الشىءَ : ضممتَه وقبضتَه ، وكفات الشىء : ماضمه وستره ، وقوله تعالى: ﴿ألم نجعلِ الأرض كِفَاتاً• أحْيَاءً وأمْواتا﴾[1] قيل : كِفات الأحياء بيوتهم، وكفات الأموات قبورهم . والرفات : العظام البالية ، وقال ابن المعتز فى مقبرة :

وسكّان دارٍ لا تَزاوُرَ بينهمْ على قرب بعضٍ فى التجاوُر من بَعْضِ[2]
كأنَّ خواتيماً من الطِّين فوقهمْ فليس لها حتَّى القيامةِ من فَضِّ

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

انظر لنفسك يا مسكين فى مهلٍ ما دام ينفعك التفكير والنَّظَرُ

---

(١) سورة المرسلات ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٩

قف بالمقابر وانظر إن وقفتَ بها ... لله درّك ماذا تَستُرُ الحُفَرُ !
ففيهمُ لك يا مغرور موعظةٌ ... وفيهمُ لك يا مغترّ معتَبَرُ !

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقابر ، فأنشدت أقول :

أتيتُ القبور فناديتُها ... فأين المعظَّم والمُحتَقَر؟
وأين المُدِلُّ بسلطانه ... وأين المزكّى إذا ماافتَخَر؟
فنُوديت مِن بينهم: لاأرى ... شخوصاً لهم ولا من أثَر!
تفانَوْا جميعاً فلا مخبرٌ ... وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
فيا سائلى عن أناسٍ مضَوْا ... أما لَكَ فيما ترى مُعْتَبَرْ !
تروح وتغدو بنات الثَّرى ... وتمحَى محاسنُ تلكَ الصُّوَر!

ومما وجد على قبر مكتوباً :

تُناجيك أجداثٌ وهنّ سكوت ... وسكّانُها تحتَ التُّراب خفوتُ
أيا جامعَ الدنيا لغير بلاغةٍ ... لِمَنْ تجمع الدُّنيا وأنت تمُوتُ ؟

ومما وجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسٌ ... لا يمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ
فكيف تفرح بالدُّنيا ولذّتِها ... يا مَنْ يُعدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ ؟
لا يرحَمُ الموت ذا جاهٍ لعزّته ... ولا الذى كان منه العلم يُقتَبَسُ
قد كان قَصْرُكَ معموراً له شَرَفٌ ... فقَبْرُكَ اليوم فى الأجداثِ مُنْدَرِسُ

ووجد على قبر مكتوباً :

وقفت على الأحبة حين صُفّتْ ... قبورهمُ كأفراسِ الرِّهانِ

فلما أن بكيتُ وفاضَ دمعِى رأت عيناى بَيْنَهُمْ مكانِى

قال أعرابىّ: مَنْ خاف الموت بادر الفوت ، ومن لم يقمع النفس عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات ، والجنة والنار أمامك .

مرض أعرابىٌّ فقيل له : إنك تموت ، قال : وإذا مت فإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتى أنْ أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلاّ منه !

وقال أعرابىٌّ : ما بقاء عمر تقطعه الساعات ، وسلامة بدنٍ معرّض للآفات! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو ينقله إلى الثواب الذى أحيا له ليله، وأظمأ له نهارَه !

وقال آخر : مَنْ كانت مطيّتاه الليل والنهار ،سارا به وإن لم يَسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ .

آخر : تصرّف الليل والنهار ، لاتبقى معه الأعمار ، ولا لأحدٍ فيه الخيار .

* * *

قوله : مجنوز ، أى ميّت ؛ وحكى ابن سِيدَه قول بعضهم : جنزتُ الميت إذا سترته بالكفن . وقال الحسن ـ لما أُنْذر بجنازة النّوار امرأة الفرزدق ـ للمنذِر بها : إذا جنزتموها فآذنونى بالجَنَازة ، والجنازة من جَنَزت وهى بالفتح الميّت ، وبالكسر النعش ، وقيل معناهما واحد ، وهو الميّت ، والمختار الكسر . يُقْبَرُ: يدفن . انحزت : ملت . المآل : المرجع . مذ كّراً : متذ كّراً . درج : هلك . الآل:الأهل . ألحدوا : دفنوا وألقوْه فى اللّحد ، وهو حَفِير فى جانب القبر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المقبرة يقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون » .

وكان علىّ رضى الله عنه إذا دخلها يقول : السّلام عليكم يا أهلَ الديار الموحشة والمنازل المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات . اللهمّ اغفر لنا ولهم ، واعفُ

عنّا وعنهم . ثم يقول : الحمدُ لله الّذى جعل الأرض كِفاتاً ، أحياء وأمواتاً ، منها خُلِقنا ، وإليها معادُنا ، وعليها محشرنا ، طوبَى لمن ذكر المعاد ، وقَنع بالكفاف ورضى عن الله .

وكان الحسَنُ البصرىّ رحمه الله إذا دخل قال : اللهمّ ربَّ الأجساد البالية، والعظام النَّخِرَة ، التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة ، أدخل عليها رَوْحاً منك وسلاماً منا .

قوله: «أشرف» : أى طلع. والرَّبَاوة[1] : الكُدْية. متخصّر:أى جاعلها مايلى خَصْره . هراوة :عصا . لفع : غَطّى . تَنكَّر : غيَّر هيئته . لدهائه:لمكره.

* * *

فقال : لِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ، فاذْكرُوا أيُّها الْغَافِلُونَ ، وَشَمِّرُوا أيُّها الْمُقَصِّرُونَ ، وَأحْسِنُوا النَّظَرَ أيُّهَا الْمُتَبَصِّرُونَ . مَا لَكُمْ لايَحْزُنُكُمْ دَفْنُ الأتْرَابِ ، وَلا يَهُولُكُمْ هَيْلُ التُّرَابِ ، وَلا تَهْتَمُّونَ بِنوَازِلِ الأحْدَاثِ، وَلا تَسْتَعِدُّونَ لِنُزُولِ الأجْدَاثِ ، وَلا تَسْتَعْبِرُونَ لِعَيْنٍ تَدْمَعُ ، وَلا تَعْتَبِرُونَ بِنَعْيٍ يُسْمَعُ ، وَلا تَرْتاعُونَ لِإلْفٍ يُفْقَدُ ، وَلا تَلْتاعُونَ لمناحَةٍ تُعْقَدُ ، يُشَيِّعُ أحَدُكُمْ نَعْشَ الْمَيْتِ ، وَقَلْبُهُ تِلْقاءَ الْبَيْتِ ، وَيَشْهَدُ مُوارَاةَ نسيبهِ ، وَفِكْرُهُ فى اسْتِخْلاصِ نصيبهِ ، وَيُخَلِّي بَيْنَ وَدُودِه ودُودِهِ ، ثم يخلو بمزمره وعوده .

* * *

(١) الرباوة ، مثلثة الراء . والكدية ، بالضم : الأرض الغليظة .

ويقال : قصّر فهو مقصّر ، إذا ترك الشيء وهو قادر عليه وشمّر : اجتهد .

والمتبصّر : الناظر فى الشيء على وجه التفهم ، فقد يصيب وقد يخطىء ، ولذلك قالوا : أحسنوا النظر . الأتراب : الأصحاب المتقاربون فى الموالد ، كأنهم قُطعوا من تُربة واحدة ، وأكثر ما يقع للنساء ، وإذا مات للإنسان صاحبٌ على سِنّه كان أوْقَع لحزنه ، فلذا نبّه بالتّرب ، قال الألبيرى[1] :

فإنّ الردى غلّ أهل التقى فلم يبق إلا الغشـــومُ العَتِيد
وأوْدَى بكلّ خليــل ودودٍ فأين ، ولا أين ، خلٌّ وَدُودْ !
وكم من أخى ثقةٍ قد لحدتُ فلّله ما غيّبتَــهْ اللُّحُــودْ
وأثكلنِى الأنسَ ثُكلُ اللِّدَاتِ فصرت كأنى غريب وَحِيــدْ
وكم مِن شقىٍّ يُوارى الترابَ وكم من سعيدٍ يُوارِى الصَّعيد !

قوله : «يهولكم» ، أى يفزعكم ، والهيل : الصبّ الكثير من أعلى إلى أسفل ، فى مثل كدْس الرمل ، وعند صبّ التّراب على الميت تطير القلوب إشفاقاً ، وتسيل العيون رحمة ، قال أبو العتاهية :

بكيتُكَ يا أخىّ بدمع عينِى فلم يُغْنِ البكاء عليك شيّا[2]
كفى حزَنًا بدفنك ثُمّ أنّى نفضتُ تراب قبرك من يديَّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنتَ اليوم أوعظُ مِنك حيًّا

أبو على الرازىّ : مررت بصبيان فى طريق الشأم يلعبون بالتُّراب ، وقد ارتفع الغبار ، فقلت : مهلا ، قد غبّرتم ، فقال صبىّ منهم : يا شيخ : أين تفر

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٠١٠ ، وذكر قبل هذه الأبيات :

طوَتْكَ خُطوبُ دَهْرِكَ بعد نَشْرٍ كذاكَ خُطُوبُهُ نشراً وطَيّــــا
فلو نشرت قُــوَاكَ لِىَ المنايَا شكوْتُ إليك ما صنعتْ إليّا

إذا هيل عليك الترابُ فى القبر ؟ فغُشِى علىّ ، فأفقت والصبىّ قاعد عند رأسى مع الصبيان يبكون ، فقلت له : أعندك حيلة فى الفِرار من التراب؟ قال : أنا لا أعلم ، ولـكن سل غيرى ، فقلت : ومَنْ غيرُك ؟ قال : عقلك . تعبثون : تبالون وتهتمون. والنوازل : جمع نازِلة ، وهى المصيبة . الأحداث: مايحدث على الإنسان من الخير والشر .والأجداث ، بالجيم :القبور ،واحدها جَدَث وجَدَف . تستعبرون : تبكون . تعتبرون : تتّعظون وتَروْنه عبرة . والنّعْى : ذكر موت الإنسان ، وكانت العرب إذا مات منها سيّد ركب رجلٌ فرسَه ، ومشى فى الأحياء ، فيقول : نعاءِ فلاناً ، والناعى :المخبر بموت الرجل ، وقد نَعاهُ نعياً . ترتاعون : تخافون . إلف : صاحب ، وهو فى الأصل مصدر ألفت الشىء إلفاً ، فسمِّىَ به ، ويقال فى معناه : أليف . تلتاعون : تحترقون من الحزن ، واللّوعة : حرقة من الهمّ . المناحة : اجتماع النساء للبكاء على الميت . تعقد : تجمع وتؤلّف . وقلبه تلقاء البيت ، أى قلبه مستقبلٌ لبيت الميت ، يفكّر فيما ترك ليرثه . مُوَاراة: دفن، وقد واراه ، إذا ستره . استخلاص : تحصيل . وَدوده الأول : محبوبه الذى يودّه ، ودُوده الثانى : جمع دودة ، والوار للعطف .

وقال سابق البربرىّ فى معنى ما تقدم :

نلهُو ونأمل أياماً تُعَــدّ لنا ... سريعة المرّ تطْوِينا ونطْوِيهــا
كم من عزيزٍ سيَلْقَى بعد عِزّتِهِ ... ذُلاًّ ، وضاحـكةٍ يوماً سَنبـكِيها
وللحتوف ترَبَّى كلُّ مرضعــةٍ ... وللحساب بَرَىَ الأرواحَ بارِيها
لا تبرح النفس تَنعَى وهى سالمةٌ ... حتى يقومَ بنادى القوم ناعِيها
ولن تزال طَوَال الدهر ظَاعِنَةً ... حتى تقيم بوادٍ غير وَادِيهـا
أموالنا لِذَوِى الميراث نجمعُهـا ... ودُورُنا لخراب الدّهر نبْنِيهـا

وقال آخر :

اعمل وأنتَ من الدُّنيا على حذَرٍ ... واعلم بأنَّك بعد الموت مبعوثُ
واعلم بأنَّك ما قدَّمتَ من عملٍ ... يُحْصَى عليك، وما خلَّفتَ موروثُ

وقال الحسن : ابنَ آدم ! أنت أسير الدنيا ، رضيت من لذَّاتها بما ينقضى ، ومن نعيمها بما يمضى ، ومن مُلكها بما ينفَد ، تجمع لنفسك الأوزار ، ولأهلك الأموال ، فإذا مِتَّ حملت أوزارك إلى قبرك ، وتركت أموالك لأهلك . أخذه أبو العتاهية فقال :

أبقَيْتَ مالك مـيراثاً لوارثه ... يا لَيْتَ شعرىَ ما أبقَى لك المالُ (1)
القوم بعـدك فى حال تسرُّهُمْ ... فكيف بعدهم دارتْ بك الحالُ !
ملُّوا البكاء فما يبكيك من أحدٍ ... واستحكم القِيلُ فى الميراثِ والقَالُ

وقال ابن عبد ربه :

أيا مَنْ عندَه أمـلٌ طويلٌ ... يؤدِّيه إلى أجـلٍ قصيرِ
أتفرحُ والمنيَّـة كلَّ يومٍ ... تُريكَ مكان قبرك فى القُبُورِ
هى الدنيا فإن سرَّتك يوماً ... فإنَّ الحزن عاقبةُ السُّرُورِ
ستُسلَب كلَّ ما جمعْتَ فيهـا ... كعاريةٍ تُرَدُّ إلى المعـيرِ

وقال جبلة بن الحويرث (1) :

يا قَلْبُ إنَّك فى الأحياء مغرورُ ... فاذكر وهل ينفعَنْك اليَومَ تذكيرُ (2)
تريد أمراً ولا تدْرِى: أعاجلُه ... خيرٌ لنفسك أم ما فيه تأْخيرُ !
فاستقدِرِ الله خيراً وارضَيَنَّ به ... فبينما العسر إذ دارتْ مياسيرُ

(1) الأبيات فى المعمرين ٥٢ ودرة الغواص ٢٣ ونزهة الألباء ٢٨ ، وهى فى اللسان دهر ، قال : « قال ابن برى : هى لعثير بن لبيد العذرى. وقيل: لحريث بن جبلة العذرى»
(2) بعده فى المعمرين :

قَدْ بحتَ بالحبِّ ما تُخفيه من أحدٍ ... حتَّى جرتْ بكَ أطلاقاً محاضيرُ

وبينا المرء فى الأحياء مُغْتبطاً إذ صار فى الرَّمس تعفوه الأعَاصِيرُ
يبكى الغريب عليه ليس يعرفُه وذو قرابتِـهِ فى الحىِّ مَسْرُورُ
حتى كأن لم يكن إلاَّ تذكُّره والدَّهر أيتما حين دَهَارِيرُ
وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا بالموت ضمَّنه اللَّحْدَ الخَناسيرُ(١)

* * *

طَالما أسِيتُمْ عَلَى انثِلاَمِ الحَبَّةِ ، وَتَنَاسَيْتُمْ احترامَ الأحِبَّةِ ، واستَكَنْتُمْ لاعْتِرَاضِ العُسْرَةِ ، واستَهَنْتُمْ بانقراضِ الأسْرَةِ ، وضَحِكْتُم عِندَ الدَّفْنِ ، وَلا ضَحِكـكُمْ ساعَةَ الزَّفْنِ ، وَتبخترْتمْ خلفَ الجَنائزِ ، ولاَ تبختُرَكُمْ يومَ قبْضِ الجَوَائزِ ، وأعْرَضتُم عَن تعديدِ النَّوَادِب، إلَى إعْدَادِ المآدِبِ ، وَعَنْ تَحرُّقِ الثَّوَاكِلِ؛ إلَى التأنُّقِ فى المآكِل ، لاَ تبالُونَ بِمَن هُوَ بال، وَلا تُخْطِرُونَ ذكْرَ المَوْتِ ببالٍ ، حَتى كأنكُمْ قَدْ عَلِقْتُمْ من الحِمام بِزِمامٍ ، أوْ حَصَلْتُم مِنَ الزَّمان عَلَى أمانٍ ، أوْ وَثِقْتُمْ بِسَلامَةِ الذَّاتِ ، أو تحَقَّقتُم مُسالمَةَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ ؛ كلاَّ سَاءَ ما تتَوَهَّمُونَ ، ثُمَّ كلاَّ سَوْفَ تعلمُونَ !

* * *

قوله :«أسيتم» ، أى حزنتم . انثلام : انـكسار ونقصان. اخترام: هلاك ، يقول: إذا انتقصَ لـكم من المال أدنى شىء حزنتم عليه ، ولا تحزنُون على نقص أحبابـكم .

---

(١) فى الأصول : « المياسير » ، تحريف ، صوابه من المصريين قال : الخناسير ، جمع الخنسير ــ ويقال : الخناسرة ــ والخناسير : هم الذين يشيعون الميت.

أنس رضى الله عنه ، عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم: منْ أصْبَحَ حزيناً على الدُّنْيا ، أصبح ساخطاً على الله .

قوله : «استكنتم» ، ذللتم ، واستكان ،استفعل من لفظ السكين، وهو لحم باطن الفَرْج . اعتراض العسرة : ظهور الفقر . انقراض الأسرة : موت القرابة الزَّفْن : الرقص .

ضحكتم عند الدفن ، جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كره لكم العبث فى الصلاة ، والرفث فى الصيام ، والضحك فى الجنائز .

ورأى ابن مسعود رضى الله عنه رجلا يضحك فى جنازة ، فقال : تضحك وأنت فى جنازة ! والله لا أكلّك أبداً .

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك فى جنازة مستغرباً ، فقال : أتضحك ولعلّك قد أخذت أكفانك من القصّار !

وفى الحديث « كثرة الضحك تميت القلب وتُذهب بهاء المؤمن » .

قوله :«تبخترتم» ، أى تعظمتم وأظهرتم الإعجاب فى مشيكم. الجوائز :الصِّلات وهم يظهرون فى أحسن الثياب عند الملوك ليكثر لهم العطاء .

أعرضتم : تنحيتم ،وهو من العَرْض ،كأنك إذا لقيت من تكرهُ استقبلتَه بعرضك ، أى بجانبك . النوادب : النوائح اللواتى يندُبن الميت أى يبكينه ، فيقول : أعرضتم عن الباكيات حين عدَّدْنَ خصال الميت المحمودة ، ولم تفكر فى تلك الحال . إعداد ، أى استعداد . المآدب : المطاعم للأعراس . تحرّق : توجّع . الثواكل: الفاقدات لأحبابهنّ . التأنّق: التحسين ، وقد تأنّق فى الشىء، إذا احتفل فيه فأعجب به كل من رآه . بالٍ : دارس متغيّر ، يريد الميت . ببال : بفكر وخاطر .الحِمام : الموت ، وأصله القدَر . وهو من حُمّ ،أى قُدّر، وذات الشىء نفسه وحقيقته . مسالمة : متاركة ومصالحة .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا ذكر هادم اللذات ، قالوا : وما هاذم اللذات ؟ قال : الموت »[1] .

وقال الألبيرىّ فى معنى ما تقدّم :

كم آمنٍ للمنون لاهٍ ... عن الرّدَى باتَ مطمئنّا
صبّحه وافـــدُ المنَايَا ... فعاين الموت حين عَنّا
حتى إذا ما قضى بَكَاهُ ... حميمُه معـــولا مُرِنّا
واروْه فى لحده وسنّوا ... عليه قَيْد التراب سَنّــا
وانتهبُوا ماله وشنوا الـ ... ـــغارات فيما حَوَاهُ شَنّا
لمثل هذا فكن معدّا ... ما قد أعدّ الهـــداة مِنّا
وارتقِب الموت فهو حَتْمٌ ... يخترم الطفـــل والمسِنّا

قوله : كلا ، زجر ، أى ليس الأمر كما ظننتم .

* * *

ثم أنشد :

أيا مَنْ يدَّعِى الفَهْمْ ... إلَى كَمْ يا أخا الوَهْمْ
تُعَبِّى الذّنْبَ والذّمّ ... وتُخْطِى الخطأ الجَمّ

أمَا بانَ لكَ العَيبْ ! ... أمَا أنذَرَكَ الشَّيْبْ !
وما فى نُصْحِهِ رَيبْ ... ولا سَمْعُكَ قَدْ صَمّ

أما نادَى بكَ الموتْ ... أما أسْمَعَكَ الصّوت !
أما تَخْشَى مِنَ الفَوْت ... فتحتاطَ وتهتَمّ

(١) نقله فى الجامع الصغير ١ : ٩٠ .

فَكَمْ تَسْدَرُ فى السَّهْوِ وتَخْتالُ مِنَ الزَّهْوِ
وتَنْصَبُّ إلَى اللَّهْوِ كأَنَّ الْموتَ ماعَمَّ

* * *

قوله :

أيا من يدَّعى الفهم إلى كم يا أخا الوهم

يسمّى هذا من أنواع الشعر المسمّط ، أى المفصّل ، مأخوذ من السِّمط وهو سلك الجوهر المفصّل بالزمرد والذهب وغير ذلك . الوهم : الغَلَط . الجمّ : الكثير، وعلى قوله : «وتخطىء الخطأ الجم» ، ذكر الحريرىّ فى الدرّة[1] أنّ قول الخواصّ : « أخطأ لمن يأتى بالذنب متعمّداً تحريف للفظ والمعنى ، ولا يقال : أخطأ إلاّ لمن لم يتعمد الفعل ولمن اجتهد » ، فلم يوافق الصواب لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجرٌ » وإنما أوجب له الأجر على اجتهاده فى إصابة الحق الذى هو نوع من أنواع العبادة ، لا عن الخطأ الذى يكفى صاحبه أن يُعذَر فيه ويرفع مأثمه عنه ، و[اسم] الفاعل من هذا النوع : مخطىء ، والاسم الخطأ ، قال الله تعالى : ﴿ وَما كانَ لمؤمنٍ أن يقتلَ مؤمناً إلاَّ خطأً[2] ﴾ وأما المتعمّد ، فيقال فيه : خطِىء فهو خاطىء ، والمصدر الخِطء ، قال الله تعالى : ﴿ إنّ قتلَهُم كان خِطأً كبيرا[3] ﴾ ، والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، قال الله تعالى : ﴿ أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين ﴾[4] إخبارا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى الكبيرة كقوله تعالى ﴿ وأحاطت به خطيئته... ﴾[5] الآية : قال أبو محمد الحريرىّ : ولى فى تضمين هاتين اللفظتين وتخصيص معنييهما المتنافيين :

لا تخطونَّ إلى خِطء ولا خطأٍ من بعدما الشيب فى فَوْدَيك قد وَخَطَا
فأىّ عذر لمن شابَتْ مفارقُه إذا جرى فى ميادين الهوى وَخَطَا

وهذه التفرقة منه مستحسَنة ، وكذا يقع فى أكثر كلامهم ، وأما على

(١) درة الغواص ٦٩ (٢) سورة النساء ٩٢ (٣) سورة الإسراء ٣١
(٤) سورة الشعراء ٨٢ (٥) سورة البقرة ٨١

القطع فلا ، لأنه قد حكى الزّجاج وقطرب وابن دريد فى الجمهرة أنّ العرب تقول: خطِئتُ الشىء أخطؤه خطأ، وخطئنى وأخطأته خطأ فى معنى واحد ، قال :

والنّاس يلحوْن الأمير إذا هُمُو   خطِئوا الصواب ولا يلام المرشدُ

أمَا : حرف استفتاح وإخبار . بان : ظهر . أمَا أنذرك الشيب ، سيأتى مستوفياً .

وقال فى الشيب الفقيه الزّاهد أبو عمران رحمه الله :

ذهب الشّباب بجهله وبعارِهِ   وأتى المشيبُ بحلمه وَوَقَارِهِ
شتّان بين مبعّدٍ من ربّهِ   بغروره ومبشّر بجوارِهِ
مازلت أمرحُ بالشباب جهالةً   كالطّرف يمرح معجبًا بعِذارِهِ
وسحبت أثواب البَطالة لاهياً   وجررتُ من بَطَرٍ فضول إزارِهِ
حتى تقلّص ظلّه فتكشّفتْ   عوراته وبدا قبيح عَوَارِهِ
لم أحظ منه بطائلٍ غير الأسى   وتندّمٍ منّى على أوزارِهِ
والآن قد خَطَ المشيب بمفرِقى   بمواعظٍ والحقّ فى تذْكارِهِ
والنفس تركب غيّها لا ترعوى   عنه ولا تُصْغِى إلى إنذارِهِ
لهفى على عُمْرٍ يمرّ مضيّعًا   محصًى علىّ بليله ونهارِهِ

كان شابٌّ فى بنى إسرائيل عَبَدَ الله عشرين سنة ، وعصاه عشرين سنة ، فنظر يوماً فى المرآة ، فرأى الشيب فى لحيته ، فساءه ذلك فقال : إلهى أطعتُك عشرين سنة ، وعصيتك عشرين سنة ، فإن رجعتُ إليك أتقبلنى ؟ فسمع صوتا من زاوية البيت : أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ؛ فإن رجعت إلينا قبلناك .

قال ابن وضاح: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتبْ، مسح إبليس على وجهه ، وقال: بأبِى وجه لا يفلح أبدا ! وأنشدوا:

وإذا مضى للمرء من أعوامِهِ خَمْسُونَ وَهْوَ إلى التّقى لم يجنحِ
ركدتْ عليه المخزيات وقلن قَدْ أرضيتَنـــا فأقم لنا لا تبرحِ
وإذا رأى إبليس غُرّة وجهِهِ حيَّا وقال : فديت من لم يفلحِ

وقال آخر :

تُلاحِظُنى المنيّةُ من قريبِ وتلحظنى ملاحظة الرقيبِ
وتنشر لِى كتابا فيه طىٌّ بخطّ الدهر أسطرُه مشيبِى
كتاب فى معانيهِ غموضٌ تلوحُ لكلّ أوّاب مُنيبِ
أزال الله يا صاحِبِى شبابِى فعوِّضتَ البغيضَ مِنَ الحبيبِ
وبدِّلت التكاسلَ مِن نشاطِى ومن حسن النضارة بالشُّحُوبِ
كذاكَ الشمس يعلوها اصفرارٌ إذا جنحت ومالت للغرُوبِ

وهذا القدر كافٍ هنا فى ذكر الشيب .

* * *

وقوله : « ريب » ، شك . أما أسمعك الصوت ، الصوت هنا : النيّاحة على الميت . والفوت : بُعْد الشيء. الاحتياط ، من الحوْطة ، وهى الوقاية . تسدُر : تتبختر . تختال : تتكبّر . الزهو : الكبر . عمّ : شمل .

ولأبى العتاهية فى معناه :

حتى متى ذو التّيه فى تيهِهِ أصلحـــه الله وعَافَاهُ!
يتيهُ أهل التّيه من جهلهمْ وهمْ يموتُونَ وإن تاهُوا
من طلب العزّ ليبقى به فإنّ عزّ المرء تَقْـــواهُ
لم يعتصمْ باللهِ من خلقِـــه مَنْ ليس يرجوهُ ويَخْشَاهُ

ولمحمد بن حازم :

فيا شامخاً أقصِر عِنانك مقصِراً ... فإنّ مطايا الدهر تـكبُو وتعثُرُ
ستقرَعُ سنًّا أو تعضّ نـدامةً ... يديك إذا خان الزمان وتبصرُ
ويلقاك رُشْدٌ بعـد غيّك واعظٌ ... ولـكنّه يلقـاك والأمر مدبِرُ

* * *

وَحتّامَ تَجافِيكْ ... وإبطاءِ تَلافيكْ
طباعاً جُمّعَتْ فيكْ ... عُيوباً شمْلُهَا انضَمّْ

إذا أسْخَطْتَ مَوْلاكْ ... فَمَا تَقْلَقُ مِنْ ذَاكْ
وَإنْ أخْفَقَ مَسْعاكْ ... تَلَظَّيْتَ مِنَ الْهَمّْ

وإنْ لاحَ لكَ النَّقْشُ ... منَ الأصْفَرِ تَهْتَشّْ
وإنْ مرَّ بِكَ النَّعْشُ ... تَغَامَمْتَ وَلاَ غَمّْ

تُعاصِي النّاصِحَ الْبَرّْ ... وَتَعتاصُ وَتَزْوَرّْ
وَتنقادُ لِمَنْ غَرّْ ... وَمَنْ مَانَ وَمَنْ نَمّْ

* * *

قوله : «تَجافيك» ، أى تباعدك من فِعْل الخير . إبطاء : تأخّر . تلافيك : تداركك . طباعاً : أخلاقاً ؛ يريد أن أخلاقك قد جمعت فيك عيوباً انضمّ عليك شملها . أخفق : خاب . مسعاك : طلبك ومشيك فى اكتساب الرزق . تلظّيت : احترقت واشتعلت ، وهو تفعّلت ، من اللّظى . الأصفر : الدينار ، ونقشه الـكتاب

الذى فيه . تهتش : تخفّ وتهتزّ طرباً . تغامت : أظهرت الغمّ . ولا غمّ ، أى ليس عندك غمّ على الحقيقة .

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا رأى جنازة قال : اغدى فإنا رائحون ، أو روحى فإنا غادون .

أبو عمرو بن العلاء قال : جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه :

* ودّع أمامَةَ حانَ منكَ رحيلُ *[١]

ثم طلعت جنازة فأمسك ، وقال شيّبتنى هذه الجنازة ، فقلت : فلِمَ تُسابّ الناسَ ؟ قال : يبدءوننى ، ثم لا أعفو ، وأعتدى ولا أبتدى . ثم أنشأ يقول :

ترَوِّعنا الجنائزُ مقبلاتٍ ... ونلهُو حين تذهب مدبراتِ [٢]
كروْعةِ هجمة لمغار ذئبٍ ... فلمَّا غاب عادت راتعاتِ

وقال آخر :

وتَعُدُّ كثرة من يموت تعجّباً ... عمّا قريبٍ سوف تدخُل فى العددْ
وأراكَ تحملهمْ ولست تردّهمْ ... وكأننى بك قد حُمِلتَ ولا تُرَدّْ

قوله : «تعاصى الناصح البرّ» ، أى تعاصى مَنْ ينصحك ويبرّك . تعتاص : تتصعب ، وهو « تفتعل » من العصيان ، على القلب . تزورّ : تنقبض . غرّ : خدع . مان : كذب ، ونمّ : مشى بالنميمة .

* * *

وتَسْعَى فِى هَوَى النَّفْسِ ... وَتَحْتَالُ عَلَى الْفَلْسِ
وَتَنْسَى ظُلْمَةَ الرَّمْسِ ... وَلاَ تَذْكُرُ مَا ثَمَّ

---

(١) ديوانه ٤٧٢ ، وبقيته :

* إن الوداعَ إلى الحبيب قليلُ *

(٢) ديوانه ٨٧ .

وَلوْ لا حَظَكَ الْحَظُّ ... لمَـا طَاحَ بِكَ الْأَحْظ
ولاَ كُنْتَ إِذَا الْوَعْظُ ... جَـلاَ الْأحْزَانَ تَغْتَمّْ

ستُذْرِى الدَّمَ لا الدَّمْعْ ... إِذَا عَايَنْتَ ذَا جَمْعْ
يَقِى فى عَرْصَةِ الجَمْعْ ... وَلاَ خَالَ وَلاَ عَمّْ

كَأَنِّى بِكَ تَنْحَطُّ ... إلى اللَّحْـدِ وَتَنْغَطُّ
وَقَدْ أَسْلَمَكَ الرَّهطُ ... إِلَى أَضيَقَ مِنْ سَمّْ

* * *

الرَّمْس : القبر . لاحظك الحظّ : نظرك السعد . طاح بك : أذهبك وأهلكك ، واللحظ : النظر بمؤخَر العين ، وقد لحظَه لَحْظاً ولاحظته ملاحظة ، وكله من اللحاظ ، وهو طرف العين مّما يلى الصُّدغ . وجلاَ : كشف . تُذْرِى : تصبّ وترسل متفرّقاً.

أنس رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأيُّها النَّاس أبكوا فإن لم تبكوا فتباكَوْا ، فإنّ أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء ، فلو أن السفن أجرِيت فى دموعهم لجرَتْ ».

لاجَمْع ، أى لا قبيل ولا عشير يحميك ولا يمنعك يوم القيامة . يقِى : يمنع . عَرْصة الجمع : موضع اجتماع الناس فى الحشر . تنحطّ : تنزل . اللّحْد : حَفير فى جانب القبر . وتنغطّ : تنضمّ وتنقبض ، يقال : غططته فى الماء إذا أغرقته فيه وغمسته . أسلَمك الرهط : تركك قومك . سَمّ : عين الإبرة ، يريد ضيقَ القبر

على الميت . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فساءنا حالُه ،فلما انتهينا إلى القبر فدخله ،التمع وجهه صفرةً ، فلما خرج أسفر وجهه ،قلنا : يارسول الله، رأينا منك شأناً فمِمّ ذلك؟قال : ذكرت ضغطة بنتى وشدة عذاب القبر فأتيت فأخبِرتُ أن الله تعالى قد خفّف عنها ،ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين » .

* * *

هُنَاكَ الْجِسْمُ مَمْدُودُ لِيَسْتَأْكِلَهُ الدُّودُ
إِلَى أَنْ يَنْخَرَ الْعُودُ وَيُمْسِى الْعَظْمُ قَدْ رَمّْ

وَمِنْ بَعْدُ فَلاَ بُدّ مِنَ الْعَرْضِ إِذَا اعْتُدّ
صِرَاطٌ جِسْرُهُ مُدَّ عَلَى النَّارِ لِمَنْ قَدْ أَمّْ

فَكَمْ مِنْ مُرْشِدٍ ضَلّْ وَمِنْ ذِى عِزَّةٍ ذَلّْ
وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ زَلّْ وَقَالَ الْخَطْبُ قَدْ طَمّْ

فَبَادِرْ أَيُّهَا الْغُمْرُ لِمَا يَحْلُو بِهِ الْمُرُّ
فَقَدْ كَادَ يَهِى الْعُمْرْ وَمَا أَقْلَعْتَ عَنْ ذَمّْ

* * *

قوله : « ينخَر » ، أى يبلى ، والعود : تابوت الميت . رمّ : بلِيَ : قال

الفنجديهى : إلى أن ينخر العود ، أى إلى أن يبلَى الجسم الناعم الذى هو مثل القضيب ، وقال الألبيرى :

كأنّى بنفسِى وهى فى السَّكَراتِ   تعالِـجُ أنْ ترْقى إلى اللَّهواتِ[1]
وقد رمّ رحلى واستقلّتْ ركائبى   وقد آذنتْنِى بالرَّحيل حُداتِى
إلى منزلٍ فيه عذابٌ ورحمةٌ   وكم فيه من زجرٍ لنا وعِظَاتِ
ومن أعيُنٍ سالتْ على وَجَناتِها   ومن أوجهٍ فى التُّرْبِ مُنْعفِرَاتِ
ومنْ واردٍ فيه على ما يسرّه   ومن واردٍ فيه على الحسرَاتِ

قوله : «اعتدّ» أى استعدّ ، روى أبو بكر رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « يُحْمَلُ الناسُ يوم القيامة على الصِّراط فيتقادع بهم جَنْبَتا الصِّراط تقادُعَ الفراش فى النار ، فينَجِّى الله برحمته مَنْ يشاء» . التَّقادع : التَّهافت ، كأنّ كل واحد منهم يقدعُ صاحبَه كىْ يسبقه . والجسر : بناء على النار يُجاز عليه من جهة إلى أخرى . وأمّ : قصد . مُرشد : هادٍ . ضلّ : تحيّر . الخَطْب : الأمر الشديد . طمّ : عظم . الغُمْر : الجاهل بالأمور . والذى يحلو به المرّ : هو التوبة والأعمال الصالحة التى يصلح بها ما فسد . يهى : يضعف . أقلعت عن ذمّ ، أى رجعت عن أمر مذموم ، وقال ابن عبد ربه :

بادِرْ إلى التوبة الخلْصَاء مجتهداً   والموتُ وَيْحكَ لم يَمْدُدْ إليك يدَا[2]
وارقب مِنَ الله وَعْداً ليس يُخلفه   لابدّ لله من إنجاز ما وَعَدَا

* * *

وَلاَ تَرْكَنْ إِلَى الدَّهرْ   وَإِنْ لاَنَ وَإِنْ سَرْ
فَتُلْفَى كَمَنِ اغْتَرْ   بِأَفْعَى تَنْفُثُ السَّمْ

(١) ديوانه ٤٨   (٢) العقد ٣ : ١٨٤ .

وَخَفِّضْ مِنْ تَرَاقِيكْ ... فإنَّ المَوْتَ لاَقِيكْ
وَسَارٍ فى تَرَاقِيكَ ... وَمَا يَنْكُلُ إنْ هَمّْ

وَجَانِبْ صَعَرَ الخَدّْ ... إذا سَاعَدَكَ الْجَدّْ
وَزُمَّ اللَّفظَ إنْ نَدّْ ... فَمَا أَسْعَدَ مَنْ زَمّْ

وَنَفِّسْ عَنْ أَخِي الْبَثّْ ... وَصَدِّقْهُ إذَا نَثّْ
وَرُمَّ الْعَمَلَ الرَّثّْ ... فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَمّْ

* * *

قوله : «لا تركن» : تقول : ركنت إلى فلان ، إذا اتّخذته ركنا تلجأ إليه ، تلفى : توجَد . اغترّ : انخدع . تنفث: تبصق عند لدْغها. خَفِّض: سكِّن. تراقيك ارتفاعك وتكبرك . سارٍ : ماشٍ . والتراقى : العَظْمان الموجّان على الصدر . ينْكل : يضعف وينقطع . إن همَّ : إن أرادك وهمّ بك ، وفى معنى هذا قول أبي نواس ــ قال غانم الورّاق : دخلت عليه قبل وفاته بيوم فقال لى : أمعك ألواحُك ؟ قلتُ : نعم ، قال : اكتب :

دبّ فىّ السَّقَامُ سُفْلاً وَعُلْوَا ... وأرانى أموتُ عُضْواً فَعُضوا
ليس تمضى من لحظةٍ لىَ إلاَّ ... نقصَتْنى بمرّها بى جُزْوَا
ذهبت جِدّتى بطاعةِ نفسى ... وتذكّرتُ طاعة الله نِضوَا
قد أسأنا كلّ الإساءة فاللّـ ... ـهمّ صفحاً عنّا وغفراً وعَفْوَا

قوله : «نفّس» ، أى وسِّع نفَسه ، كأنه خُنِق فضاق نَفَسه، فأمر بحلّه . أخى البث : صاحب الحزن . نَثَّ : نطق وكشف له سره رمّ : أصلح ، وقد رممت الشيء رمًّا أصلحته . الرثّ : الخلَق .

وَرِشْ مَنْ رِيشُهُ انْحَصّ بِمَا عَمَّ وَمَا خَصّ
وَلاَ تَأْسَ عَلَى النَّقْصْ وَلا تَحْرِصْ عَلَى اللَّمّْ

وَعَادِ الْخُلُقَ الرَّذْلْ وَعَوِّدْ كَفَّكَ الْبَذْلْ
وَلاَ تَسْتَمِعِ الْعَذْلْ وَنَزِّهْهَا عَنِ الضَّمّْ

وَزَوِّدْ نَفْسَكَ الْخَيْرْ وَدَعْ مَا يُعْقِبُ الضَّيْرْ
وَهَيِّءْ مَرْكَبَ السَّيْرْ وَخَفْ مِنْ لُجَّةِ الْيَمّْ

بِذَا أُوصِيتُ يَاصَاحْ وَقَدْ بُحْتُ كَمَنْ بَاحْ
فَطُوبَى لِفَتًى رَاحْ بِآدَابِي يَأْتَمّْ

* * *

رشْ : اجعل له ريشا . انحصّ : نتف ريشه ، تقول : رشت الرجل ، أى أعنتُه وأغنيته. بما عمَّ وماخصَّ ، أى بما كثر من العطيّة وقلّ . تأسَ : تحزن : على النَّقْص ، أى على النقصان فى الصَّدقة والمعروف ، ولا تـكن أيضاً حريصاً على جمعه ومنعـه فمِنَ احتاج إليه ، واللمّ : جَمْع المـال ، ولممت الشيء لمًّا . الرّذل : الردىء ، يريد: عادِ أخلاق البخل ، أو الخلُق السوء .

عائشه رضى الله عنها ،قال النبى صلى الله عليه وسلم :« مامن مسىء إلا وله توبة ، إلا صاحب سوء الخلُق لأنه لايتوب من ذنب إلاَّ عاد فى شرّ منه».والبذل: العطاء ، وبذلت الشيء بذلا ، أى أبحته عن طيب نفس . والعَذْل : اللوم ،أى.

من لامك على العطاء لاتسمعه وأعطِ ، وأحسن ماقيل في ردّ العذل على كثرته قول زهير :

وأبيضَ فياضٍ نداه غمامةٌ على مُعْتَفِيه ماتُغِبّ فواضلُه[١]

بكرت إليه غدوةً فرأيته[٢] قعوداً إليه بالصَّرِيم عَواذِلُه[٣]

يفدّينه طورا ، وطورا يلمْنه وأعْيَا فمايدرين أينَ مخاتِلُه[٤]

فأقصرن فيه عن كريم مرزَّأٍ صبورٍ على الأمر الذى هو فاعله[٥]

قوله « نَزِّهْها » ، أى باعدها عن الضمّ ، أى عن ضمّ الأصابع على مافى الكفّ . يقول : ابسُطْ كَفَّكَ بالعطية ولا تقبضها على مافيها شُحًّا ، قال ابن عبد ربّه :

ياقابضَ الكفّ لازالتْ مقبَّضةً فما أناملُها للناس أرْزَاقُ[٦]

وغبَ إذا شئت حتى لاتُرى أبداً فما لفقدك فى الأحشاء إحرَاقُ[٧]

كأنّه قَلَبَ بيت ابن دُرَيد فى رجل من أهل البصرة[٨] :

يامَنْ يقبِّل كفّ كل ممخرقٍ[٩] هذا ابنُ يحيى ليس بالمِخْراقِ

قبّل أنامِلَه فلَسنَ أناملا لكنّهنّ مفاتح الأرزَاقِ

---

(١) ديوانه ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر ، وفى الديوان « يداه غمامة » ، وقال في شرحه : « يقول : تمطر يداه بالإعطاء كما تمطر الغمامة » ، وفواضله : عطاياه ؛ لأنها تفضل كل عطاء .

(٢) الديوان : « فوجدته » .

(٣) الصريم : جمع صريمة ؛ وهى القطعة من الرمل تنقطع من معظمه .

(٤) قال فى شرح الديوان : « أى لايدرى أين الأمر الذى يختلفه فيه ، أى كيف يخدعنه » .

(٥) أعرضن : ولين . ومرزأ : يصاب منه الخير ويرزأ ماله ، وفى الديوان : « جموع على الأمر » ، أى ماض عليه يجمع الرأى .

(٦) العقد ٢ : ٣٥١

(٧) الديوان : « إقلاق »

(٨) ديوانه ٨٧ .

(٩) الديوان : « مخرق » .

أخذه ابن دُريد من إبراهيم بن العباس الصولىّ يمدح الفضل بن سهل[1]:

لفضل بن سهل يدٌ   تقاصَرَ عَنْها المَثَلْ
فَبَسْطَتُهـا للغنى   وسَطْوتُها للأجلْ
وباطنُها للنَّـدى   وظاهرها للقُبَلْ

وسرقه ابن الرومى فقال :

أصبحتُ بين خصاصة ومذلَّةٍ   والحرُّ بينهما يموتُ ذَليلاَ
فامدُدْ إلىَّ يَدًا تعوَّد بطنُها   بذْلَ النوال وظَهْرُها التقْبيلاَ

وقال ابن عبد ربه :

وما خُلِقَتْ كفَّاه إلا لأربعٍ   عقائل لم يعقل لهنّ ثوانِى
لتقْبيل أفواهٍ، وإعطاءِ نائلٍ،   وتقليب هندىّ وحَبْس عنانِ

قوله : «ودَعْ مايعقب الضير» ، أى دع عنك شيئا يجيئك فى أثره ضرر . المركب هنا : السفينة . واليمّ : البحر . واللجّة : معظم الماء، وجعل الميت كالمسافر ، وضرب له البحر مثلا لكثرة مايرى من الأهوال ، فأمره بالاستعداد لذلك . ياصاح: ياصاحب . بُحْتُ. نطقت ، يريد أنّ كلّ ماقدّم من الوصيَّة إنما هو على وجه النصح، كما وُصِّىَ هو بها قبل ذلك، وأراد بقوله: «صاح» كلّ مَنْ يسمع وصيَّته، لاصاحباً معيّناً. طوبى: شجرة فى الجنة ، وهى ، عندهم «فُعْلَى» من الطيب. يأتمّ: يقْتَدَى بها فى الظاهر ، يريد أنه مَن اقتدى بهذه الوصية فَطُوبَى له ، وهو يريد: مَنْ حصل آداب المقامات كلها رأس .

* * *

---

(١) ديوانه ١٣٦ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية) .

ثمَّ حَسَرَ رُدْنَهُ عَنْ سَاعدٍ شَدِيدِ الأسْرِ ، قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ جَبَائِرَ المَكْرِ لاَ الْكَسْرِ ، مُتَعَرِّضًا للاستماحَة ، في مَعْرِضِ الْوَقَاحَةِ ، فاختَلَبَ بِهِ أُولئِكَ الْمَلأَ ، حَتى أَترَعَ كُمَّهُ وَملأَ ؛ ثُمَّ انحَدَرَ مِنَ الرَّبْوَةِ ، جَذِلاً بالحَبْوَةِ .

قال الراوى : فَجاذَبْتُهُ مِنْ ورائِهِ ، حَاشِيَةَ رِدَائِهِ ، فالْتَفَتَ إِلىَّ مُسْتَسْلِمًا ، وَوَاجَهَنِي مُسَلِّمًا ، فإِذَا هوَ شَيْخُنا أبو زَيدٍ بعَيْنِهِ وَمينِهِ ، فقلت له :

إلَى كَمْ يا أبا زَيْدْ ... أَفانِينُكَ فِى الـكَيْدْ
لِينحاشَ لَكَ الصَّيْدْ ... وَلاَ تَعبأ بِمَنْ ذَمّْ

* * *

قوله : « حسر » ، أى كشف . ردنه : كُمّه . الأسر : الخِلْقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وشَدَدْنا أَسْرَهُمْ ﴾ (١) ، أى خلقهم ، وهو من الإسار ، وهو القِدّ الذى يشدّ به الأسير ، فشُرُكُ الجلد هى الإسار - ويراد بها فى الخلْقة العَصَب - التى يشتدّ بها الجسد وتلتئم بها الأعضاء ، وإليها حُكْم حركة البدَن من القيام والقعود ، فسبحان الذى أنشأ الخليقة كيف شاء ! الاستماحة : الطلب ، استفعالة ، من مَاحَ الرجلَ يميحه إذا أعطاه ، وأصل ذلك من المائح ، وهو النازل فى قَعْر البئر ليغرف ماءها ويفرّقه على دِلاَء المستقين ، وقد ماح البئرَ ميْحاً . الوقاحة : ترك الحياء وصلاَبة الوجه ، من الحافِر الوَقَاح وهو الصّلب . ومعرضها : موضع عَرْضها ونشرها ، وإن كسرت الميم وفتحتَ الراء فهو ثوب الوَقاحة ، لبسه لأنّ المِعْرَض الثوب الذى تُعرَض فيه الجارية للبيع ، والوقاحة : إظهار ذراعه صحيحاً

(١) سورة الإنسان ٢٨

مشدوداً عليه بخرْق ، ليوهمَ مَنْ رآه أنه مكسور. اختلب:خدع، واحتلب بالحاء: حلب ما عندهم كما تُحلَب الشاة . الملأ : الجماعة . أترع : ملأ . انحدر : هبط ، والرَّبْوة، لغة في الرُّباوة التي تقدَّمت .جذِلاً : مسروراً. الحبوة : العطيَّة. جاذبته: نازعته . مَيْنه : كذبه . أفانينك : أنواع كذبك وحِيَلك . ينحاش : ينضمّ ويجتمع ، وحُشت الصيد أحوشه، إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبـــالة . لا تعبأ ، أى لا تبالى ، من عبّأت الحلم للجهل ، والخيل للحَرْب إذا أعْدَدته ، و إذا لم يبال بالشىء لم يستعدّ له .

* * *

فأجابَ مِنْ غَيْرِ استِحْياء ، وَلاَ ارْتياء ، وَقالَ :

تبصَّرْ وَدَعِ اللَّوْمْ وَقُلْ لِي هَلْ تَرَى الْيَوْمْ
فَتًى لاَ يَقْمُرُ الْقَوْمْ مَتَى ما دَسْتُهُ تَمّ !

فقلتُ لهُ : بُعْدًا لَكَ يا شَيْخَ النَّارِ ، وَزَامِلَةَ الْعارِ ، فَما مِثْلُكَ فِي طُلاَوَةِ عَلاَنِيَتِكَ ، وَخُبْثِ نِيَّتِكَ ، إلاَّ مِثْلُ رَوْثٍ مُفَضَّضٍ ، أَوْ كَنِيفٍ مُبَيَّضٍ .

ثُمَّ تفرَّقنا ، فانْطَلَقْتُ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَانْطَلَقَ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَناوَحْتُ مَهَبَّ الْجَنُوبِ ، وَناوَحَ مَهَبَّ الشَّمالِ .

* * *

ارتياء: إبطاء ، وهو «افتعال» من رؤية القلب، التى معناها التدبّر والتفكّر ، وأصل بابه الهمزة ، فنقلها لمكان همزة اللاّم ؛ يقول : أجاب من غير فكرة .

يقمُر: يغلب، وتقول: قامرتُ الرجلَ قِماراً فقمرتُه أقمُره ، أى غلبته . دَسْته ، أى حيلته ، والدّست: الذى يكون لك فيه الغلَب فى الشطرنج ، تقول : الدَّست لى ، والدَّست علىَّ . ومن ألفاظ عامّة المشرق أن يقول الرجل لصاحبه : هلمّ نأخذ دستاً . تمّ : كمل . قوله: «زاملة» أى حاملة ، والزاملة : الدابّة يحمل عليها . طُلاوة علانيتك ، أى حسن ظاهرك . خبث نيّتك : فساد باطنك ، وفى معنى هذا قال لقمان لابنه : احذر واحدةً ـ وهى أهلٌ للحَذَرِ : إيّاك أن ترى أنك تخشى الله وقلبك فاجر ؛ يحذّره من الرياء ، وفى الحديث : « من أصلحَ سريرتَهُ أصلح الله علانيته » .

وقيل لرجلٍ مُراء : ما أحسن صلاتَك ! قال : ومع هذا فإنى صائم !

قال الشاعر :

وإذا أظهرت شيئاً حسَناً ... فليكن أحسن منه ما يَسُرّ
فمُسِرّ الخير موسومٌ به ... ومُسِرّ الشرّ موسوم بشرّ

وقال محمود الوراق لابن أخيه :

تصوّفَ كى يقال له أمينٌ ... وما معنى التصوّف والأمانَهْ
ولم يُرِدِ الإلهَ به ولكنْ ... أراد به الطريقَ إلى الخِيانَهْ

وقال فيه أيضاً :

شمِّر ثيابك واستعدّ لقائلٍ ... واحكك جبينَك للقضاة بثومِ
وعليك بالفَتوىّ فاجلس عنده ... حتى تصيب وديعةً ليتيمِ

وقال الأبيض الألبيرىّ :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ ... كالذئب يُصبح فى الظلام العاتِمُ

فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتمُ الأموال بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهُبَ البغالِ بأشهبٍ وبأصبغٍ صبغت لكم في العالمِ

وقال آخر :

لا شيء أخسر صفقةً من عالمٍ لعبت به الدُّنيا مع الجُهَّالِ
فغدا يفرّق دينه أيدى سَبَا ويُذيلُه حرصاً لجمع المالِ
لاخير فى كسبِ الحرامِ وقلَّما يُرْجَى الخلاص لكاسبٍ لحلالِ
فخذِ الكفاف ولا تكن ذا فَضْلةٍ فالفضل تُسْأَلُ عنه أىَّ سُؤَالِ

قوله: «مفضّض» ، مطلىّ بالفضة. والكنيف: المستراح. ذات: جهة وناحية. ناوَحْت : قابلت . مهبّ : ناحية هبوبها . الجنوب : الريح القبليّة . والشمال [مقابل] الجنوبية .

المقامة الثانية عشرة وهي الدمشقية

حكى الحارث بن همّام قال : شَخَصْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إلى الْغُوطَةِ ، وَأَنا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ ، وجِدَةٍ مَغْبُوطةٍ ، يُلْهِينِي خُلُوُّ الذَّرْعِ ، وَيَزْدَهِينِي حُفُولُ الضَّرْعِ . فلَمَّا بلَغْتُها بَعْدَ شِقِّ النَّفْسِ ، وإنْضاءِ الْعَنْسِ ، أَلْفَيْتُها كَمَا تَصِفُ الأَلْسُنُ ، وَفِيها ما تشْتَهِي الأنفُسُ وَتَلَذُّ الأعْيُنُ ، فَشكَرْتُ يَدَ النَّوَى ، وَجَرَيْتُ طَلَقاً مَعَ الْهَوَى ، وَطَفِقْتُ أَفُضُّ فِيهَا خُتُومَ الشَّهَواتِ ، وَأَجْتَنِي قُطُوفَ اللَّذَّاتِ ، إلى أَنْ شَرَعَ سَفْرٌ في الإعراقِ ، وَقدِ أَشْفَقْتُ مِنَ الإغراقِ ، فعادَني عِيدٌ منْ تَذْكَارِ الْوَطنِ ، والحَنِينِ إلى الْعطنِ ، فقَوَّضْتُ خِيامَ الْغَيْبَةِ ، وَأسْرَجْتُ جَوَادَ الأَوْبَةِ .

° ° °

[غوطة دمشق]

شَخَصْتُ ، أى خرجت . الغوطة : موضع بالشأم خصيب بخارج دمشق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم الشأم فعليكم بمدينة يقال لها دمشق ، هى خير مدائن الشأم وفسطاط المؤمنين بأرض منها يقال لها الغُوطة » .
قال الأصمعىّ : أحسن أنهار الدنيا ثلاثة أنهار : الغُوطة ، وسَمَرْقند ، ونهر الأُبلَّة ، وهو قريب من البصرة ، وحشوشها ثلاثة : عُمَان ، وأردبيل ، وهِيت .

وسُمّيت دمشق باسم صاحبها الذى بناها ، وهى إرم ذات العماد .

وقال اليعقوبىّ : مدينة دمشق جليلة المقدار قديمة ، وهى مدينة الشأم فى الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير فى جميع بلاد الشأم فى أنهارها وبساتينها ، ومبانيها وكثرة عمارتها . وافتُتِحت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة أربع عشرة .

وقال شيخُنا ابن جُبَير [1] : مدينة دمشق هى جنّة المشرق ، ومطلع حسنه المونق، [2] وعروس المدن [2] . قد تحلّتِ بأزاهير الرياحين ، وتجلّت فى حُلَلٍ سندسيّة من البساتين، وحلّتْ من موضع [3] الحسنِ بمكان مكين ، وتجلّتْ [4] فى منصّتها بأجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله المسيح وأمّهُ منها إلى ربوة ذات قرار ومعِين . ظلٌّ ظليل ، وماء سلسبيل ، ينساب انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض تُحْيِى النفوس [5] بنسيمها العليل ، تبرز [6] لناظريها بمجتلًى صقيل ، وتناديهم : ألا هلمّوا إلى معرّس للحسن ومقيل ، وقد سئمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظمأ ، فتكاد تناديك بها الصمُّ الصِّلاب: ﴿اركُضْ برِجْلِك هَذَا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب﴾ [7] . قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الأكمام للزهر ، وامتدّت بشرقيّها غوطتُها الخضراء امتداد البصر ، فكل موقع لحظتَه بجهاتها الأربع ، نضرتُهُ اليانعة قيْد النظر ، ولقد صدق القائلون عنها :

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٤٠ .

(٢ - ٢) ابن جبير : « وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى جتليناها » .

(٣) ب : « وضع » ، ابن جبير : « موضوع » .

(٤) ابن جبير : « وتزينت » .

(٥) ب وابن جبير : « يحيى النفوس نسيمها » .

(٦) ابن جبير : « تتبرج » .

(٧) سورة ص ٤٢ .

إن كانت الجنة فى الأرض ندمشق لا شك منها ، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامتها وتحاذيها .

وقال فيها البحترى :

إذا أردتَ ملأتَ الطرْفَ من بَلَدٍ مستحسن ، وزمان يُشْبِهُ البَلَدَا[1]
يُمْسِى السحاب على أجْبـالها فِرَقاً ويُصْبِحُ النَبْتُ فى صحرائها بَدَدَا
فلستَ تُبْصِر إلاّ واكفاً خَضِلاً أو يانعاً خضِرًا ، أو طائراً غرِدَا
كأنّما القيظ وَلّى بعد وَفْدَتِهِ[2] أو الربيع دنا من بعد ما بَعُدَا

* * *

قوله : « جُرْد » ، أى خيل قصيرة شعر الجسد . جِدَةٍ : غنًى . مغبوطة : محسودة ، أراد مغبوطٌ عليها مالكُها ، فقلب . يُلْهِينى : يدعونى إلى اللّهو . خُلُوّ الذّرْع : فراغ البال والصدر من الهمّ ، يزدهينى : يحملنى على الزّهْو . حُفُولُ الضّرْع : كثرة المال . والضّرْع للبقرة والشاة بمنزلة الثَّدْى للمرأة ، وحُفوله : امتلاؤه باللبن . شقّ : مشقة . إنضاء : إهزال . والمَنْس : الناقة القوية . ألْفَيْتُها : وجدتها النوَى : البعد والانتقال من بلدٍ إلى بلد ، وأراد أنه شكر سفره . ويد النّوى : النعمة التى أنعم بها عليه ، بأن أوْصله إلى الغُوطة . الهوى : ماتَهْوَاه النفس وتشتهيه . طفقت : أخذت . أنضّ : أكسر . ختوم : ربوط ؛ يريد أنّ شهوته التى كانت قد شُدّت ورُبطت أخذ يكسر ختومها ويسرّحها فى المآكل والمشارب واللذات . أجتنى : أجمع . جناة قطوف : مايجنى من الثمار ، وجعله للذّات أنساعاً . شَرَع : أخذ وابتدأ ، من شرعت الدّابةُ فى الماء ، إذا

(١) ديوانه ٧١٠ ، ، وقبله :

أمّا دمشْقُ فقَدْ أبْدَتْ محاسِنَها وَقَدْ وَفَى لكَ مُطْرِيها بِمَا وَعدَا

(٢) الديوان : « حينْته ».

دخلته لتشربَ سَفْر : مسافرون ، الإعراق: المشى إلى العِراق. أشفقت: خِفْت الإغراق :الفقر من أجل الزاد والمأ كل ، وكأنه غرق فى ذلك ، فهو يرجع إلى الغرق والإغراق : المبالغة فى الشىء ، يقال : أغرق الرجل فى القول والرمى بالقوس ، إذا بالغ فيهما .

عادَنى : زارنى . عيد : شوق ، وكلّ ما تذكرته واشتقت إليه فهو عيد ، كأنه عاد إلى قلبه بعد نسيانه ، ونقل لفظ الشاعر :

عاد قلبى من الطَّوِيلةِ عيدُ   واعترانى من حُبِّهـا تَسْهِيدُ (١)

ابن الأنبارى ، العيد هنا : الوقت الذى يعود فيه الحزن والشوق ، وقال تأبط شرًّا :

يا عِيد مالك من شوقٍ وإيراقِ   ومَرّ طيفٍ على الأهوال طرّاقِ (٢)

العِيد : مايعتاد من الحزن والشوق ، ومعنى « يالك من شوق» : ما أعظمك من شوق . الحنين : الشوق . المَطَن : مبارِك الإبل حول الماء ، وأراد به بلده. قوّضْت : هدّمت . خيام : بيوت . الأوبة : الرجوع ، وأراد قطعت أسباب الإقامة .



وَلَمَّا تَأَهَّبَتِ الرِّفاقُ ، وَاسْتَتبَّ الاتّفاقُ ، أَلْحنا مِنَ الَمسِيرِ، دُونَ اسْتِصْحابِ الْخَفِيرِ ، فَرُدْناهُ مِنْ كُلِّ قبيلَة ، وَأَعْمَلْنا فى تَحْصِيله أَلْفَ حيلَةٍ ، فأَعْوَزَ وِجْدَانُهُ فى الأَحْيَاء ، حَتَّى خِلْنا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ

(١) صدرة فى اللسان ــ عود ، من غير نسبة ، قال : أراد بالطويلة روضة الصمان ، تكون ثلاثة أميال فى مثلها .

(٢) مطلع قصيدته المفضلية ، وإيراق ، مصدر آرقة يورقه ، من الأرق ، والطراق : الذى يطرق ليلا .

الأَحياءِ ، فَحارَتْ لِعَوَزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ ، وَانتَدَوْا بِبابِ جَبْرُون للاستِخارَةِ ؛ فَما زالوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ ، وَشَزْرٍ وَسَحْلٍ ، إلى أن نَفِدَ التَّناجِي ، وَقَنَطَ الرَّاجِي .

وَكَانَ حِذَتَهُمْ شَخْصٌ مِيسَمُهُ مِيسَمُ الشُّبَّانِ ، وَلَبُوسُهُ لَبُوسُ الرُّهْبَانِ ، وبِيَدِهِ سُبْحَةُ النِّسْوانِ ، وَفِي عَيْنَيْهِ تَرْجَمَةُ النَّشْوانِ ، وَقَدْ قَيَّدَ لَحْظَهُ بالجَمْعِ ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ لاستِرَاقِ السَّمْعِ . فَلَمَّا أَنَى انْكِفاؤُهُمْ ، وقَدْ بَرَحَ لَهُ خَفاؤُهُمْ ، قالَ لهم : ياقَوْمِ لِيُفْرِخْ كَرْبُكُمْ ، وَلِيأْمَنْ سِرْبُكُمْ ، فَسأَخفُرُكُمْ بِما يَسْرُو رَوْعَكُمْ ، ويَبْدُو طَوْعَكُمْ .

* * *

استتبّ : تهيّأ وأقام . أَخْنا : خفنا . الخفير : المجير ، وهو الذى تمشى الرفاق فى ذمته ، وتسمّيه العامة الغفير . رُدناه : طلبناه . أعوز : عدم . الأحياء الأول : القبائل ، والثانى ضدّ الموتى . حالت : تغيّرت . لِعَوزِهِ : لفقده . عُزُوم : جمع عَزْم ، وهو الجِدّ . السّيّارة : الرفقة ، وهى فَعّالة من السير . انتدوا : اجتمعوا .

* * *

[باب جيرون]

باب جيرون ، من أبواب جامع دمشق ، وجيرون هذا هو جيرون بن سعد بن عاد ، وهو الذى بنى دمشق ، ونقل إليها الرُّخام ، وسمّاها إرم ، وعلى هذا نقلة الأخبار ؛ وأنّ إرم ذات العماد هى دمشق ، يقال : إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود. وقد تقدّم أيضاً أن دمشق سمِّيت باسم بانيها ، وهو دماشق بن نمروذ بن كنعان ، وقيل : بانيها دمشق بن عامر بن لَمَك بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

قال اليعقوبى[1] : جامع دمشق ليس فى الإسلام أحسن منه ، بناه الوليد ابن عبد الملك فى خلافته بالرّخام والذهب سنة ثمان وثمانين ، مفروش بالرّخام الأبيض المختم بالأزرق ، وسقفه لاخشبَ فيه ، مذهَّبٌ كلُّه ، ومناره ثلاث : واحدة فى مؤخر المسجد ، مذهّبٌ كلها من أعلاها إلى أسفلها .

وذكر شيخنا ابن جُبير فى وصف هذا الجامع ووصف دمشق غرائب لايتّسعُ لها هذا الكتاب ، فلنلمّ هنا ببعض ما وصف فى هذا الجامع ؛ لنَفِىَ بشرطنا. قال[2] : هذا الجامعُ من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين[3] ، ومن عجيب شأنه أنه لا يَلُمُّ به نسجُ العنكبوت[4] ، ولا تلمّ به الطير المعروفة بالخطاف ، انتدب لبنائه الوليد[5] ، ووجّه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص أثنى عشر ألف صانع من بلاده ، وتقدّم إليه بالوعيد فى ذلك إن توقّف [عنه][6] ، فامتثل أمرَهُ مُذْعِناً ،

(١) اليعقوبى أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، صاحب كتاب البلدان والتاريخ المعروف باسمه .

(٢) رحلة ابن جبير ٢٤٠ - ٢٥١ ، بتصرف .

(٣) بعدها فى ابن جبير : « وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه » .

(٤) ابن جبير : « لاتنسج به العنكبوت » .

(٥) ابن جبير : « الوليد بن عبد الملك » .

(٦) تكملة من ج وابن جبير .

وشرع فى بنائه، وبلغت الغاية فى التأنّق فيه، وأنزلت جدره كلها بفُصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قدمثلت أشجاراً، وفرّعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزةوصف كلّ واصف، فجاء يُغْشِى العيون وميضاً وبصيصاً. (١ وبلغت النفقة فيه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار (١).

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه صالَحَ النّصارَى لمّا دخلها، بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقىّ، فصيّرَه مسجداً، وبقى النصف الغربى (٢) للنصارى. فأخذه الوليد، وأدخله فى الجامع بعد أن رغب إليهم أن يعوّضهم عنه، فأبَوْا، فأخذه قهرًا. وكانوا يزعمون أنّ مَنْ يهدم كنيستهم يُجَنّ، فبادر الوليد، وقال: أنا أول مَنْ يُجَنّ فى الله، وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون، فأكلوا هدمها. ثم أرضاهم عمر بن عبدالعزيز فى خلافته عن الكنيسة بمال عظيم.

وطول هذا الجامع من الغرب إلى الشرق: ذرعه مائتاخطوة (٣)، وهما (٤) ثلثمائة ذراع، وذرعه فى السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهى مائتا ذراع، وتكسيره بالمرجع المغربىّ أربعة وعشرون مرجعاً، وهو تكسير مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ غير أنّ طوله من القبلة إلى الشمال، وبلاطاته المتّصلة بالقبلة ثلاث، مستطيلة من المشرق إلى المغرب، سَعَة كلٍّ بلاطة منها ثمانى عشرة خطوة، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عمودا، منها ثمانية أرجل تتخللها

(١-١) ابن جبير: «وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلى الأسدى فى جزء وضعه فى ذكر بنائه ــ مائة صندوق، فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار؛ فكان مبلغ الجميع إحدى عشر ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار ــ والوليد هذا هو الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصارى وأدخلها فيه؛ لأنه كان قسمين: قسما للمسلمين وهو الشرقى، وقسما للنصارى وهو الغربى لأن أبا عبيدة . . .

(٢) ب، ج: «النصف المصارع عليه».

(٣) قال ابن جبير: الخطوة: ذراع ونصف.

(٤) ط: «هى»، وما أثبته من ب وابن جبير.

واثنتان مرخّمة ملصقة بالجدار الذى يلى الصخرة ، وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم، مرصّعة بفصوص من الرّخام ملوّنة ، قد نظمت خواتيم، وصوّرت محاريب وأشكالا غريبة قائمة فى البلاط الأوسط، دور كلّ رجل منها اثنان وسبعون شبرا ، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ، سعته عشر خُطا ، وعدد قوائمه سبع وأربعون ، منها أربع عشرة رجلا ، والباقى سوار ، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص . وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتّصلة بالمحراب، وهى سامية فى الهواء ، عظيمة الاستدارة ، وقد استقلّ بها هيكل عظيم ، هو عماد لها يتّصل من المحراب إلى الصحن والقبّة ، قد أُغصَّتْ بالهواء، فإذا استقبلتها رأيتَ مرأى هائلا ، ومن أىّ جهة استقبلت البلد ترى القبة فى الهواء ، كأنها معلّقة فى الجوّ ، وعدد شمسياتها الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع إلى كلّ لون منها ، واتصل ذلك بالجدار القبلىّ ، ويتصل بالأبصار منها أشعة ملوّنة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها ، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهباً كلّه ، وقد قامت فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره ، تحفّها سوريات مفتولات فتل الأسورة ، فإنها مخروطة ، بعضها أحمر ، كأنها مرجان لم يُرَ شىء أجملُ منها .

وفيها ثلاث مقاصير : مقصورة معاوية ، وهى أول مقصورة وضعت فى الإسلام ، طولها أربعة وأربعون شبراً ، وعرضها نصف الطّول . ويليها بجهة الغرب المقصورة التى أحدثت عند زيادة الكنيسة فيه ، وهى أكبر(١) . والثالثة بالجانب الغربىّ ، يجتمع الحنفيَّة فيها للتدريس .

وله أربعة أبواب : باب قبلىّ يعرف بباب الزيادة ، وباب شمالى يعرف بباب الناطفيين ، وباب غربى يعرف بباب البريد، وباب شرقىٌّ يعرف بباب جيرون ، وهو أعظمها .

(١) ابن جبر : « مقصورات » .

وله وللغربى دهاليز متسعة يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة ، فبقيت على حالها .

ثم ذكر فى الصحن عجائب من الأبنية والقباب والصوامع الثلاث والمياه المدبرة فيه ما يطول وصفه واختصاره. قال : وهذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد ومتفرجهم ومتنزههم، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من باب جيرون إلى باب البريد ، لا يزالون على هذه الحالة إلى انقضاء صلاة العشاء الأخيرة، منهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ. فهذا دأبهم أبداً بالعشى والغداة[1] ، وأكثر الاحتفال بالعشى، [فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم][2] ، وأهل البطالة يسمونهم الحرائين .

وللجامع أربع سقايات فى كل جهة سقاية . وأعظمها سقاية باب جيرون .

وذكر أن حول باب جيرون من الأبنية الغريبة ما يطول وصفه ، وذكر باب جيرون فقال : يخرج من دهليزه إلى بلاط طويل عريض له خمسة أبواب مقوسة ، لها ستة أعمدة فى جهة اليسار، منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه ، قبل أن ينقل إلى القاهرة ، وبإزائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز، وهى كالخندق العظيم تتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر[3] الطرف دونه سمواً ، قد حفته أعمدة كالجذوع طولاً ، وكالأطواد ضخامة ، وبجانبى الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها حوانيت العطارين وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهاليز ، وفوقها سطح بيت فيه سكان الحجر والبيوت ، وفى وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام . وفى وسط الحوض أنبوب صفر يزعج

(١) ابن جبير : « ولبعضهم بالغداة مثل ذلك » .
(٢) تكملة من ابن جبير .
(٣) كذا فى ابن جبير ، وفى ط ، ب : « يتحير » .

الماء بقوّة ، فيرتفع فى الهواء أزيد من القامة ، وحوله أنابيب صغار ترمى الماء علوًّا[(١)] ، فيَخرج منها كقضبان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أبدع من أن يوصف ، وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه شبه غرفة ، بها هيئة طاقٍ كبير مستدير ، فيه طيقان من صفر وقد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صَنجتان من صُفْر من فَمَىْ بازيّين من صُفْر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين ، فتبصر البازيين يمدّان أعناقهما للصنجتين إلى الطّاستين ، ويقذفانهما بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيّله الأوهام سحرا ، فعند وقوعهما يُسمع لهما دوىّ ، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة ، ويتغلّق الباب تلك الساعة بلوحٍ أصفر ، فلا يزال كذلك حتى تنقضى الساعات ، فتغلق الأبواب كلها ، ثم تعود إلى حالاتها الأولى . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أنّ فى القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرّمة ، فى كلّ دائرة زجاجة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عمّ الزّجاجة ضوء المصباح، وأفاض على الدائرة شعاعاً ، فلاحت دائرة محمرة ، ثم ينتقل إلى الأخرى ، حتى تنقضىَ ساعات الليل ، وقد وكلّ بها مَنْ يدير شأنها ، فيعيد فتح الأبواب ، ويسرح الصّنج إلى موضعه وهى التى تسمى الميقات .

ثم ذكر فى باب جيرون ، وفى الجامع وفى خارج البلد عجائب ليست من شرطنا ، وإنما ذكرنا منها مادعت إليه الحاجة من ذكر باب جيرون .

* * *

قوله: «الاستخارة» أى طلب الخِيرة، واستخرت الله: سألته أن يهب لى الخِيرة. شزْر : عقد. سَحْل: حلّ، وشزرت الحبل شزراً شددت فتله ، وسحلت النّسج سَحْلا أفردت سُداه ولم تفتله. نفد: تم وفرغ . التناجى : التحدّث سِرًّا. قَنطَ : يئس

(١) ب « إلى عط » .

الراجى : الطامع . حِذتهم : قريباً منهم ، تقول : دارى حِذوه وحذوته وحذته ، أى حذاءه . مِيسمه : علامته ، وأصل المِيسم المِوْسم ، لأنه من وسمت الشىء ، فقُلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها . لَبوسه : ثيابه . الرّهبان : العبّاد . والترهُّب : ترك النساء . سُبْحة : خيط ينظم فيه خرز يعدّ به التسبيح ، وكانت لأبى هريرة رضى الله عنه سُبْحة من النوى المجزّع ، وهو الذى حُكّ حتى اختلف لونه . وفرغ من سبحته ، أى من صلاته وما يتبعها من الذِّكْر . ترجمة : علامة . النَّشْوان : السّكْران . قيّد لحظه : ربط نظره ، أى شخص فيهم . أرْهف : أحدّ . آن : حان وقرُب ، ويروى « ناء » مقلوب « آن » . انكفاؤهم : انقلابهم ورجوعهم . برَح : انكشف . خفاؤهم : سرّهم .

ليُفرِخْ كربكم : ليزُولْ ويسكن ، ومَثَلُ العرب : أفرخ رَوْعك ، ومعناه : انجلى وانكشف كما ينكشف مافى البيضة إذا انشق عن الفَرْخ . وقيل : معنى أفرخ ، ذهب .

وقال الفارسىّ فى التذكرة : معنى أفرخ رَوْعك : صار له فرخ ، وإذا أفرخ الطائر طار ، لأنه فارق الحِضْن ، وهذا قول حسن .

وقال عروة بن مضرّس : أتيت النبىّ صلّى الله عليه وسلم بجَمْع قبل أن يصلّىَ الصبح ، فقلت : يارسولَ الله ، طويت الجبلين ، ولقيت شدّة ، فقال : « أفرخ روْعك ، مَنْ أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك الحج » ، وقال الأخطل يصف الثّور والكلاب :

حتّى إذا ما الثّوْر أفرخ رَوْعُه ... وأفاق أقبل نحوها يتذمّرُ[1]
أضمًا وهزّ لهنّ رَوْقَىْ رأسِه[2] ... إذْ قد أتيح لهنّ موتٌ أحمرُ

(١) ديوانه ٢٣١ .
(٢) الديوان : « رعى رأسه » .

فقوله : « أفاق » بعد « أفرخ روعه » يدلّ على أنه أراد ذهب فزعه وزال . ويتذمّر ، يحضّ نفسه على الإقدام ، يقال: ذمرته إذا حضضتُه. وأضما، أى غضبان ، والموت الأحمر مذ كور فى المقامة بعد هذه . قوله : « كربكم » أى همكم . سربكم ، أى جمعكم ، أى تأمنوا فى نفوسكم . سأخفركم : سأجيركم . يسْرُو : يكشف ويزيل . رَوْعكم : فزعكم . يبدو: يظهر . طوعكم : منقاداً لكم ، وأراد سأجيركم بشىء يزيل عنكم الفزع ، ويكون منقاداً لكم ، وذلك الشىء هو الكلمات التى يأتى بها .

* * *

قالَ الرّاوِى : فاستَطْلَعْنا منْهُ طِلْعَ الخِفارَةِ ، وَأسْنَيْنَا لَهُ الجعالَة عَن السِّفارَة ، فزَعَمَ أنَّها كَلِماتٌ لقِّنَها فى المَنامِ ، ليَحْتَرِسَ بِهَا منْ كَيْدِ الانام ، فجعَلَ بعْضُنَا يُومِضُ إلى بَعْضٍ ، ويُقَلِّبُ طَرْفَيْهِ بَينَ لَحْظٍ وَغَضٍّ ، وتَبَيَّنَ لهُ أنَّا استَضْعَفْنا الخَبرَ ، واستَشْعَرْنا الخوَر ، فقالَ : ما بالُكُمْ اتَّخَذْتُمْ جِدِّى عَبثًا ؛ وَجَعَلْتُمْ تِبرِى خَبَثًا ! وَلطالَمَا وَاللهِ جُبْتُ مَخاوِفَ الأقْطارِ ، وَوَلَجْتُ مَقاحِمَ الأخْطارِ ، فَغَنِيتُ بِهَا عَنْ مُصَاحَبَةِ خَفِيرٍ ، وَاستِصْحابِ جَفِيرٍ . ثُمَّ إنِّى سأنْفِى مارَابَكُمْ ، وأستَسِلُّ الحَذَرَ الّذى نابَكُمْ ، بأنْ أُوافِقَكُمْ فِى البَداوَة ، وأُرَافِقَكُمْ فِى السَّمَاوَةِ ، فَإنْ صَدَقَكُمْ وَعْدِى ، فَأجِدُّوا سَعْدِى ، وَأسْعِدُوا جَدِّى . وَإن كَذَبكُمْ فمِى ، فَمَزِّقُوا أدِمِى ، وَأرِيقُوا دَمِى .

قال الحارث بن همام : فألْهِمْنَا تَصْديقَ رُؤْياهُ ، وَتحْقِيقَ مَا رَوَاهُ ، فنزعْنا عَنْ مجادَلتِهِ ، وَاستَهَمْنا على مُعَادَلتِه ، وَفَصَمْنا بقولِهِ عُرَى الرَّبائثِ ، وَألغَيْنا اتّقاءَ الْعابِثِ والْعائثِ .

* * *

استطلعنا منه طِلْع الخِفارة ، أى استخبرناه عن خبر الإجارة ، قال ابن الأنباريّ : معنى السِّفارة فى كلامهم الإصلاح ، والسفير : المصلح .

قال الشاعر :

وما أدَعُ السِّفَارةَ بين قَوْمِى وما أمْشِى بِغشٍّ إنْ مَشَيْتُ

وأسنينا له الجِعالة عن السِّفارة ، أى كثّرنا له العطاء ليدلّنا على المجير ، وأنْ يكون رسولا بيننا وبينه . ويمكن أن تكون السِّفارة فِعَالَة ، من لفظ السَّفير ، فيكون اسماً للحِرْفة كالنِّجارة والخياطة . لُقِّنها : حفظها . ليحترِس ، ليمتنع . يُومض : يشير . لحَظ : نظَر بطرف عينيه . غضّ : كسر النظر ؛ أى جعلوا يتغامزون عليه استضعافاً لخبره . استشعرنا الخوَر ، أى ظهر علينا الفزع والضعف من كلامه . العَبَث: اللعب . تبْرِى : ذهبى ، والتِبْر : كل مالم يصنع من الجواهر من نُحاسٍ وغيره . خَبثاً : فاسداً . جُبْت : قطعت . مخاوف : مواضع الخوف . الأقطار : نواحى الأرض . وَلَجْت : دخلت . مقاحم : مهالك ، والمُقحِمة الأمر العظيم لا يركبه أحد لهوْله . الأخطار : جمع خطر ، وهو الغرر . جَنِير : جُعبة السهام . رابكم : شككّكم ، أستسِلّ : أزيل . الحذر : الخوف . نابكم : قَصَدكم . أوافقكم : أساعِدُكم وأمشى معكم مصاحباً لكم . أرافقكم : أسافر

معكم ، والرفيق: الصاحب في السفر. السماوة : مفازة بين الشأم والعراق، وسماوة كل شيء شخصه ، وبذلك سُمِّيت السماوة لأنها منازل ثمود ، وفيها إلى الآن أشخاص منازلهم وآثارهم . أجدّوه : ردوه ذا جَدّ ، وهو السعد والحظّ ، والمعنى أنه يقول : إن كان سعدى قليلاً فأجدّوه ، أى كَثِّرُوا حظّه بعطيتكم حتى يعود صاحبه كثير السّعْد ، وكذلك يقدّر : أسعدوا جَدِّى ، فيريد : إنْ صدقتكم وعدى، وسلمتم، فهبوا لى من أموالكم ما يتقوّى به سَعْدى الضعيف، ويكثّر حظّى القليل . ويقال أيضاً : أجدّ الشيء إذا صيَّره جديداً . مزِّقوا : قطّعوا . أدَمِى : جِلْدى . أريقُوا : صُبّوا .

ألهمنا ، أى ألقى فى قلوبنا . نزعنا : أقلعنا . مُجادلته : مخالفته . استهمنا : ضربنا السّهام وتخاطرنا على من يركب معه رفيقاً . ومعادلته : الركوب معه فى المحمل ، وهو أن يركب هذا فى الأيمن، وهذا فى الأيسر ، مأخوذة من العِدْل .

ونذكر هنا حكاية مضحكة تزيد المعادلة بياناً ، كان المعتصم يأنس بعلىّ ابن الجنيد الإسكاف، وكان عجيب الصُّورة والحديث ، فقال المعتصم لابن حماد : اذهب إلى ابن الجنيد ، وقل له : يتهيّأ ليزاملنى، فأتاه فقال له : تهيأ لمزاملة أمير المؤمنين ، فإنّ مزاملة الخلفاء كبيرة ، فقال : كيف أتهيّأ لها ؟ أصيب رأساً غير رأسى ! أشترى لحية غير لحيتى ! قال ابن حمّاد : شروطها الامتناع عن الحديث والمذاكرة والمنادمة ، وألاّ تبصق ولا تسعل ولا تمخط ولا تتنحنح ، وأن تتقدّم فى الركوب إشفاقاً عليه من الميل ، وأن يتقدّمك فى النزول، فمتى لم يفعل هذا المعادل كان ومثقلة الرصاص التى تُعدل بها القبة واحداً ، فقال لابن حماد : اذهب قل له ما يزاملك إلا مَنْ أُمُّه زانية . فرجع إلى المعتصم وأعلمه ، فضحك وقال : علىّ به ، فلما جاء قال : يا علىّ ، أبعثُ إليك أن تزاملنى فلا تفعل! فقال له : إن رسولك هذا الأرعن جاءنى بشروط حسّان السامى وخالويه الحاكى ،

فقال : لا تبصق ولا تعطس ، وجعل يقرقع بصاداته ، وهذا لا أقدر عليه ؛ فإنّ رضيت أن أراملك ، فإذا جاءنى الفُساء والضراط فسوت وضرطت ، وإلا فليس بينى وبينك عمل . فضحك المعتصم حتى فحص برجليه ، وقال : نعم زامِلْنِي على هذه الشروط ، فسار ساعة فلمّا توسط البرّ، قال: يا أميرَ المؤمنين ، قد حضر ذلك المتسامح ، قال : ذلك إليك ، قال : يحضر ابن حمّاد ، فحضر ، فناوله كمّه ، وقال أجد فى كمّى دبيب شىء ، فانظر ماهو ، فأدخل رأسه فشمّ رائحة الكنيف ، فقال: ماأرى شيئاً ، ولكنى أعلم أن فى جوف ثيابك كنيفاً ، وللضحك قد ذهب بالمعتصم كلَّ مذهب ، وابن الجنيد يفسو فُساءً متّصلا ، ويقول لابن حماد: قلت لى: لا تسعل أو لا تمخط ، فخَريت عليك ، ثم قال : قد نَضِجت القِدْر ، وأريد أخرى ، فأخرج المعتصم رأسه من العمارية حين كَثُر عليه الضحك ، وصاح : ويلك يا غلام ، الأرض : الساعة أموت !

قوله : «فصمنا» ، أى قطعنا وحللنا والعُرا :عيون من شريط أو غيره يُشَدّ بها فم الخُرْج أو العِدْل ، واحدها عروة . والرّبائث : العُلَق ، واحدها رَبيثة ، وهو ما يثبت الإنسان ويحبسه عن أمر يريده ، وقد ربثتُك عن الأمر رَبْثاً ، وتربّثت أنا تربثاً ، إذا تثبطت. ألفينا : اطّرحْنا . اتقاء : خوف. العابث: الذى يعبث بأموالهم من أهل الشر فيفسدها ، والعابث : المفسد ، ويقال : عَبَث بفتح الباء عَبَثاً : خلط . وبكسرها عبثاً : لعب واستخف ، وعاث عيْثا : أفسد .

* * *

« وَلَمّا عُكِمَتْ الرِّحَالُ ، وَأَزِفَ التَّرْحَالُ ، استَنْزَلْنَا كَلِمَاتِهِ الرَّانيةَ ، لِنَجْعَلَهَا الواقِيَةَ الباقِيةَ ، فقالَ : لِيَقْرَأْ كلٌّ مِنْكُمْ أُمّ

القرآن ، كُلَّمَا أَظَلَّ الْمَلَوَانِ . ثم لِيَقُلْ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ : اللَّهُمَّ يا مُحْيِيَ الرُّفاتِ ، وَيادَافِعَ الآفاتِ ، وياوَاقِيَ المخافاتِ ، ويا كريم المكافاةِ ، وَيَا مَوْئِلَ الْعُفاةِ ، ويا وَلِيَّ الْعَفْو والمعافاة ، صلِّ عَلَى محمدٍ خاتَمِ أنبيائكَ ، وَمُبَلِّغِ أَنبيائك ، وعَلَى مَصَابيحِ أُسْرَتِهِ ، وَمَفاتِيحِ نُصْرَتِهِ ، وأَعِذْنِى مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينَ ، وَنَزَوَاتِ السَّلاطِينِ ، وَإِعْنَاتِ الباغِين ، ومعاناةِ الطَّاغِينَ ، وَعُدْوَانَ المعادين ، وَغَلَبِ الغالِبِينَ ، وَسَلَبِ السَّالبِينَ ، وَحِيَلِ الْمُحْتَالِينَ ، وَغِيَلِ الْمُغْتَالِينَ ، وَأَجِرْنِى اللَّهُمَّ مِنْ جَوْرِ المجاوِرِينَ ، (١وَمُجَاوَرَةِ الجائرينَ١) ، وَسَطْوَةِ الجَبَّارِينَ ، وَكُفَّ عَنِّي أَكفَّ الضَّاغِينَ ، وَأَخرجْنِى مِنْ ظُلُمَاتِ الظالمين ، وأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عبادِكَ الصَّالحين .

° ° °

عُكِمت الرحال ، أى شدّت الأحمال بالعِكام ، والعِكام مايشدّ بهفم العِكْم وهو العِدْل . وقيل : إنّ أصل العِكام كامة تربط على فم البعير ، ومثله اللّجام ، يُستعار لما يشدّ به المتاع ، ويقال : عكمت المتاع عكماً شددته فى العِكْم ، أو شددته بالعِكام ، وعكمت البعير شددت عليه العِكْم ، أو ربطت العِكام على فمه ، وأعكمتك أعنتك . أزِف : دنا وقرُب. استنزلنا : طلبنا منه إنزالها ، أى تلطّفنا به ليذكرها. الرّاقية : الرفيعة ، من رقىَ فى الدّرجة ، أو المعوّذة لنا ، من رَقيت المريض ، وهو أشبَه لموافقتها لمعنى الواقية ، وهى الكافية ، لما يخاف من الشرّ . أظلَّ الأمر :

(١ ـ ١) ساقط من نسخة المقامات المخطوطة .

قرب ودنا وكأنه ألقى عليك ظلّه . المَلوان : الليل والنهار ، والخاضع : الذليل ، وخضع خُضوعاً : أقرّ بالذل . والخاشع : المتواضع ، وخشع خُشوعا : خفض صوتَه ، ورمى ببصره إلى الأرض ، والخضوع قريب منه ، إلاّ أنّ أكثر ما يستعمل الخشوع فى الصّوت والخضوع فى الأعناق . الرُّفات : العظام البالية . الآفات : المضرّات . المكافأة : المجازاة . موئل : ملجأ . العُفاة : جمع عافٍ ، وهو سائل العفو ولىّ العفو : صاحب المغفرة . والمعافاة . المباعدة من الضّرر ، وقد عافاه ممَّا يكره وأعفاه . أنبائك : أخبارك ، والنبأ الخبر . أسْرته : رهطه ، وأراد بالمصابيح المهاجرين ، وبالمفاتيح الأنصار . أعذنى : أجرنى . النّزغات : الإفساد ، نزغ الشيطان بين القوم ، أى أفسد ذات بينهم . والشيطان : البعيد من الخير ، من قولهم: دارٌ شَطُون ، أى بعيدة ، ونوًى شَطُون .

قال النابغة :

* نأت بسُعادَ عنك نَوًى شَطُون[1] *

وقال نابغة بنى شيبان :

فأضْحَتْ بَعْدَ مَا وَصَلَتْ بدارٍ شَطُونٍ لا تُعَادُ وَلاَ تَعُودُ[2]

نَزَوات : وثوب ، وقد نزا نزواً ونُزُوًّا ، إذا وثب ، ونزا على الشىء ، ارتفع . إعنات : مشقّة . الباغين: المتعدين ، وقد بغى عليه بَغْياً : تعدّى عليه . معاناة : معالجة ومقاساة . الطاغين : المسرفين فى الظُّلم والمعاصى ، والعادين : المتجاوزين الحدَّ فى الظلم . غِيَل : جمع غيلة ، وهى الهلاك . والمغتال : المهلك . أجِرْنِى : أمّنِّى . سطوة : بطش وتهديد . الضاغين : المذلين .

* * *

(١) اللسان ـ شطن ، وعجزه :

* فبانت ، والفؤاد بها رهينُ *

(٢) ديوانه ٣٤ .

اللهمَّ حُطني في تُرَبتي، وَغُربَتي وَغَيْبَتي ، وَأَوْبَتي وَنُجعَتي ، وَرَجْعَتي ، وَتصرُّفي وَمُنْصَرَفي ، وَتقلُّبي وَمُنْقَلَبي . وَاحْفَظني في نفسي ، وَنفائسي ، وَعِرضِي وَعَرَضي ، وَعَدَدِي وَعُدَدِي ، وَسَكَني وَمَسْكَني ، وَحَوْلي وَحَالِي ، وَمَالي وَمَآلِي ، وَلاَ تُلْحِقْ بِي تغييرًا ، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ مُغيراً ، وَاجْعل لي مِنكَ سُلطاناً نصيراً . اللهم احْرُسْني بِعَينِك وعَوْنِكَ ، واخْصُصْني بِأَمْنِكَ وَمَنِّك ، وَتَوَلَّنِي باخْتِيارك وَخيْرِك . وَلا تَكِلْني إلى كَلاءَةِ غيرِكَ ، وَهَبْ لي عَافِيَةً غَيرَ عَافيةٍ ، وَارْزُقْني رَفَاهِيَةً غَيْرَ واهِيةٍ . واكْفِني مَخَاشِيَ اللأْوَاء ، واكْنُفْني بِغَوَاشي الآلاء ، وَلا تُظْفِرْ بِيَ الأعْداء ، إنكَ سميعُ الدُّعاء .

* * *

قوله : « اللهم حطْني في تُربتي » ، أي احفظني في بلدتي . أوبتي : رجعتي . نجعتي : سفري في طلب الرزق . نفائسي : كرائم مالي . عِرْضي : نفسي . وعَرَضي : مالي . عَدَدِي : أهلي . عُدَدِي : آلاتي ، وما أستعدّه . سكني : أهلي . حولي : قوّتي . حالي : بالي . مآلي : مرجعي . منّك : إحسانك . تولّني : كن لي وليًّا . تَكِلْني : تحْوِجْني . كلاءة : حفظ وحراسة . وعافية : عيش سالم من الآفات .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاءَ وما أعدّ الله لصاحبه من الثواب إذا صبر ، وذَكَرَ العافية وما أعدّ الله لصاحبها من الثواب إذا شكر ، فقلت : يا رسولَ الله ، أُعافَى فأشْكُر ، أحبُّ إليّ من أن

أُبتلى فأصبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نُحبُّ معك العافية. غير عافية ، أى غير دراسة . رفاهية : غنًى متّسع . واهية : ناقصة ضعيفة . مخاشى : ما يُخشى ويخاف . اللأواء : الشدّة . اكتنفنى : اسْتَرْنى . غواشى : أى مايتغشّى به ، أى يتغطّى . الآلاء : النعم.

* * *

ثمَّ أطْرَقَ لايُدِيرُ لَحْظاً ، وَلاَ يُحِيرُ لَفظاً ، حتى قُلْنَا : قَدْ أَبْلَسَتْهُ خَشية ، أو أخرَسَتهُ غَشْيَةٌ . ثُمَّ أَقنَعَ رَاسَهُ ، وَصَعَّدَ أَنفاسَهُ وَقَالَ :

أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ الأبْرَاجِ ، وَالأرضِ ذاتِ الفِجاجِ ، والماءِ الثَّجَّاجِ ، وَالسِّرَاجِ الْوَهَّاجِ ، وَالْبَحْرِ الْفَجَّاجِ ، والهوَاءِ والعجَاجِ ، إنَّهَا لِمَنْ أَيْمَنِ الْعُوَذِ ، وأغْنَى عَنكُمْ مِنْ لاَبِسى الْخُوَذِ ، مَنْ دَرَسَهَا عِندَ ابْتِسامِ الفَلَقِ ، لَمْ يُشفِق مِنْ خَطْبٍ إلى الشَّفَقِ ، ومَنْ نَاجَى بِهاَ طَليعةَ الغَسَقِ ، أمِنَ لَيْلَتهُ مِنَ السَّرَقِ .

قال : فتلَقَّنَّاهَا حَتَّى أتقَنَّاهَا ، وَتدَارَسْنَاهَا ، لكَيْلاَ لاَ نَنساهاَ .

* * *

أطرَق ، أى نظر إلى الأرض ساكناً ، وقد فسّر قوله « أطرق » بقوله : « لا يدير لحظاً ، ولا يُحِير لفظاً » ، فيدير لحظاً يُجيل نظرَه فى الجهات الأربع ، ويحير لفظاً : يردّ كلاماً ، والغَشية : أن يُغشَى على عقله . أقنع : رفع . صَعّدَ : جعلها تصعَد ، أى ترتفع . الأبراج ، أى منازل القمر . الفِجاج ، أى المسالك ، واحدها: فجّ ، والفَجّ الطريق الواسع فى الجبل ، وقيل : هو المتّسع بين مرتفعين ،

وقيل : هو الفتح بن الشُّنْيثين : الثَّجّاج : السَّيّال الكثير الصبّ . السراج : الشمس . الوهّاج : الوقّاد المتلألىء ، وهو من وَهَجِ النار ، وهو اتقادها وحَرُّها ، العَجّاج : المصوّت لاضطراب أمواجه . الهواء : ما بين السماء والأرض . والعَجَاج : الغبار . والعُوَذ : الرُّقَى . أغنَى : أجزأ وأكفى ، والغنى الكفاية ، وأغنى فلان مغنى فلان ، أى كفاه الحضور وقام مقامه . والحُوذ ، بالحاء المهملة الدِّرْع ، وبنقط الحاء بيض السِّلاح . ابتسام الفلق : ظهور الفجر . يشفق : يخاف . خطْب : أمر شديد . الشَّفَق : الحمرة بعد غروب الشمس . ناجى : تكلّم بها سرًّا . طليعة الغسق ، أول طلوع الظلام . تلقَّناها ، أى فهمناها . أتقناها : أحْكَمْناها . تدارسناها ، الدَّرْس فى كلامهم الرِّياضة والتذليل ، وطريق مدروس : كَثُر مشى الناس فيه ، فذَلَّلوه وأثّروا فيه ، فمعنى دَرَس القرآن أو الدعاء ، ذلَّل لسانه وراضَه .

[ضروب من الأدعية المأثورة]

ونصل هذا الدعاء الذى ذكر أنه مستجاب وصدق إذا صحب الدعاء به الإخلاص ، والتضرُّع بأدعية يُنتفع بها إن شاء الله تعالى .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً قال : « اللهمَّ أنت الصاحبُ فى السَّفر ، والخليفة فى الحَضَر . اللهمّ إنّى أعوذ بك من وَعْثاء السفرِ ، وكآبة المنقلَب ، ومن الحَوْر[1] بعد الكَوْر ، ومن سوء المنظر فى الأهل والمال والولد » .

وقالتْ أمّ سلَمَة رضى الله عنها : مَنْ خرج فى طاعة الله تعالى فقال : اللهم إنّى لم أخرُجْ أشِرًا ولا بَطَرا ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولكنّى خرجت ابتغاء

(١) فى اللسان : الحور : الرجوع ؛ يقال: حار بعدما كار ، والحور : النقصان بعد الزيادة ، لأنه رجوع من حال إلى حال ؛ وفى الحديث : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » معناه من النقصان بعد الزيادة . وقيل : معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من نقض العمامة بعد لفها ، مأخوذ من كور العمامة إذا انتقض ليها ، وبعضه يقرب من بعض .

مرضاتك ، واتقاء سَخَطك ، فأسألك بحقك على جميع خَلْقك أن ترزقنى من الخير أكثر ممَّا أرجو ، وتَصْرِفَ عنِّى من الشرَّ أكثر مما أخاف ... استجيب له بإذن الله تعالى .

وقالوا : كلمات الفرج عند الكرب : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، وسبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

قال جعفر بن محمد لسفيان الثَّورىّ : إذا كثرتْ همومُك فأكثِرْ من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وإذا درت عليك النعم فأكثِرْ من الحمد لله العالمين ، وإذا أبطأ عليك الرزق فأكثِرْ من الاستغفار .

ومن قال فى ليل أو نهار : اللهم ربِّى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، اللهمّ إنى أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إنّ ربِّى على صراط مستقيم ... لم يضرّهُ شىء .

ومن قال : بسم الله الذى لا يضرُّ مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، ليلا أو نهارا أمن مما يخاف .

ومن قال : سبحان الله وبحمده ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ثلاث مرات بعد صلاة الصبح أمِنَ مِنَ كلّ غمّ وجُذام وَبرص وفالج .

ومن قال : باسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمة من الله ، ماشاء الله الخير كلّه بيد الله ، ماشاء الله لا يَصْرِف السُّوء إلا الله ، من قالها إذا أصبح أمِنَ من الحرق والغَرَق .

ومن دخل على سلطان يخاف سطوته فقال : الله أعزّ وأكبر مما أخاف وأحذر ، اللهمّ رب السّموات السَّبْع وربّ العرشِ العظيم ، كُنْ لى جاراً من عبدك فلان ، وجوره وأشياعه وأتباعه . تبارك اسمُك وجلّ ثناؤك . وعَزّ جارُك ، ولا إله غيرك ثلاثَ مَرات أمن من شره .

وقال المنصور للربيع :عليّ بجعفر ، قتلني الله إن لم أقتله ! فلما مَثَل بين يديه حرّك شفتيه ، ثم قرب وسلم فقال ، : لاسلّم الله عليك يا عدوّ الله ، تعمل عليّ الغوائل في مُلْكي قَتَلني الله إن لم أقتلك ! فقال : ياأمير المؤمنين إنّ سُلَيمان أُعْطى فشكر ، وإن أيوب ابْتلىَ فصبر ، وإن يوسف ظُلِم فغفر، عليهم السلام ، وأنت على أثر منهم ، وأحقّ من تأسّى بهم . فنكس المنصور رأسه مليًّا ثم رفع رأسه ، وقال : إليّ أبا عبد الله ، فأنت القريب القَرابة ، وأنت ذو الرحم الواشجة . والسليم الناحية ، القليل الغائلة . ثم صافحه بيمينه ، وعانَقَه بشماله ، وأجلسه معه على فِراشه ، وأقبل يسائله ويحادثه ، ثم قال : عَجّلوا لأبى عبدالله إذنَه وجائزتَه وكسوته . فلما خرج أمسكه الربيع وقال له : رأيتك قد حرّكت شفتيك فانجلى الأمر ، وأنا خادم السلطان ، ولاغنًى لى عنه ، فعلّمنى إياه ،فقال: نعم ، قلت : اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفنى بحفظك الذى لايرام، لا أهلِك وأنت رجائى، فكم من نعمة أنعمتها علىّ قلّ عندها شكرى فلم تحرمنى، وكم مِنْ بليّة ابتلَيت بها قلّ عندها صبرى فلم تخذلنى . اللهمّ بك أدرأ فى نحره ، وأعوذ بك من شره .

ومن قال إذا سمع المؤذن:رضيتُ بالله ربًّا ،وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا ، غفرت له ذنوبه .

ومن دعاء الأعراب:قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه:ما من قوم أشبه بالسّلف من الأعراب لولا جفاء فيهم .

وقال : غَيْلان إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب .

وقال الأصمعى:سمعتُ أعرابيًّا بفلاة من الأرض يقول:اللهمّ إن استغفارى إياك مع كثرة ذنوبى لَلُؤْم ، وإن تركى الاستغفار مع معرفتى سعة رحمتك لَعجز، إلهى كم تتحبّبُ إلىّ برحمتك وأنت غنِيٌّ عنى ، وكم أتبغّض إليك بذنوبى وأنا

فقير إليك : يا من إذا وَعَد وفَى، وإذا أوعد عَفَا ، أدخل عظيم جُرْمى فى عظيم عفوك ، يا أرحم الراحمين .

قال : وسمعتُ آخَر يقول فى دعائه : اللهم إنّى أسألك عَمَل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أتنعَّم بترك النعيم طمعاً فيما وعدت ، وخوفا مما أوعدت . اللهمّ أعذنى من سطواتك ، وأجرْنى من نقماتك .

قال : ودعتْ أعرابيّة لابنٍ لها خرج مسافراً ، فقالت : كان الله صاحبَك فى السفر ،وخليفتَك فى أهلك ، وأنجح طَلَبَتك ، امشِ مصاحَباً مكلوءا ، لا أشمت الله بك عدوًّا ، ولا أرى فيك لمحبّك سوءا .

وهذا الباب كثير ، وإنما ذكرنا من الأدعية ما جُرِّب واستُحسن ، والله ينفع بها آمين . قال أعرابى يصف دعوة :

وساريةٍ لم تسرِ فى الليل تبتغى ... محلاً ولم يقطع بها البيدَ قاطعُ
سرتْ حيث لم تَسْرِ الرّكاب ولم تنخْ ... لِوِرْدٍ ولم يقصر لها القيْدَ مانعُ
تحلُّ وراء الليل والليلُ ساقطٌ ... بأوراقه فيــه سَميرٌ وهاجِــعُ
تفتّح أبوابُ السماء لوفــدِها ... إذا قرع الأبواب منهنّ قارِعُ
إذا وفدتْ لم يردِدِ الله وفدَها ... على أهلها ، والله راءٍ وسامعُ
وإنى لأرجو الله حتى كأنّنى ... أرى بجميل الظنّ ما الله صانعُ

* * *

ثمَّ سِرنا نُزْجِي الحَمُولاتِ ، بالدُّعوتِ ، لا بالْحدَاة ، وَنحمِي الْحُمُولاتِ ، بالـكلماتِ لا بالـكُماة ، وَصَاحِبُنَا يَتعَهّدُنَا بالعَشِيِّ والْغدَاةِ ، وَلَا يَستَنْجِزُ مِنَّا العِداتِ ، حتى إذا عاينَّا أطْلال عانة ، قالَ

لناَ : الإعانةَ الاعانةَ ، فأحضرناهُ المعلومَ والمكتومَ ، وأَرَيناهُ المَعْكومَ والمختوم ، وقُلناَ له : اقْضِ مَا أنْتَ قَاضٍ ، فماَ تَجِدُ فيناَ غير راضٍ ، فَما استخفَّه سوى الخفِّ وَالهَيْن ، وَلا حلىَ بِعَيْنِه غَيرُ الحَلْي والْعَين . فاحْتَمَلَ مِنهُماَ وِقْرَهُ ، وناءَ بِماَ يَسُدُّ فقْرَه ، ثُم خالَسْنا مُخَالَسةَ الطَرَّار ، وَانصَلتَ مِنَّا انْصِلاتَ الفُرَّارِ ، فأَوْحَشنا فِرَاقُه ، وأدْهَشَنا امْتِراقُه ، ولم نَزلْ ننشدُه بكلِّ نادٍ ، وَنَسْتَخبِر عنْهُ كلَّ مُغْوٍ وَهَادٍ ، إلى أن قيل : إنه مُذْ دَخلَ عانةَ ، ما زايلَ الحانةَ .

٠ ٠ ٠

قوله : « نزجى » ، أى نسوق . الحُمولات ، بفتح الحاء : الإبل ، وبضمها الأحمال . الحُداة : خدَمة الإبل ، بمنزلة المكارين للدوابِّ . تحمى : تمنع . الكماة : الشجعان . يتعهّدُنا : يتفقّدنا . يستنجز : يطلب إحضار ما وعد به . عانة ، بعين غير منقوطة : قرية بالجزيرة كثيرة الأعناب .

وقال امرؤ القيس :

* مِنْ خَمرِ عانَةَ أو كُرومِ شِبامِ *[1]

وأطلالها : آثارها ، يريد أنه لمّا أشرف على عانة ، قال لهم : أعطونى ما أستعين به . المعلوم : الظاهر . والمكتوم : المستور . والمعكوم : المجعول فى عِكْمٍ ، قال يعقوب : العِكْمُ : نَمَطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتَها ، أو يكون المعكوم

(١) ديوانه ١١٥ ، وصدره

* أُنفٌ كلون دم الغزال معتّقٌ *

المشدّود بالعِكام ، وقد تقدّم آنفا . والمختوم : المطبوع عليه ، يريد : أريناه أنواع أموالنا . استخفّ : استحقر . الخِف : الخفيف . الهَيْن : الهيّن . حَلِيَ : حَسُن . الحَلْى : ما يتحلّى به النّساء . والهين : الذهب والفضة ، يريد أنه استحقر الخفيف القَدْر الهيّن القيمة ، مثل الإمتاع ، وشبهها فتركها ، وأعجبه الحلىّ والذهب لحملهما ، أو يكون معنى « استخفّ » وجده خفيفاً ، والخِفّ والهَين ، يريد الخفيف عليه حمله ، الهيّن عليه ثقله ؛ يريد الذهب والجوهر ، ويكون قوله « حَلِيَ بعينه » وما بعده مفسّراً ومؤكداً لاستخفّ وما بعده ، وهذا أشبه من الأول .

وقْره : حِمْله . ناء : نهض بثقل . خالسنا : سارقنا وتسلل عنّا . الطّرّار : الذى يشقّ الجيوب ويستخرج ما فيها ، والطّرّ : القطع ، وقد طر طَرًّا ، وطُرّة الشعر منه ، لأنها مقطوعة من جملته ، مفصولة عنه . والمنتهز الذى يخطف من يدك الشىء بسرعة . انصلَت : انسلّ ولم يشعر به . والانصلات : سقوط السيف من الغِمْد . والفرّار ، هو الزّاووق ، ويسمّى الزّئبق ، سمى فراراً لأنه سريع السَّيَلان لا يستقرّ فى موضع ، والفِرّار من كثر فراره . أوحشَنا : أذهب أنسنا . أدهشنا : حيّرنا . امتراقه : خروجه مسرعاً ، ومرَق السهم : خرج من القوس ، ومن الرميّة . ننشده : نطلبه . مغوٍ وهادٍ : مضلّ ومرشد . الحانة : بغير نقط : بيت الخَمّار أو حانوته ، والحان والحانة هى الدسْكَرة التى ذَكَر ، وقال ابن شهيد فيه :

يا رب حانٍ قد أدرت بديرِهِ ... خَمْر الصِّبا مُزِجَتْ بصفوِ خُمُورِهِ (١)
فى فتيةٍ جعلوا الزّقاق تكاءهُمْ ... متصارعين تخشّعا لكثيرِهِ
يُهدى إلينا الراح كُلُّ معصفرٍ (٢) ... كالخِشف خفّرَه التماحُ خَفيرِه

(١) ديوانه ١١٥ .

(٢) الديوان : إلينا الرّاحُ كلّ معصفرٍ

والَى عليَّ بِطَرْفِهِ وبكفِّهِ فأمال من رأسي لعَبٌ كبيرِهِ
وترنّم الناقوس عند صلاتهمْ ففتحتُ مِنْ عَيْنِي لرجع هديرِه

زايل : فارق .

* * *

فأغرانى خُبثُ هَذا القَولِ بسَبْكِه ، والانسلالِ فيما لَسْتُ مِن سِلْكِه ، فأدْلَجتُ إلى الدَّسْكَرة ، في هَيئةٍ مُنكَّرَةٍ ، فإذا الشَّيخُ في حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ ، بَينَ دِنانٍ ومِعصَرَةٍ ، وحَولَهُ سُقَاةٌ تبهَرُ ، وشُموعٌ تَزْهَر ، وآسٌ وعَبْهَرٌ ، ومِزمَارٌ ومِزهَرٌ ، وهُو تارَةً يَستَبدِل الدِّنان ، وطَورًا يَستَنطقُ الْعِيدان ، ودَفْعَةً يَستَنشِقُ الرَّيحَانَ ، وأُخرَى يُغازِلُ الغِزْلانَ . فلمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِه ، وتَفاوُتِ بينَ يَومِه من أمْسِه ، قُلْتُ له : أَوْلَى لَكَ يامَلْعُون ، أأنسِيتَ يومَ جَيْرُونَ ا فضَحِكَ مُستَغرِبًا ثم أنشد مُطرِبًا :

* * *

أغرانى : حَثَّنِي . سَبْكه : تجريبه . الانسلال : الدخول . سلكه : شكله ، وانسلكت حبة اللؤلؤ : جرتْ في السِّلك ، وهو خيط النظام . أدلجتُ : مشيت بالليل . الدسكرة ، بناء كالقصر حوله بيوت يسكنها الخمار والحشم ، قال الجعديّ :

ودَسْكرةٍ صوتُ أبوابِها كصوت المواتحِ بالحوأب[1]

(١) ديوانه ١٤ . الدسكرة : من بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي .

سبقتُ صياح فراريجهـــا ، وصوت نواقيسَ لم تضرَب
برَنَّةِ ذى عتبٍ شارفٍ وصهباء كالمسك لم تقطَب

المواتح : البكرات، والحوأب:اسم ماء الفراريج :الديوك عتب : أوتار . وشارف : اسم العَوْد ، شبّهه بالشارف من الإبل ، لأنها أغنّ صوتاً وأطربه ، قال متممّ :

إذا شارف منهنّ قامت فرجّعت حنيناً فأبكى شجوها البرك أجمعَا[1]

ممّصرة : مصبوغة بالمصرة ، وهى العصفر قبل أن يوضع فيه الخلّ ، فلونها أصفر ، فإذا وُضع فيها الخلّ احمرّ ما يصبغ به وسمّى معصفراً . والحُلّة : ثوبان : إزار ورداء، وسُمِّيتْ حُلّة ، لأنها تَحُلّ على لابسها كما يَحُلّ الرّجل على الأرض . دِنان : جمع دَنّ ، وهو نوع من الخوابى طويل الأسفل ضيّقه ، ويسمّى الراقود .

وهذه الحالة التى وَجَد عليها الحريرىُّ السّروجىّ بعد ذلك الترهّب الذى كان عليه فى أوّل المقامة لها نظائر لرجال مشاهير بالعلم والفضل .

* * *

[وصف بعض مجالس الشراب]

حكى الثعالبىّ فى يتيمته[2] ، وقد ذكر القاضى التنوخىّ فقال : هو أبو القاسم علىّ بن محمد بن داود بن فهم ، من أعيان أهل العلم والأدب ، وأفراد ذوى الكرم وحسن الشيم ، وكان كما قرأت فى فصل للصاحب : إن أردت فإنى سُبْحة ناسك ، أو أحببت فإنى تفاحة فاتك ، أو اقترحت فإنى مدرعة راهب ، أو اخترت فإنى نخبة شارب .

وكان تقلّد قضاء البَصْرة والأهواز بضع سنين ، وكان المهلّبى وغيره من وزراء العراق يميلون إليه جدًّا ، ويَعُدّونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ، يعاشرون منه مَنْ تطيب عشرته ، وتلين قشرته ، وتكرم أخلاقه ، وتحسن

(١) المفضليات ٢٧٠ . البرك : الألف من الإبل .
(٢) اليتيمة ٢ : ٣٠٩ .

أخباره ، وتسير أشعاره ؛ ناظمةً حاشيتي البرّ والبحر ، وناحيتي الشرق والغرب . وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلّبي ، ويجتمعون إليه في الأسبوع ليلتين ، على اطّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة ، منهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي[1] وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبيّ ، وإذا تكمّل الأنس ، وطاب المجلس ، ولذّ السماع ، وأخذ الطرب فيهم مأخذه . وهبوا ثوبَ الوقار للعُقار ، وتقلّبوا في أعطاف العيش ، بين الخِفّة والطيش ، ووُضع بين يدى كلّ واحد منهم طست من ذهب من ألف مثال مملوء شرابا ، فيغمس فيه لحيتَه ، بل ينقعها حتى تشرب أكثره ، ويرشّ بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم مصبّغات الثياب ، ومخانق البرم ، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر ، وفيهم يقول السريّ :

مجالس ترقص القضاة بهاَ إذا انتشوا في مخانق البَرم[2]

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهّب والتوقّر والتحفّظ وأبّهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء .

وقال في ابن معروف[3] : كان كما قرأته في فصل للصاحب : شجرة فضل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرها عقل ، وعُروقها شرف ؛ تسقيها سماء الحرّية ، وتغذوها أرض المروّة ، وفيه يقول الصابي :

---

(١) في الأصول : « الأندرجى » ، وما أثبته من اليتيمة .

(٢) البرم : نوع من الثياب ، وبعده في اليتيمة والديوان ٢ : ٣١٠

وصاحبٍ يخلط المجون لنا بشيمَةٍ حلوةٍ من الشيمِ

تخضب بالراح شَيْبَه عبثاً أنامل مثل حمرة العَنمِ

حتى تخال العيون شيبتَهُ شيبةُ عثمانَ ضرّجت بدم

(٣) هو عبيد الله بن أحمد بن معروف ، ترجم له في اليتيمة ٣ : ٩٤ — ٩٦ .

أقسمت بالله ما يرجى لمعــروفِ في الحادثات سوى القاضى ابن معروفِ

ومن شعر ابن معروف :

لو كنت تدرى ماالذى صنع الهوى والشّوق فى الجسم النّحيل البالى[١]

لهجرتَ هجرى واجتنبت تجنُّبى ووصلت مِن بعد النّعيم وصالى

وقال القاضى التنوخى فى غلام جسيم :

له فى كل عضوٍ دِعْصُ رَمْلٍ ثقيل الجسم ذو روحٍ خفيفِ[٢]

أأعشق لا عشقت أخا نحولٍ كأنى لست ذا الخلق الظّريف

إذا لمستْهُ كفّى لم تلامس سوى جِلْدٍ على عظم ضعيفِ

شرب[٣] المأمون وعبد الله بن طاهر ، ويحيى بن أكثم القاضى ، فتعامل[٤] المأمون وابن طاهر على سُكْرِ يحيى فغمَزا به الساقى ، فأسكره ، وكان بين أيديهم رِزَم من ورد وريحان ، فأمر المأمون ، فشق له قبرٌ فى الرِّزَم وصُيِّر فيه . وعمل بيتى شعر ، ودعا قَيْنة فجلست عند رأسه ، وغنّت بهما وهما :

ناديته وهو حىّ لا حَرَاكَ به مكفّنٌ فى ثيـابٍ من رياحينِ

فقلت: قم ، قال: رجلى لا تطاوعنى فقلت: خذ ، قال: كفى لا تواتينى

فانتبه يحيى لرنة العود فقال :

يا سيّدى وأميرَ الناس كلّهمُ قد جَار فى حكمه مَنْ كان يَسْقِينى

إنى غفلْتُ عن السّاقى فصيّرنى كما ترانى سليبَ العقل والدينِ

لا أستطيع نهوضاً قدْ وَهَى قدمى ولا أجيب لداعٍ حين يدعونى

---

(١) اليتيمة ٣ : ٩٦ . (٢) اليتيمة ٢ : ٣١٨ .

(٣) الخبر فى العقد ٦ : ٣٥٤ ، ونهاية الأرب ٤ : ٩٣ .

(٤) كذا فى الأصول ونهاية الأرب ، وفى العقد : فتغامز .

(٥) فى الأصول : « ردم » ، وصوابه من العقد . والرزم : جمع رزمة ، بالكسر ، عنى بها الطاقات .

فانظرْ لنفسك فى قاضٍ يكون لـكمْ   إنى غدوتُ دفيناً فى الرّياحين

* * *

والحالة التى وصف بها أبو زيد خَلَعتِ الأمينَ عن الملك، ونقلته إلى المأمون . قال الربيع : قعد الأمين يوماً للنّاس وعليه طيلسان أزرق ، وتحته لِبْد أبيض ، فوقّع على ثمانمائة قصّة ، فلقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ، ثم قال : يا ربيعُ أتراني لا أحسن التدبير والسياسة ، ولـكنى وجدتُ شمّ الآس ، وشرب الـكاس ، والاستلقاء من غير نعاس ، أشهى إلىّ . وكذلك خلعت قبلَه الوليد بن يزيد ، وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء ، ممّن آثر راحة النفس على تعب السياسة .

قوله: « تبْهر » ، أى تسقيه بالَبهار ، وهو شِبْه الإبريق ، وقيل : تبهر ، تغلب العقول بحسنها ، يقال: بهر بهراً ، إذا غلبه ، وبَهر القمر السماء : ملأها بنوره . تزهر : تضىء . شموع : مصابيح الشمع . آس : ريحان . عَبْهر : نرجس ، وقيل: ياسمين ، قال عَلِىّ رضى الله عنه : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « شمّوا النّرجس ولو فى اليوم مَرّة واحدة ، ولو فى الشهر مرّةً واحدة ، ولو فى الدّهر مَرّةً واحدة ، فإنّ فى القلب حَبّةً من الجنون والجذام والبَرَص ، لا يقلعها إلا شم النَّرجس» .

وقال علىّ رضى الله عنه : حَبَانى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالورْد ، وقال : « أما إنه سيّد ريحان الجنّة بعد الآس » .

وقال أردشير بن بابك : الورد دُرّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كراسىّ زبرجد أخضر ، بوسَطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ، ونفحات العطر .

[مما قيل من الشعر فى وصف الأزهار]

ونذكر هنا طرفا من المنظوم فى الأزهار يليق الموضع بحول الله تعالى ، قال محمد بن عبد الله بن طاهر ملمًّا بقول أردشير :

كأنهنّ يواقيتٌ يُطيف بها ... زمُرّد وسطه شذر من الذّهب
فاشرب على منظرٍ مستظرَف حَسَنٍ ... من خمرةٍ مُزِجَتْ كالجمر فى اللّهَبِ

وللمعتمد بن عباد :

كأنّما ياسمينُنَا الغضُّ ... كواكبٌ فى السماء تبيَضُّ[(1)]
والطرُق الحمرْ فى جوانبه ... كنهدِ عَذْرَاء مَسَّه عَضُّ

ولأبى الفضل الميكالىّ :

وما ضمّ شملَ الأنس يومًا كنرجسٍ ... يقوم بعذر اللهو عن خالع العُذْرِ
فأحداقه أحـــداق تبرٍ وساقُه ... كقامة ساقٍ فى غلائله الخُضرِ

ولعضد الدولة :

يا طيبَ رائحةٍ من نفحة الخيرِ ... إذا تمزق جِلْبابُ الدّياجيرِ
كأنما رُشّ بالماورد واعتبقتْ ... به دواخن نَدٍّ عند تبخيرِ
كأنّ أوراقه فى القدّ أجنحةٌ ... حمرٌ وصفر وبيضٌ من زنابيرِ

ولعلىّ بن بسام :

أما ترى الورْدَ يدعو للورُود على ... حمراء صافيةٍ فى لونها صَهَبُ[(2)]
مَداهنٌ من يواقيت مركّبةٌ ... على الزبرجَدِ فى أفواهها ذهبُ

وقال آخر :

نرجسة عينها محـــبّرةٌ ... لم تكتحل قطُّ آفة الغمضِ

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ ، وانظر ديوان المعانى ٢ : ٢٣
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ ، ونسبها إلى ابن طاهر ، وفيه : « إلى خمر معتقة »

باكرها الطّلّ فهى باهتةٌ تنظر فعل السماء فى الأرضِ

وللأسعد بن بليط :

بنفسجٌ باتت أكفّ الصبا تنثره فى زرقةٍ لا تُجَحَدْ
كأنما قُطّ بمنثوره رءوس أقلام من اللازَوَردْ

وقال آخر فى نَوْر الباقِلاّ :

نوّارَة الباقِلاّ إذا راق منظرُها تَحكى الفراشَةَ تنقيطاً وتريشاً
كأنّما هى ما حول الذبالة إذْ مَدّت جناحاً كان الكفّ مرقوشاً

والباب كثير .

* * *

قوله : «مزهر» عود الغناء . يَستَبزل : يستسقى منها شرابا ، والمِبْزَل الثقب فى جانب الخابية تجرى منه الخمر صافية ، ويبقى العكر فى قعرها ، قال الأخطل :

لما أتَوْها بمصباح ومِبزَلِهِمْ سارتْ إليهم سئورَ الأبجل الضارِى [1]
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفةٍ وفى الزّجاج عتيقٌ غير مسطارِ [2]

أراد أن الخمر خرجت خروج الدم من الأبجل ، وهو عرق .

وقال ابن حصين :

حجبتُ عنها الدّنّ فاستعبرت جرياً كما قوّس إحليلُ

(١) ديوانه ١١٨ ، وسارت : سمت إليهم والضارى : العرق الذى بدأ منه الدم ، والأبجل عرق يكون فى الدواب ، وفى الناس يسمى الأكحل .
(٢) الجائفة : الطعنة التى تصل إلى الجوف . والعتيق الخالص . والمسطار : الحديث .

كأنها فى الكأس منصبّةً خيط من الفضة مفتولُ

وقال آخر فى قمع الشراب :

ولما رأى الناس فضل المدام وخافوا على جُرْمِها أن يسيلاَ
تواخوْا إلى شربها بينهمْ سبيلَ حفاظ فكنت السَّبيلا

قوله: « يستنطق » ، يأمر بضربها ليُسمع صوتَها يستنشق: يشَمّ . يغازل : يلاعب . عَثَرت : اطّلعت ، وأعثرت فى معناه . لَبسه : تخليطه . تفاوت : تباعد . أولى لك : كلمة تهديد معناها : قد وليك الشرّ فاحذر .والملعون : المطرود ، ولعنه الله : طرده ، والاستغراب : الضحك الكثير .

ومما يوافق شعره وحاله قول الببغاء[1] :

غادِنى بالصَّبُوح قبل الصَّبَاح واجرِ فى حلبة الصِّبا والمِراح[2]
عاصِنيها كالجلّنار إذا مَا كُلِّلَتْ من حَبابها بالأقاحِ
فى اختصاصِ التّفاح بالطيب والحُمْـرةِ لاَ فِى كثافةِ التّفاح
خَدَمَتْها الأجسام بالطبع لمّا شاهدتْ قُرْبَها من الأرواح
فتدارك بهـا حُشاشة نفسى أو فحرّك بها سكونَ ارتياحى
بين وردين من بَنَانٍ وخدٍّ وشرابين من رُضابٍ وراحِ
ونشيد مُسْتَنْبَطٍ من حديثٍ وغناء يُغْنِى عن الإقتراح
فألذّ الحيـاة ما خالط المـا قلُ فيها فسادَه بصلاح

وله أيضا فى مثله :

زَمَنُ الورد أشرف الأزمانِ وأوَانُ الربيع خير أوانِ[3]

---

(١) هو عبد الواحد بن نصر ، المعروف بأبى الفرج الببغاء ، وذكره وشعره فى اليتيمة ١ : ٢٠٠ ــ ٢٣٤ .
(٢) اليتيمة ١ : ٢٢٦ .
(٣) اليتيمة ١ : ٢٢٨ .

أشرفُ الزهر زارَ فى أشرف الدّهـــر فَصِلْ فيه أشرف الإخوان
وأدرها عَذْرَاء وانتهـز الا إمكان من قبل عائق الإمكان
فى كئوسٍ كأنّهـا زَهَر الخَشْـــخاشِ ضَمَّت شقائقَ النّعمان
واختدعها (١) عند البُزال بألفا ظ المثانى ومطربات الأغانى

وقال [ابن](٢) وكيع فى الخشخاش :

وخشخاشٍ كأنّا منه نفرى قميص زبرجدٍ عن جِسْمِ دُرِّ (١)
كأقداحٍ من البلَّوْر صِيغتْ بأغشيةٍ من الديباج خضرِ

وقال آخر فى شقائق النعمان :

كأنّ الشقائق إذ برّزت غلالةُ دُرّ وثوباً أحمّ
قصاع من الجمر مشبوبةٌ بأوساطها لُمَعٌ من حُمَمْ

* * *

لَزِمْتُ السِّفَارَ وَجُبْتُ الْقِفَارَ
وَعِفْتُ النِّفـارَ لِأجْنِى الْفَرَحْ
وخُضْتُ السُّيُولَ وَرُضْتُ الْخُيُولَ
لجـرِّ ذيولِ الصِّبـــــاَ وَالْمَرَحْ
ومِطْتُ الْوَقارَ و بعْتُ العَقـارَ
لِحَسوِ الْعُقـارِ ورَشْفِ الْقَدَحْ

(١) كذا فى ا ، ب ، وهو يوافق ما فى اليتيمة ، وفى ط : « اجترعها » . وفى اللسان : بزاله الخمر وغيرها بزلا : ثقب إناءها ، واسم ذلك البزال » .
(٢) تكملة من ا ونهاية الأرب ١١ : ٢٦ .

ولَوْلا الطِّمَاحْ إلَى شُرْبِ رَاحْ
لَمَا كانَ باحْ فَـي بالمُـلَحْ

* * *

ر»:مصدر سافرت .جُبْت: قطعت . عِفْت : كرهت.خضت:
ا . رُضْت:ذَلّلت وركبت .المرَح :النشاط والعجب .مِطْت :
يقال : ماط وأماط : باعد ، وأيضا باعد غيره ، والأصمعيّ
وأماط غيرَه . العَقَار : المال الثابت الذى لا يُنقل . حَسْو :
لخمر . رَشْف : مَصّ. الطِّماح : ارتفاع النظر . باح: تكلَّم.
الحلو ، يريد أنه فعل ما ذكر ليرتاح ويشرب الخمر .

* * *

رد فى الخمر والشراب من الشعر والحكايات]
الحريرى فى هذا الموضع من المقامات أوصافَ الخمر وفضلها
ا بالهموم والأسقام ، وذكر أنها من أفضل الأشياء وأن بيع
نها سداد ، وأن ترك الإصغاء فيها إلى العذل رشاد ؛ وأن كال
لحسان ، والتَّطريب بأنواع الغناء والألحان ، إلى غير ذلك مما
عليه ، وأنا أسوق هنا فى وصف الخمر فصلا من كلام الحكماء
أفاضل من الملوك ومهرة الشعراء ،جريا معه فى أغراضه، حسبما
فى أوصاف الغلمان ، وفى الحادية عشرة فى فضائل أهل الأديان،
هذا الفصل على اختيارات انتقيتها من كتاب قطب السرور [1] ،
يلائمها من غيره ، وهو فصل بديع فى بابه .
منافع الخمر وفضائلها قول الله تعالى: ﴿ومِنْ ثمرَاتِ النَّخِيلِ
ونَ مِنْهُ سَكَرًا ورِزْقًا حسنًا﴾ [2] وقال تعالى فى الجنة: ﴿فيها أنهارٌ

ور لأحمد بن القاسم المعروف بالنديم ، ذكره صاحب كشف الظنون ،
السنة ٣٤٠ .

من ماء غير آسن وأنهارٌ من لَبنٍ لم يتغيَّر طعمُه وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين * وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾(١) فلم يذكر الماء واللبن إلا بالسّلامة من التغيّر، والعسل إلا بأنه مُصَفًّى، وجعل الخمر لذَّة للشّاربين، فكان هذا من التفضيل. وقال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بأكواب وأباريقَ وكأسٍ مِنْ مَعِينٍ * لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفُون ﴾(٢) ، فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، وهي ذهاب العقل بالسكر والصداع بالخُمار وذهاب المال، كما قال تعالى في فاكهتها: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ﴾(٣)، فنفى عنها عيوب فاكهة الدنيا التي تأتي في وقت وتنقطع في آخر وتمنع إلا بالثمن، وقال تعالى: ﴿ويُسْقَوْنَ فيها كأسًا كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلاً﴾(٤).

وأما ماذكره تعالى من أنَّ فيها منافع للناس، فإنَّ منافعها لا تحصى كثرة، فمن منافعها مايصيب النَّاسَ من أثمانها، ولو لم تعصر الأعناب لبارت على أهلها. ومنها صلاح الجسم لأنها تروِّق الدم وتَفْتِق اللسان، وتزيد في الهِمَّة، وتهوّن الرزيّة، وتمدّ في الأمنية، قال جالينوس: الخمر تدرّ الدم وتصفِّي اللون، وتقوّي المَعِدة، وتبعث النشاط. وقال أفلاطون: إنما كان النبيذ يثمر السرور، ويولِّد الضحك، ويطيِّب النفس لشبهه بالدم، وأنّه يفعل في الجسد إذا اعتدل فعله، لأنه أحمر حارٌّ رطب والدم أحمر حارٌّ رطب، فإذا صحّ جوهره، وتمّت أجزاؤه ولَّد في النفس السرور والضحك والنشاط.

الحارث بن كَلَدة، طبيب العرب: الطِّلاء(٥) مصلحة للبدن ومطيبة للنفس، تفتح له العروق أفواهها، كما تفتح الفراخ أفواهها للطعام.

---

(١) سورة محمد ١٥، ١٦.
(٢) سورة الواقعة ١٨، ١٩.
(٣) سورة الواقعة ٣٢، ٣٣.
(٤) سورة الإنسان ١٧.
(٥) الطلاء، من أسماء الخمر.

بعث قيصر إلى قُسّ بن ساعدة ، فسأله : أيّ الأشربة أفضل ؟ فقال : ماصفا في العين ، ولذّ على الذوق ، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرْم ، قال: ما تقول في مطبوخه ؟ قال : مرعًى ولا كالسَّعدان ، قال : فما تقول في نبيذ الزبيب ؟ قال : ميّت أُحْيِيَ[1] ، وفيه بعض المنفعة[2] ، وما يكاد يَحْيا من مات مرّة ، قال: ما تقول في نبيذ العسل ؟ قال : نِعْمَ شراب الشيخ للإبردة[3] والمعدة الفاسدة[4] .

قال : فنبيذ التمر ؟ قال : أوساخ تدعو إليها ضرورات تُذَمّ عاقبتها في الأبدان ، قال : فما الذّى يذهب بالهموم عند الشراب ؟ قال : جوهر فيه لا تبلغه عقول العباد ، قال : فما أصلحُ أوقات الشراب ؟ قال : أوّل النهار ، ألا ترى أنّ الدواء يبكَّر به ، والمسافر يُدْلِج لحاجته ! لأنّ العقول أول النهار أذكى والفطن أصحّ ، قال : فمِنْ أيّ شيء يكون الخُمار ؟ قال : من ضعف قوة الجوارح عن جذب مايصعد إلى الدماغ من البخار حتى يغشّيه الهواء قليلا قليلا ، قال: فالصِّرف أفضل أم الممزوج ؟ قال : الصِّرْف سلطان جائر ، والممزوج سلطان عادل ، والعادل مصلح ، والجائر مفسد ، قال : أفتشرب به أنت ؟ قال : نعم ، ولا أبلغ ما يغيّر عقلي ، قال : ولم ؟ قال : أصونه لسؤال مثلك[1] .

أمر الوليد بن يزيد بحمل ابن شراعة من الكوفة ، فلما قدِم عليه ، قال : يا بن شراعة ، والله ما أرسلت إليك ، لأسألك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه ، قال : يا أمير المؤمنين لو سألتنى عنهما لوجدتنى حِمارًا ، قال : أرسلت إليك أسألك عن القهوة ، قال : دِهْقانها الحكيم وطبيبها الرفيق العليم ، فاسأل عمّا بدا لك ، قال : فأخبرنى عن الماء ، قال : لابدّ لى منه والكلب والحمار شركائى فيه ، قال: فما تقول في اللبن ، قال: ما رأيته إلا استحييتُ من أمى لطول ما أرضعتْنِي إياه ،

---

(١) ط : « أحيا » ، وصوابه من ا والعقد .

(٢) العقد : « المتعة » .

(٣) الإبردة ، بكسر الهمزة والراء : علة من غلبة البرد والرطوبة .

(٤) إلى هنا ما أورده فى العقد ٦ : ٣٣٦ .

قال : فالسَّويق ؟ قال: شراب المحرور والمعجلان والمسافر ، قال: فنبيذ التمر ؟ قال : سريع الامتلاء ، سريع الانفشاش ، قال : فما تقول فى نبيذ الزبيب ؟ قال : حومة حاموا بها على الشراب ، فلم يصيبوه ، قال : فما تقول فى الخمر ؟ قال: تلك صديقة رُوحى ، جلتّ عن المثل ، تلك التى تزيد النفس إشراقاً ، قال : فأنت يا بن شراعة صديقى ، اجلس ، أىُّ الطعام أحبُّ إليك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم ، غير أن أنفعَه أدسمُه وأشهاه أمرؤه ، قال : فأىّ المجالس أحبُّ إليك أن يكونَ شربنا فيه ؟ قال: ما لم تخفِ الشمسُ أن تحرقه ، أو السماء أن تغرقه ، ولا تشرب إلاّ على وجه السّماء ، فوالله يا أمير المؤمنين ما نادم الناس أصبح من وجهها ، قال : فابرز بنا . فلم يُرَ بعد ذلك يشرب إلا تحت السماء[(١)] .

كان أبو السّائب فقيهاً وَرِعاً ظريفاً فسأله بعضُ المجّان ، فقال: يا أبا السائب ما تقول فى نبيذ الجَرّ[(٢)] ؟ قال: اشربْه حتى تَجُرّ . قال: فنبيذ الدّنّ ، قال : اشربْه حتى تجنّ ، قال : فالدّاذى[(٣)] ؟ قال : أحلى من العسل الماذِى ، قال: فنبيذ الزبيب والعسل ؟ فرفع يديه ، وقال : العظمة لله ، قال: فما تَقول فى الخمر ؟ قال: لا أشربها قال : ولم ؟ قال : أخاف ألاّ أؤدِّىَ شكرها فتنزع منى .

قيل لأبى نواس : صف لنا الأشربة ، قال : أمّا الماء فيعظم خطرُه بقدر تعزّزه ، وأمّا السويق فبلْغة المعجلان ، وروىّ الظمآن ، وأمّا العسل فنبيل المنظر ، سخيف الخبر ، وأمّا الخمر فهى شقيقة الرُّوح وصديقة النفس ما ارتُضعت ممزوجةً ، وصِرْفها غير مأمون على نَهْك البدن وغَرْس السّقَم المؤدّى إلى العطب .

قالت الهند : إنّ الشراب مبارك ، يزيد فى الدّم بحرارته ، ويكسر البلغم

---

(١) الخبر فى نهاية الأرب ٤ : ٩٣ ، والعقد ٦ : ٣٣٦ .
(٢) الجر ـ جمع جرة ، وهى الإناء من الخزف .
(٣) الداذى : شراب معروف بكثرة إسكاره ، وفى العقد : أحسن من النساء » .

بجدته ، ويشهى الطعام بلطافته ، وأما السكر فحرّم فى كلّ ملّة ، وسبيلٌ من سُبُل الضلالة ، واسم من أسماء الوسْوَسة ، قبيح الأفعال ، مذموم الأحوال .

وقالت الحكماء : من فضائل الشراب؛ أنّ كل مشروب وإن راق وصفا وحلا وعُذب ، فأوّله طيّب ، ثم يعود فى نقصان حتى يعود مكروها إلا الشراب، فإنك كلما ازددت منه ازددت فيه رغبَة وحبًا ، وكان أوسطه إليك أعجبَ، وآخره أطرب ، حتى إذا سرا فى العروق برقّته ، وعمَّ البدن بلطافته ، ودبَّ فى الأعضاء والمفاصل دبيب النمل فى نَقَا الرمل ، وخادع عقلك فامتلأتَ بهجة وسروراً، وعدت ملكا محبوراً ، تضرب فى الخلافة بأوفر سهم ، ثم أسلمك إلى النَّوم الذى هو حياتُك وصحّتك ، فاجتذبت النفس ما شاكلها من لطيفه ، وأخذ كلّ عضو قوّته من كثيفه ، ثم لا يزال الهواء يخرج بالأنفاس متصعِّداً ببخاره ، ويجذِب ما تحت الدماغ من أستاره ، فحينئذ تهبّ بجذَل ونشاط، كأنما أنشِطت من رباط ، وذلك تقدير العزيز العليم .

وقالوا : الشراب مصباح الظَّلاَم ، وشفاء الأسقام ، وإذا تمشّى فى عظامك جعلك خالىَ الذّرْع ؛ فسيح الباع ، رخىّ البال ، قليل الاشتغال ، رَحْب الهِمَّة، واسع النعمة ، فهو أخو الصبوة ، وقسيم الشهوة ، ولو لم يكن من منَنِه عليك إلاّ أنه إذا مزجته بروحك ، وخالطته بدمك، بغّض إليك الحرص ونصبَه ، والشَّرَه وتعبه ، وحبّب إليك المروءة والسماح ، وحسَّن الك الفكاهة والمزاح .

وقالوا: الشراب يلذّ لك فى السفر كلذته فى الحضر ، ويطيب استعماله فى الصحو، كما يطيب فى المطر ؛ فهو أصل اللّذات الذى عليه تتفرَّع،وعنصرها الذى عنه تنبع ، وبه تتصل ،وإليه ترجع، يردّ الشيوخ فى طمع الشبّان، ويدعو الشبّان إلى نشاط النشوان ، وقال أبو نواس فى ذلك :

ما العيش إلا في جُنون الصِّبا   فإن تولّى فجنونُ المُدامْ
راحٌ إذا ما الشيخ والَى بها   خمساً تردَّى بِرداء الغلام

فلله درُّ مَن استنبطه ودلّ عليه ، وسقياً لمن بحث عنه واهتدى إليه ، ماذا آثار وأىّ شيء أظهر !

قالوا: ومدار قَوامه على اثنى عشر شيئاً : المواد الثلاث ، والقوى الأربع ، والحواس الخمس . فالثلاث : هي نسيم الهواء ، وعذوبة الماء ، ومألوف الأهواء . والأربع هي القوة الجاذبة التي تطيّب الطعام وتبرّده ، والماسكة التي تمسكه وتجذبه ، والهاضمة التي تهديه وتنضجه ، والدافعة التي تدفع إلى كلّ عضو سهمه من جوهره ، فتخرج عنه ثقله ، والحواس الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس . وكلّ شيء من ذلك تدخله الزيادة والنقص فلا يستغنى عمّا يقويه في حال ضعفه ، ويصفّيه من أوساخه ، فلم يجد أهل التجارب الماضون لذلك سبباً أَبيَن أثرا ، ولا أخفّ محملا ، ولا ألطف دبيبا في الأبدان من ماء الكرم ، فاستعملوه لذلك استعمالا دائماً ، فهو ريحانة النفس وترياقها ، فيُشرب في كل حين ، وينفع كل حاسة ، وتحيد عنه النوازل والأحزان ، وحُقّ للنَّفْس[1] أن تألفه ، وللطبيعة أن تلائمه ؛ إذ كان حبيبَها وشقيقَ روحها ، فتراه يحدث في النفس الشجاعة والتكرّم والأناة والتحلّم .

ومن علامات الكريم إذا أخذ فيه الشراب الاستحياء والتودّد واللهو والسرور والبذل لما في يديه ، وكسوة جليسه من أنفس ثيابه ، وإذا بلغ المدَى في شربها توسّد يسارَه ، ونام حميداً كريماً .

ومن علامات اللئيم المماراة والسَّفَه ، وقَتْل الشارب والتلفّت إلى العربدة وشدة الغضب ، وربما بكى وعوى عُواء الذئاب ، ونَبَح نُباح الكلاب ، فشرْب الماء يحرُم مع مثل هذا ، فكيف الشراب !

(١) ط : « النفس » ، وماأثبته من ا ، ب .

ومن فضائله أنه يلائم الطبائع المعتادة في كلّ زمان من فصول السنة ، يشربه المحرور ممزوجاً فيبرده ، والمقرور صِرْفاً فيسخّنه ، واليابس معتدلاً فيرطّبه ، والمرطوب صِرْفاً فيجفّفه ، فمن شربه في الصيف فيستحبّ له أن يشربه على خضرة الجنان وتحت الظلال ، وعلى المياه وعلى الورد والياسمين والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح . وإن كان في الشتاء ، فبخلاف ذلك ، من الجلوس في الأكنان واستعمال الكوانين، ولبس الأحمر والمُمَشّق [1] وشمّ فَتِيت المسك والعنبر والمرزنجوش [2] .

وأمّا الربيع والخريف فبين ذلك، لأخذها من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف. وإذا اجتمع مع الشراب نغم وألحان على صنوف الملاهي والعيدان ، تعاونا على إذهاب الغموم والأحزان ، فلله درّ من استنبطه ، ماذا أثار وعلى أيّ شيء دلّ !

ولو لم يكن الشراب أغلبَ شيء على العقول ، وأقربه للقلوب، وألطف محلا في النفوس ، وأشدّ ملاءمةً للأجسام ، وأجمعه لمحمود الخلال حتى لا تقاربه لذة ، ولا تساويه شهوة ، ولا تعدله خصلة من خصال المسرّات - لما تحملت الأشرافَ وذوى العقول أنفُسهم على معاقرته ، لا يردّهم ما ينالهم فيه عن معاودته ، من شنيع الأقوال ولوم العذّال، فيما أنفقوا عليه من الذخائر ، وبذلوا من الأموال .

كان بالبصرة رجل ذو ضياع فأنفق ماله في الشراب ، فباع ضيعته ، فلمّا تمّ البيع قال له المشترى: تأتيني بالعشيّ ، أدفع لك المال ، وأشاهدك ، فقال : لو كنتُ ممّن يرَى بالعشيّ ما بعت الضيعة .

قال محمود بن الحسن الكاتب : بعت داري فأصابني مثل هذا ، فقلت :

---

(١) الممشق : المصبوغ ، وفي ف : « الممثل » ، وما أثبته من ا ، ب .

(٢) المرزنوش - ويقال المردقوش ، معرب « مرد كوش » : الزعفران .

أَتْلفتُ مـالِى فى العُقـارِ وخَرَجْتُ فيها عن وَقَارِى[١]
حتّى إذا كُتب الـكتـا ب وجاءنى رسل التّجار
قالوا : الشّهـادَةُ بالعَشِىّ ونحـنُ فى صَــدْرِ النّهـارِ
فأجبتهمْ رُدُّوا الـكتـا ب ولا تُعنُّوا بانْتظَارِى
لوْ كنت أظهر بالعشىّ لمــا سمحـتُ ببيــع دارِى

وقال ابن الرومى :

أنا أهوى ذاتَ الخمار على الجيــب وذاتِ الوِشاح والدُّمْلُجَيْنِ[٢]
وأرى فى النّبيذ رأىَ صوابٍ لشيوخ العراق والـكوفتَيْنِ
وإذا ما الغنـاء خاض ذوو الألبَــاب فيه اعتصمت بالحَرَمَيْنِ
كُلّما جاءت الرّخَائِصُ فيـه[٣] كان أخذِى له بكلتا اليـدين

وقال العَطَوىّ :

جارةٌ لى أجارها الـــحسْن من كلِّ عائبْ[٤]
فهى بين النّساء كالـــبدر بين الـكواكبْ
سألَتْنى هـل النبيــذ حـلالٌ لشـاربْ ؟
قلت : إى والّذِى يُرِيــنيكِ دُونَ الرّقَائبْ
فاشربيـه فإن فيــه لإحدى العَجَائبْ
يُنْبِتُ الورد فى ريا ض خدود الْـكَوَاعِبْ

---

(١) ط : « عقارى » ، تصحيف .
(٢) الدملج : المعضد .
(٣) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه .
(٤) ا : « غائب » .

ولبعض المتقدمين :

منْ ذا يحرّم ماء المُزْن خالطَهُ ... فى جوف خابيةٍ ماء العناقيدِ [(١)]
إنى لأكره تشديد الرّواة لنا ... فيها ويعجبنى قولُ ابن مسعودِ

وقال ابن الرومى :

أحَـلَّ العِراقىُّ النبيذ وشربَهُ ... وقال: الحرامان المدامَةُ والسُّكْرُ [(٢)]
وقال الحجازىّ الشرابان واحِدٌ ... فحلّت لنـا بين اختلافهما الخمرُ [(٣)]
سَـآخذ مِنْ قوْليهما طرفيْهِمَا ... وأشربها حِلاً وللوَازِرِ اوزْرُ [(٤)]

خرج [(٥)] الحسن بن هانىء ، ومعه مُطَيط صاحبه ، حتى أتيا دَيْرَ خَمّار ، فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نتَمَاجن على هذا [(٦)] الخمّار ، فدخلا فسلّمَا ، فردّ عليهما السلام ، فقال له الحسن : أعندك خمر عتيقة [ياخمار] [(٧)]

قال : عندى منها أجناس ، فأىّ جنس تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

حُجِبَتْ خيفةً وَصِينَتْ نجاءً ... كجِلاء العروسِ بَعْد الصِّيانِ
وكأنّ الأكفَّ تصبـغ من ضو ... ءِ سَنَاها بالوَرْسِ والزَّعْفَرَانِ

فملأ له الخمّار قدحاً من خمرة صفراء ، كأنها ذهب محلول ، فشربه

(١) العقد ٦ : ٣٦٨ ، الأشربة ٤٩ .
(٢) مختارات البارودى ٣ : ٦٨ العراق : يعنى به الإمام أباحنيفة . والنبيذ : مانبذ من عصير ونحوه .
(٣) الحجازى : المنسوب إلى الحجاز ، ويعنى بذلك الإمامين مالكا والشافعى .
(٤) مختارات البارودى . « وأشربها لأقارن »
(٥) الخبر والشعر فى نهاية الأرب ٤ : ٩٨ ، ٩٩ .
(٦) نهاية الأرب : نمزح بهذا الخمار .
(٧) من نهاية الأرب .

الحسن ، وقال: أحسن من هذا أريد ، فقال له الخمّار :من أيّ جنس تريد؟ قال : التي يقول فيها الشاعر :

رقّقتْها أيدى الهَوَاجِرِ حتّى صيّرتْ جسمَها كجِسْمِ الْهَوَاءِ
فهي كالنور في الإناء وكالنّا رِ إذا ما تصير في الأحشاء

فملأ له الخمّار قدحاً من خمرة كأنها العقيق ، فشربه ، وقال : أرفع من هذا أريد ، قال:أي نوع تريد ؟ قال :التي يقول فيها الشاعر :

فإذا حَسَا مِنْها الوضيع ثلاثةً سَمُح الوضيع كفعل ذى الْقَدْرِ
فى لونِ ماءِ المزن[1] إلا أنها بين الضّلوع كواقِدِ الجمْر

فملأ له الخمّار قدحاً من خمرة بيضاء ، كأنها ماء المزن ، فشرب الحسن ، وقال للخمّار : أتعرفنى ؟ قال : إى والله ياسيّدى ، أنا أعرفُ النّاس بك ، قال : فمن أنا ؟ قال : أنت الذى يَسْكَر[2] من غيرَ وزْن ، فضحك الحسن ، وقال لطيط : ادفع إليه ما معك من النَّفَقة ، فأعطاه مائة درهم وانصرف[1] .

وقال أبو عثمان الناجم : دخلتُ على أبى العباس عبد الله بن المعتزّ ، وهو مخمور طيّب النفس ، فقال: يا أبا عثمان ، أنشدنى ما شئت حتى أعارضَك بأحسن منه أو مثله ، فأنشدته لأبى نواس :

وعاشق دَنِفٍ نبّهتُه سَحَراً فقام للرّاح والتذْكار مصطبحاً
ودارتِ الخمر من صَهْبَاء صافيةٍ فما احتسى قدَحاً حتى بكى فرَحا

---

(١) نهاية الأرب : « ماء الغيث » .
(٢) كذا فى نهاية الأرب . وفى الأصول : « سكر » .

ففكّر ساعة، وضحك وقال:

وقهوةٍ كشُعاع الشمس صافيةٍ مثل السَّراب ترى فى قعره شَبَحا
إذا تعاطيتَها لم تَدْرِ من لَطَفٍ راحاً بلا قدَحٍ أعطيتَ أم قدَحا

وقالوا: ما دَرَا رِيع الخزّ والسُّمور بأدفأ من الشراب للمصرور والمقرور[1].

وقال بعضهم: كنت فى متنزَّه لى، وإذا شيخ منبخ على عَلْوة معه صبيّ فى يوم بارد، فكنت أسمع الصبيّ يقول للشيخ: أعطنى فَرْوَتى، فيناوله شيئاً لا أتبيَّنه، فبعثت غلامى ينظر إليه. فإذا عند الشيخ قنّينة، كلمّا طلب الصبيّ فَرْوَتَهُ سقاه قدحاً.

قال: وأنشدوا للهُدْهد الأصبهانىّ:

إنّا أناسٌ حَسَنٌ ديننا لبيعنا الآجلَ بالعاجلِ
إذا شربْنا خمسةً خمسةً فقد لبسنا الفَرْوَ من داخلِ

وقال عمرو الضبابى:

أعْدَدَتُ للَيل إذا الليل بَرَدْ خابيتين من طِلاء قد رَكَدْ
* فتطرد الهمَّ وتكفيك الصَّرَد *

وقال آخر:

إذا هبّت الأرواح فاجْعل دثارها إذا التحف الأقوامُ دُكْنَ المطارفِ
ثلاثة أرطالٍ شراباً معتّقاً تكنْ آمناً منْها ولست بخائفِ
فإنّ دثار المرء من تحت جِلْده أخَفُّ وأدْنَى منْ دثارَ الملاحِفِ

(١) المصرور، من الصر، بالكسر، وهو شدة البرد والمقرور، من القر، بالضم وهو البرد أيضا.

قال الجاحظ : جاءتْ عجوزٌ من العَرب إلى فتيانٍ يشربون ، فسقوْهَ قدحاً فطابت نفسها ، ثم سَقَوْهَا آخر فاحمرّ وجهها وضحكت ، ثم سَقَوْهَا قدحاً ثالثاً ، فقالت : خبرونى عن نسائكم بالعراق ،أيشربن من هذا الشراب ؟ قالوا : نعم ، قالت : زَنَيْنَ وربِّ الكعبة ، والله لايدرى أحدكمُ مَنْ أبوه [1] .

وسُقِىَ أعرابىٌّ قدحاً من شرابٍ ، ولم يكن يعرفه ، فحرّكته الأريحيَّة ، فسألوه عنها ، فقال : والله ما أدرى ماهى ! غيرأنّى أراكم تحبَّبون إلىَّ وأرانى أسرّ بكم ، وماوَهَب إلىّ أحد منكم شيئاً.

ومرَّ أعرابىّ بقوم يشربون ، فدعوه ، فنزل وعقل بَعيرَه . وشرب معهم ، فلمَّا أخذ منه الشراب ، قام إلى بعيره فنحَره ، وشوى لهم من كَبِده وسنامه ، ثم رفع عقيرته يتغنَّى :

عَلِّلانى إنما الدُّنيا عِلَلْ واسقيانى ، عَلَلاً بَعْدَ نَهَلْ
بادرَا باللَّهو يوماً صالحا ودعانى من عتاب وعَذَلْ
وانشلا ما اغْبَرَّ من قِدْرَيكُما واسقيانى أبعـد الله الجمل

وقال إسحاق الموصلىّ : سقيت أعرابيّاً نبيذا ، فقال : ما على هذا شىء ، يُطَيِّبُ النفس ، ويطرد الحزن ، ويمنِّى الخير، ويَعِدُ الغنى ، ثم أنشأ يقول :

ألاَ خُذهَا كماء الزَّعْفَرَانِ رَمَتْها بالنُّحول يدُ الزَّمَانِ
تصوغ إذا علاها الماء طَوْقاً من الياقوت فُصِّلَ بالجُمَانِ
وتترك مَنْ أرادالشرب منها صحيحَ الجسم مُنْكَسِرَ اللِّسانِ
كأنَّ الشمس طالعة بكَفِّى إذا أخذتْ زجاجتَها بنانى

ومرّ الفرزدقُ بالحكم بن المنذرِ بن الجارود ؛ فاستسقاه ماء ، فقال : هلاَّ

(١) حلبة الكميت ١٢

لبناً يا أبا فراس؟ قال : ذلك إليك ، فملأ له عُسًّا من خمر ، وأمر فحُلِبَتْ عليه لَقْحة ، فصعدت الرَّغوة فوق الشراب، وأتاه به ، فشربه حتى صَكَّ بالعُس جَبهته، وانتفخت أودَاجُه ، واحمرَّت عيناه ، فمسح سِبَاله ، وقال : جزاك الله خيراً ، فإنك مازلت تُخْفِي الصَّدَقَات و نِعمّا هي !

ودخل الأخطل على عبدالملك ، فقال : ليت شعرى ، ما يعجبك من إدمان الخمر ، وأولها التقطيب والكراهة ، وآخرها السُّكر والسفاهة ! فقال : ولكن بينهما حالة ما يسرُّني بها مُلكك ، هذا نظمه الشاعر ، فقال :

إن يكُنْ أول المدام كريهاً   ويكن آخر المدام صُدَاعَا
فلها بين ذا وذاك هنـاةٌ   وصفُها بالسرور أنْ يُسْتطاعَا

وأنشد ابن قتيبة لأبى محجن الثقفى :

إذ متُّ فادفنِّى إلى جنب كرمةٍ   تروِّى عظامى بعد موتى عروقها(١)
ولا تدفنَنِّى بالفـلاة فإننى   أخاف إذا ما مِتّ ألاَّ أذوقها

قال : فأخبرَنى مَنْ رأى قبره بإرمينيّة ، أنه بين شجرات الكروم، والفتيان يشربون عندها ، وينشدون شعره ، وإذا جاء قدحه صبُّوه على قبره .

ومنع عمر بن الخطاب رضى اللهعنه أهلَ الشام شربَ الخمر . فقال شاعرهم:

ألم تَر أنَّ الدَّهْرَ يعـثُر بالفَتَى   ولا يملك الإنسانُ صَرْفَ المقادِرِ
صبرتُ ولم أجزعْ وقدمات إخوتى   وما أنا عن شُرْبِ المُدام بصابِرِ
رَماها أمير المؤمنين بحتفِها   فخِلاَّنُها يبكون حَوْل المعَاصِرِ

ورأى ذؤيب السلمى خمرا أهراقها السلطان ، فقال :

يا لقومى لِمَا أتى السلطانُ   لا يكن للذى أهانوا هوانُ

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ٩١ ، والعقد ٦ : ٣٥٠ والأشربة ٢٤ .

سكبوا في التراب من حَلَبِ الكَرْ   مِ عُقاراً كأنها الزعفران
سكبت في مكان نحسٍ لقد صا   دف سَعْدَ السُّعُود ذاك المكانُ
كيف صبري عن بعض نفسي وهل يص   بر عن بعض نفسه إنسانُ !

ولما أنهمك الوليد بن يزيد في الشراب والتبذل مع الندماء ، اجتمع وجوه بني أمية ، فلاموه وعنّفوه ، فقال لهم اسمعوا ما عندي :

أُشْهِد الله والملائكة الأبرار والعابدين أهلَ الصَّلاَحِ
أنني أشتهي السماع وشرب الرَّاح والعضّ في الخدودِ الملاحِ
والنَّديم الكريم والخادم الفا   رِهَ يسعى عليّ بالأقداحِ
وظريف الحديث والكاعب الطَّفْلة ترتجّ في سُموط الوشاحِ

انصرفوا ، فيئسوا منه ، فدبَّروا في إفساد دولته .

ودخل على المأمون عمرو بن مسعدة ورجلٌ من الفقهاء ، وبين يَدَيْه جام زجاج فيه رطل شراب ، فمدّ به يدَه المأمون إلى الرجل ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، والله ما شربتُها ناشئاً فلا تسقنيها شيخاً ، فردّ يده إلى عمرو ، فأخذها منه ، وقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، إني آليتُ في الكعبة ألاّ أشرَبها ؛ ففكر طويلاً والكأس في يد عمرو ، ثم قال :

رُدّا عليّ الكأس إنكما   لا تعلمان الكأسُ ما تُجْدِي
لو ذُقتما ما ذقتُ ما مزجَتْ   إلا بدمعكما من الوَجْدِ
ما مثل نعماها إذا اشتملَتْ   إلا اشتمال فمٍ على خدٍّ
خوّفتماني الله ربَّكُما   وكخيفتيه رجاؤه عندي
إن كنتما لا تشربان معي   خوفَ العقاب شربتُها وحدي

وقال الحسن بن هانئ وهو الإمام فى الخمريات :

ساعٍ بكأسٍ إلى ناسٍ على طربٍ ... كلاهما عجبٌ فى مَنْظَرٍ عجب[(١)]
قامت تريني ، وأمر الليل مجتمعٌ ... صبحاً تولّد بين الماء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء درٍّ على أرض من الذهب

وله أيضاً :

قال ابْغِنِي المصباح قلت له اتّئد ... حسبي وحسبك ضوءها مصباحَا[(٢)]
فسكبتُ منها فى الزُّجاجة شَرْبةً ... كانت له حتى الصَّباح صباحَا
مِنْ قهوة جاءتك قبل مِزَاجها ... عُطُلاً فألبسَها المِزاج وشاحَا
شقَّ البُزال[(٣)] فؤادَها فكأنَّها ... أهدتْ إليك بريحها تفّاحَا
فأتتكَ فى صور تداولها البِلَى ... فأزالهنّ وأثبت الأرواحَا

وقال ابن المعتز :

ونارٍ قدحْناها سراعاً بِسُخْرةٍ ... متى مايُرَقْ ماءٌ عليها توقّدِ[(٤)]
يجول حَباب الماء فى جَنبَاتها ... كما جال دمعٌ فوق خدّ مورّدِ

وقال ابن وكيع :

وصفراءَ من ماء الكروم كأنّها ... فراق عدوّ أو لقاء صديقِ[(٥)]
كأنّ الحباب المستدير بطوْقِها ... كواعب دُرّ فى سماء عقيق

الطّوْق : حاشية الكأس .

وقال ابن المعتز فى الحباب وتشبيهه له أحسنُ من تشبيهه بجميعه :

---

(١) ديوانه ٢٤٣ (٢) ديوانه ٢٥١ .
(٣) بزل الخمر : ثقب إناءها ، وذلك الموضع اسمه البزال .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٧ .
(٥) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٩ .

أسقِى مخدّرةَ الدِّنا ن سُلافَ خمرٍ قرْقفا[1]
راحًا تخال حَبابَها دُرًّا يجـــول مجوّفا

وقال الحسن :

بنت عشر لم تعاينْ غيرَ نارِ الشمس نارَا[2]
ثم سَحَّت فأدارتْ فوقها طَوْقًا فدَارَا
كاقتران الدّرّ بالدرِّ صـــغاراً وكبارَا
فإذا ما اعترضتْه الـــعينُ من حيث استدارَا
خِلْتَه فى جَنَبَاتِ الـــكأس واواتٍ صغارا

وله أيضاً فى مثل ذلك :

والـكأس أهواها وإن رُزِئت بلغ المعاش وقلّتْ فَضْلِي[3]
ذخرت لآدم قبـل خِلْقتِـهِ فتقدّمتْـه بخطوة القبْـلِ
فأتاك شىء لا تلامِسُـه إلا بحسن غريزة العقـلِ
فإذا علاها الماء ألبَسها نَمَشاً كمثل خلاخل الحِجْلِ
حتى إذا سكنت جوانحُهـا كتبت بمثل أكارع النملِ
خطين[4] من شـتى ومجتمعٍ غُفُل من الإعجام والشكل

وقال ابن المعتز :

كأنّ فى كأسها والماء يقرعُها أكارعُ النمل أو نقش الخواتيمِ[5]

---

(١) ديوانه ٢ : ٨٧

(٢) هو الحسن بن هانى ، ديوانه ٢٧٤

(٣) ديوانه ٣١١ ، وفيه : « والراح أهواها » .

(٤) الديوان : « سطرين » .

(٥) ديوانه ٢ : ٦٢

وقال حبيب :

صعُبَتْ وراض المَزْجُ سَيِّئَ خلقها فتعلّمَتْ مِنْ حُسْنِ خُلُقِ الماءِ(١)
خَرْقَاء يلعبُ بالعُقول حَبابها كتلاعُب الأفعال بالأسماء
وضعيفةٍ ، فإذا أصابت فُرْصَةً قتلتْ ، كذلكُ قُدْرَة الضعفاء
وكأنّ بهجتَها وبهجةَ كأسها نار ونور قُيِّدَا بوعاء
أو دُرّة بيضاء بكرٌ أطبقتْ حَبَلاً على ياقوتةٍ حمراء

وقال ابن لبَّال :

ومدامةٍ لبست غلالة نَرْجسٍ وتنفسَت فى الكأس أىّ تنفسِ
با كرتُها والوردُ يوقِظُه النَّدَى وتبلّ خدّيه عيونُ النَّرْجسِ
والشمس تنظر من وراء غمامةٍ لبست من الكافور أحسنَ مَلْبسِ
نبهتّها بيد المزاج فأصبحتْ تَرْنُو إلىّ بأعين لم تنعَسِ
وتوردت حتى توقّد كأسُها فحسبتّها فى الكفّ جَذْوَة مقبسِ

* * *

ولا كَانَ سَاقْ دَهاَنِى الرِّفاقْ
لأرْضِ العِرَاقْ بِحَمْلِ السُّبَحْ

فلاَ تغْضَبَنْ ولَا تعْجَبَنْ
وَلَا تَعْتِبَنْ فَعُذْرِى وَضَحْ

---

(١) ديوانه ٣٨

وَلاَ تَصْخَبَنْ لِشَيْخٍ أَبَنْ
بِمَغْنًى أَغَنَّ وَدَنٍّ طَفَحْ

فإنَّ المُدَامَ تُقَوِّى العِظَامْ
وَتَشْفِى السَّقَامْ وَتَنْفِى التَّرَحْ

* * *

قوله : « دَهائى »أى تشيطنى ومكرى . السُّبَح: جمع سبحة ،وقد تقدّمت . تصخبَنْ : ترفعنّ صوتك بالصياح .تعتبنّ : تلومنّ . وضح : ظهر . أَبَنّ : أقام. مغنًى : منزل : أغنّ : كثير الأشجار ، فإذا هبّتِ الريح فيها سمعت لها غُنَّة ، ومن هذا قولهم : رَوْضةٌ غنّاء ، لأن صوت الرّيح يخرج من بين أشجارها ، وعشبها أغنّ .

ومَنْ فسّرها بأن الذباب يغنّى فيها، فهوصحيح فى المعنى فاسد فى التصريف ، لأنّ يغنى أصله (غ ن ى) وأغنّ أصله (غ ن ن) فيريد بالمَغْنَى الأغنّ منزلا كثير الأشجار .

وفسّره بعضهم كثير الأهل ، والأوّل أولَى .

طفح: امتلأ خمراً ، المُدَام : الخمر. وقوله : « تقوّى العظام ، وتشفى السّقام » قد تجاوز هنا قوم حتى جعلوها من العاهات ؛ قال الأُقيشِر — ويروى لأبى نواس :

وَمُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرَابِنَا وأعمى سقيناه ثلاثًا فأبصَرَا

كُميتٍ كأن العنبر الوردَ ريحها إذا شمّها الحانى من الدّن كبّرا
توقّدُ فى أيدى السقاة كئوسها إذا ما رآها صائم القوم أفطَرا

وقال آخر :

أبا هاشمٍ هل لى سبيل إلى التى أرى شربةً منها قواماً لأخدَبِ

قوله : « وتنفى الترح »، أى تزيل الحزن .

وقال الحسن بن هانىء فى أن الخمر تزيل الحزن والهمّ :

دعْ عنك لومى فإنّ اللوم إغرَاءُ وداوِنى بالّتى مِنْها بىَ الدَّاءُ(١)
صفراء لا تنزل الأحزان ساحَتَها لو مسَّها حجرٌ مسَّتْه سَرّاءُ
قامت بإبريقها والليل معتكرٌ فظلّ منْ وجهها فى البيت لألاءُ
وأرسلت من فم الإبريق صافيةً كأنّما أخْذُها بالعقل إغفاءُ
رقّتْ عن الماء حتى لا يلائمها لطافة وجَفَا عن شكلها الماءُ
فلو مَزَجْتَ بها نورًا لمازجَها حتى تولّد أنوارٌ وأضواءُ

وقال البحترىّ :

فاشرب على زهر الرياض يشوبُهُ زهر الخدودِ وَزَهْرَةُ الصَّهْباءِ(٢)
من قهوة تنْسِى الهموم وتبعث الشَّوْق الَّذى قد ظلّ فى الأحْشاءِ
يخْفى الزجاجة لونُها ، فكأنّها فى الكأس قائمة بغير إناءِ

وقال حبيب :

بمدامة يغدو الفتى لكئوسِهاَ حَوْلاً على السَّرَّاء والضَرَّاءِ(٣)

(١) ديوانه ٧٣٤ ، وبروايته « وداونى بالتى كانت هى الداء »
(٢) ديوانه ٦
(٣) ديوانه ٣ .

راحٌ إذا ما الراح كُنّ مطيَّها ... كانت مطايا الشّوق فى الأحشاءِ
عنبيّةٌ ذهبيّةٌ سَبَكتْ لهـا ... ذهبَ المعانى صاغةُ الشُّعَراءِ

* * *

وَأَصْفَى السُّرُورْ ... إِذَا مَا الْوَقُورْ
أَمَاطَ سُتُورْ الْـ ... حَيَا وَاطَّرَحْ

وَأَحْلَى الْغَرَامْ ... إِذَا الْمسْتَهَامْ
أزال ا كْتِتَامْ الْـ ... هَوَى وَافْتَضَحْ

قَبُحْ بِهَوَاكْ ... وَبَرِّدْ حَشَاكْ
فَزَنْدُ أَسَاكْ ... بِهِ قَدْ قَدَحْ

وَدَاوِ الكُلومْ ... وَسَلِّ الْهُمُومْ
بِبِنْتِ الكُرُو ... مِ الَّتِى تُقْتَرَحْ

وَخُصَّ الْغَبُوقْ ... بِسَاقٍ يَسُوقْ
بَلاَءَ الْمَشُوقْ ... إِذَا مَا طَمَحْ

* * *

قوله : «أماط» ، أى أزال . اطّرح: رمى بها ، وهذا منتزع من قول علىّ ابن الخليل :

لا تـكمُلُ اللّذّات إلا بالْقيانِ وبالخمـورِ
هتْك الستور فإنّما الّـــلذات فى هَتْك السّتورِ

فدعِ العواذل لا يقِفْـــنَ عَلَيْكَ من دُونِ الصّدُورِ
واعلم بأنّك راجعٌ حَقًّا إلى ربٍّ غفـورِ

قوله : «الغرام» ، شدة الحب . المستهام: الذى حمله الحبّ على أن يهيم ، أى يذهب ولا يدرى أين يتوجه . افتضح : اشتهر ، يقول: أصفى مايكون السرور إذا أزال الوقور ثياب الحياء واطّرحها عنه ، وأحلى ما يكونُ العشق إذا أزال العاشق الـكتم وشهر نفسه به ، ومن هذا قول أبى نواس :

ألا فاسقنى خَمْراً وقُلْ لى هى الخمرُ
ولا تَسْقِنِى سِرًّا إذا أمـكنَ الجهرُ[1]
وبُحْ باسم مَنْ تهوَى ودَعْنِى من الـكُنى
فلا خَيْرَ فى اللّذات من دونها سـترُ

قوله: «زند أساك» ، الزند: الذى يقدح به النار ، والأسى : الحزن ، يقول: بَرِّد قلبك بذكر مَنْ تهوى ، فإنّك إن رمت كتمه قدح به زند حزنك .

ونحو هذا مايحـكى أن أبا الفضل الدّارمىّ ، كان له هوًى بغلام ، فإذا رآه أنـكر حبّه ، والغلام يعرف شدّة وجده به ، فدمعت يوماً عينا أبى الفضل ، فقال له الغلام : دمعك شاهد عليك ، فقال :

وَهَبْنِىَ قد أنـكَرْتُ حُبَّكَ جُمْلَةً وآليت أنّى لا أروم محطّها
فمن أين لى فى الحبّ جرح شهادة سقامىَ أملاها ، ودَمْعِىَ خَطّها !

---

(١) ديوانه ٢٧٣ ، بعده هناك:

فعيشُ الفَتَى فى سَـكْرَةٍ بَعْدَ سَـكْرَةٍ فإن طالَ هذا عِنْدَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ
وما الغَبْنُ إلاّ أنْ ترانِىَ صاحِيًا وما الغنمُ إلا أن يُتَعْتِعَنِى السُّـكْرُ

وقال المتنبي :

وكاتم الحبّ يوم البين منهتكٌ وصاحب الدّمع لا تخفى سرائرُه[١]

والشعر فى هذا كثير ، وكله تبع لقول العباس بن الأحنف :

لا جَزى الله دمع عَينىَ خَيْرًا وجزى الله كلَّ خير لسانى[٢]
نَمَّ دمعى فليس يَكتُمُ شيئًا ورأيت اللّسانَ ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طىٌّ فاستدلّوا عليه بالعنوان

أما الاشتهار الّذى ذكر فإنما يأخذ به أهلُ التّماجُن ومَنْ لابالَ له ، وأما أهلُ المروءات والتّصاوُن ، فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم ، وكَتْمُه عن النّاس ، وذلك شديد ، ولا يقوم به إلاّ مَنْ كمل عقله ، وأما أن يكتمه عن محبوبه كحكاية أبى الفضل ، فأشدُّ أحوال هذا الباب أن يكون لمحبوبك أصحاب يألفهم ويألفونه ، فيعلمون بشأنك كما فعل أبو الأصبغ بن رشيد المرتكىّ ، أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون :

أبا قاسم إنْ قَسَمْت الْهَوَى كئُوسًا لحظِّىَ أوفى الكئُوسْ
وبين جُفونكِ يا قاتِلى وبين فؤادىَ حَرْبُ البسُوس
وَبَيْنَ الجوانح نارُ الجوى كما قد سمعت بنار المجوسْ
أسارقك اللحظ فى خِفْيَةٍ كما يتناول قَيْدُ الشّموسْ
فمهما بدَوْتُ ومهما رنوْتُ فشغل العيون وشغل النفوسْ
مُررت به بين أصحابه فحدُّوا اللحاظ وهزُّوا الرءوسْ
وهذا على خطرة فَذَّةٍ فكيف لو أنّى نويت الجلوسْ

(١) ديوانه ٢ : ١١٥
(٢) ديوانه ٢٨٢ ، نهاية الأرب ٨ : ١٤٤ .

قوله: « داو الكلوم » ، يريد جراح قلبه من أنكاد الدهر ، ولذلك اتبعه. بـ « سلّ الهموم » ، لأنه فى معنى « داو الكلوم » ، وهذا كقول العطوىّ :

أعجبتنّ أن أناخ بى الدّهـــرِ فخاصمتُه إلى الأقداحِ
لا تذاد الهمومُ أنشـبن أظفا رًا حداداً بشرب ماء قَراحِ
أحمد الله صارت الكأس تأسُو دونَ إخوانى الثقات جراحِى

قوله : « تقترح » تتمنّى . الغبوق : شرب العشىّ ، والمسوق : المحبّ . وطمح : ارتفع بالنظر ، يقول : خُصَّ شرابك بالعشىّ مع غلام حَسَنٍ يسقيك ويبيت معك على شرابك ، ويكون لإفراط حسنه ، يجلب عذاب العاشق إذا نظره .

ومما قيل فى السقاة ووصف الخمر من الشعر المستحسن قول أبى نواس :

إذا عَبَّ فيها شارب القوم خلتَه يقبّل فى داج من الليل كَوْكَبًا[1]
ترى حيثُما كانت من البيت مَشْرقًا وما لم تكن فيه من البيت مَغْرِبًا
يدور[2] بها ساقٍ أغنّ ترى له على مُستدار الخدّ صُدغا معقربًا
سقانى ومنّانى بعينيه منيـــةً فكانت إلى نفسى ألذّ وأعجبا

وقال ابن الرومىّ فأحسن :

ومهفهفٍ كَمَلَتْ محاسنُه حتّى تجاوز مُنْيَةَ النَّفْسِ
تصبُو الكئُوس إلى مراشفِهِ وتضجّ فى يده من الحَبْسِ
أبصرته والكأس بين فَمٍ منه وبين أناملٍ خَمْسِ
فكأنّها وكأنّ شاربَها قمر يقبّل عارضَ الشمسِ

(١) ديوانه ٢٤٤
(٢) الديوان : « يدير » .

وقال ابن المعتز :

ظبىٌ مُخَلّى من الأحزان أودعنى ما يعلم الله من حُزْنٍ ومن قَلَقِ[1]
كأنه وكأن الكأس فى يدِه هلال أوّلِ شهر غاب فى شَفَقِ[2]

وقال أيضاً :

ياحسن أحمد غادياً أمسِ بمدامة صفراء كالورسِ[3]
وكأنّ كفيه تقسم فى أقداحِنا قِطَعاً من الشَّمْسِ

ولأبى طالب الرَّفاء فى معنى آخر :

لها فى كفّ شاربها شعَاعٌ تطرّف منه مبيضُّ البَنَانِ

ولأبى بكر الخالدىّ :

تومِى إليك بأطراف مطرّفة فيها خضابان للعُنَّاب والعنب

فهذا فى انتقال حُمْرتها الأصابع حابسها ، فإذا انتقلت لخدّ شاربها حدث للشعراء فى ذلك معنى بديع من صنع البديع يسمّى المطابقة ، وهو الوصف بالغروب والطلوع ، وقال فى ذلك الطليق المروانىّ :

أصبحَتْ شمساً وفوه مغرباً وَيدُ الساق المحيِّى مَشرقَا
فإذا ما غربت فى فَمِـه أطلعت فى الخدّ منه شَفقَا

ولأبى مطروح بن فتوح :

صهباء تغرب إنْ بَدَتْ من كفّه فى فيه ثم تلوح فى وَجَناتِهِ

وقال غيره :

بَدْرٌ بدا يشرب شمساً بدتْ وجِدّها فى الحسن من جدِّه
تغرب فى فيه ولـكنّها من بعد ذا تطلع فى خَدِّهِ

---

(١) ديوانه ٢ : ٥٥ . (٢) ديوانه ١٨

(٣) الديوان : « هلال تمٍّ ونجم غاب فى شفقِ » .

وقال آخر :

أقول والكأس على فيه وقد ... صوّبها كالكوكب الصائب
ذا كوكبٌ يغرب فى كوكبٍ ... وَيْلِي عَلَى الطَّالِعِ والغارِب !

* * *

رجعنا إلى ذكر السقاة – قال ابن المعتز :

تدور علينا الكأس من كفّ شادنٍ ... له لحظ عين يشتكى السّقم مدنفُ[1]
كأن سلاف الخمر من ماء خَـــدّهِ ... وعنقودها من شعره الجعْد يُقْطَفُ

وقال أبو بكر الخالدىّ :

أهلاً بشمس مُدامٍ مِنْ يَدَىْ قمرٍ ... تكامل الحسنُ فيه فهو تَيَّاهُ
كأنّ حمرتها إذ قام يمزجُها ... من خَدِّه اعْتُصِرَتْ أومن ثناياهُ
فى وجه فُلّ وريْحانٍ تراح له ... مِنّا قلوبٌ وأبصارٌ وتَهْوَاهُ
النَّرجس الغضّ عيناه وطُرَّتُهُ ... بنفسج ، وجَنىّ الورد خَدَّاهُ

ولابن الزّقاق :

وساقٍ يحثُّ الكأسَ وهْىَ كأنَّما ... تلألأ منها مثل ضوءِ جبينِهِ[2]
سقانى بها صرف الْحُمَيَّا عشيّةً ... وثنّى بأخرى من رحيق جفونِهِ
هضيم الحشا ذو وَجْنَةٍ عَنْدَمِيَّةٍ ... تريك قطاف الورد فى غير حِينِهِ
فأشرب مِنْ يمناه ما فوق خدّه ... وألثمُ من خدّيه ما فى يمينـــــه

وقال الخوارزمى :

وصفراء كالدينار بنتُ ثلاثةٍ ... شمال وأنهـار ودهر محرّمُ[3]،
مَسَرَّةُ محزونٍ وعذر مُعَرْبِدٍ ... وكنز مجوسِىّ وفتنة مسلمِ
يدور بها ظبى تدور عُيوننا ... على عينه من شرْط يحيى بن أكثمُ

---

(١) ديوانه ٢ : ٥٤
(٢) ديوانه ٢٧٤
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٣

وقال ابن المعتز :

وندامای فی شباب وشیب   أتلفت مالَهُمْ نفوس كرام[(١)]
بين أقداحهم حديث نضيرٌ   وهو سحر وما سواه كلامُ
وغناء يستعجل الرَّاحَ بالرا   ح كما تاح فى الغُصُون الحَمامُ
وكأنّ السقاة بين الندامَى   ألفاتٌ بين السُّطور قيامُ

* * *

وشَادٍ يُشيدُ   بِصَوْتٍ مَيدُ
جبالُ الْحديدِ   لَهُ إنْ صَدَحْ
وَعَاصِ النَّصِيحْ   الَّذِى لا يُبِيحْ
وِصَالَ الْمَلِيحْ   إذا مَا سَمَحْ
وَجُلْ فِى المحَالْ   وَلوْ بالمُحَالْ
وَدَعْ مَا يُقالْ   وَخُذْ مَا صَلَحْ
وفارق أباكْ   إذا مَا أباكْ
وَمُدَّ الشِّباكْ   وَصِدْ مَنْ سَنَحْ
وَصَافِ الْخَلِيلْ   وَنافِ الْبَخِيلْ
وَأَوْلِ الْجَمِيلْ   وَوَالِ المِنَحْ
وَلُذْ بالمَتَابِ   أمَامَ الذَّهَابِ
فَمَنْ دَقَّ بَابَ   كَرِيمٍ فتحْ

* * *

(١) ديوانه ١٨

قوله : « شادٍ » ، أى مغنٍّ . يُنْشِد : يتقن غناءه ويحكمه . تميد : تميل . صدح : رفع صوته بالغناء ، والصداح : الصوت الشديد ، يقول : وأحضر الخمرَ مغنياً تميل الجبال لحسن غنائه ، وهذا مثل ما حكى المنجّم، قال : حكى لى أنّ إبراهيم بن المهدىّ ، كان أحسن الناس غناء ببرهان، وذلك أنّى كنتُ أراه فى مجالس الخُلفاء مثل المأمون والمعتصم يُغَنّى المغنون ، فإذا ابتدأ هو لم يبق أحدٌ من الغلمان والمتصرّفين وأصحاب الصّناعات والمهن الصّغار والكبار ، إلاّ وقد ترك ما فى يده ، وصار بأقرب موضع يمكنه أن يسمعه ، فلا يزال مصغياً إليه ، لاهياً عمّا كان فيه ما دام يغنّى ، فإذا أمسك وغنّى غيره رجعوا إلى أشغالهم ، ولا برهان أقوى من شهادة الفطرة ، واتّفاق الطبائع على الميل إليه مع اختلافها فى غير ذلك .

وقال منصور بن المهدىّ : غنّى أخى إبراهيمُ الأمينَ يوماً فقال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها
لكىْ يعلمَ النّاس أنى امرؤ أتيت الفتوّة من بابها

وكان الأمين مشرفا على حمر الوحش ، وهو مخمور ، وكان من عادته ألاّ يشرب وهو مخمور ، فاستوى جالساً وطرب ، وقال : أحسنت والله يا عمّ ، وأحييْت لى طرباً . وغنّى يومئذ على أشدّ طبقة ينتهى إليها ، وما سمعت مثله قطّ ، وقد رأيت منه شيئاً عجيباً ، لو حُدِّثتُ به ماصدقته ، كان إذا ابتدأ يغنّى أصغت الوحش ، ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنُو منه ، حتى تضع رءوسها على الدّكان الذى كنا عليه ، فإذا سكت نفر عنّا ، حتى تنتهى إلى أبعد غاية يمكنها التباعُد فيها عنّا ، وجعل الأمين يعجب من ذلك .

قوله :« يبيح» ، أى يجعله له مباحًا ، يقول : اعْصِ مَنْ يعذُلك فى وصْل المليح متى سمحَ بوصله .

وكان أعرابيٌّ قد طال تعشّقه لجارية ، فقيل له : ما كنتَ صانعاً لو ظفِرْتَ بها ، ولا يرا كما غير الله ؟ قال : إذاً والله لا أجعلُه أهونَ الناظرين، لكنّى كنت أفعل بها ما كنتُ أفعله بحضرة أهلِها ، شكوى وحديث عذب ، وإعراض عمّا يسخط الرّبّ ، ويقطع الُحبّ ، فإن تَلَقّى وصال المليح ، إذا سمح بمثل هذا فعصيان النصيح واجب ، وأكثر الناس يرى أن الظفر بالمشوق يُسْقط نصف عشقه ، وأن النّكاحُ يفْسِد الحب :

وقال المأمون :

ما الحبُّ إلا قُبلَةٌ ... وغمز كفٍّ وَعَضُدْ
وكتبٌ فيها رُقًى ... أنفذُ من نَفْثِ العُقَدْ
مَنْ لم يكن ذا حبِّه ... فإنما يبغِى الولَدْ
ما الحبّ إلا هكذا ... إن نُكِحَ الحبّ فَسَدْ

وقال حبيب فى نقيضه وأجاد :

وقالت نِكاحُ الحبّ يفسد شكله ... وكم نكحوا حبًّا وليس بفاسدِ !(١)

وقالت أمّ الضحّاك المحاربيّة :

شفاء الحب تقبيل وَضَمٌّ ... وجرّ بالبطون على البُطونِ
ورَهْزٌ تَهْمُلُ العينانِ منه ... وأخذٌ بالمناكبِ والقُرُونِ

وقال الحسن :

إذا هجع النِّيام نَخلٌ عنى ... وعمّن كان أيصلح للدّبيب(٢)

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ٢٥

فإنى عالم فطنٌ أريبٌ ولم يخبرك مثلُ فتىً أريبِ
ألذُّ الفعل تأخذه سرورًا بمنح الحبِّ أو منع الرقيبِ

وبعد هذا ما يقبح ذكره ، وشعر الحسن يكثر فى هذا الباب .

وقال ابن الأبّار رحمه الله ـ وذكر أنه فعل بمحبوبه وبرقيبه :

فوثبْنا على الغـزال وثوباً ودببْنا على الرّقيب دبيباً
فهل أبصرتَ أو سمعتَ بصبٍّ ناك محبوبه وناك الرقيباَ !

وقال ابن بسّام : لقد ظَرُف ابن الأبار ، واستهتر ما شاء وقدّر ، وأظنه لو قَدَر على أبليس الّذِى تولى له هذا المذهب لَدَبّ عليه .

وابن المعتز كنّى ولم يصرح ، فقال :

فـكان ما كان مما لست أذكرُه فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر[1]

أين ما قدّمناه لابن الأبار من قول الآخر فى ضِدّه :

ومنعّمٍ غض القِطافِ عذبٌ لَماهُ للارتشافِ
فوَرَدْتُ جنّة نحرِه ونعيمها دُونَ اقتطافِ
وعصيتُ سلطانَ الهوى وأطعتُ سلطانَ العَفافِ

وقال ابن الأبّار أيضا :

ومعرّض بالغصن فى حركاتِه تسَلُ القلوب العفوَ من لحظاته
عاطيتُه كأساً كأنّ سُلافَها مِنْ ريقِه المعسول أو وَجَنَاتِه
وأطعتُ سلطان العفاف تـكرماً والمرء مجبـــول على عاداته

(١) ديوانه ١ : ٣٨

وقال الشريف الرضيّ فأحسن :

بِتْنَا ضجيعيْن في ثوبَيْ هوًى وتُقًى يلفّنا الشّوقُ من فَرْقٍ إلى قَدَمِ [1]

وبات بارق ذاكَ الثّغرِ يوضح لِي مواقعَ اللّثْمِ في داجٍ من الظُّلَمِ

وباتت الرّيحُ كالغَيْرَى تجاذبُنَا على الكثيب فضولَ الرّيطِ واللّمَمِ

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة حتّى تكلّمَ عصفورٌ على عَلَمِ

فقمت أنفضُ بُرْداً ما تعلّقه غيرُ العَفافِ وراءَ الغَيْبِ والكَرَمِ

وقال ابن فرج الجيانيّ :

وطائعةِ الوصال صددتُ عنها وما الشّيطان فيها بالمُطَاعِ

بدت باللّيل سافرةً فباتت دَيَاجِي اللّيْلِ سافِرَةَ القِنَاعِ

وما من لحظة إلاّ وفيها إلى فتن القلوب لنَا دَوَاعِ

فملّكتُ الهوى جمحات شوقي لأجرِيَ في العَفَاف على طِبَاعِي

كذاكَ الرّوضُ ما فيهِ لمثلي سوى نظرٍ وشمٍّ من مَتَاعِ

ولستُ من السّوائم مهملات فأتّخذ الرّيَاضَ من المراعِي

وقال أيضا فأحسن :

بأيّهما أنا في الشكر بادي أشكر الطيف أم شكر الرُّقَادِ

سَرَى لي فازْدَهى أملي، ولكنْ عففتُ فلم أنَلْ مِنْهُ مرادي

وما في النوم من حَرَجٍ ولكنْ جريتُ من العفاف على اعتيَادِ

كأنّه لما عفّ في اليقَظة جرى على عادته في النوم، وهذا من قول أبي الطيب :

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصِي الهوى في طَيْفِها وهو رَاقِدُ

---

(١) ديوانه ٢٢٣

وهذا أملك شهوة من التهامى ، وإن كان قد أحسن حيث يقول :

إنّى لأصرفُ طَرْفى عن محاسِنِها تكرّماً وأكفّ الكفّ عن لَمَمِ[1]
ولا أهمّ ولى نفسٌ تنازِعُنِى أستغفر الله إلاّ ساعة الحُلُمِ

وقال ابن طباطبا :

يقظاتُهُ ومنامُه شَرَعٌ كلٌّ بكل منه مشتبهُ
إن همّ فى حُلْمٍ بفاحشةٍ زجرتْهُ عفّتُه فينتبهُ

أخذه السرىّ[2] ، فكتب إلى صديق له ، وكان اتّهمه بغلام بعثه إليه :

أبا بكرٍ أسأت الظنّ فيمنْ سجيّتُهُ التمنّع والخِلافُ
وخفتَ عليه فى الخلَوَاتِ منّى ولم يكُ بينَنا حالٌ تُخافُ
جفوتُ من الصِّبا ماليس يُجْفَى وعفت من الهوى مالا يعافُ
فلو أنى همَمْتُ بقبح فعلٍ لدى الإغفاء أيقظنى العَفَافُ

قوله : «جُلْ» ، تصرّف . المِحَال : المكر . لُذْ : تعلّق وتستر . المُحَال : الباطل ، وما لا يمكن ثبوته . ودع ما يقال ، أى لا تلتفت إلى مَنْ ينقصك باتّباع لذّاتك ، وخذ ما يوافقك ويصلح بك .

وهذا رأى من اشتهر بالمجون كالحَسَن فى قوله :

دَعْ عنك ما جدّوا به وتبطّلِ وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزِلِ[4]
لا تركبنّ من الذنوب خسيسَها واعمد إذا قاربتها للأنبلِ
وخطيئة تعلو على مُستَامِها يأتيك آخرها بطعم الأوّلِ

---

(١) هو السرى الرفاء ديوانه ٢ .
(٢) ديوانه ١٨٣

حَلَّتْ لاحرجَ عليَّ حرامَهـــا ولربّما حلّت غـــير مُحلَّلِ

وقال ابن وكيع :

لا تقبلنّ من الرشيد كلامَهُ وإذا دعاك أخو الغواية فاقبَلِ[١]
ودعِ الترقّب والتجمّلَ للورَى فالعيش ليس يطيب للمتجمّل

وقال أيضاً :

فارقتُ بمدك عِفّتى ووقارِى وخلعت فى طرق المجون عِذارى[٢]
لا تأمرنّى بالتستّر فى الهوى فالعيشُ أجمع فى ركوب العارِ
لا تكثرنّ عَلَىّ إن أخا الحِجَا بَرِمٌ بقرب الصاحب المكثار

قوله : « أباك » ، أى تمنّع منك. سنح: تيسّر، يقال : سنح الشىء سنوحاً ، إذا تيسر. صافِ الخليل ، أى أخلص الودّ لصاحب . ناف : باعد . أوْلِ الجميل: ألصق المعروف بمن يستحقّه ، وقد أولانى فلان المعروف : ألصقه بى ، وجعله بينه وبينى . وقيل معنى «أوْلاَنى» مَكّنَنى ، من قولهم : هذا ولىّ المرأة ، أى مالك أمرها . وقيل : معناه عضدنى به وقوّانى ، من قولهم : بنو فلان ولاة على بنى فلان ، أى يُعينونهم ويعضّدونهم ، وقيل : أوْلاَنى : أنعم علىّ ، من الآلاء ، وهى النّعم ؛ واحدها إلْىٌ وألْىٌ ، والأصل وِلْىٌ وَوَلْىٌ ، أبدل من الواو المكسورة همزة ، على حدّ « إساد » ، وأبدل من الواو المفتوحة همزة على حد أحَد وامرأة أناة . والِ المِنَح : تابع العطايا . أمام الذّهاب: قدّام الموت ، يقول: إذا شخت وأيقنت الموت ، فاضرب باب التوبة ، فإنه يُفْتَح لك إذ كلّ كريم بابُه يفتــح .

---

(١) اليتيمة ١ : ٣٤٢ (٢) اليتيمة ١ : ٣٣٤ .
(٣) اليتيمة : « الهذاير » .

ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن المصلىَ يقرع بابَ الملك ، وإنه مَنْ يداوم قرع الباب يوشك أن يفتح له » ، والله تعالى أكرم الكرماء، وبابه باب التوبة . وقال الألبيرىّ :

فلازم قَرْعَ باب التّوب دأْبًا   فإنّ لزومه سبب الدخولِ[1]

* * *

فقلتُ لهُ : بَخٍ بَخٍ لِروَايَتكَ ، وأُفٍّ وتُفٍّ لِغَوايتِكَ ، فبالله مِنْ أَىِّ الأعْياصِ عَيصُكَ ، فقد أَعْضَلَني عَويصُكَ ؟ فقالَ: مَا أُحِبُّ أنْ أُفْصِحَ عَني ، ولـكِنْ سأُكَنِّي ..

أنَا أُطْرُوفةُ الزّما   نِ وأُعْجُوبةُ الأُمَمْ
وأَنا الْحُوَّل الّذى احْـــتَالَ فى العُرْبِ وَالْعَجَمْ
غير أَنِّى ابنُ حاجَـةٍ   هَاضهُ الدّهرُ فاهْتَضَمْ
وَأبُو صِبْيةٍ بَدَوْا   مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وَضَمْ
وَأَخُو الْعيـلَةِ المعْـــيِلُ إذَا احْتالَ لَمْ يُلَمْ

* * *

قوله : « بخٍ بخٍ » ، أى عجب عجب وتُثقّل وتخفّف ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب بالشىء .

أفّ وتُفّ ، الأصمعى : الأفّ وَسَخ الآذان ، والتّف : وسخ الأظفار ، ثم استعمل ذلك عند كلّ شىء يُضجَر منه .

---

(١) ديوانه ١٤ .

وقال غيره : الأفّ : القلّة ، مأخوذ من الأفَفَ وهو القلة ثم نُسِق التُّف عليه ، ومعناه كمعناه ، ويقال: لمن يُدْعَى عليه بالخيبة : أفّ وتُفّ لك . وقال ابن الأنبارى : إذا أفردت أفّ ، ففيها عشرة أوجه : فتح الفاء ، وكسرها وضمّها على قياس مُدّ ؛ وثلاثتها بالتّنوين على قياس وَيْل ، فنصبه على الدّعاء ، ورفعه بالابتداء ، وخفضه على التشبيه بالأصوات كَهْ وصهْ ، وأفْ كقد ، وأُفّى بضم الهمزة منصوب على الدعاء ، وأفى بإضافته إلى نفسه ، وأف بضم الهمزة وسكون الفاء تشبيهاً بالأدوات ، نحو : هل وبل .

غوايتك : ضلالتك .الأعياص :الأصول ، والعِيص :بيت الأسد ، يريد: مِنْ أىّ القبائل والبلاد .أعضلنى: صعُبَ عَلَىّ. عَوِيصك:صعْب أمرك ومشكله . أفصح: أبين . أ كنى أورّى ، أى أدلّ على نفسى بكلامٍ خفىّ . أطروفة : غريبة . الحوَل : الكثير الحيلة .هاضه : كسره . اهتضم : ظلم ونقص . الوضَم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم . والعيْلة : الفقر ، وعال الرّجل يَعيل عِيلة ، إذا افتقر، قال الله تعالى : ﴿ وإن خِفْتُم عَيْلة ﴾ .

وقال الشاعر :

وما يدرِى الفقير مَتَى غناه وما يدرى الغنىّ مَتَى يَعِيلُ

والُمعِيل: الكثير العيال، وقد أعال يُعيل .

° ° °

[مما قيل فى الخضاب]

قوله: «الريب» ، أى لريبة . مسوّدوجه الشيب ، نبه به على قوله فى أوّل المقامة :«ويسمه ميسم الشبان» يريد أنه خَضَب شيبه وتشبّه بالفتيان ، والخضاب مباح والتدليس مكروه . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « غيّروا هذا الشيب».

وكان أبو بكر رضى الله عنه يخضب بالحنّاء والكَتَم ، وجاء النهى عن الخضاب بالسواد . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السّواد كحواصل الحمام ، لا يريحون رائحة الجنة » .

ومن كلام المولدين : الخِضاب تذكِرَة الشباب .

الخضاب أحد الشبابَيْن.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجارية له : قومى اخضِبى رأسى ولحيتى ، فقالت : دعنى ، فقد عييت مما أرقّعك ، فقال :

عَيّرْتنى خَلَقاً أبليتُ جِـــدّتَهُ وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً !

وقال آخر :

أليس عنـــدك شكرٌ للّتى جعلت
ما ابيضّ من قادماتِ الرّأسِ كالحُمَمِ
وجدّدتْ منك ما قد كان أخلقه طولُ الزمان وصرف الدّهرِ والقِدَمِ

وقال آخر :

وقائلةٍ تقولُ وقد رأتْنِى ترقّع عَارِضَاىَ من القَتِيرِ
عليك الخضْبَ علّكَ أن تُدَانِى إلى بيضٍ ترى منهنّ حُورِ
فقلت لها: المشيبُ نذير عُمْرِى ولستُ مسوّداً وجه النّذِيرِ

وقال عبدان الأصبهانى :

فى مشيبى شماتةٌ لِعِدَاتِى وهو ناعٍ منغّصٌ لحياتِى

ويعيبُ الخِضَابَ قومٌ وفيهِ ... لِي أُنْسٍ إلى حضور وَفَاتِي
لا ومَنْ يعلمِ السَّرائرَ منِّي ... ما تطلَّبْتُ خَلّةَ الغانياتِ
إنما رُمْتُ أن يغيِّبَ عنِّي ... ما تُرينيه كلَّ يوم مراتِي
هو ناعٍ إلىَّ نفسي ومَنْ ذا ... سرَّه أن يرى وجوه النّعاةِ!

وقال آخر:

بكرت تحسِّنُ لى سَوَادَ خِضابِي ... لو كان ذاك يعيدُنى لشبابِي
وإذا أديمُ الوَجْه أخلقه البِلَى ... لم يُنتفعْ فيه بحُسْنِ خِضَابِ
ماذا الّذِى يبدى عليك خضابه ... وخلاف ما يرضيك فى الأثوابِ!

وقال ابن عبد ربّه:

إذا فصل الخضاب بكى عليه ... ويفرح كلّما وصَلَ الخضابَا
كأنّ حمامةً بيضاءَ ظَلَّتْ ... تقاتل فى مفارقِهِ غُرَابَا

وقال ابن الروميّ:

يأيّها الرجل المسوّد شعرَه ... كيما يعدّ به من الشّبان
أقصرْ فلو سوّدت كلّ حمامة ... بيضاء ماعدّت من الغِرْبان

وأملح منه قول الآخر:

قالت خَضَبت الشَّيْبَ ثم أتيتنا ... تَبغِي لدينا بالخضابِ وِدَادَا
فأجبتُها لم أختضبْ لكِ إنما ... شَيْبِى صَبَغْتُ على الشَّباب حِدَادَا

وما أحسن ما قال ابن هانىء الأندلسيّ:

بنتم فلولا أن أغيرّ لمّتي ... عبثاً وألقاكم علَىَّ غضاباً[1]

---

(١) ديوانه ٥١

لخضبتُ شيباً في مفارق لِمَتِي[١] ... ومحوتُ محو النَّفسِ مِنْه كِتَاباً[٢]
وخضبتُ مبيضّ[٣] الحداد عليكمُ ... لو أنّني أجدُ البيَاضَ خِضَاباً
وإذا أردتَ على المشيبِ وفادةً ... فاجعل مطيَّك دونَه الأحقَاباً
فلتأخذنّ من الزّمان حمامـةً ... ولتدفعنّ إلى الزّمان غُرَاباً

* * *

قال الرَّاوِي : فعَرَفتُ حِينئذٍ أنَّهُ أَبو زَيْدٍ ذُو الرَّيْبِ وَالعَيْبِ، وَمُسَوِّدُ وَجْهِ الشَّيْبِ ، وَسَاءَنِي عُظْمُ تمرُّدِه ، وَقُبحُ توَرُّدِه ، فقُلتُ لهُ بِلِسَانِ الأَنَفةِ ، وَإِدْلالِ المَعْرِفةِ : أَلَمْ يأْنِ لكَ يَاشَيْخَنَا أَنْ تُقْلِعَ عَنِ الخَنَا ! فتَضَجَّرَ وَزَمْجَرَ ، وَتَنكَّرَ وَفَكَّرَ ، ثمَّ قَالَ : إِنَّهَا لَيْلَةُ مِرَاحٍ لاَ تلاَحٍ ، وَنُهزَةُ شُرْبِ رَاحٍ لا كِفَاحٍ . فدَعْ عمَّا بدا ، إِلَى أَنْ نَتَلاقَى غَدا ، ففَارَقْتهُ فَرَقاً مِنْ عَرْبدَتِه ، لاَتعَلُّقاً بعِدَتِهِ ، وَبِتُّ لَيْلَتِي لاَبِسًا حِدادَ النَّدَمِ ، عَلَى نَقْلِي خُطاَ القَدمِ ، إِلى ابنَةِ الكَرْمِ ، لاَالكَرَمْ ،وَعَاهَدتُ اللهَ سُبحَانه وَتعَالَى أَلاَّ أَحْضُرَ بعْدهَا حَانَةَ نَبَّاذٍ، وَلَو أُعْطِيتُ مُلْكَ بَغْدادَ، وَأَلاَّ أَشْهَدَ مِعْصَرَةَ الشَّرَابِ، وَلَوْ رُدَّ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَابِ .

ثمَّ إِنَّا رَحَّلْنَا العِيسَ ، وَقْتَ التَّغْلِيسِ ، وَخَلَّيْنَا بَيْنَ الشَّيْخَيْنِ وَإِبلِيسَ .

* * *

(١) الديوان : « في عذارى كاءبا » (٢) الديوان : « شبابا » .
(٣) الديوان : « مسود » .

قوله : « تمرده » ، تشيطنه ، وتمرّد إذا كثر شرُّه ، والمَريد : الخبيث الذى لا يطاق مكره . تورّده : إتيانه بما لا يحلّ ، وأصل التورّد قصد الماء . الأَنفَة : الغضب . يأنِ : يحين ويقرب . الخنا : الفساد . تضجّر . اشتدّ غضبه . زمجر : تكلّم بما لا يفهم . تنكّر : تغيّر علىّ ، ونكّر نفسه كأنّه لا يعرفنى . مِراح : طرب ونشاط . تلاح : مشاتمة . نُهْزة : فرصة وغنيمة . كفاح : قتال . فَعَدّ : اصرف واترك . فرَقاً : فزعاً . عَرْبدته : شرُّه وشغبه . الحداد : ثياب الحزن . الخُطَا : جمع خَطْوة ، وهى ما بين القدمين . نبّاذ : خمّار . عَصْر : زمان . رحّلنا العيس : جعلنا على الإبل رحالها . التغليس : الخروج فى الغَلَس ، وهى الظلمة التى بين طلوع الفجر والشمس .

وأظن أنه بنى هذه المقامة على حكاية لأبى دلامة ، حكى الأصبهانى[1] أنّ موسى بن داود الهاشمى[2] عزم على الحج ، فقال لأبى دلامة : احْجُجْ معى ولك عشرة آلاف درهم ، فقال : هاتها ، فدفعها إليه ، فأخذها وهرب إلى السواد ، وجعل ينفقها هنالك فى شرب الخمر ، فطلبه موسى فلم يقدِرْ عليه ، وخشىَ فَوْتَ الحجّ ، وخرج . فلمّا شارف القادسية إذا هو بأبى دلامة خارج من قَرْية إلى أخرى وهو سكران ، فأمر بأخذه وتقييده ، وطُرِح فى محمل بين يديه ، فلما سار غير بعيدٍ أقبل على موسى ونادى :

يأيّها النّاس قولوا أجمعون معاً : صلّى الإله على موسى بن داودِ
كأنّ ديباجَتَىْ خدّيه من ذهبٍ إذا بدا لك فى أثوابه السُّودِ
إنى أعوذ بداودٍ وأعظُمه من أن أُكلّف حَجّا يابْنَ دَاوُدِ
خُبِّرت أن طريق الحج معطشةٌ من الشّراب وما شربى بتصريدِ[3]
والله مافىّ من أجرٍ فتطلبه ولا الثناء على دينى بمحمودِ

(١) الأغانى ١٠ : ٢٤٦ .
(٢) هو ابن عم أبى العباس السفاح ، وكان واليا على المدينة .
(٣) صرد شربه : قطعه .

فقال موسى : ألقوه عن المحمل ، لعنه الله ، فأُلقِيَ وعاد إلى موضعه بالسّواد حتى أنفق المال .

وقال آخر :

ألم ترنى وبشاراً حَجَجْنَا   وكان الحجُّ من خير التّجارَهْ
خرجنا طالبىْ سفرٍ بعيدٍ   فمال بنا الطريق إلى زُرَارهْ
فآب النّاس قد حجوا وبرُّوا   وأبنا موقَرِين من الخسارَهْ

وقال أبو نواس فى الحج :

وقائل: هل تريد الحجّ قلت له :   نعم ، إذا فَنِيتَ لذّاتُ بغداذِ
وكيف بالحجّ لى مادمتُ منغَمِساً   فى بَيْتِ قوّادة أو بيت نبّاذِ !

قوله : « وخلينا بين الشيخين أبى زيد وإبليس » من قول الحسن :

بتُّ وإبليس إلى الصبح فى   كلِّ الذى يؤثمنى خَصْمى

وانظر هذا فى الثامنة والأربعين ، والله أعلم .

المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية

حدّث الحارث بن همام ، قالَ : ندَوْتُ بِضَواحى الزَّوراء ، مَع مشيخَةٍ مِنَ الشُّعَراء ، لايعْلَقُ لَهُمْ مبارٍ بغبارٍ ، وَلا يجرِى مَعَهُمْ ممَارٍ فِي مِضْمارٍ ، فأَفَضْنا في حَدِيثٍ يَفضَحُ الأَزْهارَ ، إلى أن نَصَفنا النَّهارَ . فلمَّا غاضَ دَرُّ الأَفـكار ، وَصَبَت النُّفوسُ إلى الأوكار ، لَمَحْنَا عَجُوزًا تُقْبِلُ مِنَ الْبُعْـدِ ، وَتحضِرُ إحْضَـارَ الْجُـرْدِ ، وَقَد اسْتَتْلَتْ صِبْيةً أنْحَفَ مِنَ المَغَازِلِ ، وأضعَفَ مِنَ الجَوَازِلِ ، فَمَا كَذَّبَتْ إذْ رَأَتْنَا ، أَنْ عَرَتْنا ، حَتّى إذَا مَا حضَرَتْنَا قَالَتْ :

* * *

ندوتُ ، أى خرجت ، ويقال: نَدَتِ الإبل تندّ وإذا خرجت من المشرب ترعى فيما قرب منه ، وهو الذى قصد ، لأنه أراد أنه خرج مع أصحابه خارجَ البلد يستريحون ثم يرجعون . والضَّواحى : المواضع البارزة للشمس .

* * *

[الزوراء]

والزوراء، هى فى الجانب الشرقىّ من بغداد، وسمِّيت زوراء لازورار قبلتها، أى لانحرافها . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها مُلْك

بنى العباس ، وهى الزّوراء يكون فيها حرب مُفظِعة تُسْبَى فيها النساء ، وتُذْبَح فيها الرجال كما يُذبح الغنم » .

والزّوراء هى بغداد ، ويقال لها الزّوراء ، ومدينة السلام ، ومدينة المنصور ، وبغداد وبغداذ وبغدان وبغذان وبغدام وبغذام وبغذاد ـ عن الفراء .

وبعضهم يقول : تفسيره بستان رجل ، فبَغْ بستان ، ودَاد رجل . وقيل: بَغْ صنم ، وداد عطيّة وإنما اختلفت العرب فى لفظها إذلم تكن من كلامها ، ولا اشتقاق لها من لغتها ، وأشهر لغاتها بغداد ، بدالين وبغدان ، بالنون . وكان الأصمعىّ رحمه الله لا يقول بغداد ، وإنما يقول مدينة السلام ، لأنّ بغ عندهم اسم صنم ، وداد عطيّة بالفارسية فكأنها عطيّة الصنم . وبناها المنصور ، وبعث رجالا يطلبون له موضعاً يبنِى فيه مدينة ، فطلبوا فلم يجدوا ، حتى جاء ينزل فنزِل على البرّ الذى فى الصَّراة ، فقال : هذا موضع أرضاه ، تأتيه الميرة من الفُرات ودِجْلة والصّراة ، فوجّه حينئذ الصنّاع من الشأم والموْصِل والكوفة وواسط والبصرة ، فابتدئت سنة خمس وأربعين ومائة .

وقال محمد بن أبى سهل : لمّا أراد المنصور بناء بغداد ، أمرنى أن آخذ الطالع ، فأخذنا طالعها ، فكان المشترى ، فأخبرته بما تدلّ عليه النجوم من طول بِنائها وكثرة عمارتها ، ثم قلت : وخَلّةٌ أخرى يا أمير المؤمنين ، نجدها على ما تدلّ عليه النجوم ... لا يموت فيها خَليفة ، فرأيته يتبسّم ، وقال : الحمد لله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقيل لرجل : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلُّها بادية وبغداد حاضرتها .

ابن جبير[١] : بغداد هى المدينة العتيقة ، ولم تزل حَضْرة الخلافة العباسيّة

(١) رحلة ابن جبير ١١٦ ، مع تصرف واختصار .

وقد ذهب رسمها[1] ووسْمُها ، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب إليها كالطَّلَلِ الدَّارس، والأثر الطَّامس، أو تمثال[2] الخيال الشَّاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البَصر ، ويستدعى من المستوفز الغَفْلة والنَّظَر، إلا دجلتها التي بين الشرقيَّة والغربيَّة منها كالمرآة المجلوَّة بين صفحتين ، أو العقد[3] المنتظم بلَبَّتين،فهي تردها فلا تظمأ، وتطلع [منها][4] في مرآة صقيلة فلا تصدأ . والهواء المنتظم يتولَّد بين هوائها ومائها ،فهي معروفة بفتن الهوى ، إلا أن يَعْصِم الله منها . وكنَّا سمعنا أنَّ هواء بغداد يُنبت السرور في النَّفس ، ويبعث دائمًا على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طربًا ، وإنْ كان نازح الدار مغتربًا ، حتى حللت بقرية وزيران ، وهي على مرحلة منها، فلما نفحتنا نوافح هوائها، ونقعنا الغلة ببرد مائها، أحسسنا من أنفسنا على حال وحشةِ الانفراد دواعي من الإطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحه الغُيَّاب بالإياب ، وهفت بنا محركات من الأنس ذكَّرتنا معاهدَ الأحباب في عصر الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف الوافد فيها على أهل وسكن !

سَقَى الله بابَ الطَّاق صَوْب غمامةٍ ورَدَّ إلى الأوطان كلَّ غريبِ

وبغداد جانبان : شرقيّ وغربيّ ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربيّ فقد عمَّه الخراب ، واستولَى عليه ، وهو كان المعمور أولاً ، ولكنَّه مع خرابه يحتوى على سبع عشرةَ مَحَلَّه ، كلّ واحدة منها مدينة مستقلَّة،لها الحمَّامَان والثلاثة،وصلاة

(١) ابن جبير « ولم يبق إلا شهير رسمها » .
(٢) ط : « المثال » وما أثبته من ا وابن جبير .
(٣) ط : « والعقد » وما أثبته من ا وابن جبير .
(٤) من ابن جبير .

الجمعه فى ثمان منها ، وأكبرها القُرَيّة ، وهى على شطّ دِجْلة ومقربة من الجسر ، ثم الكَرْخ ، وهى مدينة مشهورة ، ثم مَحَلّة باب البصرة ، وهى مدينة بها جامع المنصور ، وهو كبير عتيق البُنْيان ، ثم الشارع وهى مدينة، وهذه الأربع أكبر المحِلاّت ، والوسيطة بين دِجْلة وبين نهرٍ يتفرّع من الفرات ، وينصبُّ فى دجلة ، يجىء فيها جميعُ المدائن التى يسبقها الفرات . وعلى بابها نهر آخر منه ينصبّ فى دِجْلة .

ومنها العتّابية ، وهى مدينة يصنع فيها الثّياب العتّابية ، وهى حرير وقطن مختلفات الألوان ، وأسماء سائر المحلاّت يطول ذكرها ، وأمّا الشرقيّة فهى محدثة وهى حفيلة الأسوار ، عظيمة الترتيب ، تشمل من الخَلْق على بشر كثير لا يحصيهم، إلا الذى أحصَى كلّ شىء عددا . وبالشرقىّ محلة الرُّصافة، وبها كان بابُ الطّاق المشهور على الشطّ ، وبازائها مَحَلّة كبيرة تعرف بقبر أبى حنيفة رحمه الله ، فيها قُبّة سامية فى الهواء بيضاء ، فيها قبر الإمام أبى حنيفة ، وبالقرب منها قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله .

وحمّامات بغْداد لا تُحصى ، أخبرنى بعض أشياخها ، أن فيها اليوم ألفى حمّام، وأكثرُها مطليّة بالقار ، مسطّحة به ، فيخيّل للناظر فيها أنها رخام أسود صقيل ، وأكثر حمامات هذه الجهة على هذه الصفة، لكثرة القار عندهم، وشأنه عجيب ، لأنّه مَنْبَع عين بين البصرة والكوفة ، يصير القار فى جوانبها كالصّلصال ، فيجرف ويجلب ، وقد انعقد فسبحان خالقه !

وببغداد من المدارس نحو الثلاثين ، ما منها مدرسة إلاّ كالقصر العظيم ، وأعظمها النظاميّة . وبساتين بغداد وحدائقها بالغربيّه ، ومنها تجلب الفواكه للشرقيّة ، والعادة أبداً أن يكون بين الشرقيّة والغربية جسران لجواز النّاس، ومع ذلك فمن يعبر بينهما من النّاس فى الزوارق لا يحصَى ، وذلك لكثرة النّاس،

(١) القرية ذكرها ياقوت ، وقال : محله ببغداد .

وزوارقها لا تحصى ، والنّاس ليلاً ونهاراً من معاينة العبور فيها فى نزهة متصلة رجالا ونساء .

وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يُوصف ، وأين هى اليوم مما كانت عليه ! هى اليوم داخلة تحت قول حبيب :

* لا أنتِ أنتِ ولا الدّيارُ دِيارُ[1] *

ثم ذكر ابن جبير أهلَها فذمّهم بكلّ عيب ؛ من الكبرياء وبيع الربا ، ثم استثنى فقهاءها ووعاظها .

* * *

[وصف الشعراء]

قوله : « مع مشيخه من الشعراء » ، قال الخليل فى مدح الشُّعراء : هم أمراء الكلام يصرِّفونه أنّى شاءوا وجائز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى ، وتقييده ومدّ مقصوره وقصر ممدوده ، والجمع بين لغاته والتّفريق بين صفاته .

وسئل غيرهم عنهم ، فقال : ما ظنُّك بقومٍ الاقتصاد محمود إلا منهم ، والكذب مذموم إلا بينهم !

وقال آخر : إيّاكم والشاعر ، فإنه يطلب على الكذب مثوبة ، ويقرع جليسه بأدنى كله .

وقال بعض الظرفاء يذمهم :

الكلْبُ والشاعر فى رتبةٍ ... ياليت أنى لم أكُنْ شاعرًا !
هل هو إلا باسِطٌ كفه ... يستمطر الوارِدَ والصادِرَا
والله لولا حُرُقاتُ الهوى ... ما كنتُ إلا رَجُلاً تاجِرَا

وقال ابن الروميّ :

يقولونَ مالا يفعلون مسبّةً ... من الله مسبوبٌ بها الشعراء

(١) ديوانه ١٤٤ ، وبقية :

* خفّ الهَوَى وتولّتِ الأوطارُ *

وقال أيضاً :

للناس فيما يكلفون مغارمٌ عند الكرام لها قضاء ذمامِ
ومغارم الشعراء فى أشعارهمْ إنفاق أعمارٍ وهجْرُ منامِ
وجفاء لذاتٍ ، وهجر مكاسبٍ لوخولفت حُرِسَتْ من الإعدامِ
وتشاغلٌ عن ذكر ربٍّ لم يزل حسنَ الصنائع ، سابغَ الإنعامِ

قوله : « مبارٍ » ، أى معارض . مضمار : طلَق . ممارٍ : مجادل . أفضنا : اندفعنا . يفضح : يكشف عيوبها . شبّه الجماعات فى الآداب بالخيل الجياد فى الطّلَق لايلحق غبارَها مَنْ يجاريها ، وجعل حديثهم بحسن تفنّنه يفضح الأزهار متى قرن بها .

* * *

[مجلس للشعراء]

ونجعل تفسيراً لهذا المجلس الموصوف باجتماع الشعراء ماحدث به دِعْبل (١) أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشِّيص وأبو نُوَاس، وهؤلاء مشيخة شعراء عصرهم ، فقال لهم أبو نواس: إنّ مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم مابعده فليأتِ كلُّ امرئٍ منكم بأحسن ما قال فلينشده، فأنشد أبو الشِّيص :

وَقَفَ الهوى بى حيثُ أنتِ فليس لِى متأخَّرٌ عنــــه ولا متقدَّمُ
أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حُبًّا لذكْرِكِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ
أشبهتِ أعدائى، فصرت أحبُّهمْ إذ كان حظِّى منكِ حظِّى منهمُ
وأهنتِنِى فأهنتُ نفسى صاغرًا مامَنْ يهونُ عليكِ ممن يُكْرَمُ

فجعل أبو نواسَ يعجب من حسن الشعر ، حتى ما كاد ينقضى عجبه .

(١) العقد ٥ : ٣٧٣ .

ثم أنشد مسلم أبياتاً منها :

فأقسم أنسى الدَّاعيات إلى الصِّبا ... فقد فاجأتها العين والستر واقع[1]

فغطَّت بأيديها ثمارَ نحورِها ... كأيدى الأُسارَى أثقلتها الجوامعُ

قال دعبل : فقال لى أبو نواس : هات أبا علىٍّ وكأنى بك قد جئت بأم القلادة .. لاتعجبى ياسلم ، فأنشدته :

أين الشبابُ وأيَّةً سلكا ... أم أينَ يُطلب؛ ضلَّ أم هلكا[2]

لاتعجبى ياسَلْمَ من رجلٍ ... ضَحِك المشيبُ برأسه فبكى

ياليت شعرى كيف صبرُكما ... يا صاحبىَّ إذا دمى سفكا[3]

لا تطلبا بظُلامتى أحــداً ... قلبى وطَرْفِى فى دمِى اشتركا

ثم سألناه أن ينشدنا فأنشد :

لاتَبْكِ لَيْــلَى ولاتَركَنْ إلى هِنْدِ

واشْرَبْ على الوَرْدِ من حمراء كالوَرْدِ[4]

كأساً إذا انحدرتْ فى حَلْقِ شاربها ... وجدْت حُمْرَتَها فى العين والخدِّ

فالخمرُ ياقوتةٌ ، والكأس لؤلؤة ... فى كفِّ جاريةٍ ممشوقة القدِّ

---

(١) ديوانه ٢٧٣ ، وفيه : « فأقسمت أنسى » .

(٢) ديوانه : ١١٧

(٣) بعده فى الديوان .

ياسَلْم ما بالشّيب منقصةٌ ... لاسوقَةٌ يُبْقِى ولا مَلِكَا

قَصَر الغوايةَ عن هوَى قمرٍ ... وجَدَ السَّبيلَ إليه مُشْتَرَكا

وغَدَا بأخرى عن تَطَلُّبِها ... صبًّا يُطامِنْ دونها الحَسَكَا

تسقيكَ من عَينها خمرًا ومن يَدِها
خمرًا ، فما لك من سُكرَين من بُدِّ

لى سكرتان وللندمان واحــــدةٌ
شيء خُصِصْت به من بينهم وَحْدِي

فلما بلغ هذا البيت، قاموا فسجدوا له ، فقال: أفعلتموها ! والله لا أ كلمكم ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً ! ثم قال : تسعة فى هجر الإخوان كثير ، وفى بعضها استصلاح للفاسد ، وعقوبة على الهفوة . ثم التفت إلينا وقال : أعلمتم أن حكيما عَتب على حكيم ، فكتب المعتوبُ عليه إلى العاتب: يا أخِى ، إن أيام العمر أقلُّ من تحمّل الهجر ، نظمَ ذلك الشاعر فقال :

العمرُ أقصرُ مدةً من أن يُمحّقَ بالعتابِ
أو أن يكدَّر ماصفا منه بهجرٍ واجتناب

وقال ابن طاهر :

إلى كَمْ يكون الصَّدُّ فى كلِّ ساعةٍ ولِمْ لا تَملِّين القطيعةَ والهجرا !
رويدكِ إنَّ الدَّهرَ فيـــه بقيةٌ لتفريق ذاتِ البين فانتظرى الدهرا

وقال آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنيًا أن الصدود هو الفراقُ الأوّلُ
حَسْبُ الأحبّة أن يفرِّق بينهم ريبُ الزمان فما لنا نستعجل !

وقال القاضى عبد الوهاب :

لا تستعجِل قطيعتى فكفى يوماً بذا الدّهر بيننا مقطع(1)

عمّا قريبٍ تجيء فُرقتنا ثمّت لا مُلتقَى ولا مجتمَع

وأخذه الكل من جميل :(١)

ولعلّ أيامَ الحياة قليلةٌ فعلامَ يكثر عَتْبُنا ويطُولُ !

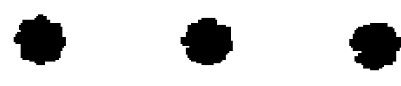
قوله : « نصفنا » ، أى بلغنا نصفه . غاض : جَفَّ . درّ الأفكار : كلامها ، والدَّرّ : اللّبن ، استعارة لما يتولد من الذهن . صبَتْ : مالت . الأوكار : البيوت هنا . لحنا : أبصرنا . تُحْضِر : تجرى . الجُرْد : الخيل القصيرة الشعر . استتلتْ : جعلتهم تِلْوَها يتبعونها . أنحف : أقلّ لحماً . الجوازل : فراخ الحمام ، واحدها جَوْزل . عزّتنا : قصدتنا .

* * *

حَيَّا اللهُ المَعَارِفَ ، وَإِن لم يَكُنَّ معَارِف ؛ اعلمُوا يا مَآلَ الآمِلِ ، وَثِمَالَ الأرَامِلِ ، أَنِّى مِن سرَوَاتِ القَبَائل ، وَسَرِيَّاتِ العَقَائِلِ ، لمْ يزَلْ أَهْلِي وَبَعْلِي يَحُلُونَ الصَّدْرَ ، وَيَسِيرُونَ القَلْبَ ، وَيُعطُونَ الظَّهْرَ ، وَيُولُونَ اليَدَ . فَلمَّا أرْدَى الدَّهْرَ الأعْضادَ ، وَفَجَع بالجَوَارِح الأكْبادَ ، وانقلَبَ ظَهْرًا لِبطْنٍ ، نَبَا النَّاظِرُ ، وَجَفَا الحَاجِبُ ، وذهَبَت العَيْنُ ، وَفُقِدَتِ الرَّاحةُ ، وَصَلَدَ الزَّنْدُ ، وَوَهَنَتِ اليَمِنُ ، وَضاعَ اليَسَارُ ، وَبانَت المَرَافِقُ ، وَلم يَبْقَ لنا ثنيّةٌ وَلاَ نابٌ ، فَمُذ اغبَرَّ العَيشُ الأخضَر ، وَازْوَرَّ المحبُوبُ

(١) البيت لسعيد بن حميد ، من قصيدة له فى زهر الآداب ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

الأصفر ؛ وَاسْوَدَّ يومِي الأبيض ، وَابيَضَّ فَوْدِي الأسْود ، حتى رَثَى لنا العَدُوُّ الأزرقُ ، فحَبَّذا المَوتُ الأحمر . وتلوى مَنْ تَرَوْنَ عينُه فرارُه ، وترجمانُه اصْفِرارُه ، قُصْوَى بُغْيةِ أحَدِهِمْ ثُرْدَة ، وقُصَارى أمنيَّتِه بُرْدَة . وكُنْتُ آلَيْتُ ألاَّ أبذُلَ الحُرَّ إلاّ لِلحُرّ ، وَلَوْ أنِّي مِتّ مِن الضُرّ . وقَدْ ناجتني القَرُونَة ، بأنْ تُوجد عِندَكُم المَعونة ، وآذَنَتْني فِراسَةُ الحَوْباءِ ، بأنكُم ينابيعُ الحِبَاء ، فنضَّرَ اللهُ امرأً أبرَّ قسَمِي ، وَصَدَّقَ تَوَسُّمي ، ونظَرَ إلَيَّ بِعَيْنٍ يُقْذِيها الجُمود ، وَيُقَذِّيها الجُود .



للمعارف الأول : الوجوه ، واحدها معروف . قال الشاعر :

متلثمين على معارِفِنا ثنى لهنَّ حواشيَ العصب

وإن لم يكنّ معارف ، أى وإن كنت لا أعرفهم . مآل: مرجع ، وقد آل يؤل أوْلا ومآلا ، إذا رجع . والآمل : الراجى . وثِمال : غياث وملجأ . الأرامل: المساكين، يعقوب: هنّ جماعة الرجال والنساء ، ويقال لهم : أرامل، وإن لم يكن فيهم نساء . ويقال: جاءت أرْملة من رجال ونساء محتاجين ، ويقال للرجال الضعفاء المحتاجين: أرْملة ، وإن لم يكن فيهم نساء . وأرمل القوم: فَنِيَ زادهم، وواحد الأرامل أرْمَل وأرْملة ، وإنما قيل للفاقدة زوجها: أرملة ، لأنّ أمرها يئول إلى الضيعة والحاجة . سَرَوَات : سادات ، واحدها سراة، والسَّرِيُّ: السيِّد الكبير

ذو المروءة ، والسرو : المروءة ، وقد سرىَ سرواً وسَرُو سراوةً : جمع السخا والفضل ، قال امرؤ القيس :

* ولَهَا عليه سَرَاوَةُ الْفَضْلِ * (١)

وأنشد يعقوب :

إن السرىّ هو السرىُّ بنفسه   وابن السرىّ إذا سرى أسْرَاهما (٢)

قال ثعلب : السرىّ فى كلامهم : الرفيع ، مأخوذ من السَّرَاة ، وسراة كلّ شىء : أعلاه ، وسريات : سيدات . العقائل : كرائم النساء ، تريد أن أباها وأمها من السَّادات . البعل : الزوج ، وبعل الرجل بعُولة : تزوّج . الصدر : مقدّم المجلس . القلب : قلب العسكر ، والعسكر خمسة أقسام : مقدّمة ، وساقة ، وميمنة ، وميسرة ، وقَلْب ، وهو محلّ الملوك ، أرادت أن قرابتها منهم . يمْطُون : يهَبُون . الظَّهر : الإبل بأوقارها ، وأمطاه : أعطاه دابة يركب مطاها ، أى ظهرها . يوُلون الْيد : يهبون النعمة . أردى : أهلك . الأعضاد : جمع عَضُد وهو غليظ الذراع الذى بين المرفق والمنكب . فجع : أحزن ، وجاء بفجيعة ، وهى الرزيّة يتفجّع عليها الجوارح : عوامل الجسد كاليد والرجل والعين ، تريد أنّ الدهر إذا أهلك أهلَها فكأنه قطع جوارحَها فتعطّلت منفعتها . انقلب : تحوّل . ظهر البطن : كناية عن الخلاف ، أى بعد أن كان مستقيما انقلب . نبا : ارتفع ولم يستقرّ . الناظر : مَنْ ينظرُ عليها . الحاجب : من يحجبها ويسترها . والعين : الذهب . الراحة : الدّعة والسكون . صَلَد : لم يورنارا ، وأرادت انقطاع الخير عنها . وهنت : استرخت . اليمين : القوّة . بانت : ذهبت وبَعُدت . المرافق :

(١) ديوانه : ٢٣٨ ، وصدره :

* فَلَهَا مقلّدوها ومقلّتها *

(٢) اللسان ــ سرى .

مَنْ كان يرتفق بحياته ومنفعته ، والمرافق : كلّ ما ارتفقتَ به من مال وغيره .
ثنيّة : صغيرة من الإبل . وناب : مسنّة .

وهذا الكلام كلّه استعارة كما تقدم فى الإبرة والمرود ، لكنّه كنى هنا بالجوارح والأعضاء عمّن كان يستعين به من القرابة على الدّهر ، ومعانى الأعضاء بيّنة إلا الراحة ، فإنها بطن الكفّ : والزند : طرف عظم الساعد ، والثنيّة والناب صريحتان ، ونبا الناظر : لم ينم ، وجفا الحاجب : لم يرسل الجفن على العين فتنام ، كما قال بشار :

نَبَتْ عينى عَنِ التغميض حَتّى ... كأنّ جفونها عنها قِصَارُ[(1)]

وقال التّهامىّ :

قَصُرَتْ جفونى أم تباعد بينَها ... أم صوّرت عينى بلا أشْفَارِ[(2)]

قوله : « أغبرّ » ، أى علته غُبرة . والأخضر : الناعم . أزورّ : انقبض . الأصفر ، هو الدينار . الفَوْد : ناحية الرأس بين الأذن والجبهة ، وهذا من قول أعرابىّ ذكر مصيبته فقال: مصيبة والله تركت سود الرءوس بيضاً ، وبيض الوجوه سوداً ، وهوّنت المصائب بعدها .

وقال عبد الله بن الزَّبِير الأسَدىّ :

رَمَى الحدثان نسوَة آل حرب ... بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا
فردّ شعورهنّ السُّود بيضاً ... وردّ وجوههنّ البيض سودَا

وقال التّهامى :

تُسَوِّدُ الشمس مِنّا بيض أوجهنَا ... ولا تسوّد بيض العذر واللِّمَمِ

---

(١) المختار من شعر بشار ٨ (٢) ديوانه : ٣٠

وكانَ حالُمها فى الحكم واحِدةً   لو احتكمنا من الدُّنيا إلى حَكَمِ

قوله : « رثى » بكى وأشفق . العدوّ الأزرق : أراد الرّوم وهم أعداء العرب . وللموت الأحمر : الشديد ، ومنه الُحسْنُ أحمر ، أى مَنْ أحبّ الُحسْن احتمل للمشقة . وفى الحديث : كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه ، فمعناه اشتدّ ، وقيل : معنى الموت الأحمر :القتل ، وقد قال الأخطل :

* أن قد أتيح لهنّ موتٌ أحمرُ *(١)

يريد قتل الثور الكلاب ، وتقدّم فى المقامة قبل هذه ، فلما فيه من الدم سُمّى أحمر ، وهو الأظهر من مقصد الحريرىّ ، لأنه علّق غيره من الصفات باللّون مثل العدوّ الأزرق ، والرّوم زرق العيون ، فكذلك الموت الأحمر .

أبو عبيدة : الموت الأحمر أن يتغيّر بَصَر الرجل من الهول ، فيرى الدنيه فى عينيه حمراء ورداء ، والموت الأغبر :هو الموت جوعاً،لأنه يغبرّ فى عينيه كلّ شىء ، والموت الأسود هو الموت فى غُمّة الماء ، والموت الأبيض هو موت العافية، قال الخطابى : الموت الأبيض ، أى فجأة ، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه .

قوله : « تِلوِى » ، أى خَلْفى وإلى جانبى . عينه : شخصه . فُراره :معرفته ، أى شخصه يعرّفكم بحاله ، والعرب تقول:عينه فراره للشىء تعرفه إذا أبصرته ، والفرّ فى البهائم . كشف أسنانها حتى يعرف مالها من السنّ . ووقع فى المقامات فُراره بضم الفاء ، وكذا فى نوادر أبى علىّ ، ووقع فى النسخ العِتاق من الأمثال لأبى عبيد : فِراره ، بكسر الفاء ، وأنشد أبو على:

* هو الحبيب عينه فِرارهُ *

---

(١) ديوانه ٢٣١ ، وصدره :

* أضِبًا و هَزَّ لَهُنّ رُمْحَىْ رأسِهِ *

وفسره فقال : نظرك إليه يُغنيك عن فرّه لتخبُره ، وهما لغتان : فُراره وفِرارُه .

قوله : « ترجمانه » المتكلم عنه ، يريد أن صفرةَ لونِه تخبِّرك أنَّه جائع . قُصوى : غاية . بُغية : طلب . وقصارى أمنيّته ، أى منتهى ما يتمنّاه وغايته . بُرْدة : ثوب ، أى أقصى ما يُطلب ما يأكل وغاية مايتمنّى ما يلبس. آليت : حلَفت . أبذل الحرّ : أهين الخدّ ، الحرّ : الكثير المروءة : ناجتْنِي : حدّثتنى . القرُونة : النفس . المُونة : مايستعان به ، آذنتنى : أعلمتنى . فِراسة الحوْباء : فطْنة النفس . الينابيع : جمع يَنْبُوع ، وهو مايخرج من الماء وينبع . الحِبَاء : العطاء . أبرّ . راعى وأكرم . توسّمى : نظرى وظنّى . يُقذيها : يجعل فيها القذى ، والجمود : الشحّ .

وقال بعضهم فى ذم التشكّى إلى المخلوق :

لاأشتكى ضُرِّى إلى النّا ... س وهم مَنْ أعلمُ
إن إلهًا مَسّ بالضرّ ... جـوادٌ مُنْعِمُ
أشكو الّذى يرحمنى ... إلى الّذى لايَرْحَمُ

الكستجىّ ، قال : أملقتُ حتى لم يبق فى منزلى إلا جارية ، فدخلت دار المتوكل ، فلم أزل متفكّراً ، فحضرنى بيتان ، فأخذت قصَبةً ، وكتبت على الحائط الذى كنت إلى جانبه :

الرّزقُ مقسومٌ فأجمِلْ فى الطّلبْ ... يأتى بأسبابٍ ومِنْ غيرِ سَبَبْ
فاسترْزِقِ الله ففى الله غنًى ... الله خير لك من أبٍ حَدِبْ

فركب المتوكّل فى ذلك اليوم ، وجعل يطوف على الحجر ، ومعه الفتح ابن خاقان ، حتّى وقف على البيتين، وقال : مَنْ كتب هذا ؟ وقرأهما الفتح له ،

فاستحسنهما ، وقال : مَنْ كان فى هذه الحجرة ؟ فقيل : الكستجىّ ، فقال : أغفلنا وأسأنا إليه ، فأمر لى ببَدْرتين .

وقال محمد بن مخلد الكاتب : لزمتُ أبا الحسن علىّ بن محمد بن الفرات . أغدو وأروح إلى بابه ، لا أحظى بطائلٍ ، ولا أصل إلى تصريف ولا نائل ، حتى كرهت نفسى ، فرأيت هاتفاً فى المنام يقولُ لى :

يأيُّهـا المكثر فى المطالبِ : اهجرْ تصاريفَ المُنى الكواذِبِ
إذا أتى وقت القضاء الغالبِ بادرتِ الحاجة كف الطالِبِ

فتركت المسير إليه ، فلم يمضِ لى أسبوع حتى تقلَّد حامد بن العباس الوزارة ، فقلَّدنى كتابته ، فثابت حالى .

* * *

قال الحارثُ بن همَّام : فهِمْنا لِبرَاعة عِبارَتِها ، ومُلَحِ اسْتِعارَتِها ، وَقُلنا لَها : قَدْفتَنَ كلامُكِ ، فكيفَ إلحامُكِ! فقالت : أُفَجِّر الصَّخْر ، ولا فَخْر ، فقلنا : إن جَعَلتِنا مِن رُوَاتكِ ، لم نبْخَل بموَاساتك ، فقالت : لَأُرِيَنّكُمْ أوّلاً شِعَارِى ، ثمّ لَأُرَوِّيَنّكُمْ أشْعارِى . فأبرزت رُدْنَ دِرْعٍ دَرِيسٍ ، وَبرزَت بِرزَة عَجُوزٍ دَرْدَبيس ، وأنشَدَت تقول :

أشكو إلى اللهِ اشتكاءَ المريضْ رَيبَ الزّمان المتعدّى البغيضْ
ياقومِ إنى مِن أناسٍ غنَوْا دَهْراً وجَفْنُ الدّهرِ عنهم غضيضْ
فخارُهُمْ ليسَ له دافعٌ وصيتُهمْ بين الوَرى مُستفيضْ

كانوا إذا ما نُجعةٌ أعْوَزَتْ   فى السَّنةِ الشَّهْباءِ روضًا أرْيضْ
تُشَبُّ للسَّارين نيرانُهمْ   وَيُطعمون الضيف لحمًا غَريضْ
ما باتَ جارٌ لهم سَاغِبًا   ولا لروْعٍ قال:حال الجريضْ

* * *

قوله « همنا » ، أى تحيّرنا . البراعة : الفصاحة . عبارتها : سياق كلامها . مُلَح استعارتها ، يريدما استعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء . إلحامك: نسجك الشعر . يفجِّر الصَّخْر ، أى يُخرج من الحجر الماء ، ومن البخيل العطاء . مواساتك : صِلتك ، وأصلها أن تجعل صاحبك أُسْوة نفسك . شعارى : ثوبى اللاصق بجسمى ، سُمِّىَ شعاراً لأنه يلى شعر الجسد ، والظِّهار : الثَّوبُ الذى يظهر للعيون ، والدِّثار: الثوب الذى بينهما. رُدْن : كمّ . درع: قميص. دريس. خلَق برزتْ : ظهرت . دَرْدَبيس : داهية . ريب : جور . غَنُوا : أقاموا. غَضِيض: منكسر . صِيتهم : ذكرهم الحسن، وهو من الصوت ، فلما كسرت الصاد أصُيِّر على وزن الذكر ومعناه، وانقلبت واوه ياء . مستفيض : متحدَّث به مشهور . نُجْعة : مرعى . أعوزت : فقدت . الشهباء : التى أجدبت فلا مطرَ فيها ، ولا عُشب . والرَّوض : الموضع الكثير العشب . أريض : متّسع . تشب: توقد. للسارين : للماشين بالليل : غَريض : طرىّ . ساغباً : جائعاً . الرَّوْع : الفزع . الجريض : الغَصّ بالريق عند الموت . حال : منع ، أى لا يقول جارهم حال الموت دون الأمن .

* * *

[أصل المثل : حال الجريض دون القريض]

ووفد عبيد بن الأبرص على النعمان الأكبر ، وهو ابن الشقيقة وبانى

الخورنق ، فامتدحه فوصله وأكرمه ، وكان له يوم نعيم ويوم بؤس فى السنة ، فورد عليه فى يوم بؤسه ، فقال له : ما أخرجك ، ثكلتك أمك! فقال: حضور أجلى ، وانقطاع أملى ؛ وكانَ مَنْ لقيَه يوم بؤسه لم يخلّصه من الموت شىء ، فاستنشده :

* أقفرَ مِنْ أهْلِهِ مَلْحوبُ *[1]

فقال له : حال الجريض دون القريض ، فعزم عليه أن ينشد ، فأنشده :

أقفرَ مِنْ أهَيْلِهِ عَبِيـــدُ　　فاليَوْمَ لا يُبدِى وَلاَ يُعيدُ

ثم قال له: اختر ، إن شئت أخرجتَ نفسك من الأكحل ، وإن شئت من الأبجل ، وإن شئت من الوريد ، فقال عبيد :

خيَّرتنى بين سحابات عاد　　فرِدْتُ من بؤسك شرَّ المراد

وكان قتل النعمان لعبيد سببَ قطعه يوم بؤسه ، فلم يفعله بعد[2] .

* * *

فغيَّضَتْ منهمْ صروفُ الرَّدَى　　بحارَ جُودٍ لمْ نخَلْها تفيضْ

وأودِعَتْ منهم بطونُ الثَّرى　　أسْدَ التحامِى وأُسَاةَ المريضْ

فمحلى بعد المطايا المطا　　وموطنى بعد البقاعِ الحضيضْ

وأفرخى ما تأتلى تشتكي　　بؤساً له فى كلِّ يومٍ وميضْ

(١) ديوانه : ١٠ وبقيته :

* فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ *

(٢) ديوانه ٤٥ ، وبعده هناك :

حَنَتْ لَهُ منيَّةٌ نَكدُ　　وحانَ مِنْهَا لَهُ ورودُ

إذا دَعا القـانتُ فى ليـلِهِ مولاه نادَوه بدمعٍ يفيضْ
يارَازقَ النَّعَّاب فى عُشّـهِ وجابِرَ العظم الـكسيرِ المهيضْ
أتِحْ لنا اللهمَّ مَنْ عِرْضُـهُ مِنْ دنسِ الذَّمِّ نقىٌّ رحيضْ
يطفِئُ نار الجوعِ عنّا ولو بمذقةٍ من حازرٍ أو مَخِيضْ
فهلْ فتًى يكشِفُ ما نابَهُمْ ويَغْنَمُ الشُّـكْرَ الطويلَ العريضْ
فو الذى تعنُو النواصى لَهُ يوم وجوهُ الجمعِ سودٌ وبيضْ
لولاهمُ لم تبْـدُ لِى صفحـةٌ ولا تصدَّيتُ لنظم القريضْ

* * *

قوله : « غيّضت » ، أى أذهبت. والصروف : الطوارى تَصْرِفك من حالٍ إلى حال . لم أَخَلْها : لم أحسبها . أُودِعَت : ضمنت . الثرى : التراب . التّحامى : الحماية والمَنعة ، وتحاميته: تباعدت منه وتمنّعت عليه . أُساة : أطباء : المطايا : الإبل . المطا : الظهر . مُحَمّلى : ما أحمل عليه أثقالى . تقول : صرتُ أحملُ على ظهرى بعد أن كان محملى ظهور الإبل . اليفاع: الارتفاع من الأرض. الحضيض : أسفل الجبل. ما تأتلى : تقصّر . بؤساً : ضراً . وميض : لمعان . القانت : العابد ، والقنوت. طول القيام : يفيض : يملأ العين حتى تفيض بالدمع. النعّاب : فرخ الغُراب ، اختصّه من الطير لأنهم يزعمون أنه يخرج من بيضَته أبيضَ الزَّغَب ، فيراه الذَّكَر فيستريب فيضرب أُنثاه ، وينقرها حتى تفرَّ طائرة فيطير خَلْفها ويتركانه ، فيقيِّض الله له ذباباً يطيرُ حول عينيْه ، فيفتح منقاره ليشرّدها ، فتدخل فى حلقه ، فيتغذّى بها حتى يسودّ ريشه ، فحينئذ يرجع إليا أبواه ، فيكمّلان تربيتَه . ويارازق النعّاب، من دعاء داود عليه السلام. المهيض:

الذى انكسر بعد الجبر . أتخ : قذر . رحيض : مغسول . مَذْقة : جُرعة . حازِر . لبن حامض شديد الُحموضة . والخَيض : اللبن يُمزَج بالماء ، ويحرّك ، والمخْض التحريك ليخرج زُبده، وإذا طال مكث الخَيض واشتدت حموضته سمى حازراً . نابهم : نزل بهم . العريض : الواسع العرض . تعنو : تذِل . النّواصى : شعر مقدّم الرأس . صفحة : ناحية العنق . تصدّيت : تعرّضت . القريض : الشعر .

* * *

قال الرّاوِى : فوالله لَقَدْ صَدَّعَتْ بأبياتها أعشار القُلوب ، واستخرجَتْ خبايا الجيوب ، حتى ماحَها مَنْ دِينُه الامتياح ، وارْتاحَ لِرفْدِهاَ مَنْ لم نَخَلْهُ يَرْتاح . فلمّا افعو عمَ جيبها تِبْرًا ،وَأَوْلاها كلٌّ مِنّا بِرًّا ، تَوَلّتْ يتلُوهاَ الأصاغر، وفوها بالشُكْرِ فاغر، فاشرأبّتِ الجماعة بَعْدَ ممرّها ، إلى سَبْرِها ، لِتبلوَ مواقِعَ بِرّها . فكفلْتُ لهم باستنباطِ السِّرِّ المرموز ، ونهضتُ أقفو أثَرَ العجوز ، حتى انتهيتُ إلى سوقٍ مغتصّة بالأنامِ ، مختصَّةٍ بالزّحام ، فانغمستْ فى الغُمار ، وامّلَسَتْ مِنَ الصِّبْيَةِ الأغمارِ ، ثم عاجَتْ بِخِلوٍّ بَالٍ ، إلى مسجدٍ خالٍ ، فأماطتِ الجِلباب، و نفضتِ النّقاب ، وأنا ألمحُها من خَصاصِ الباب ، وأرقبُ ماستبدِى من العُجاب .

* * *

قوله : «صدعت» : شقت: أعشار: قِطع: خبايا : ماخبىءفيها من الدراهم . ماحها : أعطاها . دِينه : عادته . الامتياح : طلب المعروف، يريد مشيخة الشعراء الذين قد مرّ ذكرهم ، وعيش الشعراء إنما هو من الاستجداء والطلب ، ومعلوم أنه مَنْ كانت عادته أن يأخذ لا يعطى فى الغالب شيئاً ، ولذلك قال: من لم نَخَلْه يرتاح ، أى من لم نحسب أنه يهتزّ للعطاء ، وقد ارتاح ، إذا اهتزّ للكرم والعطاء ولذلك قال حبيب :

لم يخلق الرحمنُ أحمقَ لحيةً من سائل يرجُو النّدى من سائلِ

وقال آخر :

لَموتُ الفتى خيرٌ من الفقر للفتى وللموتُ خير من سؤال بخيلِ
لعمرُكَ ما شيء لوجهك قيمة فلا تَلْقَ مخلوقاً بوجه ذليلِ
ولا تسألنْ من كان يسأل مرّة فَللمَوتُ خيرٌ من سؤال سَئولِ

وحدّث عيسى بن عمر النحوىّ ، قال : قدمتُ من سفر ، فدخل علىّ ذو الرُّمة الشاعر ، فعرضت عليه أن أعطيَه شيئاً ، فقال : أنا وأنت نأخذ ولا نُعطى .

ومدح أبو الشمقمق مَرْوان بن أبى حفصة فقال له : يا أبا الشمقمق ، أنت شاعر وأنا شاعر ، وغايتنا جميعاً السؤال .

وكان بشار يعطيه فى كل سنة مائتى درهم ، فأتاه مرّة ، فقال : هلمّ الجزية يا أبا معاذ ، فقال : وَيْحَك ! أجِزية هى ؟ قال : هو ما تسمع ، فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح مِنّى ؟ قال: لا ، قال : فأعلم ؟ قال : لا ، قال : فأشعر ؟ قال: لا ، قال : فلِمَ أعطيك ؟ قال : لئلا أهجوك ، قال : إن هجوتَنى هجوتُك ، قال أبو الشمقمق : أو كذا هو ؟ اسمع :

إنى إذا ما شاعرٌ هجانِيَهْ أدخلت فى إست امّه علانيَهْ

بشار يا بشار . . . . وأراد أن يقول : يا بن الزانية ، فأمسك بشّار بفمه ، وقال : أراد والله أن يشتمَنِي. ثم دفع إليه مائتى درهم ، وقال : لا تسمعنّ منك هذا الصبيان .

ولقيتُ بسِجِلماسة شاعرَها وعينها الحاج أمدحثر ، وكان له شعر رائق ، فحُدِّثت عنه أنه قصده يوماً فتى شاعر يستجديه بشعر، فوقع الحاجّ تحت شعره :

نحنُ بزاةُ النّاسِ لا نصادُ مَنْ كان ذا فهمٍ بنا يَصْطَادُ

ثم كتب له ، قطعة من شعره ، وقال له : اقصد بها فلانا فإنه يصلُك بما يرضيك ، فعلم المقصود بالشعر بنية الحاج ، فوصله بما أرضاه .

وعد أبو نواس أبا الطفيل الشاعر وعداً فألحّ عليه ، فقال :

وأخْرَسَ ولاجٍ وغادٍ ورائحٍ رجاء نَوَال لو يُعـــانُ بجودِ
وإنى وإياه كعريانَ يصطلى من الظِّلّ ناراً غير ذات وقودِ
زَوَيْتُ له وجهاً قَطُوباً عن النّدى وألبستُه من وعدِه بوعيدِ
فإن كنت لاعن سوء فعلِك مُقْلِعاً فدونك فاستظهرْ بنعل حديدِ
فعندىَ مَطْلٌ لا يطـــير غرابُه مطير ولا يدعى له بوليـــــد

قوله : « افعوعم» ، امتلأ،وافعوعلُ بنيت للمبالغة . تبراً : ذهباً . أولاها : أعطاها . البرّ : الإكرام . فاغر : منفتح . اشرأبّت : تطلّعت ، وتقول : اشرأبّ الرجل ، إذا مدّ عنقَه لينظر . سَبْرها : اختبارها . تبلُو : تختبر ، يريد أنّ الجماعة أرادت أن تعرف : هل أوقعتْ إكرامَها فيمن يستحقه أم لا . كفلت ضَمِنت . استنباط : استخراج . للرموز : الخفيّ . نهضت : تقدّمت للمشى أقفو : أتبع . منتعتة : ممتلئة . انغمست : غابت ودخلت . الغُمار : كثرة الخلق

وجماعتهم الّتي تغمر الأرض ، أي تغطّيها ، وردّه ابن الانباري وجعله من خطأ العامّة ، وقال : إنما تقول العرب دخل في خُمار الناس ، بالخاء ، وهو جمعهم ، إذا استتر بهم ، ومنه الخُمَار لتغطية الرأس ، ومنه الخمر . وقال يعقوب : هو كلّ ما استتر به الإنسان من شجر أو غيره ، فإن كان من شجر خاصّة فهو الضَّرَاء ، وحكى بعضهم غُماراً ، جعله من غَمر الماء الشيء ، إذا غطاه . قوله : املّست : انفلتت بسهُولة ، والامّلاس : أن يسقط الشيء من يدك ولا تشعر به . الأغمار : الجهّال . عاجت : مالت . بخلوٍّ بال ، أي خالية منفردة . أماطت : أزالت . الجلباب : ثوب أوسعُ من الخمار يتجلبب به ، أي يلتف فيه ، والجلباب كالملحفة للمرأة ، والرداء للرجل . نَضَت : نحّت وَجرّدت : النقاب : ما يغطّى به الوجه . ألحها : أنظرها . خَصاص : فُرَج ، يريد به من شُقوق الباب .

* * *

فلمّا انسَرَتْ أهْبَةُ الخَفَر ، ورأيتُ مُحيّا أبي زيدٍ قَدْ سَفَر ، فهممتُ بأن أهجم عليه ، عَلَى ما أجرى إليه ، فاسْتلقى استلقاء المتمرّدين ، ثم رفع عقيرة المغرّدين ، واندفَعَ يُنشِدُ :

يا ليتَ شِعري أدَهْرِي أحاط علماً بقَدْري
وهل دَرَى كُنْهَ غوري في الخِدْعِ أم ليسَ يَدْرِي
كم قدْ قَمَرْتُ بَنِيهِ بحيلتي وبمكْرِي
وكم برزتُ بعرفٍ عليهمْ وبنُكْرِ
أصطاد قوماً بِوعظٍ وآخرين بشِعْرِ
وأستفزُّ بخَلٍّ عقلاً وعقلاً بِخَمْرِ
وتارةً أنا صَخْرٌ وتارةً أختُ صخرِ

ولو سَلـكتُ سبيلاَ مألوفةَ طول عمري
لخاب قِدْحِي وَقَدْحِي ودام عُسْرِي وخُسْرِي
فقل لمن لاَمَ : هـذا عُذْرِي فدونك عُذْرِي

• • •

انسرَتْ : زالت ، ويروى: بفصل سرت عن إن ، ومعناه إن أزالت بالهمزة - والمنفصل فعل العجوز ، والمتصل فعل الأهبة ، وهى العُدّة ؛ يريد لمّا أن أزالت عنها هيئة لباسها التى استترت بها عنا كان الخَفَر وهو الحياء يمنعُها أن تـكشف وجهها حتى نعرفهاَ . محيّا : وجه . سفر : انـكشف . أهجم : آخذه على غفلة . أعنّفه : أقبّح فعله . اسلنقى : صار على ظهره . المتمردين : الشياطين ومن لا يرجَى صلاحه . عقيرة : صوت . المغرِّدين : المطربين بالغناء ، والعقيرة بمعنى معقورة ، أى جارحة مقطوعة . كان رجل قطعت إحدَى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى ، ورفع صوته فقيل لـكلّ مَنْ رفع صوته : قد رفع عقيرَته .

قوله : « يا ليت شعرى » معناه : ليت دِرَايتى وفطنتى ، ومعنى الشاعر فى كلامهم الفطن العالم ، وسُمِّى شاعراً ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره . وأجاز الفرّاء : ليتَ شعرى أباكَ ما صنع ، على معنى: ليتنى أعلم أباكَ ما صنع ، وأنشد :

ليت شعرى مسافر بن أبى عمــــرو وليتٌ يقولهـا المحزونُ

ومعناه ليتنى أعلم مسافرا .

وقال آخر :

خَمَّر الشيبُ لِمَّتِي تخميرَا وحَدَا بى إلى القبور البَعِيرَا
ليت شعرى إذا القيامة قامتْ ودُعِي بالحساب أينَ المَصِيرا

قال ثعلب : المصير منصوب بشِعْرِى ، أى ليتنى أعلم المصير أين هو ، والبعير منصوب بحدا ، أى وحدا الشيب البعيرَ إلى القبور بى . كنه : حقيقة . غورى : آخر أمرى ، وأصل الغَوْر : قعر الحرَجَة والمنخفض من الأرض . قَمَرت : غلبت وخدعت . مكرى : خداعى . أستفزّ : أستخف وأخدع ، واستفزّه من كذا : أخرجه منه ، والخلّ كناية عن الشرّ ، والخمر كناية عن الخير ، هذا على مذهب العرب . وكانت الخمر أجلّ ما عندهم ، ويقولون : ما عنده خَلٌّ ولا خمر ، أى ما عنده شرّ ولا خير ، وإذا فسدت الخمر عندهم صارتَ خَلاًّ ، وقد قال فى ألغازه :

وما شىء إذا فسدَا تحوَّل غيُّــه رشدَا

يريد أنَّ الخمر إذا فسدت ، صارت خَلاًّ ، فبعد أن كانت حراما رجعت حلالا ، وزال تأثيرُها فى العقول .

صخر : هو ابن الشريد ، وأخته الخنساء ، فأراد أنه مرَّةً رجل ، ومرَّةً أخرى امرأة .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة لُعِنوا فى السماء : رجل خلقه الله ذكراً فتأنَّث ، وامرأة خلقها الله أنثى فتذكرت ، تتشبَّه بالرجال . والذى يُضلُّ الأعمى ، ورجل حَصُور ؛ ولم يجعل الله حَصُوراً إلاَّ يحيى بن زكريا عليهما السلام .

وأما صخر ، فهو ابن عمرو بن الحارث بن الشَّريد بن رباح[1] ، من بنى سُليم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس بن عيلان . وكان فى جماله أجملَ رجل فى العرب ، وسنذكر لمعة من أخبار صخر وأخته الخنساء فى المقامة الأربعين إن شاء الله تعالى .

---

(١) ابن : « رياح » .

سلكت سبيلاً : دخلت طريقاً. مألوفة : مركوبة ملتزمة . قِدْحي : سهمي . قَدْحي : ضربي بالزَّند . عسري : فقري . خسري : ضدّ ربحي ، والخسر : النقص، يريد: لو مشيت على طريقة واحدة أبدا لخسرت وخبت. دونك ، أي خذ.

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام : فلمَّا ظَهَرْتُ على جَلِيَّةِ أَمْرِه ، وبديعَةِ إِمْرِه ، وَمَا زخرفَ في شِعْرِهِ مِنْ عُذْرِه ، علمتُ أن شيطانَهُ المَرِيد ، لا يسمعُ التفنيد ، ولا يفعل إلا ما يريد . فثنيتُ إلى أصحابي عِنَانِي ، وأبثثتُهُمْ ما أثبتَه عِيانِي ، فَوَجَمُوا لضيعة الجوائز ، وَتَعَاهَدُوا على مَحْرَمَةِ العجائز .

* * *

جلية : ظاهرة . بديعة: غريبة . إمره : دهائه وعجبه . زخرف : زيّن . المَريد : العارى من الخير إنما هو شرّ كله . التفنيد : اللوم ، وفنّدت فعله ، إذا عبتَه . ثنيت : عطفت ، وتقول : جاء ثانياً عنانه ، إذا بلغ مراده ولم يجهد نفسه . أبثثتهم: أخبرتُهم . أثبته : حققه . عِياني : معاينتى . وَجَمُوا : غضبوا . الجوائز: العطايا . تعاهدوا : تحالفوا . محرمة : منع وحرمان .

المقامة الرابعة عشرة وهي المكيّة

حكى الحارث بن همّام ، قال : نهضتُ مِنْ مدينةِ السّلام ، لحَجّةِ الإسلامِ ، فلمّا قضيت بعونِ الله التّفثَ ، واستبحتُ الطيبَ والرّفثَ ، صادَفَ مَوْسِمُ الخَيْفِ ، معمعانَ الصّيف ، فاستظهرْت للضّرُورة ؛ بما يَقِي حَرّ الظّهِيرَة ، فبينا أنا تحْتَ طِرَافٍ ، مَعَ رُفقةٍ ظِرَافٍ ، وَقَدْ حَمِيَ وَطِيسُ الحَصْبَاء ، وَأَعْشى الهجيرُ عَيْنَ الحِرْبَاء ، إذْ هَجَمَ عَلَينا شَيْخٌ مُتسعسِع ، يتلوه فتًى مترعرِعٌ ، فسلّم الشّيخُ تسليم أديبٍ أريبٍ ، وَحَاوَرَ محاورة قريبٍ لا غريبٍ ، فَأَعْجبْنا بما نَثَر مِنْ سمطه ؛ وعجبنا من انبساطه قَبْلَ بَسْطِهِ ، وَقُلْنَا لَهُ : ما أنتَ ! وكيفَ وَلَجْتَ وما استأذنتَ !

* * *

نهضت ، أي تقدّمت ، وسمّي النهوض تقدّما لسرعة الحركة ، وسمّى المنصور بغدادَ مدينة السلام ، لأنّ دجلة يقال لها وادى السلام ، ونهر السلام ، وأضاف الحجة إلى الإسلام لأنها أحد أركانه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خمس » ، والحجّ أحدها . التّفث : ما يلزم الحاجّ من ترك الطّيب وحِلاق الشعر . والرفث : النكاح . استبحت : استحللت . الموسم : الموضع الذى يجتمع فيه النّاس من عيد أو سوق . الخيْف : موضع بمكة . معمعان : شدّة الحرّ . استظهرت : استعددت ، تقول : قد استظهر للشيء

بكذا إذا استمدَّ له ، وقد تقدَّم آنفاً للحسن :

* فدونك فاستظهر بنعل حديدِ *

بقى: يمنع . الظهيرة : حرّ نصف النهار ، فيقول: بسبب ضرورة الحرّ جعلت على نفسى سِتْرًا يمنع عنى حرّ الشمس . طِراف : قبّة من جلد . ظراف : جمع ظريف ، وهو النبيل المهذب . حمى وطيس الحصباء : اشتدَّ حرّ الجنادل لمن وطئها ، وأصل الوطيس التنور يحمى فيطبخ فيه . أعشى : أعمى . الهجير : حرّ نصف النهار . الحِرْباء : دويبة تستقبل الشمس وتدور معها ، وانظرها فى المقامة السادسة والثلاثين ، وقال المعرّىّ :

وهجيرة كالهَجْر موجُ سَرابها كالبحر ليس لمائه من طُحْلُبِ[1]
أوفى بها الحِرْباء عودىْ مِنبر للظهـر إلا أنه لم يخطبِ
فـكأنه رام الـكلام ومسّه عِىّ فأسعـده لسانُ الجندُبِ

وقال أيضاً فى نحوه :

وساحرة الأقطار يجنى سرابُها فتصاب حرباء بريًّا على جِذْعِ[2]

قوله : « هجم » أى دخل على غفلة . متسعسع : هَرِم متقارب الخطو . مترعرع: شاب متزايد ، وترعرع الغلام ، أى أخذ فى الزيادة فى طوله وخِلقته ، والترعرع : الشباب . أريب : عاقل . حاور : راجع الـكلام . نثر من سمطه ، أبدى من كلامه ، وأصل السِّمْط خيط الجوهر . انبساطه : دالّته ، وهذا الـكلام أصله فى البساط ، تقول : بسطته فانبسط ، فلا يكون الانبساط مطاوعاً إلا بعد الشروع فى البسط ، يقول : فهذا الشيخ انبسط علينا قبل أن نبسطه ،

(١) سقط الزند ١١٣٢ .
(٢) سقط الزند ١٣٥١ .

أى دلَّ علينا قبل أن نجعل له السبيل فى ذلك . ومما يستحسن من المنظوم هنا قول ابن كناسة :

فىَّ انقباض وحشمة فإذَا لاقيتُ أهل الوفاء والكَرَمِ[1]

أرسلتُ نفسى على سجيَّتها فقلت ما قلت غير محتشم

قال إسحاق الموصلىّ : أنشدَنِى ابنُ كُناسة هذين البيتين ، فقلت له : وددت أنى سبقتُك إليهما وينقص من عمرى سنتان .

ولجت : دخلت .

* * *

فقَال : أماَ أنا فعافٍ ، وطالِبُ إسعافٍ ، وَسِرٌ ضُرِّى غير خافٍ ، والنَّظرُ إلىَّ شفيعٌ لى كافٍ ، وأما الانسياب ، الذى علق به الارتياب ، فماَ هُوَ بمُجاب ، إذْ ما على الكرماء من حجاب ، فسألناه : أنَّى اهتدَى إلينا ، وبم استدلَّ علينا ؟ فقال : إنَّ للكرام نشراً تنمُّ به نفحاته ، وتُرْشِدُ إلى روضه فوحاته ، فاستدللتُ بتأرّج عَرْفِكُمْ ، عَلَى تبلّج عُرفكم ، وبشَّرَنى تضَوُّعُ رَنْدكم ، بحسن المنقلَبِ مِنْ عندكُمْ . فاستخبرناه حينئذ عن لُبَانَتِهِ ، لنتكفَّل بإعانتِهِ .

* * *

عاف : طالب معروف . إسعاف : قضاء حاجتى . الشفيع : الطالب لغيره ،

(١) الأغانى ٤ : ٣٦ .

يقول : لست أحتاج إليكم مع ظهور سرّى لشفيع ، لأن نظركم إلىّ يغنى عن عن الشفيع . كافٍ : مغنٍ عن غيره . الانسياب : الدخول بسهولة ، وقد تقدّم أصله فى الأولى . الارتياب : الشكّ والإنكار . عجاب : مبالغة فى عجب . أنّى : كيف . نَشْرًا تنِمُّ به نفحاتُه : طيبا تفوح روائحه وأنفاسه . ترشد : تدلّ وتهدى . فَوْحاته : روائحه العطرة . والعَرف : الرائحة الطيبة ، وتأرّجها : تحركها ، وتأرّج الطِّيب : فاح . تبلّج : ظهور . عرفكم : معروفكم ؛ ولاحظ الحريرى فى هذا قول العَرْجِىّ :

يوم يقول الرسول قد أذنت فأت على غير رقبة فلج(١)
أقبلت أهوى إلى رحالهم أهدى إليها بريحها الأرِج

قالوا : ويستدل بالطيب على الملوكية فى المواطن التى يكون الناس فيها غير معروفين ؛ فمن ذلك الحمّام ومعرك الحرب ، ومثل هذا الموطن الذى ذكر الحريرى فى الحج إذا حلّ ، قالوا : والطيب دليل لا يكذب ونمّام لا يفسد ، والطيب : غذاء الرُّوح ، والنفحات الذكية : نشاط النفس ، فهو طَبٌّ وطيب ، وقال ابن البوّاب :

إذا أبصرتْكَ العين من بُعْد غاية فأوقعتُ شكا فيك أثبتك القلبُ
ولو أنّ ركباً يمّمُوكَ لقادَمِ نسيمُك حتى يَستدلّ بك الركب

وقال السّرى الموصلىّ :

حُليُّهُ وثنـاياه وعنـبرُه كلٌّ ينم عليـه أو يراقِبُهُ
فلست أدرى إذا ما سار فى أفق شمائل الأفق أذكى أم جنائبُهُ

---

(١) الشعر والشعراء ٥٥٨ ، قال : « ويقال : إن الجعفر بن الزبير » .

وقال ابن سكّرة :

أهلاً وسهلاً بمن زارت بلا عِدَةٍ … تحت الظلام ولم تحذر من العَسَسِ[1]
تستّرت بالدجى عَمْداً فما استترت … وناب إشراقها ليلا عن القَبَسِ
ولو طواها الدُّجَى عنّى لأظهرها … برق الثّنات وعطر النّحر والنفَسِ

وأخذه المعتمد بن عباد فقال :

ثلاثة منعتْنا من زيارتهـــا … خوفُ الوشاة، وخوف الحاسد الحَنِقِ
ضوء الجبين وَوَسْوَاس الحلىّ وما … تحوى معاطفها من عنبر عَبِقِ
هب الجبين بفضل الكمِّ تستره … والحلْىُ تنزعه ، ما حيلة العرَقِ !

* * *

فقال : إنّ لى مأربًا ، ولفتاىَ مطلبًا ، فقُلْنا : كِلاَ المُرَامَيْنِ سَيُقْضَى ، وَكِلاَ كماَ سوفَ يرضى ، ولـكن الـكُبْرِ الكُبْر ، فقلنا : أجل ، ومن دَحَى السَّبع الغُبْر ، ثم وثب للمقال ، كالمُنشَطِ من العِقال ، وأنشد :

إنّى امرؤٌ أبْدِعَ بى … بَعْدَ الوَجَى وَالتَّعَبِ
وَشـقّتى شَـاسِعَةٌ … يَقْصُرُ عَنْهـاَ خَبَبِى
وَما مَعِى خَرْدَلَةٌ … مطبوعَةٌ مِنْ ذَهَـبِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣

فحيلتي مُنْسَـــدَّةٌ وَحَيْرَتِي تَلْعَبُ بِي
إنِ ارتحلتُ راجلاً خِفْتُ دَوَاعِي الْعَطَبِ
وإن تَخَلَّفْتُ عنِ الرُّفْـــقَةِ ضَاقَ مذهبي
فزفرَتِي في صُـعُدٍ وَعَبْرَتِي في صَبَبِ
وأنتمُ مُنْتَجَعُ الرَّ اجِي وَمَرْمَى الطَّلَبِ
لُهَـــاكُمُ منهـلَّةٌ وَلا انْهِلاَلَ السُّحُبِ
وجارُكُمْ في حَــرَمٍ وَوَفْرُكُمْ في حَرَبِ
ما لاذ مُرْتاعٌ بكُمْ فخافَ نابَ النُّوَبِ

• • •

قوله: «مأربا»، أى حاجة. المرامين: المطلبين. الكُبْرَ الكُبْرَ، أى قدِّموا الأكبر.

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم: أمرنى جبريل عليه السلام أن أقدِّم الأكبر.

أجل: نعم. دحا: بسط. السبع الغبر: الأرضين. المنشَط: المحلول. عِقال: قَيْد البعير، وعَقَدْته بأنشوطة، أى عقدته عقدةً تنحلُّ بجذْبة أو بجذبتين، وقولهم: بئر نَشُوط، إذا كان دلوُها يخرُج بجذْبة أو جذبتين، وتسمى عامَّتنا عقدة الأنشوطة اللخّ. أبدِع بى: أى عَطِبَت ناقتى، يقال: أُبْدِعَ بالرَّجل إذ كلَّت إبلُه أو عَطِبت. وفى الحديث: إنَّ رجلا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: احملنى فإنى أُبْدِع بى، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «ما عندى ما أحملك عليه ولكن اذهب إلى فلان فقل له يحملك»، فأتاه فحمله

فرجع إليه فأخبره ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ دَلَّ على خير فله أجْر فاعلِه». قوله: «الوجى» : وجع الحافر من الحَفَى . شُقّتى شاسعة : سَفَرتى بعيدة . خَبَبِى: مِشيتى ، وخببَ الفرس خَبَباً ، وهو ضرب من العدْوِ دون الإسراع . الخردل : حبّ معروف فى نهاية الصِّغر . مطبوعة : مصنوعة . منسدَّة : منغلقة . العطَب : الهلاك . تخلَّفت : تأخرت . مذهبى : طريقى . زفرتى فى صُعُد : نَفَسى فى ارتفاع . عبرتى فى صَبَب : دمعى فى انحدار . المنتجع : الموضع الخصيب الذى يُنتجَع للمرعى ، يقول: موضعكم خصيب وأنتم كرام فمن طلب منكم رزقه وجَده . لُهَاكم : عطاياكم . منهلّة : منصبَّة . لاذ : تستَّر ولجأ . مرتاع : خائف . النُّوَب: جمع نائبة على غير قياس ، وهى الداهية ، وجعل لها نابا مجازا وجنّس به ، وأصل الناب للسبُع .

* * *

ولا اسْتَــدرَّ آملٌ حِباَ كُمُ فَمَـا حُبِى
فانعَطِفوا فى قِصَّتِى وَأَحْسِنُــوا مُنْقَلَبِى
فلَوْ بَلَوْتمْ عِيشَتِى فى مطعَمِى وَمَشْرَبِى
لساءكمْ ضُرِّى الّذِى أَسْلَمَنى للــكُرَبِ
ولو خَبرتمْ حَسَبِى وَنسَبِى وَمـــذْهَبِى
وَمَا حَـوَتْ معْرفتِى من العُـلومِ النُّخَبِ
لمـا اعترتكمْ شُبهةٌ فى أنَّ دَائى أَدَبِى
فليْتَ أَنِّى لم أكنْ أُرْضِعتُ ثَدْىَ الأَدَبِ

فقد دهانى شُؤْمه   وَعقّنِي فيــه أَبي

* * *

استدرّ : طلب الدّرّ وهو اللبن . آمل : راجٍ . حِباءكم:عطاءكم . انعطِفوا: مِيلوا . منقلَبي : مرجعي ، يقول : عسا كم أن تشفقوا عليّ وتميل قلوبكم بالرحمة إليّ حتى يحسن منقلبي من عندكم . بلوتم : جرّبتم . أسلمنى : تركنى.الكرب: الهموم . خبرتم : اختبرتم . حَسَبي : شرفي . والحسب آباء أشراف بحسب أو أفعال كريمة . مذهبي : طريقتي . خوت : جمعت . النُخَب المختارة . اعترتُكم قصدتْكم . شبهة : شكّ وحيرة . دهانى : أهلكنى وضرّنى . شؤمه : نحسة . عقنى : قطعنى وأساء إليّ بتعليمه ، فهو يتطيّر بأدبه .

[حِرفة الأدب]

والتّطيّر بالأدب مذهب قــــديم متداول ، وقد أشار إليه ابن قتيبة فى صدر أدبه :

وقال عمرو بن شبّة : من أعجب العجب ثلاثة مقارنة لثلاثة : الحِرْفة للأدباء ، وتباعد المال عن الظرفاء ، وإقبال الدنيا على النّوْكى .

وقيل للحسن البصرى رحمه الله : لِمَ صارت الحرفة مقرونة مع العلم ،والثروة مقرونة مع الجهل ؟ فقال : ليس كما قلتم ، ولكن طلبتم قليلا فى قليل فأعجزكم، طلبتم المال وهو قليل فى أهل العلم وهم قليل، ولو نظرتم إلى مَنْ تحارَف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر ؛ وقال الحدونى :

ماازددتُ من أدبى حرفا أُسَرّ به   إلاّ تزيّدت حرفا تحته شومُ

كذا المقدَّم فى حــذق بصنعتِهِ   أنى توجّه فيهــا فهو محرومُ

وقال أبو إسحاق الصّابى .

إذا جمعتْ بين امرأين صناعةٌ فأحببتَ أن تدرِى الذِى هو أحذقُ
فلا تتفقد منهما غيرَ ما جرتْ به لهما الأرزاق حين تفرّقُ
فحيث يكون النّقص فالرزق واسعٌ وحيث يكون الفضل فالرزق ضَيِّقُ

أخذه عبد الملك بن وهبون ، فقال :

يعزّ على العلياء أنِّىَ خاملٌ وإن أبصرت منى خمودَ شهابِ
وحيث ترى زند النّجابة وارياً فثمّ ترى زند السّعادة كابِى

وقال أبو إسحاق الصّابى:

قد كنت أعجب من مالى وكثرتِه وكيف تغفل عنه حِرْفةُ الأدب[1]
حتى انثنت وهى كالغضْبَى تلاحظنى شَزْرًا فلم تبق لى شيئاً من النّشَبِ
واستيقنت أنها كانت على غَلطٍ فاستدركته وأفضت بى إلى الحَرَبِ
الضبّ والنون قد يُرْجى اجتماعهما وليس يُرجَى اجتماع المال والأدَبِ

وقال على بن بسام يَرْثى عبد الله بن المعتز ، على ما كان بينهما من العداوة :

لله درُّك من مَيْت بمضيعةٍ ناهيك فى العلم والآداب والحَسَبِ[2]
ما فيه « لوٌّ » ولا « ليت » فتنقصَه وإنما أدركته حرفة الأدَبِ

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٢٤
(٢) ثمار القلوب ١٩٢

وكان ابن المعتز قام على المقتدر ، فلما ظفر به أمَرَ فرُمِىَ فى صهريج فيه ماء فى شدّة البرد فمات . ومن عجائب الدنيا أنّ أباه المعتزّ لما خُلع عن الملك أدخِل حمّاماً ، وأغلق عليه فمات من حرّه .

وكما نفَوْا أنّ يجتمع المال والفهم فى الغالب ، كذلك نفَوْا أن تجتمع النجابة فى الولد والوالد فى الغالب ، قال الشاعر .

إذا أطلع الدهر حُرًّا لبيباً فكُنْ فى ابنه سَيِّىء الإعتقادِ
فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً وهل تلد النّار غير الرّمادِ !

ولما أوجع الفقر والحرمان القاضى عبد الوهاب [1] لأجل أدبه على ماشرطوا فى الأدب ، تمنَّى الكفاف ولزوم العلم إلى الممات ، فقال :

يالَهْفَ نفسى على شيئين لو جُمعا عندى لكنت إذاً من أفضل البشر
كفاف عيش كفانى ذلّ مسألةٍ وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى

فلما فتح عليه باب الرزق مات ، على ما يأتِى ذكره ، فسبحان من أنفذ حكمه فى خلقه كيف شاء !

* * *

فقلنا له : أما أنت فقد صرّحَتْ أبياتُك بفاقتِكَ ، وعَطَبِ إقتِكَ ، وَسَنُعْطيكَ ما يوَصِّلُكَ إلى بَلَدِكَ ، فما مَأْرَبة وَلَدِكَ ؟ فقال له : قُمْ يابُنَيّ كما قام أبوكَ ، وفُهْ بما فى نَفْسِكَ لا فضّ فُوكَ . فنهضَ نهوضَ البطلِ للبِرَازِ ، وَأَصْلَتَ لِسَاناً كالعَضْبِ الجُرَازِ ، وأنشأ يقول :

يا سادة فى المعالِى لَهُمْ مبانٍ مَشيدَهْ

---

(١) هو عبد الوهاب بن نصر بن أحمد الفقيه المالكى ، ذكره فى المرقبة العليا ٤٠-٤٣ .

وَمَنْ إذا نابَ خَطبٌ قاموا بدَفعِ المَكيدَهْ
وَمَنْ يهونُ عَلَيهِمْ بذلُ الكنوزِ العتيدَهْ
أريدُ منكمْ شواءً وجَرْدَقاً وَعَصيدَهْ
فإن غَلا فرُقاقٌ به تُوارَى الشَّهيدَهْ
أوْ لم يكن ذا ولا وذا فشَبْعَةٌ مِنْ ثَريدَهْ
فإن تعذَّرْنَ طرًّا فعجوَةٌ ونَهيدَهْ
فأحضِرُوا ما تسنَّى وَلوْ شَظًى مِنْ قَديدَهْ
وَزَوِّجُوهُ فنفسى لما يَرُوجُ مُريدَهْ
والزّادُ لا بدَّ منْهُ لرحلةٍ لى بعيدَهْ
وأنتمُ خَيْرُ رهطٍ تُدْعَوْنَ عِنْدَ الشّديدَهْ
أيديكمُ كلَّ يومٍ لهَا أيادٍ جديدَهْ
وَراحُكُمْ وَاصِلاتٌ شَمْلَ الصِّلاتِ المفيدَهْ
وَبُغيتِى فى مَطاوِى ما تَرْفِدُونَ زَهيدَهْ
وَفِىَّ أجْرٌ وَعُقْبَى تنفِيسِ كربى حَميدَهْ
وَلِى نتائجُ فِكْرٍ يَفْضَحْنَ كلَّ قَصيدَهْ

* * *

قوله : « صرَّحت » : بينت . فاقتك: فقرُك ، وتصريح أبياته بمطب ناقته هو قوله ، « أبدع بى » المتقدّم ، وفى معناه : أنَّ أعرابيّة خرجت إلى الحجّ ، فلما كانت ببعض الطريق عَطِبَتْ ناقتها ، فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

جارِبٌ أخرَجْتَنِي من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! قوله :« نُعطيك » نعطيك مَطِيَّة . مأربة : حاجة . فُهْ : تكلّمْ . فضّ : كسر . نهض : تقدَّم . أصْلَت : جَرَّد . العضب الجُراز : السيف القاطع . مَشيدة: مرتفعة . ناب خطب : قصد أمر شديد . والمكيدة ، هي الكيد ، وكل ما يكاد به فهو مكيدة . وقاموا بدفعها : اقتدروا عليها ، يقول : إذا قصدوا بأمر عظيم وكِيدوا به اقتدروا على دفع الكيد واكتفوا بمن يريد ضَرَّهم . العتيدة : الحاضرة المذْخورة . رُقَاق : خبز رقيق . توارى : تغطَّى . الشَّهيدة : الشاة المشوية ، وقلَّما يؤكل لحمها إلا بالرُّقاق ، وربما سَمَّوا الهريسة شهيدة ، وأنشدوا في ذلك :

هلمّوا إلى من عُذِّبَتْ طولَ ليلها ... بأضيقِ سجنٍ في الجحيم تسعَّرُ
وقد جَلَدُوها الحدّ وهي بريَّة ... فسيروا إلى دفن الشهيدة تؤْجَرُوا

وقيل : الشهيدة الدَّجاجة المحشوّة ، وقيل : السمكة المحشوّة . طرًّا : جميعاً . عجوة : نوع من التمر الطيِّب . والنَّهيدة : الزُّبدة ، والتمر بالزُّبد شيء يلذ عندهم أكله . تسنّى : حضر . شظّى : قطعة . رَوِّجوه : عَجِّلوه . ولا بدَّ منه ، أي قد وجب عليكم فالتزموه لي ، تقول : لا بدَّ من كذا ، معناه قد ألزمتُه نفسي وجعلته واجباً عليَّ ، من قول العرب : قد أبدَّ الرَّجل القوم ، وأبدَّ الرامي الوحشَ ، إذا ألزمهنَّ الحتف ، قال أبو ذؤيب :

فأبدهنّ حُتُوفَهُنَّ فهاربٌ ... بذَمائه أو باركٌ متجعجعُ (١)

قوله :«أيادِ» : أي نعم . راحكُم : أكفكم .واصلات شَمْل الصِّلات : أي تُؤلِّفُ وتصلُ متفرق العطايا والفوائد . بغيتي : إرادتي . مطاوي

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٩ الذماء : بقية الروح : متجعجع : لاصق بالأرض قد صرع.

ماتَرفدون . مطاوى الثوب: معاطفه وما يُطوى منه. وتَرْفدون:تعطون ،وتقدير البيت: بغيتى زهيدة أىقليلة فىمطاوى عطاياكم ، أى ماطلبتُه منكم قليل فىأثناء ما تَهبون . قوله: « وفىّ أجر» : عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أطعم أخاه المؤمن طعاماً وافقَ به شهوته أدخله الله الجنة» . وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «من أطعم أخاه خبزاً حتى يشبعه وسقاه ماء يرويه أبعده الله من النار سبع خنادق». تنفيس: تفريج وترويح ، يقول : عاقبة تفريج همى لمن فرّجه محمودة للأجر الذى فيها، والثناء بشعرى عليه، وعلى هذا رتّب: «ولى نتائج فكر» : وهى أشعاره الحسان . يفضحن : يَشْهَرْن عُيوبها، يقول: إذا أنشدت شعرى افتضحت قصائد الشعراء وتنقصت .

* * *

قال الحارث بن همام : فلمَّا رَأَيْنَا الشِّبْلَ يُشْبِهُ الأَسَدَ ، أَرْحَلْنَا الوالدِ وَزَوَّدْنَا الْوَلَدَ ، فقابَلا الصُّنْعَ بشكرٍ نشَرَا أرديتَهُ ، وَأَدَّيَا بِهِ دِيتَهُ . وَلَمَّا عَزَمَا عَلَى الانْطِلاَقِ ، وعَقَدا للرِّحلة حُبُكَ النِّطاقِ ، قلت للشيخ : هَلْ ضاهَتْ عِدَتُنَا عِدَةَ يعقوب ، أو هل بقيتْ حاجةٌ فى نفسِ يعقوب! فقال: حاشَ للهِ وَكلاَّ ، بلْ جَلَّ معروفكُمْ وَجَلَّى ، فقلت له : فَدِنَا كما دِنَّاك ، وأَفِدْنا كَمَا أفدناك أَيْنَ الدُّوَيْرَة ، فقدْ مَلَكْتَنَا الحَيْرَةَ !

* * *

الشّبل : ولد الأسد. أرحلناه:أعطيناه راحلةً يركبُها. الصنع: الفعل الجميل. نَشَرا أرديته : ، استعارة لنشر الشكر . أدّيا : أعْطَيَا . ديته : ، حقّه ، يقول : جعلا شكرهما حقًّا لبرّنا ومكافأة لصلتنا ، وكأنّ المال للوهوب قد استهلكه الآخذ له ، فإن شكر عليه فالشكر للواهب هُوَ ديةٌ ماله المالك . وإنما أراد

قول النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ نشر معروفا فقد شكرَه ، ومن ستره فقد كفره » .

[من الأقوال حكيمة فى الشكر]

وفى حديث جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ أعْطِيَ شيئاً فوجد فلْيجزْ، ومَنْ لم يجد فليُثن به ، فإن أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره » .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « مَنْ دعاكم فأجيبوه ، ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم يجد أحدُكم فليدْعُ له حتى يعلم أنه قد كافأه » .

وقالوا : إذا قصرت يداك عن المكافأة فَلْيَطُلْ لسانك بالشكر .

وما أحسن قول حبيب فى نشر الشكر وذمّ ستره .

للنارُ نار الشوق فى كَبد الفتى ... والبين يُوقِدُه هوًى مسمومُ[1]
خيرٌ له من أن يخامر قلبه[2] ... وهواه معروف امرئٍ مكتومُ
سَرَقَ الصنيعة فاستمرّ مُلَعَّنا[3] ... يدعو عليه النائل المظلومُ
أوْ قَنَّعُ المعروفَ وهو كأنّه ... قمرُ الدّجى إنّى إذًا للئيمُ
مُثْرٍ من المال الذى ملّكتَنى ... أعناقَهُ ومن الوفاء عديم[4]
فأروحُ فى بُرْدَيْن لم يَسْحَبْهما ... قبلى فتًى وهما الغنى واللّومُ

(١) ديوانه ٣٠١ ، وفيه : « النار »
(٢) الديوان : « صدره » .
(٣) الديوان : « بلعنة » .
(٤) مثر : ذومال .

ومن ملح الأعراب ؛ أنّ أعرابيًا لصًا أخذه الحجاج ، فضرب به سبعمائة سوط ، وهو يقول عند كلّ سوط : شكرا يارب ، فقيل له : والله ما يمنع الحجاج من تركك إلا كثرة شكرك ، أماسمعت الله يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾[1] ! فأنشأ الأعرابى يقول :

* يارب لا شكر فلا تزدْنِى أسأتُ فى شكرك فاعفُ عنِّى *

* باعد ثواب الشاكرين منى *

ومرّ بشار برجل قد رمحته بغلة فسقط مكسورا ، وهو يقول : الحمد لله والشكر لله ، فقال : استزده يزدك من هذه النعم .

وسيأتى نوع آخر من الشعر فى الشكر بحول الله تعالى .

* * *

قوله : «حُبُك النطاق» : النطاق والمِنْطقه : ما يُشدّ على وسطك كالحزام . والحُبُك : خيوط أو شَرَك يُشدُّ بها النطاق ، وأراد أنهما تحزّما للارتحال ، ويقال : حبكت الشىء حَبْكا : شددته ، واحتبكت إزارى : شددته . والمحبوك : المفتول ، وحبكته : شددت فتله ، والحُبُك : الطرائق فى السماء من أثر الغَيْم ، والحُبُك أيضا : التكسير الذى يكون فى الرمل والشَّعر والماء .

ضاهت : شابهت . عدتنا : ما وعدناك به من الرّاحلة ، ولا بنك من الزاد .

* * *

[عرقوب المضروب به المثل]

عرقوب : رجل[2] من العماليق يضرب به المثل فى إخلاف الوعد ، وقصّته أنّه أتاه أخ له يسأله شيئاً ، فقال له : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها ، فلما أطلعت أتاه فقال له : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت أتاه ، فقال له : دعها حتى تصير زَهْوًا[3] ، فلما أزهت قال له : دعها حتى تصير رُطَبا ، فلما أرطبت قال له :

(١) سورة إبراهيم ٧ (٢) مجمع الأمثال ٢ : ٣١١

(٣) الزهو : البسر الملون .

دَعْها حتى تصير تَمراً ، فلما أتْمرت عمد إليها عرقوب من الّليل فجدّها ، ولم يعطه شيئاً.

وقيل: عرقوب هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ويقول بنو سعد: هو منّا .

وقيل : هو من الأوس والخزرج ، قال علقمة :

وقد وعدتْك موعِدًا لَوْ وَفَتْ به كمَوْعودِ عرقوب أخاه بيثرب[1]

وقال كعب بن زهير :

كانتْ مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيــــدها إلا الأباطيل[2]

* * *

وقال عبد الله بن عمر : خلْف الوعد ثلث النفاق . وحاجة نفس يعقوب : خشية العيْن على بنيه حين أمرهم أن يتفرَّقوا على الأبواب ، ولا يدخلوا من باب واحد ، لأنهم كانوا في غاية من الجمال وكمال الخَلْق ، وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عنهمْ من اللهِ من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها ﴾[3] ، وأراد الحريريّ : هل بقيت لك حاجة لم تقضها ؟ فقال : حاش لله ، أي معاذ الله .

ابن الأنباريّ قولهم: حاشي فلانا ، معناه أستثنيه ، وأخرِجه من المذكورين.

الفرّاء : هو من حاشيت أحاشي ، ويقال : قام القوم حاشَى عبدَ الله بالنصب والخفض ، وحاشي لعبد الله ، وحاش وحَشَى ، وخفض ما بعدها بإضمار اللاّم لكثرة صحبتها حاشي ، كأنها ظاهرة ، أو تقول : أضيفت حاشي إلى عبد الله ، لأنه أشبه الاسم لمّا لم يأت معه فاعل .

كلاّ : معناها الزّجر ، أي ليس الأمر كما تظنّ . جُلّ : عُظْم ، وهو من

---

(١) ديوانه ١٣٣ . (٢) ديوانه ٨ .

(٣) سورة يوسف ٦٨ .

أجلل ، والجليل هو العظيم ويكون فى غير هذا اليسير وهو من الأضداد . جلّى : سبق معروفكم كل معروف ، والمجلّى مِنَ الخيل : السابق .

دنّا : جازنا . أين الدوبرة ؟ سأله أين تسكن من البلاد . ملكتنا : غلبتنا ، يقول : قد التبس علينا أمرك وتحيّرنا فيه .

* * *

فتنفَّس تنفُّسَ من ادَّكرَ أوطانَهُ ، وأنشدَ والشّهيقُ يُلعثِمُ لسانَهُ :

سَرُوج داري ولكنْ كيفَ السبيلُ إليها
وقدْ أناخَ الأعادِي بها وأخنَوْا عليهاَ
فوالّتى سِرْتُ أبغِي حطَّ الذُّنوبِ لديهاَ
ماراق طَرْفِيَ شيءٌ مذْ غِبتُ عَنْ طَرفيهاَ

ثم غرورقَتْ عَيناهُ بالدُّموعِ ، وَآذنتْ مدَامِعُه بالْهُموعِ ، فكرِهَ أن يَسْتَوْكِفَها ، ولم يملك أن يكفكفها ، فقطعَ إنشادَه المستحلَى ، وأوجزَ فى الوداعِ وولَّى .

* * *

تنفَّس : ردّد النفَس إلى الجوف بصوتٍ ورفعه إلى صدره ، والتّنفُّس : ضدّ الشهيق ، وهو ردّ النفَس إلى الجوف بصوت . يلعثِم : يلوى ويعقل ، ويقال : سأله عن كذا فما تلعثم ، أى ما توقّف ولا تلبّث ولا أبطأ ، فإذا ذكرت للغريب بلدُه وهو على بعد منه تنفّس وتلهّف . أناخ : أقام ونزل . أخنوْا : أفسدوا

وأتوا على خرابها . والتى يبغى حطّ الذنوب إليها هى مكة . حطّ : إلقاء وإنزال . لديها : عندها ، أى إذا حجّ ودعا الله حط ذنوبه عنه .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حَجّ هذا البيت فلم يرفُث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

راق : أعجب . طرفيْها : جهتيها . اغرورقت : امتلأت . آذنت : أعلمت . الهموع : السَّيَلان . يستوكفها : يستدرّها ويجريها . يكفكفها : يردّها . المستحلَى : المستعذَب . أوجز : اختصر .

* * *

[من أقوالهم فى الحنين إلى الأوطان]

ومما ينتظم بهذا الموضع من ذكر الأوطان والتشوّق إليها قول رفاعة بن عاصم الفقعسى ، وأنشدها البكرى لامرأة من طيِّئ :

أَلمْ تعلمِى يادارَ بَلْجَاءَ أننى ... إذا أخصبت أو كان جدبا جنابُها[1]
أحبّ بلاد الله مابين منعجٍ ... إلىّ وسلمى أن يصوب سحابُها
بلادٌ بها نِيطَتْ عَلَىّ تمائمى ... وأوَّلُ أرضٍ مَسّ جلدى ترابُها

قال علىّ بن عبد الكريم النصيبينى : أتانى ابن الرومىّ بقصيدته التى يمدح فيها سليمان بن عبد الله بن طاهر ، وقال لى : أنصفنى وقل الحقّ : أيُّما أحسن ، قولى فى الوطن :

ولى وطَنٌ آليت ألاّ أبيعَه ... وألاّ أرى غيرى له الدَّهْرَ مالكَا[2]
عهدت به شرْخ الشباب ونعمةً ... كنعمة قومٍ أصبحوا فى ظلالِكَا
وَحَبَّب أوطان الرجال إليهمُ ... مآربُ قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ ... عهودَ الصّبا فيها فحنّوا لذلكا

---

(١) زهر الآداب ٦٨٢ ، اللآلى ٢٧٢ ، الكامل ٢ : ٢٨٠ .
(٢) ديوان المعانى ١٨٩ زهر الآداب ٦٨٢ .

أو قول الأعرابي : أحب بلاد الله ... الأبيات ، قلت : بل قولك لأنه ذكر الوطن ومحبته ، وأنت ذكرت حبّ الوطن والملّة في ذلك .

وقال ابن الرومي يتشوّق إلى بغداد :

بلدٌ صحبت به الشبيبة والصِّبا ولبستُ ثوبَ العيش وهو جديد(١)
فإذا تمثّل في الضمير رأيتُـه وعليه أغصان الشباب تميد

أخذه من قول أعرابي يتشوّق إلى بلده :

ذكرتُ بلادي فاستهلّتْ مدامعي بشوقٍ إلى عهد الصِّبا المتقادم
حننتُ إلى ربع به اخضرّ شاربي وقُطِّعَ عنّي قَبْلَ عَقْد التمائمِ

وقال إسحاق الموصلي :

أتبكي على بغدادٍ وهي قريبةٌ فكيف إذا ما ازددت عنها غدا بُعْدَا
لعمرُك ما فارقتُ بغداد عن قلًى لو أنا وجدْنا من فراق لها بُدَّا
كفى حزناً أنْ رحت لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث لساكنها عهدا

وأنشدني شيخنا أبو بكر السّلاميّ ، وكان يزعم أنهما لأخي الحريري ، وقد أحسن قائلهما كائناً مَنْ كان :

طيب الهواء ببغدادٍ يؤرقني شوقاً إليها وإن عاقت مقاديرُ
فكيف أصبرُ عنها اليوم إذ جمعتْ طِيبَ الهواءين ممدودٌ ومقصورُ

(١) ديوان المعاني ٢ : ١٨٩ ، وزهر الآداب ٦٨٣ .

المقامة الخامسة عشرة وهي الفرضية

أخبر الحارث بن همام قال: أرِقتُ ذات ليلةٍ حالكةِ الجلبابِ ، هاميةِ الرِّباب ، ولاَ أرق صَبٍّ طُرِدَ عن الباب ، وَمُنِيَ بِصدِّ الأحْبَابِ ، فلم تزَل الأفكارُ يهجْن همِّي ، ويُجلْنَ في الوَسَاوسِ وهمِي ، حتى تمنيتُ لِضَضِ مَاعانيتُ ، أن أُرْزَقَ سَميرًا منَ الفُضَلاءِ ، ليُقَصِّرَ طُول لَيْلَتِي اللَّيلاَء ، فلَمَّا انقضَتْ مُنيَتِي ، ولا أغمضتُ مُقْلتِي ، حَتى قرعَ البابَ قارعٌ ، لهُ صوتٌ خاشِعٌ ، فقلتُ في نفسي : لعلَّ غَرسَ التَّمَنِّي قد أَثْمرَ ، وَليلَ الحظِّ قد أقمرَ ، فنهضْتُ إليه عَجْلانَ ، وَقلتُ من الطارِق الآن ! فقال : غريبٌ أجَنَّه الليل ، وغشيَهُ السَّيلُ ، وَيبتغي الإيواءَ لاغيرَ ، وإذَا أَسْحرَ قدَّم السير .

* * *

أرقت : سهرت ولم أنمْ ، وفى حديث زيد بن ثابت: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقاً أصابني ، فقال : «قل اللّهمّ غارت النجومُ، وهدأت العيون ، وأنت حيٌّ قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، ياحيّ يا قيوم ، أهْدِئْ ليلي ، وأنمْ عيني » . فقلتها فأذهب الله عنّي ما كنت أجده .

حالكة الجلباب : سوداء الثوب . هامية الرّباب : سائلة السحاب ؛ يريد

أن الليلة مظلمة ممطرة . صبٌّ : عاشق . طَرَد : نفى . مُنى : ابتلى . صَدّ : هجر . الأفكار: أحاديث النفس . يَهِجْن . يُحرِّكن . ويجلن : يصرفن ، والوساوس الفكَر المقلقة . وَهْمِى : بالى وخاطرى ، وقال ابن شُهيد فى نحو هذه الليلة :

ولربَّ ليلٍ للهموم تسدَّلتْ أستارُه فحا الضِّيا بستورِهِ[1]
كالبحر يضرب موجُه فى موجِه[2] صعبٌ عَلَى العُبَّار وجهُ عبورِهِ
طاولتُه من عَزْمتى بتصبّرٍ[3] أثبتُّ همِّى فى قرارة كورِهِ
وبراحة من همتى ذُو كرّة[4] عَمَدَتْ تُذاكرنى بطبع ذكيره
فردٌ إذا انبعثت دياجى جُنْحِهِ هَوْلاً علىَّ خبطت فى ديجوره
حتى بدا عبد العزيز لناظرى أملى ، فمزَّقتُ الدُّجى عن نوره[5]

وليلة الحريرى ضدّ ليلة ابن رشيق فى قوله :

ومن حسنات الدّهر عندىَ ليلة من العمر لم تترك لأيّامنا ذَنْبًا[6]
خلوْنا بها ننفى القَذَى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهبًا سَكْبا
ومِلْنا لتقبيل الخدود ولثمها كميل جياع الطَّيْر تلتقِط الحَبّا[7]

قوله :«تمنيت» . ابن الأنبارى: فى معناه قَدَرْت وأحببت أن يصير إلىّ ، وهو من المَنْى وهو القدَر ، يقال : منى الله لك ما تحبه يَمْنِيه منياً ، أى قدّره لك. لمضض، أى لحرقة . عاينت : شاهدت ، ويروى «عانيت» أى قاسيت . سيراً:

---

(١) ديوانه ١١٧ ، يمدح عبد العزيز بن المؤتمن .
(٢) الديوان : « وجهه فى وجهه » .
(٣) الديوان : « بعضمر »
(٤) الديوان : « ذو ذكرة » .
(٥) ط : « فمزقت الرجا » ، والصواب من ب والديوان .
(٦) معجم الأدباء ٣ : ٧٢ ، والنتف ٨ .
(٧) النتف : « كميل جنوح » .

صاحباً يُسمر معه . يقصر : يردّها قصيرةً بأنسه وحديثه . الليلاء : الشديدة الطويلة السواد ، ولابن الزّقاق فى مثل هذا السمير :

ربّ ليلٍ أتحفتُ فيه بأنسٍ   من سمير زَفَّ الحديثَ عروسا[1]
فاجتنينا مما يحدّث زهرًا   واغتبقنا من خُلْقِه خَنْدريسا
وانثنى الليل يفضُل الصبح حسناً   والدّرارى يفضُلْنَ فيه الشموسا
ولئن كان لم يَحُلْ عن دجاه   فلقد عاد فحمُه آبنوسا

قوله: « أغمضت مقلتى » ، نامت عينى . قرع : ضرب . خاشع: لين . أثمر: طلع ثمره . الحظ: البخت . أقمر : صار فيه قمر ، يقول : لعلّ بختى قد زال نحسه وأقبل سعده ، إذ وجدت ما تمنّيت . نهضت: تقدّمت . الطارق: الآتى بالليل . أجَنَّهُ: ستره . غشيه : غطّاه . الإيواء مصدر آويت الرجل ، إذا أنزلته على نفسك وضممته ، وتقول : أويته وآويت بمعنى واحد . أسحر : دخل فى وقت السَّحَر ، يريد أنه لا يطلب غير المبيت وينصرف فى السحر .

* * *

قال : فلمّا دَلّ شُعاعهُ على شمسه ، وَنمّ عُنوانُه بِسِرّ طِرْسِه ، وَعَلمتُ أن مُسامرتَهُ غُنْمٌ ، وَمُسَاهَرتَهُ نُعم ، ففتحت الباب بابتسَامٍ ، وَقلتُ ادخلُوهَا بسَلاَم ، فدَخَلَ شخْصٌ قد حَنَى الدَّهْر صَعْدَتَهُ ، وَبلّلَ القَطرُ بُرْدَتَهُ ، فَحَيَّا بلِسانٍ عَضبٍ ، وَبيانٍ عَذبٍ ، ثم شكَر عَلَى تَلبيَةِ صَوتهِ ، وَاعتذر مِن الطرُوقِ فى غيْر وقْتِه ، فدانَيْتُهُ المِصْبَاح المتَّقِدَ ، وَتأمَّلْتُه تأمُّلَ المنتقدِ ، فألفَيتهُ شَيخَنا أبو زيدٍ بِلا

---

(١) ديوانه ١٩٣ .

رَيبٍ ؛ ولا رجْم ِ غَيبٍ ، فأَحْلَلْتهُ مَحلَّ مَن أَظْفَرَنِي بقُصْوَى الطَّلَب وتقلني من وقْذِ الـكُرَبِ ، إلى روْح الطَّرَبِ . ثمَّ أَخَذ يشكو الأَيْن وَأَخذتُ فِي كَيفَ وَأَين ، فقال : أَبلعني رِيقي ، فقد أتعبني طريقي ، فظننتهُ مستبطناً للسَّغَب ، متكاسلا لهذا السَّبب ، فأَحْضرته مايُحْضَرُ للضيفِ المفاجِي ، في الليل الدَّاجي .

* * *

الشّعاع : مايبدو لك من الشمس إذا ظهرت كالخيال . نمّ : أفشى السرّ . والطّرس : الـكتاب . العنوان : مايكتب على ظهره ، يريد أنّ كلام الطارق دلّ على مراده . والمسامرة ، هي المساهرة . غُنْم : غنيمة . نَعْم : نعمة . بسلام ، أي بسلامة وأمن . قوله : « صَعْدته » ، الصَّعدة : الرمح الطويل ، وكنى به عن القامة . بُرْدته : ثوبه . عَضْب : قاطع . تلبية : قولى له : لبَّيك . الطروق : المجيء بالليل . دانيته : قربت منه . تأمّلته : نظرته . المنتقد : المجرب للدراهم ، أي نظرته بعين المباحثة ، ألفيته : وجدته . ريب : شك . رجم الغيب : رمى الظنّ . أظفرَني : مَلّـكني . قُصْوَى : غاية ، وهى مؤنث الأقصى أي الأبعد . وَقْذ الـكرب . حرقة الهموم : روح الطرب : راحة السرور . الأيْن : التعب كيف : سؤال عن حال . وأيْن : سؤال عن مكان ، أي سألته كيف حالُك ، ومن أين جئت . أبلِعنِي ريقي ، أي لا تـكثر عليّ السؤال فيعجلني جوابك عن بلع ريقي . السَّغَب : الجوع ، وقد سغَب وسغِب جاع . الدّاجِي : المظلم .

* * *

فانقبض انقباضَ المحتشمِ ، وأعرض إعراضَ البشِمِ ، فسؤتُ

ظَنًّا بامتناعِه ، وأحفظنى حُئولُ طباعِه ، حتى كِدتُ أُغلِظ لهُ فى الـكلامِ ، وألسَعهُ بحُمَةِ الملامِ ، فتبيَّن من لمحات ناظرِى ، ماخامرَ خاطرِى ، فقال : ياضعيفَ الثِّقة ، بأهل المِقة ، عَدٍّ عَما أخطرتَهُ بِالَكَ ، واستمعْ إلىَّ لا أبا لكَ ! فقلت : هاتِ ، يا أخا التُّرّهات ، فقال : اعلم أنى بتُّ البارحةَ حليفَ إفلاسٍ ، ونجيَّ وَسواسٍ ، فلما قضى الليلُ نحبَه ، وغوَّر الصُّبحُ شُهُبَهُ ، غدَوْتُ وقتَ الإشراقِ ، إلى بعض الأسواقِ ؛ مُتَصَدِّياً لِصَيْدٍ يَسْنَحُ ، أو حُرٍّ يَسْمحُ ، فلحظْتُ بها تَمرًا قَد حَسُنَ تَصْفِيفُه ، وأَحْسَنَ إليهِ مَصِيفُهُ ، فجمعَ عَلَى التّحقيق ، صفاءَ الرَّجيق ، وقنوءَ العقيق ، وقُبالته لِبأً قَدْ بَرَزَ كالإبريز الأصفر ، وانجلَى فى اللّونِ المُزَعْفَرِ ، فهو يُثْنِي على طاهيهِ ، بلسانِ تناهِيه ، ويصوِّب رأى مُشتَرِيه ، ولو نقد حبَّة القلب فيه .

* * *

المحتشم : المستحى هنا . أعرض : نحّى وجهَه ، وتحقيقه : ولَّى عُرضه ، أى. جانبه . البَشِم : الـكسِل من الشِّبَع وقد بشِم بشما : مرض من كثرة الأكل . سؤت ظنًّا : ساء ظنى ، وظنًّا المنصوب على التمييز فاعل فى المعنى ، من باب تفقأْ شحماً . أحفظنى : أغضبنى . حُئول طباعه : تغيّر أخلاقه . حُمة الملام : سَمّ العتاب . ألسعه : أقرصه بلسانى ، ولسعته العقرب : ضربته بإبرتها .

لمحات ناظرى ، أى خطرات عينى . خامر خاطرى . خالط فكرى . المِقة : الحبّ . عَدٍّ ، أى اصرفه عن نفسك . الترّهات : العجائب ، وأيضاً الأباطيل ،

وأصلها الطرق الصغار المتشعّبة عن الطريق الأعظم . حليف إفلاس : ملازم فقر . نجيّ : محدّث . ولما كانت الوساوس تشغل بال الإنسان وتجعله يتحدث وحده جعل نفسه محدّثاً لها . قضى نحبه : تمّ وانقضى ، وقضى الرجل نحبه : مات . والنّحب : النذر . وغوّر : غيّب . شهبه : نجومه . والإشراق : ارتفاع الشمس وصفاؤها . الأسواق : جمع سوق ، وسميت سوقاً ، لأن الأشياء تساق إليها ، وتساق منها ، أولأن سُوق الناس تكثر فيها . والسُّوق : جمع ساق ، والسَّوْق بالفتح : مصدر سقت ، وبالضم الاسم . متصديا : متعرّضاً .

يسنح : يعرض من جهة اليمين ويزاد بياناً عند ذكر السانح والبارح . يسمح : يجود . لحظت : نظرت ، ولحظي : أضيق عيني ، أي أبصرت بضيق عيني . تصفيفه ، أي جعله صفاً واحداً ، وصففت الشيء : جعلته صفًّا واحداً مضموماً . المصيف : زمن الصيف . الرحيق : الخمر . قنوء : حمرة . العقيق : خرز أحمر .

عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدَكم غمّ مادام عليه ذلك » واللبأ : أول مايحلب من اللبن وهو لم ينضج . برز : ظهر . الإبريز : الذهب الخالص . المزعفر : المصبوغ بالزعفران .

ويروى : «المعصفر» ، وهو المصبوغ بالعصفر . وطاهيه : طابخه : تناهيه . غايته وكماله ، يقول : هذا اللّبأ بحسن صنعته وجودة طبخه كأنه يثنى للمشترين على طابخه وإن لم يكن له لسان ، فكماله فى الحسن وجودته فى الصنعة قام له مقام اللسان ، ويسمّى هذا الكلام بلسان الحال قال الشاعر :

ولسان نعمتك التى قلدّتنى   بالشكر أبلغ من لسان بيانى

وقال المتنبي :

تُنشد أثوابنا مدائحَهُ بألسن ما لهنّ أفواهُ[١]
إذا مررنا على الأصمّ بها أغنته عن مسمعيه عَيْناهُ[٢]

أخذه من قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهلُه ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[٣]

وقال أبو العتاهية :

أيا عجبا كيف يعصى الإلـــــه أم كيف يجحده الجاحدُ !
وفى كلّ شىء له آية تدلّ على أنه واحـــدُ
ولله فى كلّ تسكينة وتحريكة فى الورى شاهدُ

وقال الفضل بن عيسى الرقاشى : سَلِ الأرضَ : مَنْ غرس أشجارَك ، وشقّ أنهارك ، وجَنَى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٦٥ وفى شرحه : « قال أبو الفتح : يخلع عليهم ثيابا تنشد مدائحهم فيه ، بألسن مالهن أفواه تقعقع لجدتها ، والأصم يستغنى برؤيتها عن صوتها، فقد اجتمع فيها الحسن والقعقعة . قال العروضى : هذا كلام من لم ينظر فى معانى الشعر ، ولم يرد الكثير فيه ، وكنت أربأ بأبى الفتح عن مثل هذا القول ؛ ألم يسمع بقول نصيب :

فعاجُوا فأثنوا بالذى أنت أهلُه ولو سكتُوا أثنت عليكَ الحقائب

ولم يكن للحقائب قعقعة ، وإنما أراد أنهم يرونها ممتلئة ، وكذلك أراد المتنبى بألسن خلعه وأثوابه ، فيراها الناس عياناً ، فيعلمون أنها من هداياه ، فكأنها قد أثنت عليه ، وأنشدت مدائحه بألسنة لاتتحرك فى أفواه ، لأنها لاتنطق فى الحقيقة ، وإنما يستدل بها على جوده ؛ فكأنها أخبرت ونطقت .

(٢) الأصم : الذى لايسمع ، والمسمعان : الأذنان .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٨٣ ، وقبله هناك :

أقولُ لركبٍ صادرينَ لقيتُهم قفَا ذات أوْشالٍ ومولاكَ قاربُ
قفُوا خبِّرونا عن سليمان إنّني لمعروفِهِ من أهل ودّان طالبُ

ومنه سؤال العرب للمنازل الخالية والديار الدارسة ، وقال شاعرهم :

وأجهشتُ للتَّوْباد حين رأيتُه ... وكَبَّر للرحمن حين رآنى[1]
وأذريت دمع العين لما رأيته ... ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلت له أين الذين عهدتهمْ ... حواليك فى أمن وخصب زمانِ !
فقال مضوْا واستودعونى ديارهم ... ومن ذا الذى يبقى على الحدَثان ![2]

التَّوْباد[2] : جبل بنى عامر ، وجوابه لهذا الشاعر بالمعنى ، فجعله لفظياً مجازاً ، وهذه الحالة الدالة التى سماها الجاحظ فى أقسام البيان النِّصْبة ، قال الجاحظ : جميع أصناف الدلالة على المعانى من لفظ أو غيره خمسة لا تنقص ولا تزيد ، أولها اللفظ ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم النِّصْبة ، والعَقْد : أخذ العدد فى الأصابع[3] .

قوله : « نقد » أى أعطى نقداً ، وهو المال الحاضر . حبّة القلب : سواده .

* * *

فأسرتنى الشهْوَةُ بأشطانها ، وَأسْلَمَتنِي الْعَيمَةُ إلَى سُلطانها ، فبَقيتُ أحْيَرَ من ضَبٍّ ، وأذْهَلَ مِنْ صَبٍّ ، لاَ وُجدَ يُوصِلُنى إلَى نَيلِ المُرَادِ ، وَلَذَّةِ الازدِرَادِ ، وَلَا قدمَ يُطاوِعُنِى علَى الذَّهَابِ ، معَ حُرقةِ الالْتِهَابِ ، لـكِن حَدَانِى الْقَرَمُ وَسَورَتُه ، وَالسَّغَبُ وفوْرَتُه ، عَلَى أن أنتجعَ كلَّ أرضٍ ، وَأَقتَنعَ من الوِرْدِ بِبرْضٍ ، فلَم أزَلْ سَحابةَ ذلِك النَّهارِ ، أُدْلِى دلْوِى إلى الأنهارِ ، وَهِىَ لا تَرْجِع

---

(١) ياقوت ١ : ٤٢٤ ، مع اختلاف فى الرواية .

(٢) ط : الترباذ ، صواب فى ا ، ب وياقوت .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٧٦

بِبِـلَّةٍ ، وَلاَ تَجْلِبُ نقع غُـلَّة ، إلى أن صَفَتِ الشّمسُ لِلغرُوب ، وضَعُفَتْ النفسُ من اللُّغُوبِ ، فرُحْتُ بِـكَبِدٍ حَرَّى ، وانثنيتُ أُقدِّمُ رجلاً وأؤخِّرُ أخرَى .

* * *

أسرتنى : ربطتنى كالأسير . أشطانها : حبالها . أسلمتنى : تركتنى . العيْمة : شهوة اللبن . وسلطانها : قدرتها وغلبتها ، يريد أنّ الشهوة إلى اللَّبَأ قهرته حتى تركته مستسلماً لا يملك نفسه .

[الضب وبعض طباعه]

الضّبّ : يشبه الحِرذون ، وهو حِرْذون الصحراء وإذا فارق جحرَه لم يهتد إليه فيتحيّر . فيجعل حجراً عند جُحره واقفاً ليهتدى به ، فإذا أزاله الصائد تحيّر ، فجاء فأخذه ، وربما قتله بذلك الحجر ، قال الشاعر :

وإن الضب ذو دَهْيٍ ومكرٍ كما اليربوعِ والذّئبِ اللعينِ(١)
يرى مِرْدَاته من رأس مِيلٍ ويأمنُ سيل بارقة هتونِ(٢)
ويُدخل عقرباً تحت الذُّنَابى رواغَ الفهد من أسدٍ كمينِ

جعل الذئب لعيناً ، لأنّ مَنْ رآه صاح عليه . ومرداته : حَجَره ، والعقرب يعدّه الضبّ للصائد إن أدخل يده فى جحره ، وأخذ بذنبه ، لسعتـه العقرب ، وربما أكل العقارب وترك منها واحداً فى باب جُحْرِه للصائد ، قال الشاعر :

وأخدعُ من ضبٍّ إذا جاء حارش أعدّله عنـد الذُّنابة عقرَبا(٣)

والضبّ ، يوصف بالضلال وقالوا فى بيت المتنبى :

لقد لَعِبَ البينُ المشتّ بها وبى وزودنى فى السير مازوّدالضّبّا(٤)

---

(١) الحيوان ٦ : ٤٥ . (٢) المرداة : الصخرة التى يرمى بها .
(٣) الحيوان ٦ : ٥٣ ، الكامل ١ : ٢٧١ ، (لسعته) : الميدانى ١ : ١٣٩ .
(٤) ديوانه ١ : ٦٠

أراد أنه زودني الضلال عن وطني ، الذي خرجت منه ، فما أوفق للعوْد إليه ، والاجتماع مع الحبيب .

وقال الواحدى يقول : جعل البين زادى زادَ الضب ، والضبّ لا يتزود فى المفازة ، ومعناه : فارقت الحبيب من غير وداع ولا التقاء يكون لى زادا على البعد . ويقال أيضا : أخدع من ضبّ ، وذلك أنه يطمع الصائد فى نفسه ، فإذا حنق عليه خدع فى جحره ، ومنه أُخِذ معنى الخداع .

ويقال فيه : إنه أعقّ من ضبّ ، وذلك أنه يأكل أولاده ، ويكنى أبا الحِسْل ويسمّى ولده الحسل . وأمثال العرب به كثيرة . ويزعمون أنه كان حَكَمًا فى الدوابّ فى الزمان ، الذى كانت فيه الحيوان تتكلم . وعنه يروون : فى بيته يؤتى الحكم ، يعنى نفسه . وفيه خواص ليست فى الحيوان ، تزعم العرب أنه لا يشرب الماء ، وإذا أخذه العطش صعد ربوة واستقبل الريح ، وأنه طويل العمر . ويقولون : إنه أحيا من ضب ، يريدون أن حياته لا تكاد تنقضى ، وأنه لا يسقط له سنّ ، وأنه أطول الدواب دما ، وإذا ذبح يبقى زمانا ، وحينئذ يموت ، وأن له ذكرين ولأنثاه فرجين .

* * *

« أذهل من صبّ » : أى أشغل قلبا من عاشق ، ووساوس العشق أفضت ببعض العشاق إلى الجنون . وُجْد : غنى ، وقد وجدت وجدا ، أى كثر مالى والازدراد : كثرة الأكل ، وزردت الطعـــام وازدردته إذا ابتلعته ، الالتهاب : اشتعال نار الجوع . حدانى : ساقنى . القرَم : شهوة اللحم ، وأراد به شهوة الأكل . سَوْرته : شدته . وفوْرة السغَب : غليان الجوع . أنتجع : أمشى فى طلب ما آكل . والوِرد : الحظ من الماء . والبَرْض : قليل الماء . سحابة ذلك النهار ، أى طوال ذلك النهار ، كما تقول : بياض يومى ، أى يومى كله ، أى لم يزل طول يومه يستجدى فلم يُعط شيئا . نقع غلّة : إرواء عطش صغت : مالت . اللُّغوب : الفشل . حرًى : ماتهبة . انثنيت : رجعت .

[مقامة البـــديع الجاعية]

أطال أبو محمد هذه المقامة حتى كادت تثقل على السامع ، وللبديع فيما يتعلق بمعناها مقامة بتراء فلو زيد فى البديعية وقصر فى الحريرية لاعتدلتا . وها أنا أذكر البديعية هنا بجملتها ؛ لرشاقتها وخفتها .

قال عيسى بن هشام : كنتُ[1] ببغداد عام المجاعة ، فدفعت إلى جماعة قد نظمهم[2] سلك الثريا ، وكلهم يطلب شيئاً ، وفيهم ذولثغ[3] فى لسانه وفلَج فى أسنانه[4] ، فقال : ماخطبك ؟ فقلت : حالات لا يُفلِح صاحبهما ، فقير كدّهُ الجوع ، وغريب ليس يمكنه الرجوع ، فقال[5] ، أى الثلمتين تريد[6] سدّها؟ فقلت : الجوع ياسيدى ، وقد بلغ منّى[7] مبلغه ، فقال : ماتقول فى رغيف ، على خِوان[8] نظيف ، ونقل قطِيف[9] ، على لون لطيف[10] ، وخردل حرِّيف[11] ، إلى شواء صفيف[12] ، يقربه إليك من لا يماطلك[13] بوعد ، ولا يعذبك بصدّ . [ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية ، من راح عِنَبيّة] [14] ، أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوة ، وأثقال[15] معدّدة ، وفرش

(١) مقامات البديع ص ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) المقامات : « ضمهم » .
(٣) اللثغ واللثغة : أن يبدل بعض الحروف بعض .
(٤) الفلج : تباعد مابين الأسنان .
(٥) المقامات : « فقال الغلام » .
(٦) المقامات : « تقدم سرها» . والثلمة : أصل الشق فى الحائط ونحوه .
(٧) المقامات : « مبلغا »
(٨) الخوان : المائدة .
(٩) المقامات : « وبقل » ، والقطيف : المقطوف .
(١٠) المقامات : « إلى خل ثقيف » وأصل اللون : الدقل ، وهو نوع من النخل .
(١١) الخردل : حب شجر معروف . والحريف : الذى له لذعة فى اللسان .
(١٢) الشواء : اللحم المشوى (١٣) المقامات : « من لا يمطلك » .
(١٤) من المقامات . (١٥) الأثقال : جمع ثقل ، وهو ماينقل من الخمر.

منضدة ، [وأنوار مُجَوَّدة][1] ومُطْرِبٌ مُجيدٌ ، له من الغزال عين وجيد ، فإن لم ترد هذا ولا ذلك ، فما تقول فى لحم طيرىّ[2] ، وسمك بحرىّ ، وباذنجان مقلىّ ، ورَاح نقىّ ، وتفاح جنىّ ، ومضطجع وطىّ ، على حذاء نهر جارٍ ، وبركة ذات ثرثار .

فقلت : أنا عبد الثلاثة ، فقال : وأنا خادمها لو حضرت[3] ، فقلت من أىّ الحجرات[4] أنت ؟ فقال :

من ربعة الإسكندريَّة[5] ... من نَبْعةٍ فيهم زكيَّهْ
سَخُفَ الزَّمان وأهلُه ... فركبتُ من سخفي مَطِيَّهْ

* * *

وبينما أنا أسعى وأقعد ، وأهبُّ وأركد ؛ إذْ قابلنى شيخٌ يتأوَّه آهةَ الثَّـكْلان ، وعيناهُ تهمُلان ، فما شغلنى ما أنا فيه من داء الذِّيب ، والَحوَى المذيب ، عَنْ تعاطى مداخلته ، والطَّمع فى مخاتلته ، فقلت له : ياهذا ، إنّ لبُـكائكَ سِرًّا ، ووراء تحرُّقك لشرًّا ، فأطلِعْنى على بُرَحائِك ، واتَّخذنِى من نصحائِك ، فإنك ستجد منى طَبًّا آسيًا ، أو عونًا مواسيًا ، فقال : والله ما تأوُّهِى من عيشٍ فاتَ ، ولا من دهرٍ افتات ، بل لانقراضِ العلم ودرُوسِهِ ، وأفولِ أقمارِه وشموسِه ، فقلت : وأىّ حادثة نجمَتْ ، وقضيَّةٍ استعجمَتْ

(١) من مقامات الهمذانى .
(٢) المقامات : « طرى »
(٣) المقامات : « لو كانت » (٤) المقامات : « الخرابات »
(٥) المقامات « أنا من ذوى الإسكندرية »

حتَّى هَاجت لك الأسف ، على فقد مَن سلف . فأبرزَ رقعةً مِنْ كمّهِ ، وأقسمَ بأبيهِ وأمِّهِ ، لقدأنزلهَا بأعلامِ المدارِس ؛ فما امتازُوا عَن الأعلام الدَّوَارِس ، واستنطقَ لها أحبارَ المحابر ، فخرسُوا وَلاَ خرَسَ سكّان المقابر ، فقلتُ : أرنيهاَ فلعلّى أُغْنِى فيها ، فقال : ماأبعدت فى المرام ؛ فربَّ رميةٍ من غيرِ رامٍ . ثم نَاوَلنيها ، فإذا المكتوب فيها :

* * *

قوله : « أسعى » ، أى أمشى مسرعاً . أهبّ وأركد : أتحرك وأسكن ، أراد أجرى وأقف ، وأصل الهبوب والركود للريح . يتأوه : يتوجّع ويقول : آه ، وهو قول الحزين . آهة الثكلان : توجّع الفاقد لأحبابه . تهملان : تسيلان ، وداء الذئب: هو الجوع ، والذئب أصبر السباع على الجوع وأعفّها ، وإذا افترس شاة أكل منها شبعة وترك سائرها ولم يرجع إليها ، وعافه إن أروَح(1) . الخوَى : خلوّ الجوف من الطعام . المذيب : المذهب اللحم والقوى . التعاطى : تناول مالا تحبّ . ومداخلته : معرفة سرّه . مخاتلته : مخادعته . تحرّقك : توجعك . والبُرَحاء : الشدّة والمشقّة . طَبًّا : حاذقاً . آسيا : طبيباً . مواسياً : معيناً ، والمواساة تكون بالنفس أو بالمال ، ويشاكل كلامه قول الشاعر :

ولابدّ من شكْوَى إلى ذى مروءةٍ يُواسيك أويسلِيك أو يتوجَّعُ

افتات : ظلم وجاوز الحدّ . انقراض : انقطاع . دروسه : محوه . أقول :

(١) أروح : أصبحت له رائحة .

عَفِيب ، وكَنَى بالأقمار والشموس عن مشاهير العلماء ، وبأفولهم عن هلاكهم ، قال أبو الدرداء رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «موت العالم مصيبة لا تجبَر ، وثُلْمة لاتسدّ ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم » . حادثة: نازلة وأمر حَدَث . نجمَت : ظهرت . قضية : قصَّة . استعجَمت : أشكلت . هاجت : حركت . الأسف : الحزن . سلف : مات وذهب . أعلام : مشاهير ، وأصلها الجبال يُستدلّ بها على مجاهيل الأرض . المدارس : جمع مَدْرسة ، وهى المحاضر التى يدرس فيها العلم . امتازوا : افترقوا . والأعلام الدَّوارس : الجبال المقفرة الخالية من الأشجار والعمران . استنطق : استخبر ، وسألهم أن ينطقوا ويجيبوا عنها . أحبار : علماء . خرسوا : سكتوا . أغْنِى : أقرب وأنفع . المرام : الطلب .

* * *

[أصل المثل : رُبَّ رمية من غير رامٍ]

ربّ رمية من غير رام[1] ، أى قد يصيب الغرض مَنْ ليس له علْم بالرماية ، وهو مثَل ، قاله حكيم بن عبد يغوث المنقرىّ ، وكان حكيم من أرْمَى الناس ، فأقسم يوما لَيعقرنّ[2] ولابدّ ، فخرج ومعه قوسه فرمَى ولم يصنع شيئاً ، فبات ليلَه بأسوأ حال ، وفعل فى اليوم الثانى والثالث كذلك ، فلما أصبح قال لقومه : ماأنتم صانعون ، فإنى قاتل اليوم نفسى إن لم أعقِر اليومَ مهاةً؟ فقال له ابنه : ! يا أبت احملنى معك ، أرْفِدْك ، فقال : وما أحمل من رَعِشٍ هِلٍ ، جَبانٍ فشل ، فانطلقا فإذا هما بمهاةٍ فرماها فأخطأها ، ثم مرت به أخرى ، فقال له ابنه مطعم : ياأبت ناولنى القوس ، فغضب أبوه وهمّ أن يعلوَه بها ، فقال له مطعم : أحمد بحمدك ، فإن

---

(١) الفاخر ١٤٣ ، مجمع الأمثال ١ : ٢٩٩ .
(٢) الفاخر : « ليدجن » .

سهمى سهمُك ، فناوله القوسَ ، فرمى مطعم فلم يخطىء ، فقال عند ذلك حكيم : رُبَّ رمية من غير رام ، وقال :

رماها مطعم من غير علم بمس القوس لم يخطىء صلاها
وكان أبوه قد آلى عليها فلم تبرر أليته مراها

* * *

أيها العالم الفقيهُ الذى فا قَ ذكاء فما لهُ من شبيه
أفتنا فى قضيّةٍ حادَ عنها كلّ قاضٍ وحارَ كلُ فقيه
رجلٌ ماتَ عنْ أخٍ مسلمٍ حرٍّ تقيٍّ من أمِّهِ وأبيه
وله زوجَةٌ لها أيُّها الحـبْرُ أخٌ خالصٌ بلا تمويه
فحوتْ فرْضَها وحازَ أخوها ما تبقّى بالإرثِ دونَ أخيه
فاشفِنا بالجوابِ عمّا سألْنا فهو نصٌّ لاخُلْفَ يوجَدُ فيه

فلما قرأتُ شِعْرها ، ولمحتُ سِرَّها ، قلت له : على الخبيرِ سقطْتَ ، وعندَ ابن بجْدَتِها حططت ، إلاّ أنى مضطرمُ الأحشاء ، مضطرٌ إلى العَشاء ؛ فأكرِمْ مثوايَ ، ثمّ استمع فتوايَ ؛ فقال : لقدْ أنصفْتَ في الاشتراطِ ؛ وتجافَيْتَ عن الاشتطاطِ ؛ فصِرْ معى إلى مربعى انظفر بما تبتَغى ، وتنقلبَ كما ينبغى . قال : فصاحَبْتُه إلى ذَرَاه ، كما حكم الله . فأدخلَنِى بيتاً أحرج من التابوت ، وأوْهَن من بَيْت المنكبوت ، إلاّ أنّه جَبَرَ ضيقَ ربعه ، بتوسعة ذَرْعه ، فحكّمنى فى القِرَى ، ومطايِب ما يشترى ؛ فقلتُ : أريدُ

أزهَى راكبٍ على أشهَى مركوبٍ ، وأنفعَ صاحبٍ معَ أضرّ مَصْحُوبٍ .

* * *

قوله : « فاق » ، أى فضل . ذكاء : حدّة ذهن . حاد : مال .

قوله : « رجل مات عن أخ . . . » ، البيت .

فائدة ذكر الأخ ، إثبات النّسب ، لأن الأجنبىّ لا يرث ، وفائدة ذكر المسلم أنّ أهل دينين لا يتوارثان ، وفائدة ذكر الحرّ أن العبد لا يرث الحرّ ، وأما التقىّ ، فما لقيت من أشياخنا من نَبّه عليه ، حتى حدّثنى به الفقيه أبو العباس اللَّيْثِىّ ، عرف بالحضّار ، فقال فائدة لطيفة ، وهى التحرّز من قاتل العَمْد ، لأنه لا يرث وليّه ، فأرادأن موجبات التّوارث قد كملت لهذا الوارث ، ومع هذا لم يرث أخاه .

والحِبْر : العالم . تمويه : شكّ وكذب . حَوَتْ : حازت . الإرث : لغةٌ فى الورْث ، وهو بالهمز بدل من الواو . لحت : أى نظرت ، واللمحة نظرة غير متمكّنة . ابن بجدتها : عالم سرّها ، ويقال : بجد فى المكان إذا أقام به ، والمقيم بالموضع عالم به . وقيل : أصله من قولهم : فلان من أهل التبجد ، أى من أهل البادية ، وهم العلماء باللسان على ما وضع . حططت : نزلت ، والخبير : عالم الخبَر ، وهذه أمثال للعالم بحقيقة الشىء . مضطرم : متّقد . مَثْوَاى : منزلى ، وأكرمت مثوَى الضّيف ، إذا أحسنت نُزُلَه ووطّأت له . فتواى : ما أفتيك به . الاشتراط والشرط بمعنى . تجافيت : تباعدت . الاشتطاط : مجاوزة الحدّ . مربعى : منزلى . تظفر : تفوز ، وأصله من الظُّفْرِ ، كأنه إذا ظفر بشىء أنشب أظفاره فيه . تنقلب : ترجع . ذَراه : منزله ، وكلّ ما كان من حائط وشبهه ذَرًى . أحرج : أضيق . أوْهَن : أضعف . جبر : أصلح . توسعة ذرعه :

سعة خلقه واحتماله . القِرَى : طعام الضّيف . مطايب : جمع طيب ، على غير قياس . أزهى : أعجب ، والزَّهو الـكِبْر ، وكانوا يصفّفون التّمرة على اللّبأ عند بيعه ، فيريد بالراكب التمر وبالمركوب اللّبأ ؛ لأنهم يشقّون التمرة ويغترفون بنصفها من القَدَح الذى فيه اللّبأ . ويريد : بأنفع صاحب التمر ، وبأضرّ مصحوب اللّبأ ، وهذا يوافق قول الأعرابىّ :

ألاليت لى خبزًا[1] من التمر واللّبا   وخَيْلاً من البرنىّ فرسانها الزّبد
فأطلب فيما بينهنّ شهـــادة   بموت كريم لايعدّ له لحـــدُ

والبَرْنىّ من أفضل التمر ، وقال مُحار الـكلبىّ :

أكلت الضِّبـاب فـا عفتُها   وإنى لأهْوَى قديد الغَنَمْ
وركّبت زبْدًا على تمرةٍ   فنعم الطعـام ونعم الأدَمْ

والعرب تقول : على الثّمرة مثلها زبدا ؛ وقيل فى تفسيره بالعـكس ، لأنّ الأطباء يقولون : إن التّمر مضرٌّ سريع العفن ، يولّد السّدَاد ، ويقولون أيضا : إنه حارّ رطب ملّين للبطن يولّد المنىّ ، فيقابل ضررُه نفعَه ، وكفى لنا أنه قوتٌ يُكتفى معه بأدنى الطعام ، وفيه قوة زائدة ، وبالجملة فاللفظ مشكل ، وما وجدت من يحققه .

ويُستملَح من كلام الحريرىّ أنه أراد بالراكب وبأنفع صاحب التّمر ، لأنه قدّمه فى التفسير حين قال: لعلّك تعنى ابنة نُخيلَة ، مع لِبَإٍ سخيلة ، وليس فى الأبيات المتقدمة شاهد على اللّبأ ، لأن حكم الزبد للزوجة ، وتعلقه بالتّمرة غير حكم اللّبأ ، فبالحرَى يقرن اللّبأ بالتّمر إذا شقّت ، وجعله أضرّ مصحوب لأنه لبن لم ينضج ، والنار تقطع بعض ضرره .

---

(١) ط : « خبرا » تصحيف ، صوابه من ا ، ب .
(٢) السداد : داء يسد الأنف ، ويمنع نسيم الريح .

وقال الفنجديهيّ : أزهى راكب التمر ، أى أحسن منظراً وأكثر حمرة ، وأشهى مركوب اللِّبأ ، وجعل التمر راكباً واللِّبأ مركوباً ، لأنّ التّمر يُجْتَنَى من رءوس النخل ، فهو كالراكب ، ولأن اللبأ يَضع ثمرات فوق اللّبأ والرائب ، ليزيد رغبة المشترى فيه . وجعل التمر أنفع صاحب ، لاكتفاء العرب به عن جميع المطعومات ، حتى يبقى أحدهم دهراً لا يأكل إلا التمر ، ولا يضرّه ذلك ، وجعل اللبأ أضرّ مصحوب ، لأنه يولِّد الصفراء .

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : إنا كنا آل محمد صلى الله عليه وسلم نمكث شهراً لا نستوقد ناراً ؛ إن هو إلا الأسودان : الماء والتمر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بيت لا تَمْر فيه جياعٌ أهله » .

والعرب تستحسن أكل الزّبد مع التمر ، قال سفيان الثورىّ : ما رأيت أحسن من زبدة على إزادة .

وقال معاوية لعبد الرحمن بن أبى بكر : أىّ اللقمة أطيب ؟ قال : تعضوضة عليها مثلها زبداً ، والإزاد نوع من التمر ، والتّعضوض تمر أسود .

وقالوا : ما أكلنا تمرًا أحمدَ من التّعضوض ، أى أشد حلاوة ، وتاؤه زائدة .

* * *

فأفكرَ ساعةً طويلةً ، ثم قال : لعلّكَ تعْنِى بنت نُخَيلَةَ ، مع لِبَإِ سُخَيلة ، فقلت : إيّاهما عنيت ، ولأجلهما تَعَنَّيْت ، فنهض نشيطاً ، ثمَّ رَبَضَ مُسْتنشِيطا ، وقال : اعلم أصلحك الله ، أن الصدق نباهةٌ ، والكذب عاهةٌ ؛ فَلَا يحملنّك الجوع الذى هو شعار الأنبياء ، وَحِليةُ الأولياء

على أن تلحق بمن مانَ ، وتتخلّقَ بالخُلُق الذى يجانب الإيمان ، فقد تجوع الحرّة ولا تأكل بثديَيْها ، وتأبَى الدنيّةَ ولو اضطُرّتْ إليها . ثم إنى لست لكَ بزَبون ، ولا أُغْضِى على صفقة مغبون، وها أنا قد أنذرتُك قبل أن ينهتِكَ السّترُ ، وينعقِد فيما بيننا الوِترُ ، فلا تُلغ تدبُّرَ الإنذار ، وحذارِ من المكاذبة حَذار .

* * *

قوله : «سخيلة» ، السُّخَيلة : ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى . تعقّيت : تعبت .

وقال أعرابىّ : أنا أشتهى ثريدة دَكْناء من الفلفل ، رَقْطاء من الحمّص ، ذات جناحين من اللحم ، لها جناحان من الفُواق ، فأضرب فيها كما يضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم .

وقال رجل لأعرابىّ : ما يسرنى لو بتُّ ضيفاً لك ، قال : لو بتَّ ضيفاً لى أصبحتَ أبطن من أمّك قبل أن تلدك بساعة .

قيل لأشعب : ما تقول فى ثريدة مغمورة بالسمن ، مشقّفة باللحم ؟ قال : فأضرب كم ؟ قالوا : تأكلها من غير ضرب . قال : هذا ما لا يكون ، ولكن لم أضرب أو أتقدم على بصيرة ؟

وقيل لمزبّد ـ وقد أكل طعاما كظّه[1] : قئه ، فقال : وما فيه ! خبز نقىّ ، ولحم جدى طرىّ ، امرأته طالق لو وجدت قيئاً لأكلته .

قوله : «نهض» ، تقدّم للمشى . نشيطاً : أى خفيفا ، وهى من الأنشوطة . ربض : نزل . مستشيطا : شديد الغضب . نباهة : رفعة . عاهة : آفة وعيب .

(١) ط : « فكه » ، وما أثبته من العقد ، والخبر فيه : قيل لمزيد المدينى ، وقد أكل طعاما كظه : قئ ، قال : أقئ خبزاً نقيا ، ولحم جدى! امرأته طالق ، لوجدتهما قيئا لأكلته .

شعار : علامة ، وشعار المؤمنين فى الحرب « لا إله إلا الله » ، أى علامتهم ، والأنبياء عليهم السلام منزَّهون عن شهوات المطاعم .

أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نور الحكمة الجُوع والتباعد من الله الشِّبع ، والقُربة إليه حبّ المساكين والدنوّ منهم . لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ، ومَنْ بات يصلّى فى خِفّة من الطعام ، بات حُور العين حوله حتى يصبح » .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : دخلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : ما أحوجك إلى الجلوس ؟ قال : الجوع ، فبكيت ، فقال : لا تبكِ ، فإن شدّة القيامة لا تصيب الجائع إذا ما احتسب .

قوله : « حلية » : صفة يتحلّوْن بها . وتتخلّق : تتطبّع . يجانب : يباعد . وأشار لقوله صلى الله عليه وسلم ، قيل : أيكون المؤمن كذّابا ؟ قال : لا .

عمر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ صريحَ الإيمان عبدٌ حتى يدَع المزاح والكذب والمِراء ، وإن كان محقًّا » .

وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : اتقوا الكذب ، فإن الكذب مجانب الإيمان .

* * *

[أصل المثل : تجُوع الحرّة ولا تأكل ثدييها]

قوله : « تجوع الحرّة ولا تأكل ثدييها » ، أى لا ترضع[1] لبنَها بالأجرة، ثم تأكلها ، وهو مثل يُضرب للذى لا يمنعه من صيانته شدّة فقره ، وهذا المثل للحارث بن سليل الأسدىّ ، وكان خطب إلى علقمة بن خَصَفة الطائىّ – وكان شيخاً – فقال علقمة لامرأته: اختبرى ما عند ابنتك[2] ، فقالت: أى بنيّة ، أىّ الرجال

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٢٦١

(٢) اسمها الزباء ، كما فى الجمهرة والميدانى .

أحبُّ إليك؟ الكهل الجحجاح الواصل المتياح ، أم الفتى الوضّاح، الذهول الطمّاح؟ قالت : بل الفتى،قالت : إن الفتى يُغيرك ،وإن الشيخ يميرك ، قالت : ياأماه إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنّس ثيابى ويبلِيَ شبابى ، ويُشمِت بى أترابى . فلم تزل أمُّها بها حتى غلبتْها على رأيها . فتزوّجها الحارث ، ثم ارتحل بها إلى أهله ، وإنه لجالسٌ ذات يوم بفناء قُبّته ، وهى إلى جانبه إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفسّت الصُّعَداء ثم بكت ، فقال لها :ما يبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ، من كل حوقل فنيخ ؟ فقال : ثكلتْكِ أمّك ! تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، ثم قال : وأبيكِ لرُبَّ غارة شهدتُها ، وسبيّة أردفتُها ، وخمرة شربتُها ، فالحقى بأهلك ، فلا حاجة لى فيك .

قولها : « الجحْجاح » : السيد السمح . والمتياح: الكثير المعروف، ويُغيرك يتزوّج عليك ، ويُميرك : يميرك ، ويعتلجون : يتصارعون. والحوقل : المسن ، والفنيخ:الضعيف الرِّخو. وقول العامة: لاتأكل ثدييها، أى لاتأكل لحم الثدى خطأ لا وجه له ، ويجوز على حذف مضاف تقديره أجْرَ ثدييها أو ثمنهما ، أو يكون على المجاز ، كأنها إذا أكلت أجرهما فقد أكلتهما ، ونحوه قول الشاعر :

إذا صبّ ما فى القَعْب فاعلم بأنّه دم الشّيخ فاشْرَب من دم الشّيخ أو دَعا

يريد رَجُلاً أخذا إبلاً فى دية أبيه ، فيقول له : إذا شربت لبنها فكأنك تشرب دم أبيك .

قوله : « وتأبى الدنيّة ولو اضطرت إليها » : أى تتمنّع من إتيان الفعل الدنىء ، ولو أُلجئت إليه . والزَّبُون : الذى يغلب فى المعاملات ، فَعُول بمعنى مفعول ، لأنه يزبن أى يدفع عن استكمال حقه .

أغضى : أسدل جَفْني، أى لا أسكت لك على الخداع. أنذرتك : نبهتك . ينبتك : ينقطع . الوِتْر : العداوة ، وقيل : الفرد ، فيكون معنى : « ينعقد بيننا الوتر » ، أى يرتبط . وترى بوترك ، أى شخصى بشخصك فى هذه المعاملة ، أو عد المضاربة معك إن خدعتنى . تُلْغ : تترك . الإنذار : التحذير . حَذَار ، أى احْذَر وخف .

* * *

فقلتُ : والذى حرَّمَ أكل الرِّبا ، وأحلَّ أكْلَ اللِّبَا ، ما فُهتُ بزور ، وَلاَ دَلَّيْتُكَ بِغُرورٍ ، وستخبُر حقيقة الأمْرِ ، وَتَحْمَدُ بَذْلَ اللِّبأ والتَّمْر . فهشَّ هشاشةَ المصْدُوقِ ، وانطلق مُغِذًّا إلى السوقِ ، فما كان بأسْرَعَ من أن أقبل بهما يَذْلَحُ ، ووجهه من التَّعَبِ يَكْلَحُ ، فوضعَهما لَدَىَّ ، وَضَعَ المتنِّ علىَّ ، وقال : اضرب الجيشَ بالْجَيْشِ ، تَحْظَ بِلَذَّةِ الْعَيْشِ . فحسرت عن ساعِدِ النَّهِمِ ، وحماتُ حملة الفيلِ الملتهِمِ ، وهو يَلْحَظُنِى كما يلحظ الحَنِق ، ويودُّ مِنَ الْغَيْظِ لو اخْتَنَقَ ، حتَّى إذَا هَلْقَمتُ النَّوْعَيْنِ ، وغادرتُهُمَا أثرًا بعد عَيْنٍ ، أفْرَدْتُ حَيْرَةً فى إظلال الْبَيَاتِ ، وفِكْرَةً فِى جوابِ الأبْيَاتِ ، فمَا لَبِثَ أنْ قَامَ ، وَأحْضَرَ الدَّواةَ وَالأقْلام ، وقال : قَدْ مَلأْتَ الجِرابَ ، فأمْلِ الجَوَابَ ، وَإلاَّ فتهيَّأْ إن نَكَلْتَ ، لاغترامِ مَا أكَلْتَ ،

فقُلْتُ له : ما عندِى إلاَّ التَّحقيق ، فاكْتُبِ الْجَوابَ ، وبالله التوفيق .

* * *

الربا : البيع الفاسد .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل درهماً من رباً ، فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية[1] ، ومن نبت لحمه من السُّحت فالنار أولى به » .

فُهت : نطقت . زور : باطل . دَاَّيتك بغرور : ، يريد أنه لم يعزِّر به بل صدَّقه . ستنخبر : ستجرّب . هش : اهتزَّ . المصدوق : الذى أخبر بالصدق . مغذًّا : مسرعاً ، وقد أغذَّ إغذاذاً ، إذا أسرع . يدلح : يتثاقل فى المشى ، ودلحَتِ الدَّابة بالحمل دلُوحا ، والسحاب بالماء . نهضت به ثقيلاً . يكلح : يعيش . الممتنّ : المتفضّل . اضرب الجيشَ بالجيشِ ، أى اخلطهما عند أكلك لهما . تحظ : تسعد . حسرت عن ساعد ، أى شمرت عن ذراع . النّهم : الكثير الشهوة والحرص على الأكل . الملتّهم : المبتلع لما وجد . يلحظنى : ينظرنى بطرف عينه . الحنِق : المغتاظ . وحنق حنقاً : اشتدّ غيظه . هلقمت : ابتلعت بسرعة . غادرتهما : تركتهما . أثراً بعد عين ، أى بعد أن كان الطعام مرئيًّا ابتلعته فلم يبق غير أثره الإناء .

* * *

(١) ساقط من ط .

[مشاهير أهل الزّرد]

ويليق بهذا الموضع أن نذكر فيه ما شهر من مغرّبات الزرَد[١] ، قال الشاعر فى أكول :

فتضرب خُمسَ كفّك فى ثريدٍ   بِلَقمٍ[٢] منك منكش الذهَابِ
كأن دوِيّهُ فى الحلـق لمـا   يُهمِهِمُ صوتُ رعدٍ أو سحاب

وقال آخر :

إذا غرّد العصفور طـار فؤادُه   وليثٌ حديد الناب عند الثرائدِ[٣]

وقال آخر :

لم تر عينى آكلامثـــــلَه[٤]   يضرب باليسرَى معاً واليمينِ
تلعب بالقَصْعة أطـــــرافُه   لعبَ أخى الشِّطْرنج بالشّاهِين

فمن مشاهير أهل الزرَد هلال بن أسعر[٥] المازنى ، وهو من شعراء الدّولة الأمويّة ، ذكر الأصبهانىّ أنه كان عظيم الخلْق شديداً قويًّا .

---

(١) الزرد : سرعة ابتلاع الطعام.
(٢) ب: « يأكل »
(٣) الثرائد : جمع ثريدة ، وهى ما يهشم من الخبز ويبل بماء القدر
(٤) ب: « غيره » .
(٥) ط : « أسعد » تحريف ، صوابه من ا ، ب ؛ ولهلال هذا ترجمة فى الأغانى ٣:٥٢ — ٧٥ ؛ قال أبو الفرج : « شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، و أظنه قد أدرك الدولة العباسية ، وكان رجلا شديدا عظيم الخلق أكولا معدوداً فى الأكلة » .

قال أبو عمرو بن العلاء : لم أكن أراهُ حيًّا ، بل رأيته ميّتاً ، فما رأيت على سرير أطول منه .

قال هلال : جعتُ مرّةً ، ومعى بعير لى ، فنحرته فأكلته إلا ماجعلته منه على ظهرى ، ثم أردت جماع امرأتى ، فلم أقدِرْ ، فقالت : كيف تصلُ إلىَّ وبيننا بعير[1] !

وحدَّث شيخ من بنى مازن ، قال : أتانى هلال ، فأكل جميع ما فى بيتِنا ، فبعثنا إلى الجيران نستقرض الخبز منهم ، فلمّا رأى اختلافَنا ، قال: كأنكم أرسلتم إلى الجيران : أعندكم سَوِيق[2] ؟ فأتيته بجراب طويل فيه سَوِيق وبَرْنيّة[3] فيها نبيذ ، فصبَّ السويق كلَّه ، وصب النَّبيذ ، وازدرد الكل[4] .

ومر على رجل من بنى مَازن بالبصرة ، ومعه زورق رُطَب[5] ، قد ساقها من بُسْتانِه ، فجلس على زَوْرَقٍ منها صغير ، منطًّى ببارِيّة[6] فقال : آكل من رُطبك ؟ قال : نعم ، قال : ما يكفينى ؟ قال : ما يكفيك ، فجلس على الزَّوْرَق يأكل التمر إلى أن اكتفى ، فسلّت البارِيَّة فإذا الزورق مملوء نوًى[7] .

---

(١) الأغانى ٣ : ٦٨ ، فى خبره عن المعتمر بن سليمان ؛ قال المعتمر فى آخر الخبر : فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ قال : أربعة أيام .

(٢) السويق : دقيق الحنطة.

(٣) البرنية : إناء من خزف.

(٤) الخبر فى الأغانى ٣ : ٦٩ ، وفيه : « فصب السويق كله ، وصب عليه النبيذ حتى أتى على السويق والنبيذ كله ».

(٥) الأغانى ، : « رطبا فى زواريق » .

(٦) البارية : الحصير المنسوج ، وجمعه البوارى .

(٧) الخبر فى الأغانى ٣ : ٦٩ .

وقال صدقة بن عبدالله[١] المازنى : أولَمَ[٢] علىّ أبى لما تزوّجت ، فعملنا عشر جفان ثريداً من جزُور ، فكان أول[٣] من جاءنا هلال، فقدّمت إليه جَفْنَةً فأكلها ، ثم أخرى حتى أتى على عشر جفان ، ثم استسقى، فأُتى بقربة من نبيذ ، فوضع طرفها فى شِدْقِهِ ، فأفرغها فى جوْفه ، ثم خرج ، فاستأنفنا عمَل الطعام ، ومن أعجب ما أكله مائتا رغيف بمكوك[٤] بلَح.

وكانت شبعته تكفيه لخمسة أيام . وكان لا يقاومه أحد فى النجدة .

ومنهم سليمان بن عبد الملك ، ذكر المسعودى[٥] أن شِبْعه[٦] كانت كل يوم مائة رطل بالعراق ، وكان ربما أتاه الطبّاخون بسَفَافيد فيها الدجاج ، وعليه جبّة الوشى ، فبحرصه على الطعام ، كان يدخِل يده فى كُمّه ثم يقبض على الدجاجة ، وهى حارّة فيفصلها .

قال الأصمعىّ :ذكرت ذلك للرشيد ، فقال: قاتلك الله ! ماأعرفك بأخبارهم! لقد كنت أرى الدّسَم فى أكام جبابه ، ولا أدرى ماسببه ، حتى حدّثتَنى[٧] . وكسانى منها جُبّة .

وخرج يومامن الحمام وقداشتد جوعه[فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه][٨] فأمر أن يقدّمَ مالحق من الشواء ، ولم يكن فرغ من الطعام شيء ، فقُدِّم

---

(١) الأغانى : « صدقة بن عبيد المازنى » .
(٢) أو لم على أبى : عمل لى وليمة زواجى .
(٣) كذا فى ب ، وهو يوافق ما فى الأغانى ، وفى ط : « فأول من جاءنا » .
(٤) المكوك : مكيال يسع صاعا ونصفا ، والخبر فى الأغانى ٣ : ٧٠ .
(٥) مروج الذهب ٣ : ١٨٥ .
(٦) الشبع من الطعام : ما يكفيك منه .
(٧) المسعودى : « عرضت على جباب بنى أمية ، فنظرت إلى جباب سليمان وإذا كل جبة منها فى كمها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتنى بالحديث » .
(٨) تكملة من المسعودى .

إليه عشرون خروفا ، فأكل أجوافها مع أربعين رُقاقة ، ثم قدِّم الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل[١] .

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص رضى الله عنه لما قدم[٢] سليمان الطائف ، دخل بستانىّ هو وعمر بن عبد العزيز ، وأيوب ابنه ، فجال فى البستان ساعة ، ثم قال : ناهيك بمالكم هذا مالاً ! ثم ألقى صدرَه على غصن شجرة ، وقال : ويلك يا شمردل ! عندك شىء تطعمنى؟ فقلت : بلى عندى جدْى ، كانت تغدو عليه بقرة وتروح [عليه[٣]] أخرى ، قال : عَجِّل به ويحك! فأتيته به كأنه عُكّة سمن ، فأكله وما دعا[٤] عمر ولا ابنه حتى إذا بقى الفخذ قال : هلمّ أبا حفص ، قال : إنى صائم ، فأتى عليه ، ثم قال : ويلك أعندك شىء ؟ فقلت : سبع[٥] دجاجات هنديات كأنهن رِئْلان[٦] النعام ، قال : عَجِّل بهنّ ، فأتيته بهن ، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقى عظامها بفيه ، فلمّا فرغ منهنّ قال : ويلك ! أعندك شىء ؟ فقلت : حَرِيرة[٧] كأنها قُراضة ذهب ، فقال: عَجِّلْها ، فأتيته بها ، فجعل يشربها شربا ، فلما فرغ تجشّأ فكأنما صاح فى جُبّ ، ثم قال : يا غلام أفرغت[٨] من غدائى ؟ قال : نعم : فقدّم إليه ثمانين قدراً ، فأكثرُ ما أكل من قِدْر ثلاث لقمات ، وأقلّ ما أكل لقمة ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذن للناس ، وصُفّتِ الموائد ، فأكل معهم فما أنكرت من أكله شيئاً .

---

(١) المسعودى ٣ : ١٨٥ .
(٢) الخبر فى العقد ٦ : ٣٠١
(٣) من ب ، والعقد
(٤) ط : « ما دعا ابنه ولا عمر » ، والصواب ما أثبته من ب والعقد
(٥) العقد « خمس دجاجات » .
(٦) الرئلان : جمع رأل ، وهو فرخ النعام .
(٧) الحريرة : دقيق طبيخ بلبن وسمن .
(٨) أى هل أتممت إعداده ؟ كأنه جعل ما التهمه من قبل مقدمة لغدائه .

وسبب وفاته أنّ نصرانيًا أتى بزنبيل مملوء بيضا ، وآخر مملوء تينا ، فقال : قَشّروا، فجعل يأكل بيضة وتينة ، حتى أكل الزّنبيلين ، ثم أتوه بقَصْعة مملوءة مُخًا بسكّر ، فأكله فاتخم ، فمات .

ومنهم عمرو بن معد يكرب ، دخل على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال : مِنْ أين أقبلت يا أبا ثَوْر ؟ فقال : من عند سيّد بنى مخزوم ، أعظمها هامةً ، وأقلّها ملامةً ، وأفضلها حلماً ، وأقدمها سلماً ، قال : مَنْ هو ؟ قال : سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد ، قال : فأىّ شىء صنعت عنده ؟ قال : أتيته زائراً فدعالى بقعْبٍ وفرس وثورٍ ، فقال له عمر : وأبيك إن فى هذا لشبعاً ، قال : لى أو لك ؟ قال : لى ولك ، قال: بلى ، فما تقول ياأمير المؤمنين ، إنى لآكل الجذْع من الإبل ، أنتقيه عظماً عظماً ، وأشرب الشّنّ من اللبن رائباً أو صريفاً (١) .

* * *

قوله : « أقردت » . سكت وخضعت . مالبث : ماتمهّل . الجراب : وعاء الزاد ، وأراد بطنه . أمْلِ ، يقال: أمليت عليه إذا ألقيتَ عليه ما يكتب ، وأمللت لغة ، وقيل : الأصل أمللت ، فأبدل من اللام ياء . نـكلت : انقطعت .

* * *

قل لِمَنْ يلغِز المسائلَ إنّى كاشفٌ سِرّها الذى تخفيـهِ
إنّ ذا الميّتَ الذى قدّم الشّرْ عَ أخا عِرْسِهِ على ابن أبيهِ
رجلٌ زوّج ابنَه عن رضـاهُ بحماةٍ له ، ولا غَرْوَ فيــهِ

(١) الشن : القربة ، والرائب : اللبن الممخوض ، والصريف : اللبن ساعة يحلب .

ثمَّ مات ابنُه وقد عَلِقتْ منـــهُ فجاءتْ بابنٍ يَسُرّ ذَويهِ
فهو ابن ابنِـه بغيرِ مراءٍ وأخو عِرسِـهِ بلا تمويهِ
وابن الابْنِ الصَّريحُ أدنى إلى الجدِّ وأولى بإرثهِ من أخيهِ
فلذا حينَ ماتَ أوجب للزوْ جةِ ثُمْنَ التراثِ تَستوْفيهِ
وحوى ابن ابنهِ الذى هو فى الأصـ
ـلِ أخوها من أمِّها باقيهِ
وتخلَّى الأخ الشقيق من الإرْ ثِ وقلنا يكفيك أن تبكيه
هاكَ منِّى الفُتيا التى يحتذيهاَ كلُّ قاضٍ يقضى وكلُّ فقيهِ

* * *

لاغَرْوَ : لاعجب . علقت : حملت . ذويه : قرابته ، وأضاف « ذوى » إلى المضمر ، وهى لغة قليلة ، ومنعها بعضهم ، وجوّزها جماعة من أئمة اللغة .

وقال أبو علىّ الفارسىّ · اللهمَّ صلّ على محمد وذويه ، حَمَلُوا « ذَوِى» على الأصحاب .

الأزهرىّ : سمعت غيرَ واحدٍ من العرب ، يقول : كنَّا مع ذوى عمرو ، يعنى مع أصحاب عمرو ، وهو كثير فى كلام قيس ومَنْ جاورهم .

وقال الحريرىّ فى الدرة[1] : ويقولون : رأيت الأمير وذويه ، فيهمُون فيه ، لأنّ العرب لم تنطق بذى ، الذى بمعنى صاحب إلاّ مضافاً إلى اسم جنس ، كقولك : ذو مال وذو نوال ، فأمّا إضافته إلى الأعلام أو إلى أسماء الصفات المشتقة من

(١) درة الغواص ٨٥ .

الأفعال فلم تُسمع بحال ، ولهذا لَحَن من قال : صلى الله على محمد وذويه ، وكما لم يقولوا : ذو[1] أبي ولا ذو أمي ، واقتصروا على إضافته إلى الجنس ، ولهذا لم يرفع السببيّ لأنه ليس بمشتقّ [من فعل][2] ، فلا يقال : مررت برجل ذى مالٍ أخوه ؛ وتصحيحه ذو مال أخوه[3] ، لأن النكرة تختصّ بأن توصَف بالجملة[4] .

* * *

قوله : « مراء» جدال . تمويه : كذب . الصريح : الخالص . أدنى : أقرب . التّراث : المال الموروث. حوى : حاز . تخلّى : خرج بلا شيء. هاك : خذ. يحتذيها : يتبعها ويعمل بها .

وتقريب هذا اللغز أن تقولَ : رجل وابنه وامرأة وابنتها ، تزوّج الرجل البنت ، والابن الأمّ ، فمات الابن ، وقد حملت منه الأم ، فوضعت غلاماً ، فكان للرَّجل ابن ابنه ، ولزوجته أخاً لأم ، ثم مات الرّجل وترك أخاً فورثتْ زوجتهُ الثمن ، وأخوها من أمّها الباقي ، لأنه ابن ابن الميّت ، وهو يحجب الأخ ، كما كان يحجبه الابن لو كان حيًّا .

ومثله قول الآخر :

وقائلةٍ أوْصِ الغداةَ فإنني ... أرى الموتَ قد حطّتْ لديك ركائبُهْ
فقلت وقد راعَ الفؤادَ مقالُها ... وضاقت به خوفَ الحمام مذاهبُهْ
لك الثُّمنُ إن حانت وفاتي فريضةً ... وسائر ما يبقى فصنْوُك صاحبُهْ

جوابه :

تعلّم فإنّ العلم أكبر ملبسٍ ... لمن شَرُفَتْ أخلاقُه ومذاهبُهْ

(١) الدرة : « كما لم يقولوا : ذو عالم ولا ذو ظريف ؛ لم يقولوا : ذو نهي ولا ذو أمير ، وقصروا ذا على إضافته إلى الجنس » .
(٢) من درة الغواص .
(٣) درة الغواص : « أبوه » .
(٤) درة الغواص ٨٥ .

حليلة هذا أمّها زوجة ابنه ... فذلك والإلغاز جمّ عجائبه
فإن ابنه صِنْوٌ لزوجته ومَنْ ... يقرّ بعرف العلم تعلُو مراتبُهْ
فيرانُها تُمْنٌ وللصِّنْوِ ما بَقِي ... كذلك يقضى مَنْ تعالت مناقبُهْ

والمتقدّم للسؤال فى هذه المسألة عبد الملك بن مروان ، وذلك أنه وقف به رجلٌ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا تزوّجت امرأةً ، وزوّجْتُ ابنى من أمِّها ، فامددنا بشىء نستعين به . فقال له : إن أخبرتنى كيف يُدْعَى ابنُ كلٍّ واحد منكما لابن صاحبه ، فأنا أرفدُك ، وإلا فلاأعطيك شيئاً . فقال له الرجل : فَسَلْ عن ذلك كاتبَك وصاحب شُرْطَتِك ، فإن أجاباك ، فما تعطيه لى ، فادفعه إليهما ، وإلا فأنا أعذِر . فسألهما فلم يعرفا ذلك ، فابتدر رجلٌ من آخر الصفوف ، وقال له : أرأيتَ إن أخبرتك ، أتعطِينى ما ذكرتَ للسائل؟ فقال له : نعم ، فقال ابن الأب عمّ ابن الابن وابن الابن خال ابن الأب ، فوصله .

فهذا أخفّ أمراً فى الظاهر من التّوارث الذى فرض الحريرىّ ، وأشكل فى المعنى .

* * *

قال : فلمّا أثبتَ الجوابَ ، واستثبتُّ منه الصَّوابَ ، قال لى : أهْلَكَ واللَّيل ، فشمِّرِ الذَّيْل ، وبادِرِ السَّيْلَ ، فقلت : إنى بدارِ غُربة ، وفِى إيوائى أفضَلُ قُرْبة ، لاسيَّما وَقدْ أغدَفَ جُنْحُ الظَّلاَمِ ، وَسَبَّحَ الرَّعْدُ فى النمام ، فقال : اغرُبْ عافاكَ اللهُ إلى حيث شِئت ، ولا تطمَعْ فى أن تبيت ، فقلت : ولِمَ ذلك ، مع خُلُوّ ذَراك ؟

قال : لأنى أنعمتُ النَّظرَ، فى التقامِكَ ما حَضَرَ ، حتَّى لَمْ تبْقِ ولَمْ تَذَر ، فرأيتُك لا تنظرُ فى مَصْلَحَتِكَ ، وَلاَ تراعِي حفظَ صِحّتِك، ومَنْ أَمعَنَ فيما أَمْعَنْتَ ، وَتبطَّنَ ما تبطَّنْتَ ، لمْ يَكَدْ يَخْلُصُ مِنْ كِظَّةٍ مُدْنِفة ، أوْ هَيْضَةٍ مُتلِفةٍ ، فَدَعْنِي باللهِ كِفافاً ، وَاخرُجْ عنِّى مَا دُمْتُ معافًى ، فو الذى يُحيي ويُميت ، مالَكَ عِندى مبيتٌ .

فلمَّا سَمِعتُ أليَّتَهُ ، وبَلَوْتُ بِانَّيَّتَهُ ، خرجتُ مِنْ بيتِهِ بالرَّغْمِ ، وتزوُّدِ الغمِّ ، تجودُنى السَّماء ، وتَخْبطُ بِيَ الظَّلْماءُ ، وتنبحنى الـكلاب ، وتتقاذف بِى الأبواب ، حَتَّى ساقنِى إليكَ لُطْفُ القَضاء، فشكرًا ليده البيضاء !

* * *

قوله : « أثبَت » صحَّح . استثبتَّ ، أى وجده ثابتاً . أهلك والليل، كلام العرب ، كأنه قال : بادرْ أهلَكَ قبل الليل ، وتحقيق المعنى فى ذلك أنه عطف الليل على الأهل ، وجعلهما مبادرَيْن ، ومعنى المبادرة مسابقتك الشىء ، كقولك : بادرت زيداً المنزل كأنى سابقته إليه ، وكأنّ الليل والرجل الخاطب يتسابقان إلى أهل الرجل ، فأمره الآمر أن يسابق الليل إليهم ، ليكون عندهم قبل الليل . شمِّر الذيل ، أى ارفع ساقَك ، واستعدَّ للمشى . إيوانى: ضمّنى . قُرْبة: ما يُتقرّب به من أعمال البرّ . أغدف : أسبل وأرسل ، ومنه قول عنترة :

إن تُغْدِ فى دونى القِناع فإنَّنى ... طَبٌّ بأخذ الفارس المتلئم[١]

وإنما قيل للغراب غُداف لسبوغ ريشه .

وقال رؤبة يخاطب أخاه :[٢]

* نُبِّتَ من جَنَاحِك الغُدافى *

جُنْحِ الظلام : ميله، وجَنَحِ الليل جنوحاً ، وأجنح: مال، وهو من الجناح وكان الطائر إذا عدل عن طريقِ طَيرانه ، فيرجع يطير إلى جهة جناحه ، قيل له : جَنَح ، ثم استعير فى الليل وغيره ، كما قيل: نَكّب عن طريقه ، هى من المنكب ، كأنه قال : مال بمشيه إلى جهة مَنْكِبه .

سبَّح : صوت . الغمام : السحاب . اغْرُب: غب وابعد . ذَرَاك : منزلك. أنعمت : بالغت . تراعِى : تحفظ . أمعن : كثر ، وتقول : أمعِنْ لى بحقى : اعترف به وأظهِرْه ، مأخوذ من الماء المعين ، وهو الجارى الظاهر .

الفرّاء : المَعين من الماعون ، أو مفعول من العيون .

تبطَّن : ملأ بطنه . كِظّة : امتلاء البطن . مدنفة : ممرضة. هيضة: انطلاق البطن بالقىء والإسهال . كِفافاً : مسالمة ، أى كفّ عنى شرك وخيرك . معافًى: سالماً من الآفات .

---

(١) المعلقة ـ بشرح التبريزى ٢٥٦ ؛ قال: الإغداف: إرخاء القناع على الوجه ، والطب : الحاذق. ورواه : « المستلئم » والمستلئم : الذى قد لبس اللأمة ؛ وهى الدرع .

(٢) اللسان ـ غدف ، وروايته .

* رُكِّبَ فى جناحِك الغدافى *

وبعده :

* من القدامى ومن الخوافى *

ألّيته : يمينه . بلوت : خبرت وشاهدت . الرّغم : الذلّ . تجودني : تمطرني. والسماء : المطر هنا .

وتذكرت بهذه الحالة خروج السَّلاميّ من دار الشريف الرضي في عشيّة ماطرة ، فأعطاه كساء استتر به ، فلما وصل إلى منزله كتب إليه بقصيدة :

منها :[1]

وَدّعتُ دارَكَ والسماء تجودُني بيد الغمام فلا يكن بكَ ما بي[2]
ما كنت إلا جنّةً فارقتُها كرهاً فصُبّ عليّ سوط عذابِ[3]
ورأيت غاليةَ الطريق ومِسْكَهُ طيباً معدّاً لي عَلَى الأبواب
وحمى كساؤك لا عدمت مُعِيرَه دُرّاعتي وعمامتي وجبابي
فوليت يابحر السماحة كُسوتي وَوَلِي أخوكَ الغيثُ بَلَّ ثيابي
فوصلت أشكر ذا وأشكو ذا وبالـ
ـعينين ما بهما من التَّسْكَابِ

وقال آخر فأحسن :

وغمامة نثرتْ دموعاً عندما نَثَر النَّسيمِ جُمانَها تَشْبِيكَا
تهدِي السقوفَ جمانَها متفرِّقاً وتمدّه عند السُّقوط سلوكا

وقال ابن شهيد فأحسن :

ومرتجزٍ ألقى بذي الأثل كَلْكَلاً وحطّ بجرعاءِ الأبارقِ ما حَطّا[4]
سعى في قياد الرِّيح يسمح للصَّبا فألقت على غُبر التِّلاع به مِرْطَا

(١) من قصيدة ذكرها صاحب اليتيمة في ٢ : ٣٨٢ ـ ٣٨٤ ، ومطلعها :

مازال بي مهر الشبيبة جامحاً حتى حملت على المشيب الكابي

(٢) اليتيمة : « فلا أرى بك مابي » .
(٣) ط : « صوب حذابي » ، تصحيف .
(٤) ديوانه ١٢١ .

وما زال يروى التّرب حتى كسا الرُّبا

درانِك ، والغيطان من نسجه بُسْطا

وعَنَّتْ له ريحٌ تساقط قَطْرَهُ كما نثرت حسناء عن جيدها سِمْطا

قوله : « تخبط » أى تجعلنى أمشى فيها على غير هدى . تتقاذف : تترامى وتتطارح ، وجعل الأبواب يرميه بعضها على بعض ، لِمَا كان يقرعها ولا تفتح له .

لطف القضاء ، أى رفق قدر الله وقضائه . يده البيضاء : نعمته الكريمة ، وتقول : لفلان علىّ يد بيضاء أى نعمة ، وجمعها أياد .

[مما قيل فى شكر النعمة]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أهدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها له استجيب له فيهم » .

قال عبد الله بن المبارك : أقبل نصر بن سيّار : فقال : اللهمَّ إنى أهديت إلى بسّام نعمة فلم يَعدِلِى بشكرها ، فاجعل موتهم قتلاً بالسيف . فبلغنى أنه قتِل منهم سبعون رجلا .

وقال أبو نواس وأتى بمعنى بديع :

قد قلت للعباس معتذرًا من ضعف شكريه ومعترفا[1]

أنت امرؤ جَلَّلْتَنِى نِعَمًا

أوهت قُوى شكرى فقد ضَعُفا

فإليك بعد اليوم تقدِمَةً لاقتك بالتصريح مكتنفا

لا تُحْدِثنّ إلىّ عارفة[2] حتى أقومَ بشكر ماسلفا

(١) ديوانه ٧١ .

(٢) الديوان : « لاتسدين » .

اعترضه الناشي في معناه فقال :

إن أنت لم تحدِثْ إليَّ يدا حتى أقوم بشكر ماسلَفَا
لم أحظَ منك بنائلٍ أبدا ورجعت بالحرمان منصرِفَا

وقال طريح :

طلبتَ ابتغاء الشُّكْرِ فيما صنعت بى
فقصَّرْتُ مغلوبًا وإنى لَشاكِرُ
وقد كنت تعطيني الجزيلَ بدايةً وإنى لما استكثرتُ منك لحاقِرُ
فأرجع مغبوطًا وترجع بالتى لها أوّلٌ في المكرمات وآخرُ

وقال آخر :

رهنت يدِى بالشُّكر فى شكر برّه
وما فوق شكرى للشّكور مَزِيدُ
ولو أنّ شيئا يستطاع استطعتُه ولكنّ ما لا يستطاع شديد

وقال إبراهيم بن العباس الصولى :

فلو كان للشكر شخص يبينُ إذا ما تأمله الناظرُ[1]
لمثَّلتُهُ لك حتى تراه فتعلم إنى امرؤٌ شاكرُ

وهذا الباب من الشكر وإن وفَّيناه حقه هنا يأتى متفرِّقا فى الكتاب .

* * *

(١) ديوانه ١٨٤ ، عيون الأخبار ٣ : ١٦١ .

[البطنة وقولهم فيها]

ولمّا ذكر البِطْنَة وخطرها ، وأنها أوجبتْ عليه خروجَه من منزل ضَيْفه على الحالة التى وصف ، أردنا أن نصِلها بما يشاكلها .

ومما جاء فى ذم البطنة من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يشترىَ غلاماً وضع بين يديه تمراً ، فإن أكل كثيراً قال : رُدُّوه ، فإن كثرة الأكل من الشؤم .

وقيل للمُشْتَرِى : الرجل يأكل فى اليوم مرة ؟ قال : أكل الصدّيقين، قيل: فمرتين ؟ قال : أكل المؤمنين . قيل : فثلاثاً ؟ قال : قل لأهلك يبنُوا لك مِعْلَفاً .

ويقبح أن يكون الرجل وصّافاً لبطنه وفَرْجه ، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية رضى الله عنهما يوم الحكمين : أكثروا الطعام ، فوالله ما بَطَن قوم قط إلا فقدوا بعضَ عقولهم ، وما مضَتْ عزيمة رجل بات بطيناً .

وقال بعض الحكماء : لكل شيء صدأ وصدأ القلوب شبع البطون .

عزم المعتصم يوماً على الاصطباح ، وأمر ندماءه أن يطبخ كلُّ واحدٍ منهم قِدْراً ،فدخل عليه غلام ابن أبى دواد ، فقال المعتصم : الساعة يأتى ابن أبى دواد، فيقول : فلان الهاشمى ، وفلان القرشىّ والأنصارىّ ، فيقطعنا بحوائجه عما عزمنا عليه ، وأنا أشهدكم أنى لا أمضى له يومى هذا حاجة ، فلم يتم الكلام إلا والحاجب يستأذن به ، فقال لجلسائه : كيف ترون ؟ فقالوا : لاتأذن له ، فقال : سوأة لكم ! الحمّى سنة أهون علىّ من ذلك ، ودخل فما هو إلا أن سلّم وجلس

وتكلم حتى ضحك المعتصم ، وسفر وجهه إليه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، لقد طبخ كل واحد من هؤلاء قِدْراً ، وقد جعلناك حكماً فى طبخها ، قال : فليحضر كل واحد قدره وآكل ، ثم أحكم فيها . فوضعت بين يديه ، فأكل من أول قِدْر أكلا كثيراً ، فقال المعتصم : هذا ظلم ، قال : وكيف ذاك ؟ قال: لأنى أراك أمعنت فى هذا اللون ، وستحكم لصاحبه ، فقال : علىّ أن آكل من القدور كلّها مثله ، قال : شأنك ، فأكل ثم قال : أمَّا هذه فقد أجاد طباخها ، إذ قلّل خلّها وكثّر زيتها ، ثم أكل من كل قِدْرٍ كذلك ، ووصف القُدور كلّها بصفات حسنة سُرَّ بها أصحابها ، ثم قُدِّمَ الطعام ، فأكل مع القوم كما أكلوا ، أنظفَ أكل وأحسنَه، وهو يحدّثهم بأخبار الأكلةِ فى صدر الإسلام ، كمعاوية وعبدالله ابن زياد ، والحجاج وسليمان بن عبد الملك . وعن أكلة دهره مثل مَيْسرة التّمّار ، ودَوْرق القصّاب ، وحاتم الكيّال ، وإسحاق الحمّامى .

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم ، وقد أطربه حديثُه : ألك حاجة يا أبا عبد الله ؟ قال : رجل من أهل بيتك ، وطئه الدهر ، وغيَّر حاله ، قال : ومَنْ هو ؟ قال : سليمان بن عبد الله ، قال : قَدِّرْ له ما يصلحه ، قال : خمسون ألفاً ، قال : قد أخذت ذلك له ،قال : ولى حاجة أخرى ، ثم ذكر ثلاث عشرة حاجة لا يردُّه عن شىء منها ، ثم قام خطيباً ، فقال : عمَّرك الله يا أمير المؤمنين طويلاً فبعمرك[1] تُخْصِب جنّات رعيتك ، ويلين عيشهم ، وتنمو أموالهم ، ولازلت ممتَّعا بالكرامة والسلامة ، مدفوعاً عنك حوادث الأيّام وغيرها ، ثم انصرف. فقال المعتصم : هذا والله يتزين الملك بمثله ، ويبتهج بقربه ، أما رأيتم كيف دخل ، وكيف تكلم ، وكيف أكل ، ثم انبسط فى الكلام ، وكيف طاب به أكلنا ، مايَرُدُّ هذا عن حاجته إلاَّ لئيم الأصل ، والله لو سألنى فى مجلسى هذا ماقيمته

---

(٢) ب . « فلعمرك » .

عشرة آلاف ألف ما رددته عنها ، وأنا أعلم أنه يكسبنى فى الدنيا حمداً ، وفى الآخرة ثواباً .

وفيه يقول أبو تمام :

لقد أنسَتْ مساوئَ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمد بن أبى دُوَادِ(١)

وهذه الحكاية تنتظم فى حكايات أهل الزَّرد المتقدمين فى المقامة ، وقد احتوت على رجال موصوفين بذلك ، ختمنا بها الباب .

* * *

فقُلْتُ له : أَحبِبْ بلقائكَ المُتاحِ ، إلَى قَلْبِيَ المُرْتاحِ ، ثمَّ أَخَذَ يَفْتَنُّ فى حِكاياتِهِ ، وَيُنْشِطُ مُضحِكاتِهِ بمبكياتِهِ ، إلى أن عَطَسَ أَنْفُ الصَّباحِ ، وَهَتَفَ دَاعِي الْفَلَاحِ ، فتأهَّبَ لإجابةِ الدَّاعِي ، ثمَّ عطفَ إلى ودَاعِى ، فَمَقَتُّهُ عَنْ الانبعاث ، وقُلْتُ : الضِّيافةُ ثلاث ، فَناشدَ وحَرَّج، ثمَّ أَمَّ المَخرج ، وأنشد إذْ عَرَّجَ :

لا تَزُرْ مَنْ تحِبُّ فى كل شَهْرٍ
غَيْرَ يوم ٍ ولا تَزِدْهُ عَلَيْهِ
فاجْتلاءُ الهلالِ فى الشَّهرِ يومٌ
ثمَّ لا تَنظرُ العُيونُ إليْهِ

قال الحارث بن هَمَّام : فودَّعْتُهُ بقَلْبٍ دامِى القَرْحِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ لَيْلَتِى بَطيئَةُ الصُّبْحِ .

* * *

(١) ديوانه ص ٧٩ .

قوله : « أحْببْ » ، تعجّب معناه : ماأَحَبَّ لقاءكَ إلى قلبي. المتاح: المقدَّر، والمرتاح : المهتزّ طرباً . يفتنّ : يتنوّع . ويشْمِط : يخلط . أنفه : أوله ، وجعل الصباح أنفاً عاطساً مجازاً لمّا كان يدفَعُ ظلمة الليل. هتف: صاح. داعى الفلاح ، هو المؤذّن . والفلاح : البقاء . تأهّب : استعدّ . عُقْته : حبسته . الانبعاث : النّهوض .

وذكر أنّ الضيافة ثلاث : لأنه جاء في حديث أبي شريح الْخُزاعي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِمْ ضيفَه » . وجائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاث ، ولا يحلّ له أن يثوَى عنده حتى يحرجه ، فما أنفِق عليه بعد ثلاث فهو صدقة .

أبو عبيدة : جائزته يوم وليلة ، أي يعطِيَ الضيف بعد إكرامه ثلاثةَ أيام ما يجوز به يوماً وليلة ، يقال: أسفّ بجائزة وجيزة، وجوزة، أي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل .

ومن ملح باب الضيافة ، قال المبرّد : أضاف رجلٌ رجلاً فأطال المقام حتى كرهه ، فقال الرجل لامرأته : كيف لنا أن نعلم مقدار مُقامِه ؟ فقالت له : ألق بيننا شرًّا حتى نتحاكم إليه ، ففعل ، فقالت المرأة للضيف : بالذي يبارك لك في غدُوِّك غداً ، أيّنا أظلم ؟ فقال : والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهراً ما أعلم .

ونزل بَصريّ على مدنيّ ، وكان صديقاً له ، فألحّ عليه في الجلوس ، فقال المدنيّ لامرأته : إذا كان غداً فإني أقول لضيفنا : كم ذراع يقفز فأقفز ، فإذا قفز فأغلق الباب خلفه ، فلمّا كان من الغد ، قال له المدنيّ : كم قفزُكَ يا أبا فلان ؟ قال : جيّد ، فعرض عليه أن يقفز معه ، فأجابه ، فوثب المدنيّ من داره إلى خارج أذرعاً ، وقال للضيف : ثِبْ أنت ، فوثب الضيف إلى داخل الدار

ذراعين، فقال له : وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت إلى داخلها ذراعين، فقال الضيف : ذراعان من الدار خير من أربع إلى « برّا » .

الأزهرىّ :برّا مولدة.

قوله : « ناشد » حَلَف . حرَّج : وكَّد يمينه ، أى لايقيم ، والحرَج : الإثم .

ابن الأنبارى: تحرّج فلان عن كذا ، أى تديَّن وضيَّق على نفسه ، والحرَج عندهم الضيق . أمَّ : قصد . عرَّج : التوى عن الباب منصرفاً . اجتلاء : نظر . القَرْح : الجرح ، وأنشد الثعالبى فى هذا المعنى ،فقال :

عليك بإقلال الزيارة إنهـــا إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
فإنى رأيت الغيث يسأم دائمـا ويُسأل بالأيدى إذا هو أمسكا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زر غِبًّا تزدد حبًّا » .

نظمه الشاعر فقال :

إذا شئت أن تُقْلَى فزر متواتراً وإن شئت أن تزداد حبًّا فزُرْ غِبًّا

وقالوا : قلة الزيارة أمان من الملالة .

وقالوا فى ضدّه : ترك الزيارة سبب القطيعة .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : الصبر من كرم الطبيعة، والمنّ مفسدة الصنيعة ، وترك التعاهد للصديق يكون داعية القطيعة .

وقال عبد الصمد بن المعذَّل فى ضدّ هذا : وأن يحافظ على الصداقة بظهر الغيب ، ويمدح إبراهيم بن الحسن :

يامَن فدت نفسَه نفسِى وقد جعلت له وقاء لمن يخشى وأخشاه
أبلغ أخاك وإن شطَّ المَزَار به إنّى وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وإنّ طرفَ موصول برؤيته ... وإن تباعد عن مثواى مثواهُ
الله يعلم أنى لست أذكره ... وكيف يذكره مَنْ ليس ينساهُ
لاشيء مما نرى إلا له شبهٌ ... وما لكم آلَ إبراهيمَ أشباهُ
عذراً فهل حسنٌ لم يُنمِهِ حسنٌ ... وهل فتًى عدلت جدواه جدواهُ

قال أبو العتاهية :

أَقلِلْ زيارتَك الصَّديقَ ولا تُطِلْ ... إتيانَه فتلجَّ فى هِجْرانِهِ[1]
إنّ الصديق يلج فى غشيانه ... لصديقه فيَلَجُّ فى عصيانِهِ
حتى تراه بعد طولِ سُرُوره ... وكأنه متبرِّمٌ بمكانِهِ
وإذا تولّى عن صيانةِ نَفْسِه ... رجلٌ تَنقَّصَ واستُخفَّ بشانه

وإفراط البرِّ بالصاحب داع إلى كثرة الإخجال، ومانع من العودة بعد الانفصال .

وكتب ابن عمار إلى ابن زُرَيقَ ، وقد عتب عليه، أن اجتاز ببلده ولم يلقَهَ هذه الأبيات :

لم يلوِ عنك عنانى سلوةٌ خطرتْ ... ولا فؤادى ولا سمعى ولا بَصَرِى
لكن عدتْنى عنكم خَجْلةٌ عَرَضَتْ ... كفانىَ العذر منها بيتُ معتذرِ
لو اختصرتمْ من الإحسان زُرْتكمُ ... والعذبُ يهجَرُ للإفراط فى الخَصَرِ[2]

ضمّن ابنُ عمار هذا البيت أحسن تضمين ، وهو للمعرّى ، وما قيل فى

---

(١) ديوانه ٣٣٢ ؛ وفيه : « حدث رجاء مولى صالح الشهرزورى ، قال : كان أبو العتاهية صديقا لصالح الشهرزورى ، وآنس الناس به ، فسأله أن يكلم الفضل بن يحيى فى حاجة له ، فقال له صالح : لست أكلمه فى أشباه هذا ، ولكن حلنى ماشئت من مالى : فانصرف عنه أبو العتاهية ، وأقام أياما لايأتيه ، ثم كتب إليه : « أقلل زيارتك الصديق .. » الأبيات فلما قرأ الأبيات قال : سبحان الله ! أتهجرنى لمنعى إياك شيئا ؟ تعلم أنى ماابتذلت نفسى له ، ونفسى مودتى ، ومن دون مابينى وبينك ماأوجب عليك أن تعذرنى . وذكر شعراً بعده .
(٢) سقط الزند ١٢٠ . والخصر : البرد .

العجز عن الشكر أحسن منه ، والإقلال يمنع تلاقي الأحباب ، ويحطّ من همم ذوي الأحساب ، فإنه إذا لم يكن عندك ما تقدِّم بين يدي ضيفك أو زائرك تمنّيت إذا حلّ بك ألاّ تراه .

وقال حبيب :

وسِيَّانِ عندي صادفوا لي مطعماً أعاب به أو صادفوا لي مَقْتَلاً[1]

وقال ابن الجدّ :

وإني لصبٌّ بالتلاقي وإنما يصد فؤادي عن معاذ يرك العسر[2]

أذوب حياء من زيارة صاحب إذا لم يساعدني على بَرِّهِ الوفرُ

وفي المقامة التي تلي هذه فنٌّ ثانٍ من الزيارة ، تقف عليه إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) ديوانه .

(٢) قلائد العقيان . .

المقامة السادسة عشرة وتعرف بالمغربية

حكى الحارثُ بن همّامٍ ، قال : شَهِدْتُ صلاةَ المَغْرِب ، في بعض مساجدِ المَغْرِب ، فلمّا أدّيتُها بفَضْلِها ، وشفعتُها بنفلِها ، أخذ طَرْفِي رفقةً قد انتبذُوا ناحيةً ، وامتازُوا صَفْوَةً صافيةً ، وهم يَتَعاطَوْنَ كأسَ المُنَافَثَةِ ، وَيَقْتَدِحُون زِنادَ المُبَاحَثَة ، فرغبتُ في مُحادثتهم ، لكلمةٍ تُستَفادُ ، أو أدبٍ يُستزادُ ، فسَعَيتُ إليهمْ ، سَعْيَ المتطفِّل عليهم .

* * *

أدّيتها : تمّمتها . شفعتها : زَوَجْتُها ، يريد أنه صلّى الفريضة ، ثم صلّى النافلة بفضلها ، يريد أنّه صلّاها في الجماعة ، وهي أفضل من صلاة الفذّ . انتبذوا : انفردوا ، وصاروا إلى جهة وزاوية من المسجد . وامتازوا : انفصلوا . صفوة : خياراً . يتعاطون : يعطي بعضُهم بعضاً . المنافثة : المحادثة . يقتدحون ، أي يضربونها ويستخرجون نارَها . المباحثة : المناظرة في العلم .

* * *

[التطفّل وأصل اشتقاقه]

المتطفّل : الآتي إلى الطعام من غير أن يُدْعَى ، وهو الوارش[1] عند العرب.

---

(١) الوارش : الواغل .

وتطفَّل : تشبّه بطُفيل العرائس ، وهو طُفَيل بن دلال الدارمىّ ، يسمّى طفيل الأعراس ، وطُفَيل العرائس ، لكثرة دَوَرَانه على حضورها ، ومشاهدته لها ، والأكل منها ، من غير أن يُدْعَى إليه ، واسمه مشتقٌّ من الطَّفَل ، وهو إقبال الليل على النهار .

أبو عمرو : الطَّفَل : الظُّلمة .

ابن الأعرابىّ : ويقال للطُّفيلى العُموظ ، والجمع العاميظ[1] .

وطُفَيل من بنى عبد الله بن غطفان ، كان يأتى الأعراس ولم يُدْعَ . ومسكنه بالكوفة ، وكان يقول : ودِدْتُ أنّ الكوفة بركة مُصهرَجة ، فلا يخفى علىّ فيها دخان ، فنُسب إليه كل من يتطفَّل ، نسبةَ مذهب لا نسب ، والتطفُّل من أخلاق اللئام، وسجايا الأوغاد ، ومنهى عنه فى الشرع .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دُعِىَ فلم يُجب فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخلَ على غير دَعْوى دخل سارقاً وخرج مُغيراً » .

عائشة رضى الله عنها : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « من دخل على قوم لطعام لم يُدعَ فأكل دخل فاسقاً ، وأكل حراماً » .

* * *

[من أخبار الطفيليين]

ونسوق هنا فصلا للطفيليين ، يكون فى هذه المقامة بمنزلة فصل الأكلة فى المقامة التى قبل هذه لأن حالتيهما متقاربة .

---

(١) فى اللسان : العمظ : الشهوان الحريص ، ورجل لعمظة ولعموطة ؛ وهو الشره النهم .

فمن ذلك ما يحكى عن بشار الطفيلي أنه قال: رحلتُ يوماً إلى البصرة، فلما دخلتها قيل لي: إنّ هنا عريفاً للطفيليين يبرّهم، ويكسوهم ويرشدهم إلى الأعمال ويقاسمهم. فسرت إليه فبرّني وكساني، وأقمت عنده ثلاثة أيام، وله جماعة يصيرون إليه بالزّلاّت[1] فيأخذ النّصف، ويعطيهم النّصف، فوجّهني معهم في اليوم الرابع، فحصلت في وليمة، فأكلت وأزللت معي شيئاً كثيراً وجئته به، فأخذ النصف، وأعطاني النصف، فبعت ما وقع لي بدراهم، فلم أزل على هذه الحالة أياماً، ثم دخلت يوماً على عرس جليل، فأكلت وخرجت بزَلّة حسنة، فلقيني إنسان فاشتراها بدينار، فأخذته وكتمته، وكتمت أمرها. فدعا جماعة من الطفيليين، فقال: إن هذا البغداديّ قد خان، فظنّ أني لا أعلمُ ما فعل، فاصفعوه وعرّفوه ما كتمنا، فأجلسوني شئت أم أبيْتُ، وما زالوا يصفعونني واحداً بعد واحد، فيصفعني الأول منهم، ويشمّ يدي، ويقول: أكل مَضيرة[2]، ويصفعني الآخر ويشمّ يدي، ويقول: أكل كذا، ويصفعني الآخر، حتى ذكروا كلّ شيء أكلته، ما غلطوا بشيء منه، ثم صفعني شيخٌ منهم صفعة عظيمة، وقال: باع الزّلّة بدينار، وصفعني آخر، وقال: هات الدّينار، فدفعته إليه، وجرّدني الثياب التي أعطانيها، وقال: اخرج يا خائن في غير حفظ الله. فخرجت إلى بغداد، وحلفت ألاّ أقيم ببلد فيه طفيليّة يعلمون الغيب.

ونريد هنا أن نذكر بعض ما اشتهر من حكايات طفيليّة البصرة، إذ هم أحذقُ خلق الله في باب التطفيل:

بعث المأمون[3] في طَلَب عشرة من زنادقة البَصرة، فجُمِعُوا فرآهم طُفيلي،

---

(١) قال في القاموس: الزلة: اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك، عراقية أو عامية.

(٢) المضيرة: مرقة تطبخ باللبن.

(٣) الخبر في العقد ٦: ٢٠٨، ٢٠٩.

فمضى معهم ، فأدخلوا فى سفينة ، فدخل معهم، وجىء بالقيود ، فَقُيِّدَ معهم ، فقال أحدهم : يا طُفَيلىّ إلىّ هنا ، فأقبل عليهم فقال : فديتكم ، أىّ شىء أنتم ؟ فقالوا له : بل أنت ، مَنْ أنت؟ وهل أنت من أصحابنا ؟ قال: والله ما أعرفكم، غير أنى طفيلىّ ، خرجت من منزلى، فرأيت منظراً جميلا ، ونعمة ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهولٌ وشبّان ، ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع ، فدخلت وسطكم كأنى أحدكم إلى هذا الزورق ، فرأيته قد فُرِش ومُهِّد ، ورأيت سُفَرًا(١) مملوءة فقلت : نزهة إلى بعض البساتين والقصور ، إن هذا اليوم يوم مبارك ، فزدت ابتهاجاً ، فجاء هذا الموكَّل بكم فقيَّدكم ، فطارعقلى فما الخبر؟ فضحكوا وفرحوا به ، وقالوا له : قد حصلت فى الإحصاء ، نحن مانيَّة على مذهب مانى ، القائل بالنور والظلمة ، نسير إلى المأمون ، فيسألنا عن مذهبنا ، ويدعونا إلى التوبة . ويظهر لنا صورة مانى، ويأمرنا أن نتفُلَ عليها، ونبرأ منها ، فمن فعلَ نجا ، وإلا قُتل، فإذا دعيتَ فأخبره باعتقادك ، وللطفيلىّ مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا بها . فكان ذلك . فلما دخلوا على المأمون ، دعاهم بأسمائهم وامتحنهم فأمَرَّ عليهم بالسيف ، وتأخر الطفيلىّ وقد استوعب المدّة ، فسأل المُوَكَّلِينَ بهم ، فقالوا : وجدناه معهم ، فجئنا به ، فقال له : ماخبرُك ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، امرأته طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً ، إنما أنا رجل طفيلىّ ، ثم قصّ قصته معهم .

فضحِك المأمون كثيراً ، ثم أظهر الصورة ، فلعنها وبرئ منها ، ثم قال: اعطوها لى حتى أسلح عليها ، والله ما أدرى ما مانى ! أنصرانىّ أم يهودىّ أم مسلم ؟ فقال للمأمون : يؤدّب على فرط جهله وتطفيله ومخاطرته بنفسه ، فقال : يا أمير المؤمنين بحياتك ، إن كنتَ ولابدّ عازما ، فاجعل السِّياط كلّها على بطنى ، فهو الذى حملنى على هذا الغَرَر . فعاد إلى الضحك ، فاستوهبه منه إبراهيم

---

(١) السفر : جمع سفرة ، وهى فى الأصل : طعام المسافر .

ابن المهدى بحديث فى تطفيله يذكر فى خبر إسحاق الموصلى ، فوهبه له ، وأجاز الطفيلىّ بجائزة سنيّة .

كان إبراهيم بن المدبّر عاملا على البصْرة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنَسُ بغيرهم ، وكلٌّ واحد منهم منفرد بعلم من العلوم . وكان طفيلى يعرف بابن دَرّاج ، من أكل الناس أدبًا ، وأخفّهم رُوحًا وأشدّهم فى كلّ مليحة افتنانًا . فاحتال ودخَل فى جملة الندماء ، فخرج إبراهيم، فرآه فقال لحاجبه : قل لهذا الرجل ، ألك حاجة ؟ فسُقط فى يد الحاجب ، وعلم أنّ الحيلة تمّتْ عليه ، وأنه لا يرضى ابن المدبّر من عقوبته إلا بقتله ، فمرّ يجر رجليه ، فقال له : يقول لك الأستاذ : ألك حاجة ؟ فقال : قل له :لا ، فأدخله عليه ، فقال : فأىّ شىء أدخلك ! أأنت طفيلىّ ؟ فقال : نعم أصلحك الله ! فقال : إن الطفيلىّ يحتمل على دخوله على الناس بخصال ، منها أن يكونَ لاعبًا للشِّطرنج أو بالنَّرْد ، أو ضاربًا بالعود ، أو بالطنبور ، فقال : أيّدك الله ، إنا لما ذكرتَ فى الطبقة العليا ، فقال لبعض الندماء : لاعبه بالشطرنج ، قال : أعزّك الله، فإن قُمِرْتَ[1]؟ قال:أخرجناك، قال: وإن قَمرت، قال: أعطيناك ألف درهم ، فقال: أحضرها فإن فى حضورها قوةً للنفس ، فلعبا بالشطرنج ، فغلب الطفيلى ، ومدّ يدَه لأخذ الدراهم ، فقال الحاجب : أعزّك الله ، ذكر أنه فى الطبقة العليا ، وإن فلانا غلامك يغلبه ، فأُحْضِر الغلام فغلبه ؛ فقالوا له : انصرف ، فقال : أحضرُوا النرد ، فلوعب به فَغَلَبَ ، فقال الحاجب : لكن بوّابنا فلان يغلبه ، فأُحضر البوّاب فغلبه ، فقيل له: اخرج، قال: فالعود ؟ فَأُعْطِىَ عُودًا ، فضرب فأصاب ، وغنّى فأطرب ، فقال الحاجب : ياسيّدى إن فى جوارنا شيخًا يعلّم القيان ، هو أحْسَنُ منه ، فأحضِر إليه، فكان أطيب منه ، فقيل له: اخرج ، فقال: فالطنبور ؟

(١) قمرت بالبناء للمجهول : غلبت .

فضَرَبَ ضرْبًا لم يُرَ أحْسَنُ منه ، فقال الحاجب : إنّ فلانًا المحتكر أطيبُ منه ، فأُحضر فكان أحذقَ منه ، فقال ابنُ المدبّر : قد تقصّينا اللهو بكلِّ جهد ، فأبَتْ حرفتُك إلا طَرْحَك ، فقال : ياسيّدى ، بقيتْ معى فائدة حسنة ، فقال : وما هى ؟ قال : تأمر أن يحضر قوس بندق مع خمسين بندقة من رَصاص ، ويقام هذا الحاجب فأرميه فى دُبُره ، فإن أخطأته بواحدة ، فاضرب عنقى ، فضجّ الحاجب . ووجد ابن المدبّر شفاء نفسه فى عقوبته ، فأمر بخشبتين ، وشدّ الحاجب فوقهما . وأُعْطِىَ القوس ، فرماه بخمسين بندقة ، فما أخطأ دُبُرَه بواحدة منها .

وحُلّ الحاجب وهو يتأوّه لما به ، فقال له الطفيلىّ : ياصفعان ، هل على باب الأمير من يحسن مثل هذا ؟ فقال له الحاجب : يا قَرْنان إذا كان البُرجاس[1] استى فلا يحسن أحد مثلك .

قال : وذهب الضّحك بابن المدبّر هو وأصحابه كلَّ مذهب ، ثم أعطاه ألف درهم وانصرف .

صحب طفيلىٌّ رجلا فى سفر ، فلما نزلوا ببعض المنازل ، قال له الرجل : خُذْ درهمًا وامْضِ فاشتر لنا لحمًا . فقال له الطفيلىّ : قم أنت ، والله إنى لتعب، فاشتر أنت . فمضى الرَّجُل ، فاشتراه ، ثم قال له الرجل : قم فاطبخه ، فقال : لاأحسِن ، فقام الرجل ، فطبخه ، ثم قال الرّجلُ للطفيلىِّ : قم فاثرد ، فقال : والله إنى لكسلان ، فثَرَد الرّجُل ، ثم قال له : قم فاغترف ، قال : أخشى أن ينقلب على ثيابى ، فغرف الرجل حتى ارتوى الثَّريد ، فقال له : قم الآن فكل ، قال : نعم إلى متى هذا الخلاف ا قد والله استحيَيت من كثرة خلافك . وتقدّم فأكل .

---

(١) البرجاس ، بالضم : غرض فى الهواء يوضع على رأس رمح .

وقال طُفيل العرائس : ليس فى الأرض أكرم من ثلاثة أعواد : عصا موسى عليه السلام ، وخِوان الطعام ، ومِنبر الخليفة .

ومن وصيَّته لأصحابه : إذا دخلتم عُرساً ، فلا تلتفتوا إلى الملاهى ،وتخيَّروا المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام ، فليمض أحدُكم ولا ينظر فى عيون الناس ، ليظنّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة ، وأهل المرأة أنه من أهل الرجل ، وإن كان البواب فظًّا وقِحًا ، فليبدأ به فليأمره ولينهه من غير عُنْف ، ولكن بين النصيحة والإدلال .

وقال بُنان الطفيلى : التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان .

وسئل بنان : هل تحفظُ من كتاب الله تعالى شيئاً ؟ قال : نعم ، آية . قيل: وما هى ؟ قال : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾[1] قيل : أتحفظ شيئاً من الشعر ؟ قال : بيتاً واحداً ، قيل : ماهو ؟ قال :

نزوركمْ لا نكافئكمْ بجفوتكمْ ... إن الكريم إذا ما لم يُزَرْ زارا[2]

وبعده :

يُقرّب الشوق داراً وهى نازحةٌ ... مَنْ عالج الشوق لم يستبعد الدارا

وقال أبو الورد الحاكمى فى طفيلى :

طفيلىٌ يوم الخبز أنّى ... يراه ولو يراه على يَفاعِ

ولا يروى من الأخبار إلاّ : ... « أجيب ولو دعيتُ إلى كُراعِ »

---

(١) سورة الكهف ٦٢ .

(٢) للعباس بن الأحنف ، العقد ٦ : ٢ ٢٢١ .

وقال طفيلي أيضاً :

نحنُ قومٌ إذا دعينا أجَبْنَا ومتى نُنس يَدْعُنَا التَّطْفِيلُ[1]
ونَقُلْ علّنا دُعينا فغِبنَا وأتانا فلم يجِدْنا الرّسولُ

وأقبل طفيليٌّ إلى طعام لم يُدْعَ إليه ، فقال صاحب الطعام : مَنْ دعاك ؟ فأنشده :

دعوتُ نفسي حين لم تَدْعُنِي فالحمدُ لي لا لكَ في الدعوه[2]
وكان ذا أحسنَ من موعدٍ مُخْلِفُهُ يدعو إلى الجفْوَهْ

ودخل طفيليّ في صنيع رجل من القبط ، فقال له : مَنْ أرسل إليك؟ فأنشأ يقول :

أزوركم لا أكافيكم بجفوتكم إن المحبّ إذا ما لم يُزَرْ زَارا

فقال : « زر زارا » ، ليس ندري مَنْ هو ؟ اخرج من بيتي !

وقال آخر في طفيليّ كوفيّ :

زَرَعْنا فلمّا سلّم الله زرعنَا وأوْفَى عليه مِنْجَلٌ لحصادِ[3]
بُلينا بكوفيّ حليف مَجَاعةٍ أضرّ علينا من دَبًى وجرادِ[4]

وحدّث آدم الطويل ، قال : دخل حانوتيّ غريب يأكل شيئاً من الطعام فتقدّم سائل ، فقلت له : ما أكثر تردّدك إليّ ! فقال الغريب الذي في الحانوت : لعلّه كما قال الشاعر :

---

(١) العقد ٦ : ٢١٤ .
(٢) عيون الأخبار ٣ : ٢٣٢ ، العقد ٦ : ٢١٢ .
(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٣١ ، العقد ٦ : ٢١٤ .
(٤) ط : « ربا » وما أثبته من ب والعقد ، والدبى : الجراد الصغير.

لو طبخت قدر بمطمورة ... أوفى ذُرَا قصرٍ بأعلى الثغورِ
وكنت بالصين لوافيتها ... ياعالم الغيب بما فى القدورِ !

حكى المبرّد قال : كان بالبصرة طفيليّ مشهور ، وكان ذا أدب وظَرْف ، مرَّ بسكة النَّخَم بالبصرة على قوم عندهم وليمة ، فاقتحم عليهم ، وأخذ مجلسه مع من دُعِيَ ، فأنكره صاحب المنزل فقالوا له : لو تأنّيت أو صبرت ياهذا قبل الدخول حتى يؤذن لك ، كان أحسنَ لأدبك ، وأعظم لقدرك ، وأجلّ لمروءتك ؛ فقال: إنّما اتُّخذت البيوت ليُدخل فيها ، وَوُضِعت الموائد ليؤكل عليها ، والحشمة قطيعة ، واطّراحها صلة .

وجاء فى الآثارِ : صلْ مَنْ قطعك ، وأعطِ مَنْ منعك، وأحسِنْ إلى مَنْ أساء إليك .

وأنشد :

كلّ يوم أدور فى عرصة الدا ... ر أشَمُّ القُتَار شمَّ الذبابِ
فإذا ما رأيت آثار عرسٍ ... أو دخاناً أو دعوة الأصحابِ
لم أعرج دون التقحّم لا أر ... هب شتماً أو لكزة البوّابِ
مستهيناً بمَنْ دَخَلْتُ عليه ... غير مستأذنٍ ولا هيّابِ
ذاك أهنا من التكلّف والغُرْ ... م وشتم البقّال والقصّابِ

كان بالبصرة طفيليٌّ يكنى أبا سلمة ، وكان إذا بلغه خبر وليمة ، لبس لُبْسَ القضاةِ ، وأخذ ابنيْه معه ، عليهما القلانس الطِّوال والطيالسة ، فيتقدم أحدهما فيدقّ الباب ، ويقول : افتح ياغلام لأبى سلمة ، ثم لايلبث حتى يلحقه الآخر ،

فيقول : افتح ويلك ! قد جاء أبو سلمة ، ويتلوها ، فإن لم يعرفهم البوّاب فتح لهم ، وإن عرفهم لم يلتفت إليهم ، ومع كلٍّ واحد منهما فِهرٌ مدوّر يسمّونه كيسان ، فينتظرون مَنْ دُعِيَ ، فإذا جاء وفتح له طرحوا الفِهر فى العتبة، حيث يدور الباب ، فلا يقدرون على إغلاقه فيهجمون ويدخلون .

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لقمةً حارّة من فالوذج ، وبلعها بشدّة حرارتها ، فتجمّعت أحشاؤه ، فمات على المائدة ، فقال عبد الصمد بن المعذل يرثيه :

أحزان نفسِيَ عنّى غير منصرمَهْ

وأدمعى من جفون العين منسجمَهْ

على صديقٍ ومولًى لى فُجِعت به ما إن له فى جميع الصالحين لَمَهْ

كم جفنةٍ مثل دور الحوض مترعة كوماء جاء بها طباخها رَذمـه

قد كلّلتْها شحوم من قليّتها ومن سنامِ جَزورٍ عبْطة سَنِمَهْ

غيبت عنها فلم تعلم لهـا خبراً لهفى عليك وعَوْلى يا أبا عَلِمَهْ

ولو تكون لها حَيًا لما بعدت يوما عليك ولو فى جاحم حُطَمَهْ

قد كنت أعلم أن الأكل يقتله

لكننى كنت أخشى ذاك من تُخَمَهْ

إذا تعمم فى شبليه ثم غـدا فإن حوزة مَنْ يأتيه مصطلمه

* * *

وقلت لهم : أتقبلُونَ نزيلاً يطلُبُ جَنَى الأسمارِ، لا جَنِيَّ الثّمارِ ، وَيَبْغِي مُلَحَ الحِوَارِ ، لا مَلْحَاءَ الحُوَارِ ، فحلُّوا لي الحُبَا ، وقالوا : مَرْحباً مَرْحبًا ، فلَمْ أجلِسْ إلاّ لَمحَةَ بارقٍ خاطفٍ ، أو نُغْبَةَ طائرٍ خائفٍ ، حتّى غشيَنَا جَوّابٌ ، عَلَى عاتقهِ جِرَابٌ ، فحيَّانا بالكلمتَيْنِ ، وحَيَّا المسجدَ بالتَّسْلِيمَتَيْنِ ، ثم قال : يا أولى الألباب ، والفَضْلِ اللُّباب ، أما تعلمونَ أنْ أنْفَسَ القُرُباتِ ، تنْفيسُ الكُرُباتِ ، وَأمْتَنَ أسْبابِ النّجاةِ ، مواساةُ ذوي الحاجات . وَإنّي وَمَنْ أحَلَّنِي سَاحَتَكُمْ ، وأتاحَ لي اسْتِمَاحَتَكُمْ ، لشريدُ محلٍّ قاصٍ ، وبريدُ صبيةٍ خماصٍ ، فهل في الجماعَةِ ، مَنْ يَفْثَأُ عَنّا حُمَيَّا المجاعَةِ ؟ فقالوا له : ياهذا ، إنّك حضرت بعد العِشاء ، ولم يبق إلا فضَلاتُ العَشـاء ، فإن كنتَ بها قنوعاً ، فما تجدُ فينا مَنوعاً ، فقال : إنّ أخا الشدائد ، ليقنع بلُفاظات الموائد ، ونفاضاتِ المزاود . فأمر كلٌّ منهم عبده ، أن يُزوِّدهُ ماعِنْدَهُ .

* * *

قوله : « نزيلا » أي ضيفاً . الأسمار : المذاكرة بالليل . وجَنَاها : ما يُجْنَى من فوائدها . يبغي : يطلب . مُلَح الحِوار : مليح الكلام ، والحِوار : مراجعة القول . مِلْحَاء الحُوار : لحم سنام الفصيل . الحُبا : جمع حَبْوة ، وكانت العرب ليس لها في البوادي حيطان تستند إليها في مجتمعهم ، فكان الرجل يقيم

ركبتيه فى جلوسه ، فيضع عليها أو يدير بهما ثوباً ، ويعقد عليهما يديه ، ويستريح إليها ، ويقوم ذلك له مقام الاستناد ، فيقال لذلك العقد : الحَبْوة ، فأراد أنهم حلوا له الحُبَا إكراماً له . لمحة بارق : لمعة برق . خاطف : يخطف العين بسرعة فيمنعها النظر . نُغبة : جَرْعة. غشينا : دخل علينا لجأة . جوّاب: قطاع للأرض بمشيه . العاتق : مابين المنكب والعنق . جراب : وعاء الخبز . الكلمتين : سلام عليكم . التسليمتين : سلامه عند الدخول وسلامه من الركعتين . وتحية المسجد : أن يركع الداخل فيه ركعتين ، وقيل : التسليمتين ، تسليمة من صلاة المغرب وتسليمة من الركعتين اللّتيْن بعدها . الألباب: الأذهان. اللباب : الخالص . أنفس : أرفع . القُرُبات : مايُتقرَّب به إلى الله عز وجل ، واحدها قُربة . الكرُبات : الهموم . تنفيسها : تفريجها وإزالتها . أمتن : أقوى وأغلظ . المَنجاة : التخلّص . مُواساة : جعلك لهم أسوة نفسك . ساحتكم : موضعكم . أتاح : قدّر . استماحتكم : اجتداؤكم والطَّلب منكم . شريد : منفر ، والشريد : الهارب . قاص : بعيد . بريد : رسول . خِماص . جياع . يَفْثأ : يكسر . حُميَّا المجاعة : حِدّة الجوع . فضَلاَت : بقايا . لُفَاظات : ما يُلفظ منها ، أى يُطرح . نُفَاضات : ما يُنْفَض من بقية الزاد .

ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط من الخوان نفى عنه الفقر ، وعن ولده الحمق » .

والمزاود : أوعية الزاد .

* * *

فأَعْجَبهُ الصُّنعُ ، وَشَكَرَ عَلَيْهِ ، وَجَلَسَ يرْقُبُ مَا يُحمَلُ إليه ، وثُبْنَا نحن إلى استثارة مُلَحِ الأدب وعُيونِهِ ، واسْتِنْبَاطِ مَعينِهِ من عُيُونِهِ ، إلى أن جُلْنا فيما لا يَسْتَحِيلُ بالانعكاسِ ، كقولك :

مَا كِب كاس . فتداعينا إلى أن نستنتج له الأفكار ، ونفترعَ منه الأبكارَ ، عَلَى أن ينظم البادِئُ ثلاث جمانات في عِقْدِه ، ثم تتدرّج الزّيادات مِنْ بَعْدِه ، فيربعَ ذُو ميمنتهِ في نظمهِ ، ويسبّعَ صاحبُ ميسرتِهِ على رَغْمِهِ .

قال الراوي : وكنا قد انتظمْنا عِدّةً كأصابعِ الكفّ ، وتألّفنا أُلْفَةَ أصحابِ الكهف .

* * *

الصنع : الجميل . وقوله : «وجلس يرقب» ، وقال قبل هذا : « فلم أجلس إلا لمحة بارق » ، وقال في الثامنة والعشرين ، « وجلس حتى خُتِمَ نَظْمُ التأذين » وأكثر ماصرف الجلوس في مقاماته من قيام .

وقال في الدّرّة[1] : « يقولون للقائم : اجلس، والاختيار على ماحكاه الخليل، أن يقال لمن كان قائماً : اقعد ، ولمن كان نائماً أو ساجداً : اجلس . وَعلّل بعضهم هذا الاختيار بأنّ القعود هو الانتقال من عُلْو إلى سفل ، ولهذا قيل لمن أصيب برجله : مُقْعَد ، وإن الجلوس من سفل إلى علو ، ومنه قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه :

قُلْ للفرزدَقِ والسفاهة كاسْمِها إن كنتَ تاركَ ما أمرتك فاجْلِس

أي اقصد نجدًا .

وكان عمر والياً على المدينة فقال للفرزدق : إن كنت تلزم العفاف ، وإلاّ فاخرج إلى نجد .

(١) درة الغواص ٨٨ .

وحكى أبو عبد الله بن خالويه : قال دخلتُ على سيف الدولة بن حَمْدان يوماً ، فلما مَثَلْتُ بين يديه قال : اقعد ، ولم يقل: اجلس ، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب واطّلاعه على أسرار كلام العرب .

والذى نظر هو الوجه ، ولهذا جعله على الاختيار ، ولم يجعله من اللحن ، إلاّ أنه لقرب للمنيين ، يجوز أن يكون قد استعمل جلس فى المقامات، من القيام .

* * *

يرقب : ينظر ويحرس ثبنا : رجعنا . استثارة : استخراج . مُلح : مايتملّح به من الكلام . عيونه : مختاره . استنباط : استخراج . معينه : ماؤه الصافى . عيونه : جمع عيْن الماء . وكنى بالَمعِين والدّيْن عن الكلام والقلوب . جُلْنا : تصرّفنا . يستحيل : يتغيّر . الانعكاس : قراءة اللفظة من آخرها . ساكب : صابّ . تداعينا : دعا بعضنا بعضاً . نستنتج : نستدعى منها النّتاج وهو الولد . الأفكار : جمع فكْر ، وجعل مايبديه الفكر من الكلام نتاجاً له . نفترع : نفتض . جُمانات : جمع جُمانة ، وهى حبةٌ تعمل من فضة كالدرّة ، تتدرّج : تتمشى . يربّع : يصنع أربع جمانات . ذو ، بمعنى صاحب . يسبّع : يصنع سبعاً . رَغْمه : إكراهه وإذلاله . انتظمنا : اجتمعنا . تألّفنا : تصاحبنا وانضمّ بعضنا إلى بعض ، ومنه ألّفت الكتاب . والألفة: الصحبة والاجتماع. والكهف : الغار . وأصحابه قصتهم معروفة .

* * *

[قصة أصحاب الكهف]

قال ابنُ عباس فى قوله عزوجلّ : ﴿ما يَعْلَمُهم إلاّ قليلٌ﴾[1] : أنا من أولئك القليل ، وهم مكسلمينا ويمليخا ، وهو المبعوث بالورِق إلى المدينة ، ومرطونس

(١) سورة الكهف ٢٢ .

وسارينوس وبوانس وكفشطيوس وقطينوسيسوس، وهو الراعى ، والكلب اسمه قطمير وهو أنمردون الكروى وفوق القلطى .

وقال أبو شبل : بلغنى أنّ من كتب هذه الأسماء فى شىء ووضعه فى الحريق سكن الحريق .

وذكر الطبرى(١) أنّهم كانوا فى أيام الطوائف على دين عيسى ابن مريم ، وكانوا فى حكم ملك للرّوم يُسمّى دقيانوس يعبد الأصنام ، فبلغه عن الفتية مخالفتهم لدينه ، فطلبهم فهربوا منه ، فاجتازوا براعى غنم ، فأتبعهم بكلبه ، فعلّوه دينهم ، وصاروا إلى ربّهم ، فآواهم الليل إلى كهف ، فقالوا : نبيت هنا الليلة ثم نصبح فنرى رأينا ، فضربَ الله على آذانهم فناموا ، وتبعهم الملك فوجدهم فى الكهف ، فلم يُطِقْ أحدٌ منهم دخوله ، فبنى عليهم بابَ الكهف ، ففتحه الرّعاء بطول الزمان ، فأقاموا فيه ما ذكر الله تعالى ، ثم أحياهم الله تعالى بعد ثلثمائة وتسع ، فشكّوا : هَلْ ناموا يوماً واحداً أو بعضه؟ ثم مسّهم الجوع ، فبعثوا أحدهم بورِق يشترى لهم طعاماً ، ووصّوه أن يحترز حتى لا يشعر بهم أحد ، فيدلّ عليهم فيَحْمَلُوا إلى الملك الذى فرّوا منه أمس فيما ظنوا ، فيرجمهم أو يرجعوا إلى دينه ، فلمّا أتى باب المدينة ، أنكر أنْ تكون هى التى خرج منها أمس فى ظنه لأنها تغيّرت بمرور زمان بعد زمان عليها ، فأنكر أهلها . ثم أخرج الدراهم ليشترىَ طعاماً ، فقال له البائع : مِنْ أين لك هذه الدراهم ؟ وأمسكه ، فقال : خرجتُ أمس مع أصحاب لى فارّين من هذا الملك ودينه ، فبتنا فى كهفٍ ، وأصبحنا اليوم ، فأرسلونى لأشترىَ لهم طعاماً ، فاستُرْ علينا ، فحمله الرّجل إلى ملك المدنية يسمع منه ، وكان ملكاً صالحاً ، نقصّ عليه القصة ، فركب الملك فى جملة من الناس ليطلعوا على أمرهم ، فدخل على أصحابه ، فوجدهم قد عادوا إلى نومهم ، فضرب الله على أذنه معهم ، فدخل النّاس فوجدوا أجساماً لا ينكرون

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٧ ـ ٩ .

منها شيئاً ، وكأنهم مستيقظون يكلمونهم ، غير أنها بغير أرواح ، فقال لهم الملك : هذه آية الله إليكم ، فبنوا عليهم مسجداً يصلون فيه .

* * *

فابْتَدَرَ لِعِظَمِ مِحْنتِي ، صَاحِبُ مَيْمَنَتِى ، وقال : لمْ أُخَامَلْ . وَقال مُيَامِنُهُ : كَبِّرْ رَجاءَ أجْرِ رَبِّكَ . وقالَ الَّذِى يَلِيهِ : مَن يَرُبُّ إِذَا بَرَّ يَنْمُ . وَقَالَ الآخـر : سَكِّتْ كلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْس .

وأفضَتِ النَّوبةُ إلَيَّ ، وَقَدْ تَعَيَّنَ نَظْمُ السِّمْطِ السُّبَاعِيّ عَلَيَّ . فلَمْ يَزَلْ فِكْرِى يَصُوغُ وَيَكْسِرُ ، وَيُثْرِى وَيُعْسِرُ ، وَفِى ضِمْن ذَلِكَ أَسْتَطْعِمُ ، فَلا أَجِدُ مَنْ يُطْعِمُ ، إلى أن رَكَدَ النَّسِيمُ ، وَحَصْحَصَ التَّسْلِيمُ ، فقلْتُ لأصحابى : لَوْ حَضَرَ السَّرُوجيُّ هذَا المَقَامَ ، لَشَفَى الدَّاءَ العُقَامَ ، فقالوا : لو نزلتْ هَذِهِ بِإِيَاسٍ ، لأمْسَكَ عَلَى يَأْسٍ . وَجَعَلْنَا نُفِيضُ فى استِصْعَابِهَا ، واستِغْلاقِ بَابِهَا ، وذلك الزَّورُ المعترى يَلْحَظُنَا لَحَظَ المزدَرِى ، ويؤلِّفُ الدُّرَرَ وَنَحْنُ لا نَدْرِى .

* * *

قوله : « لعظم محنتى » لعظم بليتى .

* * *

لمّ : من اللوم . مَلّ : من الملل . كبرّه : عظّم الكبير ، وقدّمه على نفسك .

يَرُبّ : يصلح . برّ : أكرم . يَنْمُ : يزيد خيرُه ، وترتفع منزلته . ونَمَى الشيء ينمِى وينمُو نَمَاءً ، ونموّا ونميًا : زاد ، قال الأصمعى : نَمَيْتُ حديثَ فلان إلى فلان أَنْميه ، إذا بلّغته على وجه الإصلاح وطلب الخير ، وفى الحديث : «فقال خيراً أو نمى خيراً» أى أبلغ خيراً ، أو رفعه ، وكلّ شىء رفعته فقد نميتَه . ورواية ابن ظَفَر : « مَنْ يربّ إذا برّ يَنِمّ » ، أى إذا كان البرّ من الناس يمشى بالنميمة فمن يرب فعلا جميلا ويصلحه .

تَكِسْ : تكن كيِّساً ، والكيِّس : الناقد فى أموره ، وقيل العاقل .

أفضت : وصلت . النَّوبة : الدولة . السِّمْط : الخيط يُعقد فيه اللؤلؤ .

يَصُوغ : يصنع . يُثْرِى وَيَعْسُر ، أى يستغنى ويفتقر ، أى يكثر الكلام مرة ويقلّل أخرى .

وفى ضمن ذلك ، أى فى أثنائه وفى مدّته . أَسْتطعِم : أطلب طعاماً ، هذا أصله ، وتقول : أطعمت القارئ إذا وَقف ففتحتُ عليه وأفتيته . واستطعمهُوَ ، إذا استدعى ذلك . علىّ رضى الله عنه : إذا استطعم الإمام فأطعموه ، أى إذا أُرْتِجَ عليه فافتحوا له .

ركد النسيم : سكنت الريح ، يعنى كلامه . حصحص : تبيّن . التّسليم : الانقياد ، أى انقدت للعجز عن الإتيان بها .

المقام : الموقف . المُقَام : الشديد الّذى لا يؤثِّر فيه الدواء ، بمنزلة الرحِم

العقيم ، التى لا تؤثر فيها النطفة فلا تلد .

إياس ، تقدّم ذكره . واليأس : ضدّ الطمع .

ولما ذكر هنا إياساً ويأساً ، نذكر فصلا ذكره فى الدّرة على اللفظتين ، قال :[1] ويقولون : أشرف فلان على الإياس من طلبه ، فيهمون[2] كما وَهِم أبو سعيد السكّرىّ ، وكان من جِلّة النحويّين ، وأعلام العلماء المذكورين ، فقال : إن إياساً سُمِّىَ بالمصدر ، من أيس ، وليس كذلك ـ [3]وإنما إياس عند المحققين مصدر آسيتُه ، أى أعطيته ، والمصدر منه الأَوْس ، ومنه المواساة ، فكأنهم سمّوا إياساً بمعنى تسميتهم عطاء[3] . ووجْه الكلام أن يقال : أشرف على اليأس ، لأنّ أصل الفعل منه يئِس على فعِل ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ يَئِسُوا من الآخرة كما يئس الكُفّارُ مِنْ أصحاب القبور ﴾[4] فأمّا أيس بتقديم الهمزة فمقلوب من يئس واستدلّ شيخنا أبو القاسم بن الفضل[5] النحوىّ على صحّة ذلك بأن لفظة يئس ، تساوى لفظة اليأس ، الذى هو الأصل فى نظم الصيغة ، فتكون الياء مبدوءاً بها والهمزة مثنىً بها بخلاف تنزّلهما فى أيس ، فلهذا حكم على أيس أنها مقلوبة من يئس ، والمقلوب لا يتصرّف تصرّف الأصل ولا يكون له مصدر .

نفيض : نندفع بالكلام . المعترِى : القاصد . يلحظنا : ينظر نا بطرَف عينه . استحقاراً منه لنا . المزدرِى : المحتقر . يؤلّف : يجمع . الدّرر : جواهر الكلام .

* * *

---

(١) درة الغواص ١١٦ .

(٢) الدرة : فيوهمون .

(٣ — ٣) ساقط من درة الغواص .

(٤) سورة الممتحنة ١٣ .

(٥) الدرة : «أبو القاسم الفضل بن محمد النحوى» .

فلمّا عثر على افتضاحِنا ، ونضوبِ ضَحْضَاحِنا ، قال : ياقومْ ، إنّ من العَناء الْعَظيم ، استيلادَ العَقيم ، والاستشْفاءَ بالسَّقيم ، وفوْقَ كلّ ذِى عِلْمٍ عليمٌ . ثمّ أقْبَلَ عَلَىّ ، وقالَ : سأنوبُ مَنَابَكَ ، وأكْفِيكَ ما نابَكَ ؛ فإن شئتَ أن تنثُرَ ، ولا تَعْثُرَ ، فقلْ مخاطِباً لمَنْ ذمَّ الْبُخلَ ، وأكْثَرَ الْعذْلَ : لُذْ بِكُلِّ مُؤمَّلٍ ، إذا لمّ وَمَلَكَ بَذَل . وَإنْ أحْبَبْتَ أنْ تنْظِمَ ، فقلْ لِلّذى تُعظم :

أُسْ أرْمَلًا إذَا عَرَا ... وارْعَ إذَا الْمَرْءُ أَسا
أَسْنِدْ أَخَا نَباهَةٍ ... أَبِنْ إخَاءً دَنَّسا
اسْلُ جَنابَ غاشِمٍ ... مشاغبٍ إن جَلَسَا
اسْرِ إذَا هَبَّ مِرًا ... وارْمِ بِهِ إذَا رَسَا
اسْكُنْ تَقَوّ فَعَسَى ... يُسْعِفُ وقْتٌ نَكَسَا

* * *

عثر : اطّلع . افتضاحنا : اشتهارنا بالعجز . نضوب ضحضاحنا : جفوف مائنا القليل . الاستيلاد : طلب الولد ، يقول : إنّ من تعب النفس طلب فائدة من ذهن كليل وقريحة جامدة . نابك : نزل بك . تنثر : تقول نثراً . لُذْ : استتر به والجأ إليه . مؤمّل : مرجوّ لفعل الخير . لمّ : جمع المال . بذل : تكرم على غيره ، وهذا اللفظ من المعكوس فى النثر بديع ، فما ظنك بهذا النظم الرفيع الذى أردفه عليه ، فإنه من أشرف حسناته ، رحمه الله !

قوله : « أُسْ » أعط ، والأوْس - العطيّة . أرملا : فقيراً أفنى زاده . عرا :

قصد . ارع : احفظ الصحبة . أسا : أتى بسوء ، وأصله الهمز أساء فسهّل الهمزة ، يقول : إنْ قَصَدكَ فقير فصِلْه ، وإن أخطأ عليك صاحبٌ فلا تقطعه ، وارع حقّ الصحبة ، ويقال : المرء بالهمز ، والمر بلا همز ، وبترك الهمز يستقيم الانعكاس فى بيت الحريرى ، ويقال : المرة ، قال دعبل :

واحفظ عشيرتك الأدنين إنّ لَهُمْ حقًّا يفرّق بين الزّوج والمَرَةِ[1]

وهذا البيت الذى فسرناه وما بعده من الأبيات تقرؤه إن شئت من أوّله ، وإن شئت من آخره . وجعل هذا النّمط فى عكس الحروف توطئة لما يذكر فى المقامة بعد هذا فى الرسالة القهقرية ، من عكس ألفاظها ، من أوّلها إلى آخرها إلا أنّ ذلك العكس بالألفاظ وهذا بالحروف ، وكلاهما غاية فى بابه ، وإنما يذكر الأدباء هذا استملاحاً فى كلامهم ، وامتحاناً لخواطرهم .

* * *

[مثل من التصحيف وقلب الكلام]

ونريد أن نذكر هنا فصلا مما يوافقه أو يقاربه على ما شرطناه ؛ فمن ذلك أن بعض الأدباء اتّهم صاحباً له بسعاية فى جانبه فكتب إليه فى المجلس : ساءك نم ، فنظره الذى وشى به ، فكتب إليه : صحّفه واقلب ، فهو واللهِ ما نطق به على لسانك ، من بغيك وعدوانك ، وهو مقلوب مصحف : منك أتيت ، فتضاحكا وتصافيا .

وكتب بعضهم إلى خازن السلطان :

قد أُقبلَ الشّهرُ وإقبالُهُ يأتى بما أجرى تَرَتِيبُهُ

(١) ديوانه ص ٧ : ٤ .

فوجه البرّ ومقـــلوبه يجزيك عن برّك مقلوبُهُ

وكتب بعض الظرفاء إلى صاحب له وهو مقلوب مصحّف : طبي سراب خشن . فإذا قرأتَه على الولاء من آخره بعد القلب والتصحيف جاء منه : حسُن شراب طيّب .

ومن أنواع المعمّيات التّصحيف ، ومثاله : أنّ إبراهيم بن المهدى كتب إلى إسحاق الموصلىّ : لا يرتج مثل الأسنّة ، فكتب إليه إسحاق . لا يرثُ جميل إلا بثينة .

وقال أبو الجهم بن الأنبارىّ للحسن بن وهب : ماتصحيف : كلنى بيمينك فبعنى بحبتين ، فقال : كل شيء منك فى عينى حسن .

وغاب صديق عن صديق له ، فلمّا لقيَه قال له : عنّ تعبى ، فجاوبه : زرعنا يرذاذ حبا ، فالأول قال : غبت عنّى ، والثانى قال : زرغِبًّا تزداد حبًّا .

وذكر فى بعض مجالس الأدب التصحيف ، فقال فتى شابّ : أنا ابن بجدته ، فقال بعضهم : ماتصحيف : نصحت فخشى ، فقال : تصحيف حسن ، فاستغرب إسراعه ، فاتهمه شاعر من بَلَنسِية ، فقال : ماتصحيفُ بَلنسية ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال : أربعة أشهر ، فقال له البلنسىّ : صدق ظنّى إنك تنتحل ما تقول ويحك! والفتى يضحك ، فقال له : اشعر ، فإنك شاعر ، فقال : وأى نسبة بين أربعة أشهر وبلنسية ؟ فقام وهو يقول : هوذاك ؛ ثم تنبّه بعد انصراف الفتى بعضُ مَنْ حضر ، فنظر فإذا أربعة أشهر ثلث سنة ، وهو تصحيف بلنسية ، فخجل المنازع ، ومضى إلى دار الفتى معتذراً .

كتب بعض وزراء ابن عبّاد إليه يتسخّط الإخوان هذا البيت :

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ فَهُوَ المراد ، وأين ذاك الواحد!

فوقّع فى الكتاب: وأين ذاك الواحد؟ صحّف تعرف: فلمّا قرأه الوزير طار سروراً، ومثّل بالبساط فلثمه بين يديه، وإنما صحّف، وأين، فجاء منه: وأنت، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب.

ومن ملح ابن عباد فى التصحيف، أنه خرج فى جملة وزرائه الأدباء، فاجتازوا بإشبيليّة بالموضع الذى يباع فيه الجير والجبس، فلقىَ هناك جارية من أحسن الناس وأقلّهم حياء. فأقبل ابن عبّاد على ابن عمار، وقال: يابن عمار الجيارين، فقال ابنُ عمّار: يامولاى والجبّاسين، فعلم مَنْ حضر أنهما لم يريدا أن يعرّف كلّ واحد منهما صاحبَه بما ذكر، فبحثوا عن مرادهما، فلم يعرفوه، فسألوا: ابنَ عمّار، فقال له ابنُ عباد: لاتبعها منهم إلا غالية. ثم إن ابن عمار أخبرهم أنّ ابن عبّاد أعجبه حسن الجارية، وعابها بقلة الحياء، فصحّف «الجيارين»، فجاء منه «الحيازين» وصحّفت أنا «الجباسين»، فجاء منه «الخناشين»، فاستغربوا حضور أذهانهما وحسن كنايتهما.

أين هذه الأذهان من رجل مغفّل، كان له ابنٌ يُسمّى حسناً مسافراً، فاستفتح المصحف يتفاءل له فى القدوم، فخرج له «وَحُسْنَ مآب»، فترك التيامن بهذا اللفظ لمآب الفتى سالماً، وقال: تصحيف «حسن مآب»: «حسن مات»، فاستدعى أمّ الفتى وخدمه، ونعاه لهنّ فأقمن مناحةً، وجاء الجيران والقرابة يتطلعون حادثتهم، فهو يخبرهم بما تصحّف له، والفتى داخل قد أقبل فى أغبط حال وأسرّها، فاستحمق وصار مثلا.

* * *

قوله: «أسند» أضفه إليك وقرّبه منك. نباهة: رفعة. أبْن: باعد. دنس: عيب. يقول: صاحبْ مَنْ يشرّفك بذكره الجميل، وباعد من يدنس عِرْضك وتعاب به.

* * *

[من أقوالهم فى اختيار الصديق]

وقد قيل : الصاحب رُقْعة فى الثوب ، فلينظر الإنسان ما يرقع به ثوبه .

قال ابن رشيق:

اصحب ذوى القَدْرِ واستعدّ بهمْ　　وعَدِّ عن كلّ ساقط سَفِلَه(١)
فصاحبُ المرء شاهدٌ ثقةٌ　　يقضى به غائباً عليه ولَهْ
ورُقْعة الثّوب حين تَلْبَسُه　　شهرته أو تكون مشتكلَهْ

وفى الحديث : « الأنفس أجناد مجنّدة، وإنها لتشامّ فى الهوى كما تشامّ الخيل فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف ».

ونظم هذا الحديث أبو نواس فقال:

إنّ القلوب لأجنادٌ مُجَنّدةٌ　　لله فى الأرض بالأهواء تعترفُ(٢)
فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ　　وما تناكر منها فهو مختلفُ

وقال طرفة - أو عدىّ بن زيد :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارَهم
ولا تصحب الأردَى فتردَى مع الرَّدِى(٣)
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينِه
فكلُّ قرين بالمقارن مقتدِى

---

(١) نقله فى التتف ٦٠ .
(٢) ديوانه ٤٠٨
(٣) البيت الثانى فى ملحق ديوان طرفة ١٧٨

وقال أبو العتاهية :

اصحب ذوى الفضل وأهلَ الدِّينْ فالمــــرء منسوب إلى القرينْ

وقال الخالدىّ :

وإذا أردتَ ترَى فضيلة صاحبٍ فانظر بعين البحث مَنْ ندمانُهُ
فالمرء مطــــوىٌّ عَلَى عِلاّته طىّ الكتاب وصحبه عنوانُهُ

وممّا يروى لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه :

فلا تَصْحَبْ أخا السّوء وإياك وإيّاهُ
فكمْ منْ جاهلٍ أوْدَى حليماً حين آخاهُ
يقاسُ المرء بالمــــرء إذا ما المرء مَاشَاهُ
وفى النّاس من النّاس مقاييسٌ وأشباهُ
وفى العـــين غنى للعيــــن أن تنطق أفواهُ
وللقلب على القَلْــــبِ دليلٌ حين يَلْقاهُ

وقال ابن رشيق :

اختر لنفسك مَنْ تعا دى كاختيارك مَنْ تُصادِقْ[١]
إن العـدوْ أخو الصديـق وإن تخالفت الطرائقْ

قوله: « اسل جناب غاشم » يريد جانبْ منزلَ ظالم ، ولا تقرّبه . وسلوتُ يتعدى بعن وبنفسه ، تقول : سلوت عنه ، وسلوته وسليته .

---

(١) نقله فى التنف ٥٤ .

وقال الأسود بنَ يعفُر :

فأقسمت لا أشريه حتى يملّنى بشىء ولا أسليه حتى يفارقا

قوله :« مُشاغب » مسارع للشرُّ . هبّ : تحرك . مِراء : جـدال ، ومعنى « اسْرِ » اكشف وأَزِلْ ، يقول : إذا تعلّق بك وهبّ عليك جدال من صاحب فاكشفه عن نفسِك بالمناصحة ، وباعد المراء . وتقول : سرَيت الثوبَ عنّى ، وسريته ، إذا كشفته ، قال ابنَ هرْمة :

* سرى ثوبَهْ عنى السرى المتخايلُ *(١)

ومنه سُرِّى عن الرجل أى كشف عنه ما كان يجده من الغمّ وَالغضب ، وقد يكون معنَى « اسرِ » باعد وفارق من السُّرَى ، وهو سير الليل ، فيقول: فارِقْ موضعَ الجدال وباعده . رسا : ثبت ، أى إذا سكن الخلاف بين القوم فارْمِ أنت به واتركه ، ويروى : «اسْرُ» بالضمّ ، أى كن سريًا ، أى سيداً ذا مروءة ، إذا هاج الجدال بين القوم فباعده .

وقال سابق البربرى :

لا تنفعنّ لجوجاً حين تزجُره إنّ اللّجوج له فى المـال إغراء
وَأَغْضِ فى حسن عَفْوٍ عن نوادره فالحرّ فيه عن الآفات إغضاء

* * *

[ذكر المِراء والجدال وما يتولد منهما]

والمراء مدافعة الحقّ وترك الانقياد، لمَا ظهَر منه، وقد يُستعمل بمعنى الجدال ، فمَنْ جادل ليظهر باطلاً لجداله محظور .

(١) ديوانه ١٦٦ وبقيته

* وآذن بالبيْن الخليط المزايلُ *

وفى الحديث : « من ترك الجدالُ مُحقا بَنى الله له بيتاً فى الجنة » .

وقال ميمون بن مهران : لا تمارِ مَنْ هو أعلم منك إنه يختزن عنك علمه ولم تضره شيئاً .

وقال لقمان لابنه : مَنْ لا يملك لسانه يندم ، ومَنْ يكثرِ المراءَ يُشْتَم ، ومن يدخُل مَدَاخل السوء يتّهم . يابنىّ لا تمار العلماء فيمقتوك .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : المِراء يقسى القلوب ويورث الضغائن .

وقال بلال بن مسعدة : إذا رأيت الرجل لَجوجًا مماريًا معجباً بنفسه فقد تمت خسارته .

واسعر بن كدام يخاطب ابنه :

إنّى منحتك يا كِدام نصيحتى ... فاسمع لقول أبٍ ، عليك شفيقِ[1]
أمّا المزاحــة والمِراء فدعْهُمَا ... خُلُقان لا أرضاهما لصــديقِ
إنى بلوتُهما فــلم أخترْهُما ... لمجــاور جارٍ ولا لرفيقِ

قوله : « اسكن » الزم السكون والوقار . تقوّ : أراد تتقوى . يسعف : يساعد ويوافق . نــكَس : قصّر بك ، يقول : لا تبادر إلى الجدال ، والزم السكون ، حتى يتقوّى نظرك ، ويظهر لك صوابك ، فعسى يوافقك على الإصابة حسن التدبير وقت كان يصرفك عن الصواب ، لو التزمتَ الجِدال .

ومن أعاجيب ابن الرومى قوله فى ذم الجِدال :

لأولى الجِدالِ إذا غدوا لجدالهمْ ... حجج تضلّ عن الهدى وتَجُورُ
وهنّ كآنية الزجاجِ تصادمتْ ... فهوت وكلّ مكاسر مكسورُ
فالقاتل المقتول ثمّ لِوَهْنِــه ... ولضعفِه ، والآسر المأســورُ

---

(١) حماسة البحترى ٥٣ ، عيون الأخبار ١ : ٣١٨ .

وقال من شعر يمازح صديقاً له :

لكنّ في الشيخ غريزة يخاصِمُ الله بها في القَدَرْ
ما كان لِمْ كانَ وما لم يكن لِمْ يكُنْ فهو كَثِيلُ البَشَرْ

* * *

قَال : فلمَّا سَحَرَنَا بآيَاتِه ، وَحَسَرْنَا بِبُعْدِ غَايَاتِه ، مَدَحْنَاهُ حتى استَعْفَى ، وَمَنَحْنَاهُ إلَى أَنِ اسْتَكْفَى .

ثُمَّ شَمَّرَ ثِيَابَهُ ، وَازْدَفَرَ جِرَابَهُ ، وَنَهَضَ يُنْشِدُ :

لِلّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ صَدَقَ الْمَقَالِ مَقَاوِلاَ
فَاقُوا الأَنَامَ فَضَائِلاَ مَأْثُورَةً ، وَفَوَاضِلاَ
حاوَرْتُهُمْ فوَجَدْتُ سَحْـ بَانَ لَدَيْهِمْ بَاقِلاَ
وَحَلَلْتُ فِيهِمْ سَائِلا فَلَقِيتُ جُودًا سَائِلاَ
أَقْسَمْتُ ، لَوْ كانَ الْكِرَا مُ حياً ، لَكَانُوا وَابِلاَ

* * *

قوله : « سحرنا » تركنا مسحورين . بآياته . بعجائبه ، يقال : إنّ فلاناً آيةٌ من الآيات ، أي عجب من العجائب . حسرنا : قطعنا وأكللنا . والغاية : الطَّلَق ، يريد أنا كلّنا في الغايات التي جرى فيها لبعدها ؛ ويريد اتساعه في الكلام

استعفى : قال : عافوني منه . منحناه : أعطيناه . استكفى : قال : يكفيني .

ازدفر : حمله على ظهره ، والزفر الحِمْلُ على الظهر . جرابَه : وعاء خبزه. عصابة : جماعة . صُدْق المقال ، أى صادقين فى قولهم ، وصدْق جمع صَدُوق ، وعدل عن صدوق على جهة المبالغة فى صِدْقه . مقاولا : ملوكا . فاقوا : فضلوا ، وزادوا عليهم . فضائلا : جمع فضيلة ، وهى ما تفضُل به غيرك من الأفعال المحمودة . مأثورة : متحدَّث بها .

فواضلا : عطايا وأيادى ، الواحِدة فضيلة ، وفواضل المال : ما يأتيك من مَرَافقتك وعكسه .

ومن كلام العرب : إذا عزب المالَ قلّت فواضله ، أى قلّ انتفاع ربّ الإبل بلبَنها إذا بعدت ، قال الشاعر :

سأبغيك مالاً بالمدينة إنّنى أرى عازبَ الأموال قلَّت فواضِلُهْ

قوله : « حاورتهم » خاطبتهم .

* * *

[ذكر سحبان وائل]

سحبان فصيح العرب ، وهو سحبان بن زفر بن إياس بن عبد شمس الوائلى من وائل باهلة ، وكان من فصحاء العرب وبلغائها ، وبه يضرب المثل فى البيان والفصاحة ، فيقال : أفصح من سَحْبان .

ودخل عند معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلمّا رأوْه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لَقَدَ عَلِمَ الحىّ اليمانون أنَّنى إذا قلت أمّا بعد أنّى خطيبُها[1]

(١) البيت من شواهد الرضى فى الكافية ، وهو مع ترجمة سحبان فى خزانة الأدب للبغدادى ٤ : ٣٤٦ ـ ٣٤٨ ، قال : وروى صدره :

* وقَدْ علمتْ قيسُ عيلانَ أنَّنى *

فقال له معاوية : اخطب ، فقال : انظروا لى عصاً ، فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال: وما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربّه ! فأخذها فى يده ، فتكلّم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت ، ماتنحنح ولا سَعل ، ولا توقّف ولا ابتدأ فى معنًى ، فخرج منه وقد بقيت عليه فيه بقية ، ولا مال عن الجنس الذى يخطب فيه ، فقال معاوية : الصلاة ! فقال : الصلاة أمامك ، ألسنا فى تحميد وتمجيد ، وعظة وتنبيه ، ووعد ووعيد! فقال له معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال : العرب وحدها ! بل أخطب الإنس والجن ، فقال له معاوية : كذلك أنت .

وهو أوّل من قال : أما بعد ، وأوّل مَنْ آمن بالبعث من الجاهليّة ، وأوّل مَنْ توكأ على عصا ، وعُمِّر مائة وثمانين سنة ، وهو القائل يمدح طلحة بن عبيد الله ، وهو طلحة الطلحات الُخزاعى فقال فيه :

يا طلحَ أكرمَ مَنْ مشى حسباً وأعطاهمْ لِتَالِدْ[1]
منك العطايا فاعطنى وعلىّ مدحُك فى المشاهِدْ

فقال له طلحة : احتكم ، فقال : بِرْذَوْنَك الورْد ، وقصرك بِزَرَنْج[2] ، وغلامك الخباز[3] ، وعشرة آلاف درهم ، فقال له : أفّ أف لك ! لَمْ تسألنى على قَدْرِى ، إنما سألتنى على قدرِك وقَدْر باهلة ، والله لو سألتَنِى كلّ قصرٍ لى وعبد ودابة لأعطيتك .

* * *

(١) الخزانة ٤ : ٣٤٨ ، الميدانى ١ : ٢٤٨ .

(٢) ط : « بدرنج » تحريف ، صوابه من الخزانة ومجمع الأمثال . وذكره ياقوت فى أبيات لعبيد الله بن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير :

ملكٌ يُطعم الطعام ويُسْقَى لبن البُخْتِ فى عساس الخَلَنْجِ
جلَب الخيلَ من تِهامَةَ حتَّى بَلَغَتْ خيلُه قصور زَرَنْجِ

(٣) ط : « الخبار » ، وصوابه من ب والخزانة ومجمع الأمثال .

[ذكر باقل]

قوله :« باقلا » ، هو من إياد ، قيل من بنى مازن . وقال حُميد الأرقط فى وصف ضيف أكثرَ من الطعام :

أتانا وما داناه سحبانُ وائلٍ ... بياناً وعلماً بالذى هو قائلُ(١)
فما زال عنه اللَّقْمُ حتى كأنه ... من العِىِّ لمَّا أن تكلّم باقلُ(٢)

والعرب تقول : إنّه لأعيا من باقل ، ومِنْ عيّه أنه اشترى ظبياً ، فحمله على عُنُقه ، فسئل عن ثمنه ، فحلّ عنه يديه وفتح أصابعه ، وأشار بها — وأخرج لسانه — يريد أنه بأحد عشر درهماً ، ولم يلهم أن يخبر عن سومه بلسانه — ولمّا عُيِّر باقل بفعله قال :

يلومونَ فى عيِّـه باقلاً ... كأنّ الحمـاقةَ لم تُخلَقِ(٣)
فلا تكثرُوا العتبَ فى عيّه ... فَلَلْعِىّ أجملُ بالأموَقِ
خروج اللسان وفتح البنانِ ... أخفّ علينا من المنطقِ

الأموق : الأحمق . قوله : « حلت » نزلت . سائلا : طالباً معروفَهم . جوداً : كرماً . سائلا : جارياً . حيّا : مطراً كثيراً .

والوَابل : أشدّ المطر ، يريد أنهم كانوا يزيدون عليهم فى الفضل .

* * *

(١) الميدانى ٢ : ٤٣ .

(٢) بعده فى الميدانى :

يقول وقدْ ألقى المراسِىَ للقِرَى ... أبِنْ لِىَ ما الحجاجُ بالناس فاعِلُ!
يدلِّلُ كفَّاه ويَحْدُرُ حَلْقَه ... إلى البَطْنِ ماضُمَّتْ عليه الأناملُ
فقلت لعمرى ما لهذا طرقْتَنَا ... فكُلْ ودعِ الإرجافَ ماأنتآكِلُ

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٢ .

ثُمَّ خَطاَ قِيدَ رُمْحَيْنِ ، وَعَادَ مُسْتَعِيذاً من الحَيْنِ ، وقال : يَاعِزَّ من عَدِمَ الآلَ ، وَكَنْزَ مَنْ سُلِبَ المَالَ ، إنَّ الغاسِقَ قَدْ وَقَبَ ، وَوَجْهَ المَحَجَّةِ قدِ انْتَقَبَ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ كِنِّي لَيْلٌ دَامِسٌ ، وَطَرِيقٌ طَامِسٌ ، فَهَلْ مِنْ مِصْبَاحٍ يُؤَمِّنُنِي الْعِثَارَ وَيُبَيِّنُ لِيَ الآثار ؟

* * *

خطا : مشى ونقل خطاه . قَيْد : قَدْر . مستعيذاً : مستجيراً . الحَيْن : الموت . عدِم الآل : فقد الأهل ، يقول : أنتم عِزٌّ لمن فقد أهله ، وكنز لِمَنْ أخذ ماله . الغاسق : القمر .

عائشة رضى الله عنها قالت: نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى القمر ، فقال : « ياعائشةاستعيذى بالله مِنْ شرّ هذا ، فإنّ هذا هو الغاسق إذا وقب » ، يعنى مِن شرِّه إذا كسف . ووقب القمر : يقبُ وقوباً: دخل فى الظلام الذى يكسفه ، وكلُّ ماغاب فقد وَقَبَ . المحجَّة : الطريق . انتقب : استتر ، وجعل من الظلام نقاباً . وكِنّى : منزلى . دامس : مظلم . طامس : دارس ؛ لأنّ الظلامَ لمّا غطاه كأنه محاه . الآثار : الطرق التى أثّر فيها المشى .

* * *

[وصف الشمع]

قال الصابى فى شمعة ، وذكر هذا المعنى :

وليلةٍ من محاق الشَّهر مُدْجنةٍ لا النجمُ يهدى السُّرَى فيها ولا القمرُ[1]

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٢ .

كلّفت نفسى بها الإدلاج ممتطياً ... عزماء هو الصارم الصَّمْصامة الذَّكَرُ
إلى حبيبٍ له فى النَّفس منزلة ... ما حلَّها قَبْله سمعٌ ولا بَصَرُ
ولا دليل سوى هيفاء مخطَفةٍ[1] ... تَهْدِى الرَّكاب وجُنْحُ الليلِ معتكِرُ
غصن من الذّهب الإبريز أثمر فى ... أعلاه ياقوتة صفراء تستعِرُ
تأتيك ليلا كما يأتى المريبُ فإنْ ... لاح الصّباحُ طوتْها دُونَهَا الْجدرُ[2]

وقال آخر فى مثله :

لنا شمعة نيطت ذراها بشعلة ... كَحُقّةِ تِبْرٍ عُلِّقَتْ بلسانِهَا
إذا عثَر السارى بذيلٍ من الدُّجا ... نحرنا له قلب الدّجَى بسنانِهـا
تفك قيودَ اللَّيلِ عن كل زائرٍ ... فتجرى بها الرِّجْلاَن ملء عِنانِهَا
إذا ما أحسّتْ بالصباح تمارضت ... كنرجسةٍ قد أذبلت بمكانِهَا
تموت إذا ماقبلتْ خدَّ حائطٍ ... فتثبتُ خالا فوقه من دُخانِهَا
كأنّ الجراد امتصّ جوهر رُوحها ... ولم يمتنع منها سويدا جنانهــا

وقال النَّمَرِىّ :

ولمّا دجا الليل مزقتـــه ... بروح ينحُفُ جثمانُهــا
بشمعٍ أعير قدود الرماح ... يحاكى ذَراها وألوانهـا
غصون من التبر قد ركِّبت ... لهيباً يزيِّنُ أفنـــانها
فيا حسنَ أرواحها فى الدجى ... وقد أكلت فيه أبدانهـا

* * *

(١) المخطفة : الضامرة البطن
(٢) اليتيمة : « دونك الحذر » .

قَالَ : فلمَّا جِيء بالمُلْتَمَس ، وَجَلّى الْوُجُوهَ ضَوْءُ الْقَبَسِ ، رَأَيْتُ صَاحِبَ صَيْدِنا ، هُو أَبو زيْدِنَا .

فقُلْتُ لأَصْحَابِى: هذا الَّذِى أَشَرْتُ إلى أَنَّه إذا نَطق أَصَابَ ، وإن استُمطِرَ صابَ .

فَأَتلَعُوا نَحْوَهُ الأَعْنَاقَ ، وَأَحْدقُوا بِه الأَحدَاقَ ، وسأَلُوهُ أَنْ يُسامِرَهُمْ لَيْلَتَهُ ، عَلَى أَن يَجْبُرُوا عَيْلَتَهُ . فقال : حُبًّا لِمَا أَحْبَبْتُمْ ، ورُحْبًا بكم إذْ رَحَّبْتُمْ ، غَيْرَ أَنّى قَصَدْتُكُمْ وَأَطْفَالِى يَتَضَوَّرُونَ مِنَ الْجُوعِ ، وَيَدْعُون لِى بِوَشْكِ الرُّجُوعِ ، وَإِنِ استَرَاثُونِى خَامَرَهُمُ الطَّيْشُ ، وَلَمْ يَصْفُ لَهُمُ الْعَيْشُ ، فَدَعُونِى لأَذْهَبَ فَأَسُدَّ مَخْمَصَتَهُمْ ، وَأُسِيغَ غُصَّتَهُمْ ، ثُمَّ أَنْقلِبَ إِلَيْكُمْ عَلَى الأَثَرِ ، مُتأَهِّبًا لِلسَّمَرِ إلى السَّحَرِ .

فقُلْنَا لأَحدِ الغِلْمَةِ : اتّبعْهُ إلى فِتْيَتِهِ ، لِيَكُونَ أَسْرَعَ لِفَيْئَتِهِ ، فانطَلَقَ مَعَهُ مُضْطَبِنًا جِرابَهُ ، ومُحْتَثًا إيابَه .

* * *

قوله : « الملتمَس » ، أى المطلوب وهو المِصْبَاح ، والقبس ضوءه . جلا : كشف . صاحب صيدنا ، أى الذى اصطاد أموالنا . استُمطر : سُئِلَ المطر . صَاب : وَقَع وقعا شديدا ، وكنى بالمطر الصوّب عن العلم الكثير . أتلعوا : مدّوا ، وأتلع الرجل : نصبَ عنقه ومدَّها ، وتطاول لينظر شيئاً . أحدقوا :

حلّقوا وأحاطوا ، والأحداق : سواد العين الأعظم : عيلته : فقره يتضوّرون : يَصِيحون . ابن الأنبارى : وقولهم : تركته يتضوّر ، معناه يظهر الضرّ الذى وقع به بالتقلقل والاضطراب والصياح ، فيتضوّر ، يتفعّل من الضّور ، والضّور بمعنى الضّير ، ويقال: ضرّنى يضرّنى ضرًّا ، وضارَنى يَضيرنى ويَضُورنى ضيراً وضوراً بمعنًى . وشك : سرعة . استراثونى : استبطئونى . خامرهم : خالطهم . الطيش : الخِفّة وذهاب العقل من الجوع . أسدّ مَخمصتهم : أزيل جوعهم . والغصة : ما يُختنق به وإساغتها : تسهيلها حتى تبتلَع . انقلب على الأثر ، أى فى الحين وفى الطريق الذى أمضى فيه . أرجع : أمشى على أثرى فيه مسرعا ، قبل أن يمشى غيرى فيغيّره ، فهذا معنى أنقلب على الأثر . متأهّبا : مستعدًّا . فيئته : رجوعه . مضطبنا : حاملا على ضِبْنِه[1] وهو خَصْره . محثحثا : معجّلا . إيابه : رجوعه .

* * *

فأبطأ بُطئاً جاوزَ حدَّه ، ثمَّ عادَ الغلامُ وحدهُ ، فقلنا لهُ : ماعندكَ منَ الحديثِ ، عن الخبيثِ ؟

فقال : أخذَنى فى طُرُقٍ مُتْعِبَةٍ ، وَسُبُلٍ مُتشَعِّبَةٍ ، حَتّى أفضينا إلى دُوَيْرَةٍ خَرِبةٍ ، فقال : هاهُنا مُناخِى ، ووَكْرُ أفرَاخى . ثمَّ استفتحَ بابهُ ، واختلجَ مِنِّى جِرابَهُ ، وقال : لَعَمْرِى ، لقَدْ خفّفْتَ عَنِّى ، واستوجَبْتَ الْحُسْنَى مِنِّى ، فهاكَ نصيحةً هى مِنْ نفائِسِ النَّصائحِ ، ومَغَارِسِ الْمَصَالحِ ، وأنشـد :

(١) : « ط طبنة » تحريف

إذا ماحَوَيْتَ جَنَى نَخْلةٍ فلا تقْرَبنْها إلى قابلِ
وَإمَّا سقَطْتَ عَلَى بَيْدَرٍ فَحَوْصِلْ منَ السُّنْبُلِ الْحَاصِلِ
وَلا تَلْبَثَنَّ إذَا مَالقَطتَ فتَنْشَبَ فى كِفَّةِ الْحَابلِ
ولا تُوغِلَنَّ إذا مَاسبَحْتَ فإنَّ السَّـلامةَ فى السَّـاحِلِ
وَخاطِبْ بِهاتِ،وَجاوِبْ بِسَوْفَ وَبِـعْ آجِلاً مِنْكَ بالْعَـاجِلِ
وَلا تُـكْثِرَنَّ عَلَى صَاحِبٍ فَمَا مُلَّ قَطُّ سِوَى الْوَاصِلِ

* ° *

الخبيث ، قال أبو الهيثم : الخبيث : الذكر من الشياطين وجمعه خُبث . أبو عبيدة : الخبيث : ذو الخبْث فى تفسيره . متشعّبة : متفرّقة ، وتشعّبَ الطريق : خرجت منه شُعب إلى كل جهة ، أى طرق أُخَر ، فأراد أنه خُلط عليه بحيث لايهتدَى إلى منزله ، فكان يخرجه من طريق إلى طريق . أفضينا : وصلنا ، وهو من الفضاء . مناخى : منزلى ، وأصله موضع إناخة البعير . وكر أفراخى : عشّ أولادى . استفتح : ضرب وقال : افتحوا الباب . اختلج : أخذ بسرعة . جرابه : وعاء زاده . الحسنى : الفعل الحسَن . هاك : خُذْ النّفائس : الذخائر : الرّقاع . مغارس : مواضع يُغرّس فيها . المصالح : جمع مَصْلحة ، مفعلة من الصلاح . حويت : جمعت وحزت . جنى نخلة : هو التمر . بَيْدر : أندر الزرع ، يسمّى بالشأم أندر ، وبالعراق بَيدر . حَوْصِل : اجعل فى حَوْصلتك وهى للطائر فى الأصل . كفّة : شبكة . الحابل : الصائد . تُوغِلنّ : تـكثرنّ الدخول . سبحْت :

عمّت . السّاحل : ماولِيَ الماء من الأرض ، وهو فاعل بمعنى مفعول ، لأنّ الماء سحله أى قشره وأخذ عشبه ، كما تُسْحَل الحديدة بالمبرد ، أى تبرد بالمبرد ، والسُّحالة : ماسقَط من المسحول .

وخاطِب بهات : عكس قول الصاحب ، وقد أهدى إليه العميرىّ[1] قاضى قزوين هديّة وكتب معها :

العميرىّ عبد كافِى الكفاة ومنِ اعتُدّ فى وجوه القُضَاةِ[2]
خدم المجلس الرفيع بكتب مُفْعَمَاتٍ من حسنها مترعاتِ

فوقّع تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتَاباً ورددنا لوقتِهــــا الباقياتِ
لستُ أستغنم الكثير فطبْعى قولُ خُذْ ، ليس مذهبى قوْلَ هاتِ

قوله : « آجلا » ضد عاجل . وقوله : « ولا تكثرنَ على صاحب » ، أى لا تكثر من الزيارة وأقِلْها خشية الملل . وروى قدامة بن جعفر أنّ رجلاً كتب إلى آخر : إن رأيت أن تحدّد[3] لى موعدا لزيارتك أتوقّعُه إلى وقت رؤيتك فيؤنسنى إلى حين ، فافعل .

فأجابه الآخر : أخاف أن أعدَكَ وعداً يعرِض دون الوفاء به مالا أملك دفعه ، فتكون الحسرةُ أعظم من الفرْقة .

فأجابه : إنما أُسَرّ بموعدك ، وأكون جذلا بانتظارك ، فإن عاق عائق عن إنجاز وعدك ، كنتُ قد ربحت السرور لما أحبُّه ، وأصبت أجرى على الحسرة بما حرمتُه .

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٧٤ .
(٢) ط : « العمبرى » ، وما أثبته من ب ، ج واليتيمة .
(٣) ط : « تجدد » ، بالجيم .

[نبذ مما قيل في الزائر]

ولبعضهم :

أتى زائرا من غير وعدٍ وقال لي ‏ أُجِلّك عن تعذيبِ قلبك بالوعد

ومما جاء في قصر الزيارة قول أبي الشيص :

يا حَبّذا الزَّوْر الذي زارا ‏ كأنه مقتبِسٌ نارَا
نفسي فداءٌ لك من زائر ‏ ما حلّ حتى قيل قد سارَا
مرَّ بباب الدار فاجتازها ‏ ياليتَهُ لو دخل الدارا !

وأنشد الحاتمي والوكيعيّ لجحظة :

بأبي مَنْ زارني مكتتِمًا ‏ خائفًا من كل حس جَزِعَا
حـــذِراً دلّ عليه نورُه ‏ كيف يُخفي الليل بدراً طلعاَ
رصد الخَلْوة حتى أمكنَتْ ‏ ورَعَى السامِر حتى هَجَعا
كابد الأهوال في زَوْرَته ‏ ثم ماســـلّم حتّى ودّعا

وقال العباس بن الأحنف :

سألونا عن حالِناَ كيف أنتمْ ‏ فقرَنا وداعهمْ بالسؤال[1]
ما أناخوا حتى ارتحلنا فما نفـــرِق بين النّزول والتّرْحالِ

وقال محمد بن أمية الكاتب :

يا فِراقًا أتى بعقبِ فراقِ ‏ واتفاقًا جرى بغير اتفاق
حين حطَّت ركابهم لتلاقٍ ‏ زُمّتِ العيس منهمْ لانطلاقِ

---

(١) ديوانه ٢٣١ ، والرواية فيه :

ما أنخنا حتّى ارتحلنا فما نفْـــرقُ بين المناخ والإرتحالِ
سألونا عَنْ حالنا إذ قدمنا ‏ فقرَنَّا وداعَهُمْ بالسُّؤَالِ

إن نفسي بالشّام اذ أنْت فيها ليس نفسِي نفسي الّتي بالعراقِ
أشتهي أن ترى فؤادِي فتَدْرى كيفَ وجدِي بهمْ وكيف احتراقِي

[طيف الخيال]

ومن الزوّار طيف الخيال ، وهو فى الشعر الجاهلىّ والمولّد كثير ، وسنذكر منه شيئاً يُستَحسن إن شاء الله تعالى ، قال قيس بن الخطيم (١) .

إنى سَرِيْتِ وكنتِ غير سَرُوبِ ومقرّبُ الأحلام غيرَ قريبِ (٢)
ما تمنعِي يَقْظَى فقد تؤْتينه فى النَّوم غير (٣) مصرّد محسوبِ (٤) .

وقال أبو الفرج الـكاتب :

خيالك كان أعرف بالغَرام وأرأفَ بالمحبِّ المستهـــامِ
فلو يسطيعُ حين حضرت نومِي لـكان يزور فى غَيْرِ المنامَ .

وقال المرتضى (٥) :

وزورٍ زارنى والليل داجٍ فعلَّلنى بباطلِ ذاك حينا (٦)
يريني أنه ثانٍ وســـادِى مضاجعةً ، وزور ما يُرينا
نَعمتُ بباطل ، ويودّ قلبِى وِداداً ، لو يكونُ لنَا يقينَا

وقال أيضاً :

وزورٍ تخطّى جنوب الملاَ فناديت : أهلاً بذَا الزائرِ (٧)

(١) ديوانه ١٥ ، ١٦ .
(٢) غير سروب : غير مبعدة ، وفى ط : « شربت . شراب » ، تصحيف .
(٣) مصرد : مقلل .
(٤) بعده فى الديوان :

كان المنَى بلقـائها فلقيتُها فلهوتُ من لهو امرىء مكذوبِ

(٥) فى الأصول : « الرضى » ، وهو خطأ ، والأبيات فى طيف الخيال للمرتضى ١٥٣ ، وهي أيضا فى ديوانه المرتضى ٣ : ٣٠٣ .
(٦) الديوان : « وقد ملأ الكرى منا العيونا » .
(٧) طيف الخيال : ٢٤٣ منسوبة إلى المرتضى .

انِي هدوٌّ وعين الرّقيـــب مطروفة بالـكرَى الغامرِ
أحيبْ به يُسْعِف الماجعين وتحرَمُه مُقــلة السّاهرِ
مَهْدِي بتمويه عين المحبّ تنمّ على قَلْبِهِ الطّائرِ
ـّا التقينا برغم الرّقا د موّه قلبى عَلَى نَاظِرِى

ال الرضىّ: قلتُ هذه الأبيات سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وتداول أهلُ ، إنشادَها ، واستغربوا هذا المعنى ، وشهدوا أنه مخترَع لم يسمع ، فلما ت ديوان شعر أبى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وجدت بخطه فى الثانى من شعره :

، طيف الخيال زارَ طروقاً والمطايا بين القَنَان وشَعْبِ[1]
رنى واصلاً على غير وعْدٍ وانثنَى هاجراً على غير ذَنْبِ
ن قلبى إليه رائدَ عينى فعلَى العين مِنّــةٌ للقلْبِ
ان عندى أنَّ الغرور لِطَرْفِى فإذا ذلك الغرورُ لِقَلْبِى

أدرى : هل قصد نظمَها حتى لا يخلِى شعره من هـذا المعنى ، أو أنسِى منى ، وقذف به خاطره ، وكثيرا مايلحق الشعراء ذلك ، فيتواردون فى لمعانى المسبوق إليها ، وقد كانوا سمعوها فأنسُوها ؛ والخواطر مشتركة ، ، معترضة لـكل خاطر ، وكيفماً جرى الأمر فالعنصر واحد .

* * *

ثم قال : اخزُنْهاَ فى تأمُورِكَ ، وَاقتَدِ بِهاَ فى أُمُورِكَ ،

) ديوان الرضى س ١ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، طيف الخيال ٩٣ ، ٢٦٥ بنسبتها إليه وشعب : موضعان ، وفى ط « العنان » ، تحريف؛ وبعده هناك :
ب أكوارهنَّ أنضاء شوقٍ طرقوا بالغرام دون الرّكبِ
ّما أنَّتِ المَطَىّ من الإعـــياء أنوا من الجوَى والـكَرْبِ

وَبَادِرْ إِلَى صَحْبِكَ ، فِي كِلاءَةِ رَبِّكَ ، فَإِذَا بَلَغْتَهُمْ ، فَأَبْلِغْهُمْ تَحِيَّتِي ، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ وَصِيَّتِي ، وَقُلْ لَهُمْ عَنِّي : إِنَّ السَّهَرَ فِي الْخُرَافَاتِ ، لَمِنْ أَعْظَمِ الآفَاتِ ، وَلَسْتُ أُلْفِي احْتِرَاسِي ، وَلاَ أَجْلُبُ الْهَوَسَ إِلَى رَاسِي .

قَالَ الرَّاوِي : فَلَمَّا وَقَفْنَا عَلَى فَحْوَى شِعْرِهِ ، وَاطَّلَعْنَا عَلَى نُكْرِهِ وَمَكْرِهِ ، تَلاَوَمْنَا عَلَى تَرْكِهِ ، وَالاغْتِرَارِ بِإِفْكِهِ .

ثُمَّ تَفَرَّقْنَا بِوُجُوهٍ بَاسِرَةٍ ، وَصَفْقَةٍ خَاسِرَةٍ .

* * *

قوله : « اخزنها في تامورك » ، أي اجعلها في قلبك ، والتامور : حجاب القلب ، وقيل : دم القلب . كلاءة : حفظ وكلأه يكلؤه : حفظه .

الخرافات : أحاديث اللهو والأباطيل ، قال الخليل : الخرافة الحديث المستملح في الكذب . أبو عبيدة : كان خرافة رجلاً صالحاً سبته الجن ، فرأى منهم عجائب فحدث بها ، فيقال في كل حديث يستغرب : كأنه حديث خرافة .

ألفى : أترك . احتراسى : تحفظى . الهوس : يبس الرأس ، يتولد من كثرة السهر . فحوى : معنى . نكره : منكره ودهاؤه . تلاومنا : لام بعضنا بعضا . الاغترار : الانخداع . إفكه : كذبه . باسرة : عابسة ، وبسر وجهه بسورا : عبسه . وصفقة خاسرة ، أي تجارة ومبايعة ناقصة .

* * *

المقامة السابعة عشرة القهقرية

حدث الحارث بن همام قال : لحظتُ فى بعض مطارِح الْبَيْن ، ومطامحِ الْعَيْن ، فتيةً عليهم سِيما الْحِجا ، وطلاوة نُجُوم الدُّجَى . وهم فى مماراةٍ مُشتدَّة الهُبُوب ، ومباراةٍ مشتطةِ الأُلْهُوب ، فهزَّنِى لِقَصْدِهِمْ هَوَى المحاضرَةِ ، وَاسْتِجْلاء جَنَى المناظرةِ .

فلمَّا التحقْتُ بِرَهْطِهِمْ ، وَانْتَظَمْتُ فِي سِمْطِهِمْ ، قالوا : أَأَنْتَ مِمن يُبْلَى فى الْهَيْجَاءِ ، وَيُلْقِي دَلْوَهُ فى الدِّلاَءِ ؟ فقلت : بل أنَا من نَظارَةِ الْحَرْبِ ، لا منْ أبناء الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ . فأضْرَبُوا عن حجاجى ، وأفاضوا فى التَّحَاجِي .

* * *

لحظت : نظرت . مطارح : جمع مَطْرَح ، وهو الموضع تطرح فيه نفسك ، أى ترميها فيه . البين : الفراق ، فيريد بمطارح البين البلاد التى طرحه فيها البين ورماه إليها . ومطامح العين: المواضع الحسان التى تطمح فيها العين بالنَّظر ، أى ترتفع إليها . سيما الحجا : علامة العقل ، والسِّيما من وَسَمْتُ الشىء وَسْمًا إذا علَّمته ، وأصله «وَسْمَى » ، فحوِّلت الواو من موضع الفاء إلى العين . فصار سِوْمى ، فقلبت الواو ياء لـكسرة ما قبلها . طلاوة : حسن . الدّجا : الظّلمة . المماراة : الخصام . مشتدّة : كبيرة الحركة . والشدّ : الجرى . الهبوب : مجىء الريح : مباراة : معارضة . مشتطّة : ممتدّة متجاوزة الحدّ . الألهوب : الجرى الشديد ،

فأراد أن حركة الكلام بينهم فى المناظرة شديدة . والمحاضرة : مجالسة العلماء . مناظرة : سؤال العالم لتعلم حسن نظره وقدْر معرفته . جناها : فوائدها رهطهم : جماعتهم . انتظمتُ فى سِمْطهم ، أى جلست بينهم . يبلى فى الهيجاء : يقاتل فى الحروب . النظارة . القوم يقعدون فى موضعٍ مرتفع من الأرض ينظرون منه القتال ولا يشهدونه ، فأراد أننى ممن يحضر معكم للاستماع ، لا للمناظرة . الحجاج : مصدر حاجّه ، تقول: حاججت فلانا إذا أوردتَ عليه الحجّة وأوردها عليك ، فإن غلبتَه قلت : حججتُه . أفاضوا فى الأحاجى : اندفعوا فى الألغاز .

* * *

وكان فى مُحبُوحَةِ حَلْقتِهِمْ ، وَإِكْلِيلِ رُفْقَتِهِمْ ، شَيْخٌ قدْ بَرَتْهُ الْهُمُومُ ، وَلوَّحَتْهُ السُّمُومُ ، حَتَّى عَادَ أَنْحَلَ مِنْ قَلَمٍ ، وَأَقْحَلَ مِن جَلَمٍ ، إلا أنه كان يُبْدِى الْعُجَابَ ، إذا أجاب ، ويُنْسِى سَحْبَانَ ، كُلَّمَا أبَانَ . فأُعْجِبْتُ بمَا أُوتِىَ مِنَ الإصَابة ، وَالتَّبْرِيزِ عَلَى تِلك العِصَابَة ، ومَا زالَ يَفْضَحُ كلَّ معمًّى ، ويُصْمِى فى كلِّ مَرْمًى ، إلى أن خَلَتِ الجِعَابُ ، ونَفِدَ السؤالُ والجواب .

فلمَّا رأى إنفاضَ القومِ ، وَاضطرَارَهم إلى الصَّوم ، عَرَّضَ بالمطَارَحَةِ ، وَاستأْذَنَ فى المُفَاتَحَةِ .

فقالوا له : حَبَّذَا ، وَمَنْ لنَا بذا !

* * *

مُحْبُوحة : وسط . إكليل : دائرة ، وأصلها عصابة مكلّلة بالدرّ والياقوت ،

تعتمد على رءوس الملوك . رفقتهم : جماعتهم . برته : أذهبت لحمه . لوّحته : غيّرته وأضمرت جسمه . السَّموم : الريح الحارّة . أقحل : أيبس .

جلم : مقصّ ، وأكثر ما يستعمل مثنًى ، فيقال : جلَمان ، والعجب من أبى محمد يقول فى الدرَّة :[١] ويقولون : قرضت[٢] بالمقراض ، وقَصَصت[٣] بالمقص[٤] فيَهمون ، كما وهم بعض المحدثين حين قال فى صفة مز نون[٥] بالقيادة ، وإن كان قد أبدع فى الإجادة :

إذا حبيبٌ صدّ عن إلفِــــهِ تيهاً وأعياً كلّ رَوّاضِ[٦]
ألّف فيما بين شخصيهِمــــا كأنَّه مسمارُ مقـــراضِ

قال : والصَّواب أن يقال ، مقراضان ومقصّان وجَلمان ، لأنهما[٧] اثنان .

فما منعه غيره أباحه هنا لنفسه، فقال : أقحل من جَلم ، ولا نقول كما قال : إنه وهَم ، بل نقول : إنها لغة قليلة .

قال يعقوب : والجلم الذى يُجَزّ بهِ ، وقال رجل من الأزد فى مفرد مقراض :

---

(١) درة الغوص ١١٥ .
(٢) الدرة : قرضته .
(٣) الدرة : «قصصته»
(٤) الدرة : «فيوهمون» .
(٥) مزنون ، أى متهم .
(٦) قبله فى الدرة :

ألقَ ابنَ إسحاقٍ تلاقِ فتًى لَيْس امرؤٌ عنه بمعتاضِ

(٧) بعده فى الدرة : ونظير هذا الوهم قولهم للاثنين زوج ، وهو خطأ ، لان الزوج فى كلام العرب هو الفرد المزاوج لصاحبه ، فأما الاثنان المصطحبان فيقال لهما : زوجان ، كما قالوا : عندى زوجان من النعال، أى نعلان .

فمليك ما اسطعت الظّهور بلمّتى   وعلىّ أن ألقاكَ بالمقراضِ

وقال الراجز فى مفرد الجلم :

* وجَلَمٍ كريشة الوقواق *

والوقواق : الخطّاف ، والجسم النّحيل يشبّه بالقلم والجلم ، وقلَب الشاعر التشبيه وألغز بالقلم ، فقال :

ضئيل الرُّواء كثير الغَناءِ   من البحر فى المنصب الأخْضَرِ
كمثل أخى العشقِ فى شخصهِ   وفى لونه من بنى الأصْفَرِ

وقال ابن أبى لبابة فى جلَم :

ومعتنقيْن ما اتُّهما بعشقٍ   وإن وُصفا بضمٍّ واعتناقِ
لعمرو أبيك ما اجتمعا لمعنًى   سوى معنى القطيعة والفِرَاقِ

وتقدّم فى الثانية من أبيات المعانى فيه :

ارعت مراتع مدراها على وهَن[1]   صنوين إن أفردا لم يرعيا أبدا

أبان : بَيَّن . التّبريز : الظهور والخروج قبلهم .

العصابة : الجماعة . يفضح : يشهر عيبه . معمًّى : مستور . يصمِى : يصيب المقتل .

خلت الجِعاب : أى أفرغ الكلام ، والجُعبة : وعاء السهام ، فكَنى بها عن

(١) حاشية ط : الذى تقدم « على : عجل » .

القلوب ، وبالسهام عن الـكلام الذى يصدر عنها .

الإنفاض: فَناء الزاد ، وقد أنفض القوم ، وأراد نفاد ما عندهم من العِلْم .
الصَّوْم : السُّكوت والإمساك عن الـكلام .

المطارحة ، أصلها فى الغِناء ، وهو ما يأخذه المتعلّم عن المعلّم وعرّض بها ، أى ذكرها . المفاتحة : استفتاح الـكلام .

* * *

فقال : أتَعْرِفونَ رِسالَةً أرضُها سماؤُها ، وصُبْحُها مَساؤها ، نُسِجَتْ علىَ مِنْوالَيْن ، وتَجَلَّتْ فى لَوْنَيْنِ ، وَصَلَتْ إلى جهتَيْن ، وَبَدَتْ ذاتَ وجْهَيْن ، إن بَزَغَتْ مِن مَشْرِقِها ، فناهيكَ بِرَوْنَقِها ، وَإنْ طَلَعَتْ مِن مَغْرِبِها ، فيا لِعَجَبِها !

قال : فـكأنّ القومَ رُمُوا بالصُّمات ، أوْ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كلمةُ الإنْصات . فما نبَسَ مِنْهُمْ إنسانٌ ، ولا فاهَ لأحَدِهم لسانٌ ، فحين رآهم بُكماً كالأنعام ، وصُمُوتاً كالأصنام ، قال لهم : قَدْ أجَّلْتُكُمْ أَجَل العِدَّة ، وأرْخَيْتُ لكُمْ طولَ المدّة ، ثمَّ هاهُنا مَجْمَعُ الشملِ وَمَوْقِفُ الفَصْلِ ، فإن سَمَحَتْ خَواطِرُكُمْ مَدَحْناَ ، وإن صَلَدَتْ زِنادُكُمْ قَدَحنا ، فقالوا له : واللهِ مالنا فى لُجّةِ هـذا البَحْرِ مَسْبَحٌ ، ولا فى ساحِلِه مسْرَحٌ ، فأرِحْ أفكارنا مِنَ الـكَدِّ ،

وَهَنِئُ الْمَطِيَّةَ بِالنَّقْدِ ، واتَّخِذنا إخوانًا ، يثبُون إذا وثَبْتَ ، ويُثيبُونَ مَتَى استثَبتَ .

فأطرق ساعةً ، ثم قال : سَمْعًا لَكُمْ وَطاعةً ، فَاسْتَمْلُوا مِنِّى ، وانقُلوا عَنِّى ...

* * *

أرضها سماؤها : يريد أعلاها أسفلها . صبحها مساؤها : أولها آخرها . المنوال : خشبة الحائك ، أراد أنها نسجت من الطرفين ، لأنك تبتدئها بالقراءة إن شئت من أولها ، وإن شئت من آخرها .

بَزَغَت : طلعت . ناهيك : كافيك .

رونقها : حسنها ، والرَّونق : صفاء الوجه وحسنه ونعمته .

الصّمات : السكوت ، والإنصات مثله . نبَس : تكلّم . الأنعام : المواشى .

أجّلتكم : أخرتكم والعِدّة هنا : عدة الموت ، لأنها أطول العدد ، ألا ترى أنه أرخى لهم طِوَل المدة ؛ والطِّوَل :الحبل.والشّمل : الاجتماع . الفَصْل : القضاء ، يقول: قد طوّلت لكم الأمَد لتستخبروا هذه الرسالة ، وفى هذا الموضع يكون اجتماعنا ويفصل فيه بين العارف وضده .

خواطركم : أذهانكم . صلَدت: شحّت . قدحنا : ضربنا زند النار،يقول: إن عرفتموها مدحناكم وإن جهلتموها عرّفناها لكم ، وجعل صلود الزند كناية عن جمود القرائح .

لُجّة : معظم الماء . مَسْبح : موضع يُسبح فيه ، أى يعام . مَسْرَح : موضع

يسرح فيه ، أى يمشى ويتصرف . الكد . الجهد والتعب . هنىء : طيب . النقد : حضور المال . يثبون : يقومون لقيامك . يثيبون : يهبون الثواب . استثبت : طلبت الثواب . استملوا : اكتبوا .

* * *

الإنسانُ صنيعةُ الإحسانِ ، وربُّ الجميلِ فِعْلُ النَّدْبِ ، وشيمةُ الحُرِّ ذخيرةُ الحمدِ ، وكسبُ الشُّكرِ استثمارُ السَّعادةِ ، وعُنْوَانُ الكرمِ تباشيرُ البِشْرِ ، واستعمالُ المُداراةِ يوجِبُ المُصافاةِ ، وعَقْدُ المحبَّةِ يَقْتَضِى النُّصْحَ ، وَصِدْقُ الحديثِ حِلْيَةُ اللِّسانِ ، وفصاحةُ النُّطقِ سِحْرُ الألبابِ ، وشَرَكُ الهوى آفةُ النفوسِ ، ومَلَلُ الخلائقِ شَيْنُ الخلائقِ ، وسُوءُ الطَّمعِ يباينُ الوَرَعَ ، والتزامُ الحزامةِ زمامُ السَّلامةِ ، وتطَلُّبُ المثالبِ ، شرُّ المعايبِ ، وتتبُّع العثَرَاتِ ، يُدْحِضُ المودّاتِ ، وخُلوصُ النِّيَّةِ ، خُلاصةُ العطيَّةِ . وتهنئةُ النَّوالِ عَنْ السُّؤالِ ، وتكلُّفُ الكُلَفِ ، يُسَهِّلُ الخَلَفَ ، وتيقنُ المُعونةِ يُسَنِّى المثونةِ ، وفَصْلُ الصَّدْرِ ، سَعَةُ الصدْرِ ، وزينةُ الرُّعاةِ ، مَقْتُ السُّعاةِ ، وجزاءُ المدائحِ ، بثُّ المنائحِ ، ومَهْرُ الوسائلِ ، تَشْفِيعُ المسائلِ ، ومَجْلَبَةُ الغَوايةِ ، استغراقُ الغايةِ ، وتجاوزُ الحَدِّ يكلُّ الحَدَّ .

* * *

صنيعة : ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير ، يريد أن الإنسان أهل الإحسان ، وإن عكستَ قلت : الإحسان صنيعة الإنسان ، أى إصلاح الإحسان وتتميمه

من صنع مَنْ يوصف بالإنسانيّة وقد تقدّم :

* وما فيهم مَنْ يربّ الصّنيع *

وقال أعرابيّ لعبد الملك بن مروان :

يربّ الّذى يأتى من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتمّماَ
وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه تتبّعه بالنّقض حتى تهدّما

فمعنى يربّ ، هو قوله : زاد وتمّما .

النّدْب : السّيّد الخفيف : شيمة :طبيعة . الذخيرة : الشيء الرفيع من مالٍ أو غيره ،والادخار كالاقتناء . استثمار : تناول الثمر : عنوان : دليل : تباشير : أوائل، وتباشير الصبح: طرائق ضوئه فى الليل ؛ ويقال للطوائق التى تراها عَلَى وجه الأرض من آثار الرياح : التّباشير . البشر : طلاقة الوجه . المداراة : خداع القلوب بلطف الـكلام، ومداراة الناس:معاملتهم بما يحبّون . المصافاة : إخلاص الصحبة . عقدها : ربطها . يقتضى : يتضمّن . حلية : زينة . الألباب : العقول . الهوى : ما يهواه الإنسان ويميل إليه . آفة : داء . الخلائق : الناس . شين : عيب . الخلائق : الطبائع ، يقول : الملل فى الناس يعيب أخلاقهم. سوء الطمع: كثرة الحرص . تباين : تباعد . الورع : الـكف عمّا فيه إثم ، وقد وَرَع الرجل يَرَع ورعاً ورِعَة ؛ إذا كفّ عمّا لا يحلّ ، والورَع بفتح الراء : الجبان ، وقد وَرِع وورَع ، وقال عروة بن أذينة فى ذمّ الطمع :

لقد علمت وخيرُ القول أصدقه بأنّ رزقى وإن لم آتِ يأتينى
أسعى له فيعنينى تطلّبــــه وإن قعدت أتانى لا يعنينى
لاخير فى طمعٍ يدنى إلى طبَع وعفّة من قوام العيش تـكفينى

وأنشد الحريرىّ البيت الأول فى الدرة :

لقد علمت وما الإسراف من خُلُقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

قال : فيروِى أكثرهم « الإسراف » بالسين المهملة ، وروى بعضهم بالشين المعجمة[١] ، ليكون معناه التطلّع إلى الشىء والاستشراف إليه .

* * *

[عروة بنَ أذنيه وهشام بن عبد الملك]

قال : ولهذا البيت حكاية تحثّ على استشعار اليقين ، وإعلاق الأمل بالخالق دون المخلوقين ، لحليته بها تحلية لعاطله ، ومنبّهة على صدق قائله ؛ وهو ما رويته من عدّة طرق: أن عُروةَ هذا وفد على هشام بن عبد الملك فى جماعة من الشعراء ، فلما دخل عليه عروة قال له ألست القائل :

لقد علمت وخير القول أصدقه ... الأبيات

وأراك قد جئتَ تضرب من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ! فقال له : لقد وعظتَ يا أمير المؤمنين فبالغتَ فى الوعظ ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره إلى راحلته فركبها ، ثم نصّها نحو الحجاز .

فمكث هشام يومه غافلا عنه ، فلمّا كان من الليل تعارّ[٢] على فراشه ، فذكره فقال : رجل من قريش قال حكمة ، ووفد إلىّ اليوم ، فجبّهته ورددته عن حاجته ! وهو مع هذا شاعر ، لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنه ، فأخبِر

(١) البيت فى اللسان — شرف

(٢) التعار : التقلب على الفراش فى النوم .

بانصرافه ، قال: لا جرم، لَيعلم أنّ الرزق سيأتيه ، ثم دعا بمولًى له ، فأعطاه ألفَيْ دينار ، وقال : الحق بهذا ، أين أدركتَه فأعطِه إياها .

قال : فلم يدركه إلا وقد دخل بيته ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له كيف رأيت !

* * *

قوله : «الحَزامة» : جودة الرأى ، والحازمُ : الجامع لرأيه ، المحكم لأموره وأصل الحزم الجمع والشدّ ، ومنه الحزمة ، وحزمت المتاع جمعتَه وشددته ، ومنه الحِزام لأنه يُشدّ به ، وقد حَزُم الرجل : صار حازما .

الزّمام : مِقوَد البعير .

الثالب : المساوى ، وثلبه : ذكره بسوء . التطلّب : البحث ، يريد أن البحث عن عيوب الناس من أكبر العيوب ، قال رجل للمستورد الخارجىّ : أريد غلاماً عيّاباً ، قال : التمسه بفضل معايب فيه .

وكان يقول : أوّل ما يدلّ على عائب الناس معرفته بالعيوب .

معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّك إن اتّبعت عوراتِ الناس أفسدتَهم ، أوْ كِدْتَ تفسدهم .

أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها : مرّ المسيح صلوات الله عليه بقوم من اليهود ، فقالوا له شرّاً ، فقال خيراً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كلٌّ ينفق مما عنده .

وكتب الشافعىّ رضى الله عنه لصديق له :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة   لقد سرني أني خطرت ببالك[1]

وأتى الشافعيّ رضي الله عنه مسجداً ، فصادف قوماً يتنابونه ، فسدّ الباب وقال :

هنيئاً مريئاً غيرَ داء مخامرٍ   لعزّة من أعراضنا ما استحلّتِ[2]

وقال الشاعر :

ثالبني عمْرو وثالبته   فأثِمَ المثلوب والثالبُ
قلت له خيْراً وقال الخنى   كلٌّ على صاحبه كاذبُ

قوله : «العثَرات» ، السقطات . يُدحض : يبطل ، يريد أنّ البحث عن عيوب الصاحب يُبطل مودّته .

أبو بُرْدة الأسلمي رضي الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر مَنْ أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تذمّوا النّاس ولا تعيّروهم ، ولا تتّبعوا عوراتهم ، فإنه من يلتمس عورة أخيه تتبّعَ الله عورته ، ومَنْ تتبع الله عورَته يفضحه في بطن بيته .

وقال سابق البربريّ :

إذا ما كنت طالب كلّ ذنبٍ   ولم تحْمُلْ أخاك عن العِتابِ
تُباعد مَنْ تباعد بعد قربٍ   وصارَ بك الزّمان إلى اجتنابِ

وقال عبدالله بن جعفر : عليك بصحبة منْ إن صحبتَه زانك ، وإن غبت عنه صانك ، وإن احتجت إليه مانك ، وإن رأى منك خَلّة سدّها ، أو حسنة عدّها .

(١) البيت من أبيات لابن الدمينة ، ديوانه ١٧ .

(٢) من تائية كثير ، أمالي القالي ٢ : ١٠٧ ـ ١١٠ .

وقال الحسن بن وهب: مِنْ حُقُوق المودّة أخذ عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصير إن كان .

وقيل :خيرُ الإخوان مَن إذا نسيتَ ذنبك لم يقرعك به، ومعروفَه عندك لم يمنّ عليك به .

وقال الشاعر :

إذا شئت أن تدعَى كريمًا مهذّبًا   سنيًّا سريًا ماجداً فَطِنًا حُرّا
إذا ما بدتْ من صاحبٍ لك زلّة   فكُنْ أنتَ مُحتالا لزلّته عُذْرا

قوله : « خلوص النية » ، صفاؤها ، أى من أخلص لك النية ؛ فكأنه قد أعطاك خالص ماله ، والخلاصة: ما خَلُصَ من الشىء وصفا .

النوال : العطاء . الكُلَف : المشقّات . يسنّى : يسهّل . المؤنة : خدمة الضيف وما ينفَق عليه ، يقول : من تيقّن أن الله يُعينه على البرّ أو ما ينويه من الحقوق ، سهّل عليه تكلّف المؤن ؛ وهو من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه. فإن لم يقم بذلك النعمة عرّض النعمة للزوال » .

وأما معكوس ما قبله ، وهو تيقّن الخلف يسهل الكلَف ، فمن قوله صلى الله عليه وسلم « من أيقن بالخلف جاد بالعطية » .

قال محمود الورّاق :

مَنْ ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئًا   والبخل من سوءِ ظنّ المرء بالله

قالوا: للمعروف ثلاث خصال : تعجيله وتيسيره وستره ، فمن أخلّ بواحدة منها ، فقد بخَسَ المعروف حقّه ، وسقط منه الشكر .

قوله : « الفضل » ، هو الزيادة على قدر الحاجة . الصَّدْر : هو المتقدم فى الأمور ، مثل الوالى وسيّد القوم ، يقول : مَنْ يتصدّر لأمور الناس ، ففضلُه وشرفُه سَعة خلقه .

الرّعاة : الولاة . مقت السّعاة : بغض العمّال الذين يجمعون الزكاة . والسُّعاة أيضاً المشّاءون بالنميمة للملوك ،فيقول : زينالملوك بغض العمال الذين جرت العادة فى قديم الزمان وحديثه بظلمهم الناس ، فإذا أبغضوهم بحُثوا على أعمالم الفاسدة ، فخافوهم فعدلوا، وأما بغض المشّائين النّميمة للملوك فواجب ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم « لعن الله المِثاب » . قيل : ومَن المِثاب يارسول الله ؟ قال : « الذى يَسْعَى بصاحبه إلى سلطان ، فيهلك نفسه وصاحبَه وسلطانه » .

قوله: « بثّ » ، أى نشْر . المنائح : العطايا ، يقول: جزاء المدح بَذْل المال، وأصل المنائح بذل فوائد الأموال لا الأموال .

مهر : حَقّ ، الوسائل : القُرَب ، والوسيلة ما تجعله سبباً بينك وبين مَنْ تريد الوصول إليه مثل الشفيع والهدية فى قضاء حاجتك .

المسائل : جمع مسألة ، وهى هنا سؤال المحتاج . والمَجْلَبة: مَفْعَلة من الجلب، والمعنى: حق الوسيلة قضاء الحاجة . الغَواية : الضّلالة . استغراق : تجاوز الحدّ ، والحدّ : الأوّل الفصل بين الشيئين ، وأصله المنع ، والحدّ الآخر حدّ السيف وشبهه . يكلّ : يضعف .

* * *

وتعدّى الأدب ، يُحبِطُ القُرَب ، وتناسِى الحقوق ، يُنشىء

العُقوق ، وتحاشي الرِّيَب يرفع الرُّتَب ، وارتفاعُ الأخطارِ باقتِحام الأخطار ، وتنَوّهُ الأقدار بمواتاةِ الأقـدار ، وشرفُ الأعمال في تقصيرِ الآمال ، وَإطالة الفِكْرَة تَنْقِيح الِحكمة ، ورأس الرِّياسةِ تُهَذِّبُ السِّياسة ، ومعَ اللّجاجة تُلغَى الحاجة ، وعنـد الأوْجَال تَتَفَاضَل الرِّجال ، و بِتَفَاضُلِ الِهمَمِ تَتفاوت القِيَم ، وَبتزيُّدالتَّفِير يَهِنُ التَّدبير ، وَبِخَلَلِ الأحوالِ تتبيَّنُ الأهْوَال ، وَبِعُوجِب الصَّبر ثَمَرَةُ النَّصْر ، واستحقاق الإِحْمَادِ بحسب الاجْتِهاَد ، ووُجوب الملاحظة ، كفاء المُحافظة ، وصَفاَء المُوالِي بتعهد المَوَالِي ، وتحلّي المرُوءاتِ بحفظ الأمانات ، واختبارُ الإخوان بتخفيفِ الأحزانِ ، ودفع الأعداء بكفّ الأودّاء ، وَامتحانُ العقلاء بمقارنة الجُهَـلاء ، وتبصُّر العواقِب يؤمِنُ المَعَاطِب ، وَاتقـاء الشُّنعَةِ يَنْشُر السُّمْعَة ، وَقُبْحُ الَجفاء ينافِي الوَفَاَء ، وَجَوْهَرُ الأحرار عند الأسْرَارِ .

* * *

تعدّى : تجاوز . يحبط : يفسد .

ينشىء العقوق : يظهر القاطعة . تحاشي : ترْك واعتزال .

الرِّيَب : التهم . الرّتب : المنازل الرفيعة ، قال بعض الحكماء : ثلاثة لاغُرْبة معهنّ : مجانبة الرِّيَب ، وحسن الأدب ، وكفّ الأذى .

ونظمها الشاعر فقال :

يزين الغريبَ إذا ما اغتربْ ثلاثٌ، فمنهنّ حسن الأدَبْ
وثانية حسنُ أخـــلاقه وثالثهنّ اجتناب الرِّيَبْ

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه لدهقان بعض ملوك العجم : بم ينبلُ الرجل عندكم ؟ قال: بترك الـكذب، فإنه لا يشرُف إلا من وُثق بقوله . وبقيامه بأهله ، فإنه لا ينبُل مَنْ يحتاج أهلُه إلى غيره ، وبمجانبة الرِّيَب فإنه لا يعزّ من لا يأمن أن يصادف على سوءة . وبالقيام بحاجات الناس ، فإنه مَنْ رُجِىَ الفرج لديه كثرت غاشيته .

قوله : « ارتفاع الأخطار » أى شرف الأقدار والقِيَم . اقتحام : دخول شديد ، يقال : فلان يقتحم فى الأمور ، أى يدخل فيها بغير تثبّت ولا رويّة ، وتقحّمت الناقة ، إذا ندّت فلم يمسكها راكبها ، ومنه قُحْمة العرب ، سُمِّيَت قُحمة، لأنهم إذا أجدبوا تركوا البادية ودخلوا الريف .

الأخطار : جمع خَطَر ، وهو الغَرَر .

تنوّه : ترفع . مواتاة : موافقة . الأقدار : الأول جمع قَدْر الإنسان ، أى منزلته، والأقدار الثانى : جمع قدَر الله تعالى .

وقال الشاعر :

الجِـــدّ أنهضُ بالفتى مِنْ عقله فانهض بجدٍّ فى الحوادث أو ذرِ
ما أقربَ الأشياء حين يسوقها قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تقـــدَرِ

تقصير الآمال : تقليل الرجاء وكفّه ، ومَنْ قلّل الطمع شرُف عمله .

الفكرة : التدبير . تنقيح : تخليص ، وأصله أن تشذب العُقَد من العود أو القصب حتى يستوىَ موضعها مع القصب .

قال الشاعر :

وطارتْ بصلب قوّضت عند بيتها — له أُبَنٌ ما قوّضت وكعوبُ[1]

صاب : عمود البيت ؛ جذبته المرأة لتضرب به فتهدّم بيتها .

تهذب : تخلص : والمهذب : المخلّص من العيوب . والسياسة : حسن المداراة . واللجاجة : ركوب الرأس في الباطل . تُلْفَى : توجد ويروى : «تلغى» و«تلقى» ، ومعناها تُترك وتطرح . والحاجة : ما يُحتاج إليه ، فإن عكست رجعت الحاجة الفقر ، يريد : إذا لججت في شيء أدركت حاجتك ، وعلى «تلغى» إذا وقعت لجة في حاجتك تركتْ ، وعلى العكس : مَن افتقر لجّ في السؤال حتى يعطى .

الأوجال : جمع وَجَل ، وهو الفزع ، والمعنى ، أنّ تفاضل الرجال في الصّبر عند النوازل .

سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيراً من ألفٍ مثله إلا الإنسان » .

وقال الشاعر :

ولم أرَ أمثالَ الرّجال تفاوتُوا — إلى الخير حتى عدّ ألفٌ بواحدِ

وفي عكسه يقول : الأمور المخوفة تصغر على العظيم وتعظم على الصغير ، فعلى قدر ما يفضل الرجل صاحبَه في عزمه وإقدامه تتزايد الأوجال وتنتقص .

وقد قال المتنبي :

على قَدْرِ أهل العزم تأتى العزائمُ — وتأتى على قدر الكرام المكارمُ[2]

(١) الأبنة : العقدة في العود ، وجمعها أبن .
(٢) ديوانه ٣ : ٣٧٨ ، ٣٨٩ .

وتعظمُ فى عين الصغير صغارُها وتصغُرُ فى عين العظيم العظائمُ

الهمم: جمع هِمّة. تتفاوت: تتباعد ما بينها. القيَم: المنازل. السفير: الرسول: يهِن: يضعف، والمعنى أن السفير إذا تعدّى فزاد فى الحديث ضعف التدبير، ولو عكست لقلت: إن تدبير المرسل إذا اختلّ ضعُف السفير، وإن كان حازماً، وعلى هذا أنشدوا:

إذا كنتَ فى حاجةٍ مرسلاً فأرسِلْ حكيماً ولا توصِهِ[1]
وإن ناصحٌ منك يوما دَنَا فلا تنأ عنه ولا تُقْصِهِ
وإن باب أمرٍ عليك التوَى فشاورْ لبيباً ولا تعصِهِ
وذو الحقّ لا تنتقص حقّهُ فإنّ القطيعة فى نقصِـــــه
ولا تحرصنّ فربّ امرئ حريصٍ مضاع على حِرْصِهِ

قوله: «خلل»، فساد. والإحماد: أن تجد الرجل محمودا.

والاجتهاد: بلوغ الجهد، وهو أقصَى الطاقة، والمعنى: أنّ الرجل يستحق أن يكون محموداً بحسب ما بذل من اجتهاده وطاقته؛ ولو عكست قلت: الاجتهاد واجبٌ عليك فما كلفته بحسبِ إحمادك من كلّفك.

الملاحظة: النظر بمؤخَر العين.

المحافظة: التحرّز، والمعنى: إنك إذا أوجبتَ ملاحظة حال المحافظ لك، فعلك ذلك كفاء محافظته، وإن عكست قلت إن المحافظ لك إذا صفت محافظتُه فهى كفاء ملاحظتك.

المُوالى: الذى يُوالى الخير، والكرم، أى يفعل المرة بعد المرة. تمهّد:

---

(١) البيت الأول فى الأغانى ١٦ : ٨٤ (ساسى) من غير نسبة.

تفقّد . المَوالى : بنو العمّ، وقيل: الموالى مَنْ والاك بعتق أو بحلف أو بصحبة ، فكلٌّ واحد منهما مولًى للآخر ، والمُوالى بالضم الفاعل ، والمعنى: إذا تعاهدت مَنْ والاك بما أوجبه ولاؤه من رعايته، صفتْ مودته لك ، وإن عكست قلت: إن المُوالى يتعهدون منْ والاهم .

والصحيح فى هذا الموضع أنّ المُوالى الذى يوليك وُدّه ، والمَوالى : العبيد والأتباع .

وسألنى الأستاذ المقرئُ الحاجّ ابن السقاط فى هذا الموضع ، فأجبت بما تقدّم ، فقال لى : معنى هذا الموضع غائب عمّن لا يعرف سيرة أهل المشرق ، وذلك أنّ الرجل الشريف حين يصبح عندهم يأمر مواليَه أن يقصدوا نظراءه من الأشراف والأعيان ، فيأتون باب الشريف،فيستأذنون عليه، ويدخلون إليه ويقولون له : ينعم مولانا صباحك ، ثم يسألونه عن حاله وعمّا حدث عنده ، ثم يفعلون كذلك بجميع أصحاب مولاهم ، وكذلك يفعل مَوالى ذلك المقصود فى قصد نظراء مولاهم، فتنضبط بذلك عندهم الرّعايات بين الأصدقاء والأقارب ، وتتزايد المودّات بين الأولياء والأجانب. فعلى هذا المعنى يقول فى تعهد الموالى، وهو حسن إن شاء الله تعالى .

قوله: «تحلّى» ، أى تزيّن. والمروءات، تقدمت. وتخفيف الأحزان: تهوين الطوارئ والنوازل . الأودّاء : الأحباب ، يريد أنهم يكفون الأعداء ، ورواية ابن ظَفَرَ «دفع العَداء» ، وأنكر «الأعداء »، وقال: العَداء بالفتح والمد: الظلم.

امتحان : اختبار ، يقول : إنما يتبيّن لك العاقل بمقارنته وبمصاحبته للجاهل ، لأنّه لا يوافقه ، وإن عكست قلت : الجاهل إذا صحبَ العاقل تبصّر وانتقى جهلُه .

وقالوا : إذا أردتَ أن تُفْحِمَ عالمًا فأحضِرْهُ جاهلاً .

وقال الشاعر :

عَدْوَى البليد إلى الجليد سريعةٌ ... والجمرُ يُوضعُ فى الرماد فيخمَدُ

وقال صلى الله عليه وسلم : « ويل لعالمٍ أمرٍ من جاهله » .

وجاء كيسان إلى الخليل يسأله ، ففكَّر ليجيبَه فلمّا استفتح الكلام ، قال له : لا أدرى ما تقول ! فقال الخليل(١) :

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنِى ... أو كنتُ أجهلُ ماتقولُ عَذَلْتُكَا

لكنْ جهلتَ مقالتى فعذلْتَنِى ... وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرْتُكا

تبصّر العواقب : إمعان النظر فى عاقبة الأمور . والمعاطب : المهالك ، يريد من نظر فى عاقبة أمره أمِن ما يحذر .

الشّنعة : الفعل القبيح ينشر ذكره . السّمعة : الذكر الجميل يُسمَع عنك ، أو القبيح فينشر فى الناس .

الجفاء : سوء الأدب ، وثقل الكلام . وينافى : يباعد . الوفاء : ضد الغدر .

* * *

ثم قَالَ : هَذِهِ ما ئتاَ لَفْظَة ، تَحْتَوِى عَلَى أدبٍ وَعِظَةٍ ، فمَنْ سَاقَهاَ هَذَا الْمَسَاقَ ، فلا مِرَاء وَلاَ شِقَاق ، وَمَنْ رَامَ عَكْس قَالَبِهاَ ، وَأنْ يَرُدَّهاَ عَلَى عَقِبِهاَ ، فَلْيَقُلِ : الأَسْرَارُ

---

(١) الخبر والشعر فى ابن خلكان ١ : ١٧٣ بهذه الرواية : « وكان له – أى الخليل – ولد متخلف ، فدخل على أبيه يوماً ، فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ، فخرج إلى الناس وقال : إن أبى قد جن ، فدخلوا عليه ، وأخبروه بما قال ابنه ، فقال مخاطبا له ... وذكر البيتين .

عند الأحرار ، وجوهر الوفاء ، يناف الجفاء ، وقبح الشمعة ينشر الشنعة ، ثم على هذا المسحب فليسحبها ، ولا يرهبها ، حتى تكون خاتمة فقرها ، وآخرة دررها . ورب الإحسان صنيعة الإنسان .

* * *

تحتوى : تشتمل . عظة : موعظة .

المراء والشقاق ، معناهما الخلاف ، والعكس ردّ أول الكلام على آخره ، وهو الردّ على العقب كما ذكره ، وهو معنى القهقرة الذى سمّى به المقامة ، ولذلك لم ينسبها إلى بلد . والقهقرة: رجوع الرجل عنك ، كما جاء عليك ، وذلك أن يرجع إلى خلف ، وهو يستقبلك بوجهه ، وهو الردّ على العقب ، وذلك أنّ الرجل إذا توجّه مقبلا إليك ، فإنما يقدّم فى مشيه إليك صدور قدميه ، فإذا تقهقر قدّم فى مشيه عقبه ، وأصل القهقر : الحجر المدحرج ، فإذا ضربته تدحرج فى جريه ، حتى يستقرّ ، فإذا أردت أن يرجع إلى الموضع الذى جاء منه ضربته فتدحرج راجعاً إلى جهة موضعه ، فشبّه رجوع الرجل على ما وصفناه ، وكذلك هذه الرسالة رجوع آخرها إلى أولها ، مشبّه بذلك .

ولذلك شبّه الأعرابى فرسه فى اجتماعه بالحجر[1] فقال : محبوبك مهملج[2] كما تقهقر الأدعج

والمسحب : الطريق الذى تجرّ فيه الشىء .

---

(١) الحجر : الأنثى من الخيل
(٢) المملجة : حسن سير الدابة فى سرعة

يرهبها : يخفها ، أى لا يخرج الألفاظ عن طريقها فتختلّ ، وذلك أن هذه الرسالة مركّبة كلها من مبتدأ وخبر ، فإن وقفت فيها على مبتدأ في أولها أو آخرها أو وسطها ، فاقرأه مع مابعده تجده مستقيما ، واقرأه مع ماقبلَه تجده كذلك ، فإن وقفت على خبر مبتدأ فلا يستقيم مع مابعده ، وهو مع ماقبله أبعد ، فأراد بقوله « لا يرهبها » لايبتدىء لفظه بغير مبتدأ فتتَدَاعَى مبانيها ، وتبطل معانيها ، فتفهمه .

والفِقَر في غير الموزون مثل القوافي في الموزون ، والفِقر مشتقّة من فقَار الظهر ، لأنها تنقطع على قافيتين أو ثلاثة ، وهذا هو الفرق بين الفِقَر والأسجاع إذ الأسجاع كلّها ترجع إلى قافية واحدة من سَجْع الحمام وهو لايختلف ، ولهذا قال المعرّى في الغراب :

أتى وهو طيارالجناح وإن مَشَى   أشاعَ بما أعيا سطيحاً من السّجْع (١)

وسطيح : كاهن ، وكلامه أسجاع .

* * *

قال الراوى : فلمَّا صَدَعَ برِسالَتِه الفَريدَةَ ، وَأُمْلُوحَتِهِ المُفيدة ، عَلِمْنا كَيْفَ يَتفاضَلُ الإنشاء ، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاء . ثمَّ اعْتَاقَ كلٌّ مِنَّا بذَيلِه ، وَفلَذَ

(١) سقط الزند ١٣٣٧ ، قال في شرحه : أتى : الضمير فيه يرجع إلى « موف » ، والمراد به الحمام الأورق ، وهو طيار الجناح ، والبيت قبله :

وَشِكْلَيْنِ مَا بَيْنَ الأثافىّ واحــدٌ
وآخرُ موفٍ من أرَكٍ على فَرْعِ

لَهُ فِلْذَةً مِنْ نَيْلِهِ ، فَأَبَى قَبُولَ فِلْذَتِى ، وَقَالَ : لستُ أُرْزَأُ تَلامِذَتِى .

فقلتُ لهُ : كُنْ أَبَا زَيْدٍ ، عَلَى شُحُوبِ سَحْنَتِكَ ، وَنُضُوبِ مَاءِ وَجْنَتِكَ ، فقالَ : أنَا هُوَ عَلَى نُحُولِى وقُحُولِى ، وقَشَفِ مُحُولِى ، فأَخَذْتُ فِى تَثْرِيبِهِ ، عَلَى تشْرِيقِهِ وَتغْرِيبِه .

* * *

صدع : كشف وشقّ .

الفريدة : التى لا مثل لها .

أُملوحته ، يريد بها الرسالة ، والأُملوحة : الكلام المليح ، يعجب له السامع .

والإنشاء : الكتابة

فَلَذ : قطع فلذة : قطعة ، وأصلها قطعة من كبد البعير .

قال الشاعر :

تكفيه حُزَّة فِلْذٍ إنْ ألمّ بها من الشّواء ويروى شربه الغُمَرُ[(١)]

نيله : عطائه . أرزأ : أنقص .

والتلميذ : هنا متعلم العلم ، ولذلك أبى أن يأخذ منه شيئاً ، وهو فى كل مقامة إذا تعرّض للكُدْية يفرده بالأخذ منه ، أو يبتدئ التقدير منه، وذلك أنّ

(١) البيت لأعشى باهلة ، من قصيدته فى رثاء المنتشر ؛ ذكرها المبرد فى الكامل ٤ : ٦٤ ـ ٦٦ ، ورواية البيت هناك «تكفيه فلذة كبد» ، والغمر : قدح صغير لا يروى.

الجماعة فى هذه المقامة اشترطوا مناظرته ، وابن همام شَرَط أنه من نظّارة الحرب، أى إنّما جلس لينظر ويتعلّم ، فلهذا أخذ منهم وتركه ، وزاده فائدة التنبيه على أنه أبو زيد ، ولذلك قال له : كن أبا زيد ، وكن أتى به بلفظ الأمر ، ومعناه الدعاء ، وفى الحديث : « كن أبا ذرّ » و « كن أبا خَيثمة »، وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى شخصاً من بعيد ، فرجا أن يكون أبا ذرّ الغفارى ، فقال : « كن أبا ذرّ » أى جعلك الله أبا ذرّ ، فكان مارجاه النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان اللفظ هنا ، كأنّ ابن همام لمّا أعجِب بفصاحة صاحب الرسالة تمنّى أن يكون أبا زيد ، لما عهد من فصاحته فقال : كن أبا زيد ، أى جعلك الله أبا زيد الّذى عهدتُ منه الفصاحة ، متى رأيته ، فصدّق منه أمْنِيّته فقال : أنا هو الذى تمنّيت .

والدعاء بلفظ الأمر كثير فى كلامهم كقوله :

* ألا أنعم صباحاً إيّها الطلل البالى *[1]

وقول الآخر :

* ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم *

أى سلّمك الله من رَبْع ، وجعل صباحك ناعماً .

الفنجديهى : كن أبا زيد ، أى أنت أبو زيد ، ومنه : ﴿ كُنتمْ خَيْرَ أمةٍ أخرجت للناس ﴾ أى أنتم خير أمة .

شحوب : تغيّر : سَحْنتك : جلدة وجهك وهيئتك . نُضوب : جفوف . والوجْنة : العظم الشاخص تحت العين . قُحولى : يُبْسى . قَشَف : تغيُّر هيئته

---

(١) لامرئ القيس ديوانه ... ، وبقيته :

* وهل يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فى الْعُصُرِ الخالِى *

بتَرْك النظافة . مُحولى : جفوف جسمى .

تَثْرِيبه : لومه وتعييب فعله ، والتَّثْريب بالذنب المؤاخذة به ، وأصله الاختلاط والإفساد ، وإنما يقول : لاتثريب عليك ، من قَدَر فعفا .

* * *

فحَوْلقَ واسْتَرْجَع ، ثمّ أَنشد منْ قلبٍ مُوجَعٍ :

سَلَّ الزَّمَانُ عَلَيَّ عَضْبَهْ   ليرُوعَنِي وَأَحَدَّ غَرْبَهْ

وَاستل منْ جَفْنِي كَرَا   هُ مُراغِماً ، وأَسَالَ غَرْبَهْ

وأجالنى فى الأفقِ أطْـ   ـوِى شرقَهُ وأَجُوبُ غَرْبَهْ

فبِكُلِّ جَوٍّ طَلْعَةٌ   فِى كلِّ يَوم ٍلِى وغَرْبَهْ

وكذا المغرّبُ شَخْصُهُ   مُتَغرِّبٌ ونواهُ غَرْبَهْ

ثمَّ وَلّى يَجُرُّ عِطفَيْهِ ، وَيَخطِر بيَدَيْهِ ، وَنحنُ بَيْنَ مُتَلَفتٍ إليه ، ومُتَهافتٍ عليه ، ثمَّ لمْ نلْبَثْ أنْ حَلَلْنَا الْحُبَا ، وتفرّقْنا أيَادِيَ سَبَا .

* * *

حولق : قال لاحول ولا قوّة إلا بالله . استرجع : قال إنا لله وإنا إليه راجعون .

عضبه : أى سيفه القاطع . ليروعنى : ليفزعنى .

غَرْبه : حده . استلّ : أزال . كراه : نومه .

مراغِما : مذللاً .

غربه : مجرى دمِه ، والغَرْب فيض الدمع .

أجالنى : صرفنى ومشّانى .

الأفق : نواحى الأرض . أطوى : أقطع . أجوب : أخترق .

جوّ : ناحية . غَرْبة ، فَعْلة ، من الغروب مثل طَلْعة ، من الطلوع .

المغرّب : المبعد . المتغرِّب : الملازم للغربة .

نواه : سفرته . غربة : بعيده .

* * *

[مما قيل فى السفر والاغتراب]

ومن أحسن ما قيل فى تبعيد السفر قول حبيب [1] :

سَلِى هل عمرتُ القفرَ وهو سباسبٌ وغادرت ربعى من ركابى سَبَاسِبَا [2]
وغَرَّبت حتى لم أجِد ذكر مشرقٍ وشرّقت حتى قد نسيتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنّ رددننى جريحا كأنى قد لقيت الكتائبا

وله أيضاً :

ما اليومَ أوّل توديعى ولا الثانى البين أكبر مِنْ شوقى وأحزانى [3]
دع الفراق فإنّ الدهر ساعده فصار أملَكَ من رُوحى لجثمانى
خليفةَ الخضْر من يربعْ على وطن [4] فى بلدة فظهورُ العيس أوطانى
فى الشام أهلى وبغداد الهوى وأنا بالرَّقمتين وبالفسطاط إخوانى

(١) ط : «ابن حبيب» ، والصواب ماأثبته من ا
(٢) ديوانه ١٧ (٣) ديوانه ٢٢٣ .
(٤) يربع : يقف .

وما أظنّ النوى ترضى بما صنعتْ حتى تبلغنى أقصى خراسانِ [1]

وقال الحلوانى :

يا نفسْ وَيْحَك ، فى التّغرب ذلّةٌ فتجرّعى كأسى هَوًى وهوانِ
وإذا نزلت بدار قـــوم دارهِمْ فلهم عليك تعزّز الأوطانِ

وقال ابن شرف :[2]

إن ترمك الغُرْبة فى معشر قد جُبِل النّاسُ على بُغْضِهِمْ [3]
فدارِهِمْ ما دمتَ فى دارهمْ وأرضِهِمْ ما دمتَ فى أرضِهِمْ

وقال البستى :

لا يعدِم المرء كِنًّا يستكنّ به وَمَنْعةً بين أهليـــه وأصحابِهِ
وَمَنْ نأى عنهمُ قلّتْ مهابتُه كالليثْ يُحْقَر لمّا غاب عنْ غَابِهِ

والسابق لهذا المعنى زهير فى قوله :

وَمَنْ يغترب يحسِبْ عَدُوًّا صديقَه وَمَنْ لا يكرِّم نَفْسَه لا يكرَّمِ [4]

وفى قوله :

فقرّى فى بلادك إن قوماً متى يَدَعُوا بلادهمُ يهونوا [5] .

يقال : جاء يجرّ عِطْفيه ، إذا جاء رخىّ البال متبختراً ، وإنما ينظر فى عِطْفيه إذا كان مُعْجبًا بنفسه .

---

(١) الديوان : « حتى تشافه بى » .
(٢) نقله فى التتف ١٠٣
(٣) التتف : « قد جبل الطبع »
(٤) ديوانه ٣٢ .
(٥) ديوانه ١٩٢ ، وفيه : « فحلى فى ديارك » .

وثانى عِطْفَيه ، بمعنى متكبّر ، والعِطفان: جانبا الثوب ، والعِطاف الرّداء ، والجمع عُطُف .

ويقال : جاء يجرّ رجليه ، إذا جاء مثقلا لا يقدِرُ أن يحمل رجليه .

يخطر بيديه : يحرّكهما عند المشى .

متهافت : متساقط من النّدم على فراقه .

أيادى سبا ، يريد فى كلّ طريق وجهة .

* * *

[ذكر سبأ وسدّ مأرب]

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المتفرّقة من سدّ مأرب الذين مزّقهم الله كلّ ممزّق . وسُمِّىَ سبأ لأنه أوّل مَنْ سَبَى السَّبْى ، وقيل : سبأ اسم أمّهم ، ومأرب اسم بلدهم .

وكانت سبأ من أحسن بلاد الله تعالى وأخصبها ، وأكثرها شجرا وماء ، وقد ذكر الله تعالى أنها كانتَ جنّتين عن يمين وشمال ، وكانت مسيرة شهر فى شهر للمُجِدِّ الراكب ، يسير فى جنان من أولها إلى آخرها ، لا تواجِهه الشمس ، ولا يفارقه الظّل ، مع تدفّق الماء ، وصفاء الهواء ، واتّساع الفضاء ، فمكثوا ما شاء الله ، لا يعاندهم ملكٌ إلا قصموه .

وكانت فى بدء الزمان تركبُها السيول ، فجمع ملكُ حمير أهلَ مملكته ، فشاورهم فى دفع السّيل ، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤدّيَه إلى البحر ، فحشد أهل مملكته حتى صرف الماء ، واتّخذ سدًّا فى موضع جَرَيان الماء من الجبال ، ورصفه بالحجارة والحديد ، وجعل فيه مجارىَ للماء فى استدارة الذراع ، يخترقون منها مقداراً

حلوماً من الماء وشِرْباً مقسوما للأرض ، فإذا جاء السيل تصرف فى المجارى إلى جناتهم ومزدرعاتهم ، بتقدير يعمّهم نفعه .

وقيل : صنعه لقمان بن عاد ، وجعله فرسخاً فى فرسخ ؛ وذكر الأعشى فى شعره أن حميراً ابتنته ، فقال :

رُخامٌ بنتــه لهم حميرٌ ... إذا جاء ماؤهم لم يَرِم[1]

وأروى الزّروع وأعنابَهم ... على سعَةٍ ماؤهم قد قُسِم[2]

فعاشوا بذلك فى غبطــةٍ ... فجاف بهم جارف منهدِم[3]

فلما كفروا بأنعم الله ، ورأوا أن مُلْكهم لا يبيده شىء ، وعبدوا الشمس ، بعث الله على سدّهم فأرة نخرقته ، وأرسل عليهم السَّيل ، وأباد الله خضراءهم .

ولما انتهى الملك فى ولد سبأ إلى عمرو بن عامر مُزيقياء ـ وسمِّىَ بذلك لأنه كان يمزّق فى كل ليلة حُلّة كِبْرًا من أن تعاد عليه أو يلبسها غيره . وقيل: سُمِّىَ بذلك لأنه مزّق الأزد فى البلاد ـ وكان أخوه عمران كاهناً ، فأتته كاهنة تُدْعِى طريفة فأخبرته بدنوّ فساد السدّ وفيض السيل ، وأنذرته ، فقال لها : وما آية ذلك ؟ فقالت : إذا رأيت جُرَذاً يُكثر بيديه الحفرَ ، ويقلّب برجليه الصخر ؛ فاعلم أنه قد اقترب الأمر . فقال : وما الأمر ؟ فقالتْ : وعدٌ

(١) ديوانه ٤٣ ، ولم يرم : لم يذهب

(٢) فى الديوان : : « ... وأعنابها ... إذ قسم » .

(٣) فى الديوان : « فجاربهم جارف منهزم » ، قال والمنهزم : الذى له صوت .

من الله ، ينزل يا عمرو ، فلتكثر الشكر .

فرأى عمرو يوما فى السد جُرذا يقلب صخرة ، ما يقلبُها خمسون رجلا ، فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أمراً هاج لى بَرْح السَّقَمْ
مِنْ جُرَذٍ كفحل خنزير أجمْ
له مخاليبُ وأنيابٌ قضم

أى معوَّجة . فأجمع على الخروج منها ، وأعمل الحيلة فى بيع مالهِ ، وألاّ ينكر الناس عليه ، فقال لابنه : إنى صانع طعاماً ، وداعٍ إليه أهل مأرِب ، فاردد علىّ ما أقول لك من الحديث ، ففعل ابنه ذلك وردّ عليه بأقبح ردّ ، فصاح عمرو : واذلاه ايُجبهنى صبىّ ! فخاف ألا يقيم ببلد ضِيمَ فيه ، فجعل يبيع أمواله[1] .

وبعضهم يقول لبعض : اغتنموا غضبة عمرو ، واشتروا منه قبل أن يرضَى ، فلما اجتمعت له أمواله ، أخبرهم بشأن السَّيل ، فأجمعوا على الجلاء ، فقال لهم عمرانُ أخوه : إنى أصف لكم بلْدَانا ، فاختاروا أيّتها شئتم ... فمن كان منكم ذا همّ بعيد ، وجمل غير شرودٍ ، فليحلق بالشّعب من كرود ، فلحق به همْدان .

(١) فى معجم البلدان ــ مأرب : « وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طريفة ، فأقبلت يوماً حتى وقفت على عمران بن عامر وهو فى نادى قومه ، فقالت : « والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم خلا ، تسفى عليها الصبا . فقال لها عمران : ومتى يكون ذلك يا طريفة؟ فقالت : بعد ست عدد ، يقطع فيها الوالد الولد ، فيأتيكم السيل ، بفيض هيل . وخطب جليل ، وأمر ثقيل ، فيخرب الديار ، ويعطل المشار ، ويطيب العرار ، فقال لها : لقد فجعتنا بأموالنا يا طريفة ، فبينى مقالتك ، قالت : أتاكم أمر عظيم ، بسيل لطيم ، وخطب جسيم ، فاحرسوا السد ، لئلا يمتد ، وإن كان لابد ، من الأمر المعد ، انطلقوا إلى رأس الوادى ، فسترون الجرذ العادى ، يجر كل صخرة صيخاد ، بأنياب حداد ، وأظافر شداد ... فانطلق » .

ثم قال : ومَنْ كان منكم ذا سياسة وصبر ، على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مُرّ ؛ فلحق به خُزاعة .

ثم قال : ومَن كان منكم يريد الراسخات فى الوحْل ، المطعمات فى المحل ، فليحلق بيثربَ ذات النخل . فنزلها الأوس والخزرج .

ثم قال : ومَنْ كان منكم يريد الخمروالخمير ، والأمر والتأمير ، فليحلق ببُصرى وسَدِير ، وهى من أرض الشأم ، فنزلها غَسّان .

ثم قال : ومَنْ كان منكم يريد الثياب الرِّقاق، والخيل العتاق ، والذهب والأوراق ، فيلحق بالعراق ، فلحق بها مالك بن فهم بن الأزد .

وتخلّف مالك بن اليمان فى قومه ، حتى أخرجهم السيل فنزلوا نَجْران ، وانتسبوا إلى مَذْحج .

ودخلت جماعة منهم إلى معدّ ، فأخرجتهم معدّ بعد حروب ، فنزلوا بجبال السَّراة على تخوم الشأم .

فلمّا تفرّقت فى البلاد هذا التفرُّق ، ضربت العرب بهم المثل، فقالوا : ذهبوا أيدى سبأ وأياديَ سبا ، أى متفرّقين فى كل ناحية .

وقيل فيهم : إنهم كانوا مجتمعين يداً واحدة ،فلما مزّقهم الله وفرّقهم ، صارت يدهم أيادِيَ متفرّقة ، وأخذ كل طائفة منهم طريقا على حِدَة . أو يريد به النعمة ، فالمعنى : تفرّقنا كما تفرّقت نعم أهل سبأ .

الزّجاج : سبأ مدينة تعرف بمأرب على ثلاث ليال من صنعاء .

الجوهرى : سبأ اسم رجل سُمّيت به البلدة .

وذكر فى الدرة أن لفظة التفرّق تستعمل فى الأشخاص والأجسام، نحو تفرّق القوم، وإنّ الافتراق يقال فى الأهواء والآراء، كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «تفترق أمتى على كذا وكذا فرقة»، فإذا قيل: إن لزيد ثلاثة إخوة متفرّقين، فالمعنى أن كل واحد منهم ببقعة. وإن قيل مفترقين فالمعنى أن أحدهم لأبيه وأمه، والآخر لأبيه، والثالث لأمه؛ وكذلك يقال: فرّق بالتشديد فيما كان من قبل الجمع، وفرَق بالتخفيف، فيما يراد به التمييز كقوله: فرق بين الحق والباطل، والحالى والعاطل.

المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسنجارية

حكى الحارث بن همام قال : قفلتُ ذات مرّة من الشام ، أنحو مدينة السلام ،فى ركبٍ من بنى نُمَيرٍ ، ورفقةٍ أولى خيرٍ ومِيْر ، ومعنا أبو زيدٍ السَّرُوجىّ : عُقْلَةُ العجلان ، وَسلْوَةُ الثكلان ، وأعجوبَةُ الزمان ، والمشار إليه بالبنان فى البيان .

فصادف نزولنا سِنْجار ، أن أوْلَمْ بِها أحَدُ التُّجّارِ ، فدعا إلى مأدُبَتِهِ الجَفَلَى ، مِنْ أهلِ الحَضَارَةِ والفَلا ، حَتّى سَرَتْ دَعْوَتُه إلى القافِلةِ ، وجَمَعَ فيها بين الفريضَةِ والنّافِلَة .

* * *

قفلت : رجعت من السفر .

* * *

[ذكر الشام]

الشأم ، ويقال له : شام وشأم ، ويذكّر ويؤنث، وينسب إليه شامى وشآم ، على فَعَال. ويحكى عن سيبويه شآمىّ، وإثبات الألف فى النّسب يدلّ على إثباتها فى أصل البناء .

وقيل : ألفُ يمان وشآم عِوَض من ياء النسب ، قال طرفة :

* شآمية تروى الوجوه بليل *

وقال فى الدرّة[1] المنسوب إليه على ثلاثة أوجه : شامىّ وهو القياس ، وشآمٍ بياء مخففة كالمنقوص ، وشآمىّ وهو شاذ لأنه يصير بمنزلة المنسوب إلى المنسوب ، وكذلك جوّزت الثلاثة فى المنسوب إلى اليمن .

وعلى الشاذّ منها قول العرجىّ[2] :

إنّى أتيحت لى يمانية إحدَى بنى الحارث من مذحِج

ولم يجز الحريرى تأنيث الشام وقال : لفظه مذكر .

وقال ابن الانبارى ـ وذكر الشام والحجاز وغيرهما : فمنْ أنث من ذلك شيئاً فإنما يذهب به إلى معنى المدينة .

وقالوا : الشأم صفوة بلاد الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة ومعاذ : « عليكم بالشأم فإنّ الله قد تكفّل بالشام وأهله » .

وسمّيت شاما لأنها عن شامة الكعبة .

ابن الأنبارى : يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشُّومى وهى اليُسرى .

وقال قوم : أصله فى الكعبة ، لأنّ بابها يستقبل المطّلع ، فمن قابل طلوع الشمس كانت الكعبة عن يمينه فى شقّ الجنوب ، والشأم عن يده الشّومى فى شقّ الشمال .

أبو القاسم الزجاجى : قال : جماعة من أهل اللغة : يجوز ألاّ يهمز ، فيقال: شام جمع شامة ، سمِّيت بذلك لكثرة قُراها ، وتدانِى بعضِها من بعض ، شبّهت بالشامات .

---

(١) درة الغواص ٩٠

(٢) فى الأصول : « عمر بن أبى ربيعة » وهو خطأ ، والبيت للعرجى فى ديوانه ١٩ ، والأغانى ١ : ١٠٨ .

وقال الشرقيّ سميت بسام بن نوح ، لأنه أوّل مَنْ بناها ،فغيّر اللفظ المعجمى فجعل السين شيناً .

وقسّمت الشأم خمسة أقسام : الشام الأولى ، وأوّل حدّها من طريق مصر أمج ، ثم غزة ثم الرملة ، ومدينته العظمى فلسطين وعسقلان،وفلسطين هى الشأم الأولى ، وبها بيت المقدس .

الشأم الثانية الأردن ، ومدينته العظمى طَبَرِيّة ، وهى بشاطىء البحيرة ، واليرموك بين فلسطين والأردن .

والشأم الثالثة الغُوطة ، ومدينتها العظمى دمشق ، ومِن سواحلها طرابلس الشام .

الرابعة : أرض حمص الشأم .

الخامسة : قِنّسرين ، ومدينته العظمى حلب ، وهى من قِنّسرين على أربعة فراسخ . وساحلها أنطاكية ،مدينة عظيمة على شاطىء البحر داخلها المزارع والبساتين والأنهار .

* * *

قوله : « أنحو » أى أقصد . الركب : اسم لمن يَركب الإبل ، كذا قال الخليل .

وقال يعقوب : الرّكب :جمع راكب، وهم أصحاب الإبل خاصّة، ولا يكون الركب إلا أصحاب الإبل ، وراكب الفرس فارس ، وراكب البغل بغّال ، وراكب الحمار حمّار ، وراكب الفيل فَيّال ، والجمع خيّالة وبغّالة وحمّارة وفَيّالة ، وتبعه ابن قتيبة فى هذا ،وخطّأهما جميعاً ابن السِّيد وغيره واحتجوا بقول امرىء القيس :

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قَرّْ[1]

فقوله : « ركبوا الخيل »، يدلّ على أنه يقال لمن ركب الفرس : راكب .

وماذكره يعقوب هو الصحيح ، لأنّ العرب إذا أفردت لفظ راكب أو ركْب لم يقع فى كلامها إلاّ على أصحاب الإبل مطلقاً، فإذا أرادت أن توقعه على أصحاب الخيل قيّدته بذكر الخيل ، فقالوا : ركبت الفرس ، وراكب الفرس ، فيذكّرون الفرس ، وعلى هذا أتى :

* إذا ركبوا الخيل واستلأموا *

نخفِيت هذه التفرقة على ابن السِّيد ، على حظّه الوافر من اللغة .

وقال الحريرى فى الدّرة[2] : الراكب هو راكب البعير خاصّة ، وجمعه رُكبان ، فأما الركب والأركوب ، فقد جوز الخليل أن يطلق اسمها على راكبى كلّ دابة إلاّ أنّ الأركوب أكثر من الرّكب عدة وأكثر جماعة .

* * *

[بنو نمـــير]

وبنو نُمير قبيلة من بنى صعصعة ، إحدى جمرات العرب ، وأشرف بيوت قيس عَيلان، وجمرات العرب ثلاثة ، سموا بذلك لأنهم متوافرون فى أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير فى كلامهم التجميع ؛ وهم بنو نمير ، وبنو الحارث ابن كعب ، وبنو ضَبَّة بن أدّ ، فطفئت جمرتان وهم بنو ضبَّة لمحالفتها الرّباب ، وبنو الحارث لمحالفتها مذحِج ، وبقيَت نمير لم تحالف ، فهى على كثرتها ومنَعتها ، قال شاعرهم :

---

(١) ديوانه ١٥٤

(٢) درة الغواص ٥٠

نُميرٌ جمرة العرب التي لم تزل في الحرب تلتهب التهابا

وكان الرجل منهم إذا قيل له : ممّن أنت ؟ قال : نميريّ كما ترى ، إدلالاً بنسبته ، وافتخاراً بمَنعته ،حتى قال جرير في الراعي :

فغُضّ الطَّرْف إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا[1]

فصار إذا قيل له ممّن أنت ؟ قال : عامريّ .

ومرّت امرأة بهم ، فأحدّوا النّظر إليها ، فقال أحدهم: والله إنها لرَسْحاء ، فقالت : يابني نمير ، والله ما امتثلتم فيّ واحدة من اثنتين ؛ لاقول الله عز وجل: ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ﴾[2] ، ولا قول جرير :

فغُضّ الطَّرْف إنّك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلاَبا

قوله: « أولى خير » ، أي ذوى غِنًى . مير : صلةٌ وصدقة . عقلة العجلان: حابس المستعجل .

سلوة الشكلان : مذهب حزن الحزين ، يقول : إذا رآه مَنْ هو في شغل معجّل حبَسه ، أو حزين أزال حُزْنَه .

البنان : الأصابع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء فتنة أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا إلاّ مَنْ عصمه الله » .

* * *

---

(١) ديوانه ٧٥

(٢) سورة النور ٣٠

[سنجـــــار]

سنجار : بلد بينه وبين قرقيسيا تيف وثلاثون فرسخاً ، وقرقيسيا على الفرات ، وهى كورة من كور ديار ربيعة ، وفى سنجار فوّهة نهر الخابور ، فيمرّ حتى يصبّ فى الفرات ، وهى على أميال من نَصيبين ، وعن يمين طريق الموصِـل .

* * *

قوله : « أولم » ، أى صنع وليمة ، والوليمة : طعام العرس . والمأدبة : طعام يدعَى إليه الناس .

والجَفَلى : الناس أجمع .

والحَضارة : ضدّ البداوة ، يفتح أوّلها ويكسر . الفلا : القفر ، وأراد دعا أهل الحاضرة والبادية . سرتْ : وصلت .

القافلة : الرفقة الراجعة من سفرها ، قال الأزهرىّ : سُمّيت قافلة تفاؤلاً بقفولها عن سفرها الذى ابتدأت .

وظنّ ابن قتيبة أن عوامّ الناس يغلطون فى تسميتهم الناهضين فى ابتداء الأسفار قافلة ؛ إلا منصرفة إلى وطنها وهذا غلط ، وما زالت العرب تسمى الناهضين فى ابتداء الأسفار قافلة تفاؤلاً ، بأنْ يُيسِّر الله لها القفول وهو شائع عند فصحائهم إلى اليوم .

وأراد بالفريضة ، أعيان التجار الذين حضورهم كالفرض ، وبالنافلة : المُكارين والأتباع ، أو يريد بالفريضة مَنْ لابدّ له أن يدعوه للحضور ، مثل القرابة والوجوه والأصحاب ، والنافلة لفيف الناس ، وأراد أنه حمل لعرسه مَنْ يحبّ ومن لا يحبّ ، والهاء من «فيها» ضمير الدعوة ، ويروى « فيهما » بالميم .

* * *

[ذكر الحاضرة والبادية]

وأما ذكر الحاضرة والبادية ، فقد أتينا فى ذلك بفصل أدبىّ مستحسَن ، ولسنا نحتاج إلى إقامة دليل شاهد على فضل الحاضرة ، لأنها محلّ الجمعيات والجماعات ، وإليها تجلب الخيرات ، وبها تستمدّ البركات ، ومنهم العلماء والفضلاء ، والملوك إلى ما يطول تعداده ، ومَنْ أراد الله به خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة ، وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام فى قوله : ﴿ وقد أحْسَن بى إذ أخرجَنى من السجن وجاء بكم من الْبَدْوِ ﴾(١) ، وهذا فيه فضل للحاضرة لا يُدفع إذ قرن الخروج من السجن بالمجىء من البدو ، وعدّه من إحسان الله سبحانه وتعالى .

وقف أعرابى على دِعْبل وهو ينشد :

إذا القـــوس أوترها أيِّدٌ رمى فأصـاب الـكلا والذُّرى

فقال له : ما عنيت ؟ فقال دعبل : القوس قوس قُزح ، أمطرت الأرض بها ، فأعشبت فرعاها المال ، فسمنت كلاه وأسنمه ، فقال الأعرابى : لله درّكم ياحاضرة ! إنـكم لتسيرون معنا فتساوون ، ولتنـكّبون عنا فتفوتون .

وفى ضدّ هذا المعنى قال شبيب بن شبة : كثر قطع الطريق بين مكّة والبصرة ، فبعَثنى المنصور أقوم فى المناهل ، وأتـكلّم بذمّ البادية ، وأوبّخهم بما يردعهم ، فلم أرد ماء إلا تـكلّمت عليه بما يحضرنى ، فلا أجدُ مَن ينطق ، حتى قمت على ما لبنى تميم ، فلما انقضى كلامى ، قام رجل منهم فقال : الحمد لله أفضلَ ما حمدته ، وحمده الحامدون قَبلك أو بعدك ، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل صلاة وأتمّها

(١) سورة يوسف ١٠٠

وأخصها وأعمّها . ثم إنى قد سمعت ما قلت فى مدح الحاضرة وأهلها ، وذمّ البادية وأهلها ، ومهما كان فينا أهلَ البادية من سوء ، فليس فينا نقْب الدُّور ، ولا شهادة الزور ، ولا نَنْبش القبور ولا نَنِيك الذكور .

قال : فأفحمنى والله حتى تمنّيت أنى لم أخرج لذلك الوجه .

وقال القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأىّ رجال بادية ترَانَا

قال ابن رشيق : ومن أملح ماسمعه الناس فى تفضيل البادية على الحاضرة من حلاوة وطلاوة وصحّة معنى ،وقربمأخذ ، مأخوذ من قول أبى الطيب :

مَنِ الجآذرُ فى زِىّ الأعاريبِ حُمْرَ الْحُلَى والمطايا والجلابيبِ (١)

ثم قال :

ما أوجهُ الحَضَرِ المستحسناتِ به كأوْجُهِ البدويّات الرّعابيبِ (٢)
حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوب (٣)
أفدِى ظبـــاء فلاةٍ ما عرفن بها
مَضْغَ الكلامِ ولاَ صَبْغ الحواجِب
ولا بَرَزْنَ من الحمّام مائلةً أوراكهنّ صقيلاتُ العراقيبِ (٤)

(١) ديوانه ١ : ١٢٩ : والجآذر: جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية . وأعاريب : جمع عرب ، أو اسم جنس . والجلابيب : الملاحف .
(٢) الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهى المرأة الممتلئة البيضاء .
(٣) بعده فى الديوان :
أينَ المعيزُ مِنَ الآرامِ ناظرةً وغير ناظرةٍ فى الحسنِ الطيب
(٤) العراقيب : جمع عرقوب ؛ وهو مايكون عند الكعب ؛ يريد أن حسنهن بغير تطرية ولاتصنع ولادخول حمام .

ومنْ هوِى كلّ من ليست مخضّبة
تركت لون مشيبي غــــــير مخضوب

فلو لم تفضل البادية إلا بهذا ، لكان فيه مقنع .

* * *

فلمّا أجبْنا مُناديه ، وَحَلَلْنا نَادِيه ، أحْضَرَ مَنْ أطعمةِ اليد واليَدَيْن ، مَاحَلاَ فِي الفَمِ وحَلِيَ فى العَيْن . ثمّ قدَّمَ جَاماً ، كأنّما جُمِدَ مِنَ الهواء ، أو جُمع من الهَباء ، أَوْ صِيغَ من نور الفَضاء ، أَوْ قُشِرَ من الدُّرَّةِ البَيْضاء ، وَقَدْ أُودِعَ لفَائِفَ النَّعِيمِ ، وَضُمِّخَ بالطِّيبِ العَمِيم ، وَسِيقَ إليه شِرْبٌ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَسَفَرَ عَنْ مرأًى وَسيمٍ ، وأرجٍ نَسيمٍ .

فلمّا اضطرمَتْ بمحضَرِه الشَّهوات ، وقرِمَتْ إلى مَخْبَرِه اللَّهَوَاتِ ، وشارفَ أَن تُشنّ عَلَى سِرْبِهِ الغَارَات ، وَيُنادَى عِنْدَ نَهْبِهِ : ياللثّارات ! نَشَزَ أَبُوزَيْدٍ كَالْمجنون ، وَتَباعَدَ عَنْهُ تَبَاعُدَ الضّبِّ من النُّونِ ، فَرَاوَدْناهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ ، وَألاّ يكون كَقُدَارٍ فى ثمودٍ .

* * *

قوله : «ناديه» أى مجلسه . وطعام اليد : الثريد ونحوه . وطعام اليدين : الدجاج الصحاح والشواء ونحو ذلك ، وكانت وليمة فى الأنصار ، فحضرها حسان بن ثابت ، وقد كفّ بصره ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، فلما وضع الطعام ،

جيء بالثريد ، قال حسان لابنه : يا بنيّ ، أطعام يدٍ أم طعام يدين؟ قال : بل طعام يد . فأكل ، ثم جيء بالشواء ، فقال مثل ذلك ، فقال : بل طعام يدين . فأمسك .

حلاَ : طاب ، حَلِيَ : حَسُن ، وحلا في الفم ، من الحلاوة ، وحَلِيَ في العين من الحَلْي المتزيّن به .

وفي الدرّة[1] : العرب تقول : حلا في فمي ، وحَلِيَ في عيني ، وليس الثاني من نوع الأول ، وهو من الحَلْي الملبوس ، فكأنّ المعنى : حَسُن في عيني كحسن الحَلْي الملبوس ، وهو من ذوات الياء ، والأوّل من ذوات الواو ، إلا أن المصدر فيهما جميعاً الحلاوة ، والاسم حُلْو لا حالٍ ؛ لأنّ الحالي ضدّ العاطل ، وهو الذي عليه الحَلْي .

والجام : إناء من زجاج . جُمِّد : عقِد وصنع جامدا .

والهباء : غبار الشمس ، وهو ما تراه يدخل عليك مع الشمس من شِقّ باب أو كوّة حائط .

صِيغ : صُنِع . نور الفضاء ، يعني الشمس ، والفضاء : الأرض الواسعة ، وفي الفضاء يتّسع ضوء الشمس فيبيضّ نورها .

أودِع : ضُمّن وجُعل فيه . لفائف النعيم : ما لفّ من الحلوى وطوِيَ بعضه على بعض .

الفندجيهيّ : لفائف النعيم اللّوزينج والقطائف .

ضُمّخ : لُطخ . العميم : الكثير . شِرْب : ماء . وتسنيم : أرفع شرابات أهل الجنة . سفَر : كشف .

(١) درة الغواص ١٠٣ .

مرأى وسيم : منظر حسن . أرج نسيم : طيب الرائحة ، والنسيم : الريح اللينة الهبوب؛ يريد : لما أحضر الجام ، ساقوا معه ماء عذباً لغسل اليد ، ثم كُشف لهم عن الجام ، فرأوا منظراً من الحلواء الملوّنة ، ورائحة عطرة من الأفاويه .

وقال فى مثل ذلك عبد السلام بن الحسين المأمونى(١) :

خَبيصةٌ فى الجام قد قدّمَتْ مدفونة فى اللّوْز والسّكَّرِ
يأكل مَنْ يأكلها خمسةً بكفه فيهـا ولم يشعُرِ

قوله : « اضطرمت » أى اشتعلت . قرِمت ، أى اشتهت .

اللهوات : جمع لهاة وهى أقصى الفم . شارفَ : قارَب وأشرف عليه . تُشنّ : تفرّق . سربه : جماعته ، ويريد به ما فيه من الحلواء ، والسِّرْب : بالكسر : جماعة النّساء ، وبالفتح : الإبل فى المرعى . الغارات ، يريد الأيدى التى تُغير على الطعام . نهْبه : انتهابه بالأيدى وأكل ما فيه . ياللثارات : كلمة ينادى بها العرب إذا ظفروا بأعدائهم الذين لهم عندهم دم . والثأر : الطلب بالدم ، وثأرَ بالقتيل: قتل قاتله .

وقال حسان بن ثابت :

لتسمعنّ وشيكا فى ديارِكمُ الله أكبر ياثاراتِ عثمانا(٢)

فالثارات هنا جمع ثأر ، وهو المطلوب بالدم، قال :

وكيف تجلّد الأقوام عنه ولم يقتل به الثأر المنيمُ

قال أبو علىّ : الثأر: المقتول ، سُمّىَ بالمصدر ، كرجل عَدْل ، لذلك جُمع

---

(١) عبد السلام بن الحسين المأمونى ، من أولاد المأمون الخليفة العباسى ، ذكره الثعالبى وأورد طائفة من شعره فى اليتيمة ٤ : ١٤٩ — ١٧٩

(٢) ديوانه ٤١٠ .

بالتاء ، وتفسير أبي عليّ عكس ما تقدم ، وإذا كان منقولا من المصدر احتمل وصف الفاعل به والمفعول وثارات عثمان محتملة للتفسيرين ، فتقديره على قول أبي عليّ : يامطلوبات عثمان ، وعلى القول الآخر : ياطالبات عثمان هذا أوانكم بالجدّ ، وتفسير : ياالثارات في القامة يستقيم على المعنيين ، فعلى الأول معناه : يا مطلوبات الجياع ، قد تمكنا منك ، وعلى الثاني معناه : ياطالبين الأكل ؛ قد تمكّنتم من المأكول .

وقوله : «نشز» ، أي وثب . وتقدّم في الضبّ أنّه لا يرد الماء ، وأن مسكنه الصحراء .

والنون : الحوت ، وهو لا يفارق الماء ، وهما لا يجتمعان ، وقد تقدم للصابي :

* الضبُّ والنون لا يرجى التقاؤهما *

وقال الآخر :

فلو أنهم جاءوا بشيء مقـــارب
لقلت هو الشَّكْلُ للوافق للشَّكلِ[1]
ولـكنهم جاءوا بحيتان لجّةٍ قوامِسَ ، والمكنيّ فيناأباناالحِسْل

فضرب بتباعدهما المثل .

راودناه : أردناه على الفعل ، تقول : راودته على كذا ، إذا أردته على فعله . يعود : يرجع . ثمود : أمة صالح عليه الصلاة والسلام .

وقدار : هو عاقر الناقة ، يضرب به المثل في الشؤم ، فيقال : أشأم من قُدار ، ومن أحَيْمر عاد .

* * *

(١) الحيوان ٤ : ٥٢٩ ، ونسبهما إلى الـكميت .

[قصة ثمود]

وتقريب قصته ، أن ثمود كانت تبني في طول أعمارها ، فاتخذوا من الجبال بيوتا فرهين، وبيوتهم إلى وقتنا هذا باقية منحوتة في الجبال ومسا كنهم على قدر أجسامهم ، ورممهم وآثارهم فيها بادية ، فلما بُعِث فيهم صالح ، قال له زعيمهم : إن كنت صادقاً فأظهرْ لنا من هذه الصخرة ناقةً سوداء عشراء ، ذات عرف ، فأتى الصخرة فتمخّضت كالحامل ، وانشقّت عن الناقة . ثم تلاها سَقْبُها[1] ، فآمن كثير منهم ، وكان شِرْبُها[2] يوماً وشِرْبُهم يوماً ، فإذا كان يوم شِرْبها حلبوها ، فملؤا من لبنها كلّ إناء ووعاء ، فلما امتنعت إبلهم من الماء يوم شِرْبها استثقلوها ، وكان فيهم امرأتان : عنيزة وصدقة ، فبذلتا أنفسهما لقُدار على أن يعقر الناقة ، وهو قُدار بن قديرة ، وهي أمّه وسالف أبوه ، وكان قُدار أزرقَ اسمر قصيرا ، وكان له صديق اسمه مصدّع بن مهرج ، معاون له على ما كان به من الفساد في الأرض ، وكانا في تسعة من أهل الفساد ، فضرب قُدار عرقوبَها بسيفه ، وضرب مصدّع العرقوب الآخر ، واستهموا لحمها ، فخرجت ثمود تعتذر إلى صالح ، وتزعم أنها لا ذنب لها . فقال : انظروا ، هل تدركون فصيلها ، فعسى أن يرفع عنكم العذاب ! فالتمسوه ، فصعد إلى جبل يقال له : القارة ، وطال الجبل به في السماء ، حتى ما تناله الطير ، وبكى . ثم استقبلهم ، ورغا ثلاثا ، فقال صالح : تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب، وآية ذلك أن تصبح وجوهكم في الأول مصفرّة ، وفي الثاني محمرّة ، وفي الثالث مسودّة . فلما رأوا صدقه أوّل يوم أرادوا قتله ، فمنع منهم. فلما رأوا صدقه في اليوم الثالث تحنّطوا وتكفّنوا وبكوا وضجّوا ، وجعلوا

(١) السقب : ولد الناقة .
(٢) الشرب : النصيب من الماء .

ينظرون من أين يأتيهم العذاب . فصبّحتهم فى اليوم الرابع صيحة من السماء ، قطعت قلوبهم فى صدورهم ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، فعقروها يوم الأربعاء ، وأصيبوا يوم الأحد ، وإنما أصيبوا والمذنب بعضهم ، لأنهم رضوا فعله ، والنية أبلغ من العمل — وبلادهم بين الشأم والحجاز إلى ساحل البحر الحبشى . ومرّ النبى صلى الله عليه وسلم بقريتهم ، ونهى الناس عن دخولها ، وأرام مرتقى التّصيل —

ولما رأى صالح أنها دار سخط ، ارتحل بمَنْ معه إلى مكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا ، فقبورهم فى غربىّ البيت ، بين دار الندوة والحِجْر .

وقال حباب بن عمرو :

كانت ثمود ذوى عزٍّ ومكرُمَـــةٍ
ما إن يضام لهم فى النّاس مِن جارِ
فأهلكوا ناقةَ كانت لربّهمُ قد أنذروها فـكانوا غيرَ أبرارِ

* * *

فقال : والّذِى يُنْشِرُ الأمواتَ من الرِّجَامِ ، لاعُدْتُ دُونَ رَفْعِ الجامِ ، فلمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأَلُّفِهِ ، وإبْرَازِ حَلِفِهِ ، فأَشَلْناهُ والعقولُ مَعَهُ شائلةٌ ، وَالدُّمُوعُ سَائِلَةٌ . فلمَّا فَاءَ إلَى مَجْثَمِهِ ، وَخَلَصَ مِنْ مَأْثَمِهِ ، سَأَلْنَاهُ لِمَ قام ، ولأى مَعْنًى استَرْفَعَ الجامَ ؟ فقال : إنَّ الزُّجاجَ نَمَّام ، وَإِنِّى آلَيْتُ مُنْذُ أعوامٍ ، ألاَّ يَضُمَّنِي وَنَمُوماً مَقَامَ .

فقلنا : وما سَبَبُ يَمِينِكَ الصَّرَّى ، وَأَلِيَّتِكَ الحَرَّى ؟

* * *

قوله : « يُنشر » ، أى يُحيى الموتى ويقيمهم ، فيُنشَرُون فى الأرض .

والرجام : القبور ، واحدها رجَم. تألّفه : ضمّه وترك خلافه . إبرارحَلفه : مراعاة قَسَمِه .

أشلناه : رفعناه . شائلة : مرتفعة .

فاء : رجع . مجْثمه : موضعه ، وأصله للطائر .

الصِّرّى: العزيمة ، ويقال: أصررت على الشىء ، عزمت عليه ، وهو منّى صَرّى وصِرىّ وأصرَى أى عزيمة وجِدّ .

وضلّت ناقة أبى السمال ، فقال: والله لئن لم يردّها الله علىّ لا أصلىّ أبداً ، فذهب فى ابتغائها ، فوجدها وقد تعلّق زمامها بشجرة ، فقال : علم الله أنها كانت منى صرّى فردّها علىّ .

وقال حبيب :

لما رآهم بابكٌ دون المُنى ... هَجَرَ الغَواية بعد طُول وصالِ[1]
تخـــذ الفِرار أخاً وأيقن أنه ... صرّىّ عزمٍ من أبى السمّال

يقول : لما رأى كثرة من يحاربه أيقن أن ما تمناه فيهم لايدركه ، فهجر الضلالة ، وانهزم ، إذ أيقن أن طالبه مُصِرٌّ على طلبه .

الحرّى : الوكيدة الشديدة ، والكبد الحرّى : اليابسة العاطشة .

وناظر الحريرىُّ بهذه المقامةِ مقامةَ المضيريّة[2] فى البديعية ، ومن هنا إلى أولها مبنىٌّ على تلك .

* * *

(١) ديوانه ٢٦١ .
(٢) ط : « الطيرة » تحريف .

[المقامة المضيرية للبديع الهمذانى]

قال البديع : حدّثنا عيسى بن هشام قال :

كنت بالبَصْرة ومعى أبو الفتح الإسكندرىّ ، رجل الفصاحة ، يدعوها فتجيبُه ، والبلاغة ، يأمرها فتطيعه . وحضرْنا معه دعوة بعض التّجار ، فقدّم مَضيرة[1] تُثنى على الحضارة[2] ، وتترجرج فى الغَضارة[3] ، وتؤذِن بالسّلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة ، فى قصعة يَكلّ[4] عنها الطَّرف ، ويموج فيها الظَّرْف .

فلمّا أخَذَتْ من الخوان مكانها[5] ، ومن القلوب أوطانَها ، قام أبو الفتح يلعنُها وصاحبَها ، ويمقتها وآكِلَها ، ويَثْلِبُها وطابخَها ، وظننّاه يمزح ، فإذا الأمر بالضدّ ، وإذا المزاح عينُ الجِدّ ، وتنحّى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوانِ ، فرفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت لها الأفواه ، [وتلمظت لها الشفاه] واتّقدت لها الأكباد ، [ومضى فى إثرها الفؤاد][6] ، لكنّا سألناه عن أمرها ، وساعدناه على هجرها

ثم أخذ يذكر لهم المانع من أكلها ، كما يذكر الآن السّروجىّ .
ومقامة[7] المضيرة طويلة مضحكة . . .

* * *

(١) المقامات : « فقدمت إلينا مضيره » ، والمضيرة : نوع من الطعام ، يتخذ من اللحم واللبن الحامض ؛ وربما أضيف إليه الحليب ، ثم يوضع عليه التوابل والأبزار .

(٢) أى تدل على أن أهل الحضر أقدر على صنعها من البدو .

(٣) تترجرج : تموج وتتحرك . والغضارة : القصعة .

(٤) المقامات : « بزل » . والطرف : العين .

(٥) الخوان : الذى يوضع عليه الطعام .

(٦) تكملة من مقامات البديع .

(٧) مقامات البديع ١٢١-١٤٣ .

فقال: إنه كان لي جار لسانه يتمرّب، وقلبه عقرب، ولفظه شهد ينقع، وخبؤه سم منقع، فملت لمجاورته، إلى محاورته، واغتررت بعكاشرته، في معاشرته، واستهوتني خضرة دمنته، لمنادمته، وأغرتني خدعة سمته، بمناسمته. فازجته وعندي أنه جار مكاسر، فبان أنه عقاب كاسر، وآنسته على أنه حب موانس، فظهر أنه حباب موالس، وما لحته ولا أعلم أنه عند نقده، ممن يفرح بفقده، وعاقرته ولم أدر أنه بعد فره، ممن يطرب لفره.

* * *

قوله: «جار لسانه يتقرّب»، معناه يتودّد إليه بلسانه، ويكتم العداوة في قلبه، وهذا ما يذكر بعده.

[نبذ من الأقوال الحكيمة في الجار]

أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أشراط الساعة سوء الجوار».

تعوّذوا بالله من ثلاث، هنّ العواقر: إمام السوء، إن أحسنتَ لم يشكر، وإن أسأتَ لم يغفر، ومن جار السوء إن رأى حسناً ستره، وإن رأى قبيحاً أذاعه، ومن امرأة السوء، التي إن غبت عنها خانتك، وإن دخلتَ عليها لسنتك».

قال بعض الفضلاء: الجار السوء يفشي السرّ، ويهتك السّتر.

وقيل لأهل البحرين: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله ورسوله، فحافظوا

على ثلاث خصال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحُسْن الجوار ، فإن أذى الجار يمحو الحسنات ، كما تمحو الشمس الجليد عن الصَّفاة .

* * *

قوله : «ينقع»، أى يَرْوى العطش. ومُنْقَع ، أى أُدِيم حبسه ،وأنقع سَمّ الحية : ثبت ودام . خَبْؤه : باطنه ، وما خبأه من الشرّ .

محاورته : محادثته . بمكاشرته : مضاحكته : معاشرته : مصاحبته .

استهوتنى : ذهبت بى . خُضْرة دِمنته : حسْن ظاهره ، وتقدمت خضراء الدمن .

أغرتنى : حرّضتنى وألصقتنى به . سِمَته : علامته . مُناسمته : مصاحبته ، وقرّب نسمتى من نسمته ، أى شخصى من شخصه .

مازجته : خالطته . مكاسر : قريب الدار ، وكِسْر البيت : جانبه . والعُقَاب الـكاسر : التى تضم جناحيها ، وتهوى على فريستها ، فضمّ الجناح هو كَسْره .

وآنسته : أبصرته . حِبّ : حبيب ، وكان زيد بن حارثة يسمّى حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى حبيبه .

وَضَح : تبيّن . حُباب : حية . موالس : مخادع خائن فى صحبته .

مالحته : واكلته ، أى أكلت معه الملح ، وأصل المالحة الرّضاع كأنه حين نادمه راضعه الـكأس ، وملحتِ المرأةُ الصبيّ : أرضعته .

نَقْده : تجربته . عاقدته : عاهدته ، وعقدت يدى على يده .

فرّه : اختباره وكشف سرّه ، يريد أن هذا الصاحب كان يظهر مودته ، ويسرّ عداوته .

* * *

[ممّا قيل فى المودّة والإخاء]

وقال الشاعر؛ وهو المغيرة بن حبناء[١]:

أخُوكَ الذى لا ينقضُ النأىُ عهدَه   ولا عند صَرْفِ الدّهر يَزْوَرُّ جانبُهْ
وليس الذى يلقاك بالبِشْرِ والرّضا   وإن غبت عنه لسّعتك عقاربُهْ

قال: وأنشد آخر:

علىّ لإخوانى رقيبٌ من الصّفا   تبيد الليالى وهو ليس يَبِيدُ[٢]
وإنى لأستحيي أخى أن أبرّه   قريباً وأن أجفوه وهو بعيد

وقال ابن المعتزّ:

لم يبق مِمّا فاتنى كسبهُ   إلاّ فتًى يسْلَمُ لى قلبُهُ[٣]
ينأى فلا يذهبه نأيُهُ   عنىّ ولا يفسده قربهُ
يكون حسبي من جميع الورى   فى كلّ حال وأنا حسبهُ

وقال بشار وزاد معنى:

تودّ عدوّى ثم تزعم أننى   صديقُك، إن الرأى منك لَعازِبُ[٤]
وليس أخى مَنْ وَدّنِى رأىَ عينهِ
ولكن أخى مَنْ ودّنى وهو غائب

* * *

(١) ط: «شعبة»، وهو خطأ، والبيتان من أربعة أبيات فى أمالى القالى ٢ : ٢٣٠ .
(٢) اللآلى ٢٧٢ من غير عزو .   (٣) اللآلى ٢٧٢ .
(٤) أمالى القالى ١ : ٨٣ .

وَكَانَتْ عِنْدِى جَارِيةٌ ، لاَ يُوجَدُ لهَا فى الجمَالِ مُجَارِيةٌ ، إن سَفَرَتْ خجِل النَّيرَانِ ، وَصلِيَتِ القُلُوبُ بالنّيرَانِ ، وَإنْ بَسمَتْ أزْرَتْ بالجُمانِ ، وَبِيعَ المَرْجَانُ بالمجّان ، وإن رَنتْ هيَّجتِ البَلاَبِلَ ، وَحَقَّقَتْ سِحْرَ بَابل ، وَإنْ نَطَقَتْ عَقَلَتْ لُبَّ العاقلِ ؛ وَاستَنْزَلَتِ العُصمَ مِنَ المَعَاقِلِ ، وإن قَرَأَت شفَتِ المَفئودَ ، وَأَحْيَتِ المَوءودَ ، وَخِلْتَهَا أُوتيت من مَزامِيرِ آلِ داود . وَإنْ غَنَّتْ ظَلَّ مَعْبَدٌ لهَا عَبْداً ، وقيل سحقاً لإسحاق وَبُعْدًا ، وَإن زَمَرَتْ أَضْحَي زُنام عِنْدَها زنيماً ، بَعْدَ أن كان لجيلِهِ زعِيماً ، وبالإطرَابِ زَعِيماً ، وإن رَقَصَتَ أَمَالَتِ العَمَائِم عن الرءوسِ ، وَأنسَتْكَ رَقْصَ الحَبَبِ في الكئوسِ ، فكنتُ أزدرى مَعَهَا حُمْرَ النَّعَمِ ، وَأُحَلِّى بتَملِّيها جيدَ النعم ، وأحْجُبُ مَرْآها عن الشمس والقمر ، وأذود ذكراها عن شرائع السَّمَر ، وأنا مَعَ ذلِكَ أليحُ ، من أنْ تَسْرِىَ بِرَيَّاهَا رِيحٌ ، أوْ يَكْهُنَ بها سَطِيح ، أوْ يَنمَّ عَلَيْهَا بَرْقٌ مُلِيح .

* * *

قوله : « مجارية » ، مبارية معارضة ، وفلان يبارى الريح جوداً ، كأنه يعارضها بفعله ، فإذا هبت فى زمن الشتاء والجهد ، فضرت المحتاجين تتبع آثار فسادها بماله وهباته فأصلحها .

سفرت : كَشَفَتْ وجهها . خجِل : استحيا . النّيِّران : الشمس والقمر .

صَلِيت : أُحرقت ، يقول : إذا كشفت وجهها افتضحت الشمس والقمر لبديع حسنها ، واخترقت القلوب بنيران حبها .

* * *

[مما قيل فى جمال المرأة]

ونسوق هنا جملة من الشعر المستحسن فى أوصاف النسوان :

قال الشاعر :

لما تبـــدّت من الأستار قلتُ لها
سبحان سبحان ربّى خالقِ الصُّوَرِ
ما كنت أحسِب شمساً غـيرَ واحدة
حتى رأيت لها أختـــاً من البَشَرِ
كأنها هى إلا إنْ يفضِّلها حسنُ الدلال وطرف فاتر النظرِ

وقال أعرابى :

إذا حُجبتْ لم يكفِك البدرُ فقْدَها وتكفيك فقدَ البدر إن فُقِدَ الْبَدْرُ
وحسبك من خمر تفوتك ريقها ووالله ما مِنْ ريقها حسبُك الخمرُ
وما الصَّبر عنها إن صبرتَ وَجَدْته جميلاً ، وهل فى مثلها يحسُن الصبرُ ؟!
ولو أن جلد الذّرّ لامسَ جلدَها لكان للمس الذّرّ فى جلدها أثرُ

وقال العباس بن الأحنف :

زَاهَتْ علينا بأنْ تمّتْ محاسنُها خَوْدٌ تكمّلُ فى أعطافها الفِتَنُ (١)

---

(١) ديوانه ٢٨٠ .

هَمَّتْ بإتياننا حتى إذا نظرتْ إلى المِرَآةِ نهاها وجهُها الحسنُ
ما كان هــذا جزائى من محاسِنِها
أغرت بىَ الشّوْقَ حتى شفّنى الشّجَنُ

وقال بشار:

درّة حيثما أديرت أضاءتْ ومشمّ من حيثُمَا شُمّ فاحَا
وجنانٌ قال الإله لها كو نى فكانت رَوْحاً رُوحاً ورَاحَا

وله أيضاً:

كأنّها يوم رَاحَتْ فى محاسنها فارتجّ أسفلُها واهتزّ أعلاها
حَوْراء جاءتْ من الفردوس مقبلةً فالشّمس طلعتُها والمِسْك رَيّاها
راحت ولم تعطِهِ بُرءاً لِعلّتِهِ عنها ولو سألته النّفس أعطَاها
من اللواتى اكتست بُرداً فشقّ لها من حسنها الحسنُ بُرداً لا فرداها

وقال السّلامى:

وفيهنّ سكرى اللّحظ سَكْرَى من الصّبا
يُعاتب حلوُ اللفظ حُــلوَ الشّمائل[1]
أدارت علينا من سُلافِ خدودها[2]
كؤوساً وغنّتنا بصــوت الخلاخل

---

(١) اليتيمة ٢ : ٣٧١.
(٢) اليتيمة : « حديثها ».

وقال أيضاً :

لبّيكَ لبّيك داعي اللهو من كَثَبِ إلى معاطفَ كالأغصان من كُثُبِ
إن السّوالفَ كالسّوسان في صُعُدٍ إنّ العذارَ كالخلخال في صَبَبِ
إلى خدود بنات الروم قد برزتْ من حجْبها وأدارت أعْيُنَ العرَبِ
من كلّ سافرة عن مشرقٍ خجلا فيه طرازان من ماءٍ ومن لهبِ
واستضحكت عن لآلٍ أو حصى بَرَدٍ
يكاد يَقطرُ من مائيـــة الشَّنَبِ
تحدُو بهـا فتيـة صيغت وجوههمُ
من الرِّضا وعواليهمْ من الغضَبِ

وللأمير تميم بن المعز :

ناولتُها شِبهَ خدّيها معتّقـــةً صِرفاً كأنّ سناها ضوء مقْباس[1]
فقبّلتها وقالت وهي ضاحكةٌ
فكيف تُهدى خُدُودَ النّاس للناس[2]
قلت اشربي فهي دَمْعي، وحمرتها دمي، وطابخها في الكاس أنفاسي
قالت فإن كنت من حُبي بكيت دما فأسقنيها على العينين والرّأسِ
ياليلة بات فيهـا البـدر مُعتَنِقي
وباتت الشمس فيها بعض جلّاسي
وبتُّ مستغنيا بالثغر عن قدحٍ وبالخدود عن التفّاح والآس

(١) ديوانه ٢٤٩ ، وفيه : « مشعشعة » ، والمقباس والقبس : الشعلة من النار .
(٢) الديوان : « وكيف تسق »

وقال أيضاً :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُــه ... والبين صعبٌ على الأحباب موقِعُه[1]
اجعل يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ ... قـواه عن حمل ما تحويه أضلعُه[2]
واعطفْ عليّ المطايا ساعةً فعسى ... مَنْ شتّ شملَ الهوى بالوصْلِ يجمعُه
كأنني يوم وَلّتْ حسرةً وأسًى ... غريق بحر يَرَى الشّاطى ويمنعُهُ

وقال التّهامى :

أهدى لنا طيفُها نجداً وساكنَه ... حتى اقتنصنا ظِباء البدو فى الحضَرِ[3]
فبات يجلُو لنــا من وجهها قمراً ... من الـبَرَاقع لولا كُلْفــة القمَرِ
وراعها حرّ أنفاسى فقلت لهـا : ... هواىَ نار وأنفاسى من الشّرَرِ
وزاد دُرّ الثنــايا دَرّ أدمعها ... فالتفّ منتظمٌ منه بمنتــثِرِ
ولو قدرت وثَوبُ الليل منخرقٌ ... بالصبح رقّعته منهن بالشّعَرِ
بيضاء يَسحبُ ليلا حسنه أبداً ... فى الطّول منه وحسن الليل فى القِصَرِ
لو لم يكن أقحوانا ثغرُ مبسمها ... ما كان يزداد طيبًا ساعة السّحَرِ

ولبعض أصحابنا :

شُدِهْتُ فلا أدرى بأىّ صفاتها ... تقيّد ألباب الورَى وتَقُودها
وأىّ لآليها أشدُّ نفاســـة : ... أمنطقها أم ثغرها أم عقودُها !
فللشمس مرآها ، وللغصن قدُّها، ... وللمسك ريّاها ، وللرّيم جيدُها

وقال الحسن :

---

(١) ديوانه : ٢٦٠ ، وفيه : « وقال وقد ودعه بعض أهله لسفره » ، وقال صاحب اليتيمة : « وهو مما يغنى به » .
(٢) الديوان : « ما فيه أضلعه » .
(٣) ديوانه ٤١ وفى ط : « أهدى لنا طيفها » ، وصوابه من الديوان .

وذات خدٍّ مورَّدْ فتّانة المتجرَّدْ[1]
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفدْ
فبعضها في انتهاء وبعضها يتولدْ
فالحسن في كلّ جزء منها معادٌ مردَّدْ
وكلّما عدت فيها تكون في العَوْدِ أحمَدْ

* * *

قوله: «أزرت بالجمان»، أى قصرت بحب الفضة.

المرجان: اللؤلؤ الصغار.

والجمّان: شيء لاثمن له، وخذ هذا مجّاناً. أى باطلا ؛ أراد أنها إذا ضحكت فبدت أسنانها كانت أحسن مما وصف. وأخذه من قول أبى تمام:

وقهوةٍ كوكبها يزهرُ يَسطع منها المِسْكُ والعَنْبَرُ[2]
ورديّةٌ يحثُّها شادنٌ كأنها من خدّه تُعْصَرُ
مهفهف لم يبتسم ضاحكاً مذ كان إلا كسدَ الجوهر

وقال آخر وذكر الجمّان:

عثمان يعلم أنّ المدح ذو ثمنٍ لكنه يشتهى مدحاً بمجّانِ
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثارَ إحسان

رنت: نظرت. البلابل: وساوس الهموم. والسِّحْر، ينسب إلى بابل وقال السّلامى فى هذا المعنى:

---

(١) ديوانه ٣٧١.
(٢) ديوانه ٤٤١

أكحيلة الأجفان بالسّحر الّذى لولاه مادرت البـــلابل بابلْ
قد كان قلبى غافلاً عمّا به أودى وقلبُ أخى السّلامة غافلْ
حتى دَهانى منك صـدرٌ رامح ذرب سِنـــاناه وطرفٌ قاتلْ
ماعِقدك المهنا بجيــــدك درّة لـكن فِرِنْدٌ فى حسامٍ جائلْ

وللأمير تميم بن المعتز :

وليـــلةٍ بتُّها على طَرَبٍ آخـــرها مشبِهٌ لأُولاَهَا(١)
أقبل البرقَ من ثنيّتِهـــا وألثم الشمس من مُحيّاها
سقتْنِيَ الرّاح وهى خدّاها بأكؤس السّحر وهى عيناها
إذا أرادتْ مزاجَها جعلت بآخر اللحظ من فِى فاها
فيا لها قهوةً معتّقـــةً وليس إلا الخدود مأواها
حَبابها الثغر حين تمزج لى وَنُقْلها اللّثْمُ حين أُسقاها

* * *

[ذكر بابل]

وبابل مدينة كان ينزلها ملوك العجم ، وهى دار نمروذ بن كنعان ، وكانت بابل ، من استعظامِها واستبشاع أمرها ، لا تـكاد تحصل . وأسسها نمروذ ، وكانت مدينةً ضاحكةَ للنظر ، زاهية البناء ، واسعة الفِناء ، جمعت إلى حسن النظر رصافة البنيان وبهاء المنصِب ، فـكانت سهلة بطحاء مربّعة ، فى كل تربيع حِصْنان عظيمان ، وسورها لايكاد سامِعُ خبرِه يصدّقه ، كان عرضه خمسين

(١) لم ترد هذه الأبيات فى ديوانه .

ذراعاً ، وفي ارتفاع مائتي ذراع ، في دور أربعة وثلاثين ميلاً ، ونحو الخليج يجري فيه الفرات ، وفيه العمارة ، بأسماء معلومة .

وهي أقدم بناء بني بعد الطوفان ، وتنسب السحر لما لأن بها هاروت وماروت معلمي السحر ، فكانا يعجبان من بني آدم حيث يعصون الله تعالى على إنعامه عليهم ، فابتلاهما الله تعالى فسلط عليهما الشهوة الآدمية ، وحرم عليهما القتل والزنا والخمر ؛ وأنزلهما إلى الأرض للحكم بين أهلها ، فجاءتهما الزهرة في خصام (١) فوقعت في قلوبهما ، فشكا كل واحد منهما لصاحبه ما يجده من حبها ، فأرسلا إليها ، فراوداها فأبت حتى يعلماها الاسم الذي يرجعان به إلى السماء ، فأبيا عليها ، قالت لهما : فاشربا الخمر ، فشربا فسكرا ، وعلماها الاسم ، وواقعاها ، ثم خرجا فوجدا رجلاً ، فظنا أنه اطلع على أمرهما فقتلاه ، وتكلمت الزهرة بالاسم الذي يرجعان به إلى السماء فرفعت ومسخت كوكباً وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان ببابل ، ويعلمان السحر .

وجاءت امرأة إلى عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقالت : يا أم المؤمنين ، قالت لي امرأة : هل لك أن أعلمك شيئاً يصرف وجه زوجك إليك ! فأتت بجوزتين ، فركبت واحدة ، وركبت الأخرى ، وسرنا ما شاء الله ، فقالت : أتدرين أنك ببابل ؟ ودخلت على رجلين ، فقالا لي : بولي على ذلك الرماد ، فذهبت ولم أبل ، ورجعت ، فقالا لي : ما رأيت ؟ قلت : ما رأيت شيئاً ، قالا : أنت على رأس أمرك ، فرجعت فتشددت وبلت ، فخرج مثل الفارس المقنع ، فصعد في السماء ، فقالا لي : ما رأيت ؟ فأخبرتهما ، فقالا لي : ذلك إيمانك فارقك ، فخرجت إلى المرأة ، فقلت لها : والله ما علمني شيئاً ، ولا قالا لي كيف أصنع ، فقالت : فما رأيت ؟ قلت : كذا وكذا ، فقالت : أنت أسحر العرب ، وأعلمه ،

فقطعت جداول، فإذا زرع يهتز، فقلت: أفيك؟ فإذا هو قد يبس، فأخذته وفركته، وقالت: خذيه، واجعليه سويقا ولتقيه زوجك، فلم أفعل شيئا من ذلك. وانتهى الأمر إلى هذا فهل لى من توبة؟

ورأت رجلا من خزاعة فقالت: يا أم المؤمنين، هذا أشبه الناس بهاروت وماروت. روى هذا الحديث بإسناده ابن قتيبة.

* * *

قوله: «عقلت لب العاقل»، اللب: العقل، وعقلته: شددته بعقال، وهو قيد البعير.

والعُصْم: الوعول، والأعصم: التيس الجبلى الذى فى يديه بياض، والمِعصم: موضع الخلخال.

الخليل: الأعصم الوعِل، وعُصْمته: بياض فى رجليه.

والمعاقل: قرون الجبال، وأراد أن كلامها لعذوبته يغلب أهل العقول حتى تعدّاهم إلى الوحش، أو يريد بالعصم من له عزمة وهمة من الرجال، فإذا سمعها تذلل لها.

وأخذ هذا من قول أبى بكر بن دريد[1]:

لو ناجت الأعصمَ لانحطّ لها ... طوعَ القياد من شماريخ الذرى[2]

أو صابت القانت فى مخلولق ... مستصعب المسلك وعر المرتقى[3]

(١) المقصورة ١٢٥ (نشرة العطار)

(٢) ط: «باحت»، وصوابه من المقصورة. وناجت: سارّت، والأعصم: الوعل الذى فى يديه بياض. والشماريخ: جمع شمراخ؛ وهو رأس الجبل. والذرا: جمع ذروة.

(٣) صابت: وافقت ووجدت. والقانت: المطيع. والمخلولق: الأملس. ومستصعب: صعب. والمسلك: الموضع الذى يسلك فيه.

أماهُ عن تَسبيحه ودينــــه   تأنيسها[١] حتّى تراه قد صَبَا[٢]

والسابق إلى هذا المعنى النابغة بقوله :

لو أنها عَرَضَتْ لأشمط راهبٍ   عَبَد الإله صَرُورةٍ متعبِّدِ[٣]

لرنا لرؤيتها وحُسْن حديثهـــا   ولخاله رشَداً وإن لم يُرْشَدِ

والمفئود : الذى يشتكى فؤاده . والموءود : المدفون حيًّا ، وانظره فى الخامسة والثلاثين .

وأراد أنّ حسن صوتها بالقرآن يشفى من مرض الفؤاد ، ويحيى الموتى . والعرب تزعم فى شعرها أنّ إفراط الحُسْن يُحيى الموتى .

قال الأعشى :

لوْ أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها   قام ولم يُحْمَــــلْ إلى قابرِ[٤]

حتى يقول الناس ممـــا رأوْا   يا عجبا للميِّت الناشر ![٥]

وقال توبة بن الحُمَيِّر :

ولو أنّ ليلَى الأخيليَّةَ سلَّمتْ   علىّ وفوقِى تُرْبَةٌ وصفائحُ[٦]

لسلَّمت تسليم البشاشة أو زَقَا   إليها صدًى من جانب القبرِ صائحُ[٧]

(١) ط : « تأنيثها » ، تحريف . والتأنيس : الأنس وحسن الحديث .
(٢) صبا : فعل أفعال الصبيان .
(٣) ديوانه ٣١ . الراهب : الخائف من الله . والصرورة فى الجاهلية : الذى لم يتزوج ، وفى الإسلام : الذى لم يحج .
(٤) ديوانه ١٣٩ ، ١٤١ . والنحر : أعلى الصدر .
(٥) نشر الله الموتى : أحياهم وبعثهم .
(٦) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ١٣١١ .
والصفائح : الحجارة العراض يغطى بها القبر .
(٧) زقا : صاح . والصدى : مايجيبك من الجبال وغيرها إذا صحت ؛ وكانت العرب تزعم أن عظام الموتى تصير هاما وأصداء ، وبعده فى الحماسة :

وأُغْبطُ مِنْ ليلَى بمَا لا أنالُه   ألاَ كلّ ماقرّت به العين صالحُ

قوله : «مزامير» ، المزمار : الصوت نفسه ، والجمع مزامير . وقيل : صوابه زمار ، ولا يقال زامر ، ويقال للأنثى : زامرة ولا يقال: زمّارة ، والآلة التي يزمر بها الزّمارة .

وكان داود عليه الصلاة والسلام أحسن خلق الله صوتاً ، وإذا قرأ الزّبور رقّتْ لصوته الوحوش، وحنّت حتى تؤخذ بأعناقها وهي مصغية له، وما صَنعت الشياطين المزامير والبرابط إلا على صوته .

ومعبد ، أطبع المغنّين المتقدّمين ، وإسحاق الموصلي أطبع المتأخرين ، وفي معبد يقول حبيب :

محاسنُ أوصاف المغنّين جَمّـةٌ وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلاّ لِمَعْبَدِ [1]

* * *

[أخبار معبد]

وهو معبد [2] بن وهب ، وقيل ابن قطن [3] وأبوه أسود ، وكان هو خِلاسيًّا مديد القامة ، أحْوَل .

غنّى في أول الدولة الأمويّة ، وتوفّيَ أيام الوليد بن يزيد .

وكان [4] علّم جارية اسمها ظبية فاشتراها رجل من الأهواز ، وذهبت به إلى كلّ مذهب ، فماتت وأخذت جواريه أكثر غنائها ، فكان من أجلها يفضّل معبداً على نظرائه ، ويظهر التعصّب له ، فسمع به معبد ، فخرج إليه حتى أتى البصرة ، فصادف الرّجل خارجاً إلى الأهواز في سفينة ، فسأله الدخول معه ،

(١) ديوانه ١٠٣ .
(٢) أخبار معبد في الأغاني ١ : ٣٦ – ٦٠ .
(٣) الأغاني « قطن ، مولى ابن قطر » .
(٤) الخبر في الأغاني ١ : ٤٨ ، ٤٩ ، باختصار وتصرف .

فأمر الملاح أن يجلسه في مؤخر السفينة ، وانحدر حتى بلغ إلى فم نهر الأبلة ، فغذّوا واشربوا ، وأمر جواريه فغنّين ، فغنت إحداهن للنابغة[1] :

* بانت سعادُ وأمسى حبلُها انجذما *

ومعبد ساكت في ثياب الفقر ، حتى سكتت ، فصاح : ياجارية ، غناؤك ليس بمستقيم ، فغضب مولاها ، وقال : وما أنت والغناء ! ثم غنت الثانية بشعر عبد الرحمن بن أبي بكر :

يابنة الأزدي قلبي كئيبُ مستهام عندها ما ينيبُ[2]

ولقد قالوا فقلتُ دعوني إن مَنْ تنهونَ عنه حبيبُ

إنما أفنى عظامي وجسمي حبُّها والحب شيء عجيب[3]

فصاح معبد : يا جارية ، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالاً شديداً ! فازداد غضباً مولاها ، وقال : ويلك ! أما تكف عن هذا الفضول ! ثم غنت أخرى لكثيّر فقالت :

خليليّ عوجا سلّما ساعةً معي على الربع نقضي حاجةً ونودّعِ[4]

---

(١) الأغاني وعده من الأصوات

بانتْ سُعادُ وأمسى حبلُها انصرمَا واحتلّتِ النّورَ والأجراعَ من إضمَا

إحدى بَليٍّ وما هام الفؤادُ بها إلاّ السفاهَ وإلاّ ذِكْرةً حلُمَا

والبيتان في ديوان النابغة .

(٢) الأغاني ٦ : ..

(٣) في الأغاني : « إنما أبكي عظامي » ، وبعده هنالك :

أيها العائبُ عندي هواها أنتَ تفدى من أراك تعيبُ

(٤) الأغاني ١ : .. ونسبه إلى كثير ، وفيه : « عوجا منكما » . وبعده هنالك :

ولا تعجلاني أن ألمّ بدمنةٍ لعزّةَ لاحتْ لي بيَيْداءِ بلقعِ

ولولا لقلبٍ قد سلا : راجع الهوى ... والعين أذرى من دموعك أودعي
فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا ... مصيفاً أقمنا فيه من بعد مربع

فقال معبد : ما قومتني صوتاً واحداً ، فقال له الرجل : والله ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسمت بالله لئن عاودته لأخرجنّك من السفينة . فاندفع معبد يغنّي الصوت الأوّل ، فصاح الجواري : أحسنت والله يا رجل! فأعده ، قال : لا ولا كرامة ، ثم غنّى الثاني ، فقلن لسيّدهن : هذا والله أحسن الناس غناء ، فاسأله أن يعيد لعلّنا أن نأخذه ، ثم غنّى الثالث فزلزل عليهم السفينة ، فوثب الرجل وقبّل رأسه ، وقال : أخطأنا عليك ، فأسألك أن تنزل إليّ ، فأبى فلم يزل به حتى نزل ، وقال له : مِن أين أخذ جواريك هذا الغناء ؟ قال : من جارية أخذت عن أبي عبّاد معبد ، ثم استأثر الله بها ، وكانت منّي محلّ الروح من الجسد ، فلذلك أفضّل معبداً على جميع المغنّين ، فقال له معبد : وإنك لأنت هو ! أفتعرفني ؟ قال : لا ، فصكّ معبد بيده صلعته ، وقال : فأنا والله معبد ، وإليك قدمت من الحجاز ، ولقصدك بالأهواز دخلت السفينة ، والله لا قصرتُ في جواريك [هؤلاء][1] حتى أجعلهنّ خلفاً من الماضية . فأكبّ الرجل والجواري على يديه ورجليه بالتقبيل ويقولون : « كتمتنا نفسك ، حتى أسأنا عشرتك ، وأنت ممّن نتمنّى من الله أن نلقاه .

ثم وهب له ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا بمثلها ، فأقام عنده سنة حتى أخذ عنه جواريه ثم انصرف إلى الحجاز .

قال ابن الكلبي : قدم ابن سريج والغريض المدينة ، وكانا في صبغة الغناء من الحذّاق ، يتعرّضان لمعروف أهلها ، فلمّا شارفاها تقدّما ثقلهما ، ليرتادا

---

(١) تكملة من الأغاني .

منزلا ، حتى إذا هما بغسلة تغسل فيها الثياب قرب المدينة ، إذا هما بغلام ملتحف بإزار وطرفه على رأسه ، وبيده حُبالة يصيد بها الطير، وهو يتغنّى :

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرون[1]

فإذا الغلام معبد فلما سمعاه مالا إليه ، واستعاداه ، فأعاد الصوت ، فسمعا شيئاً لم يسمعا مثله قطّ ، فقال أحدُهما لصاحبه : هل سمعت كاليوم قطّ ؟ قال : لا والله ، فما رأيك ؟ قال ابن سريج : هذا غناء غلام يصيد الطّير ، فكيف بمن في المدينة ، أمّا أنا فثكلت ولدى إن لم أرجع ، فرجع ولم يدخلها[2] .

وروى إسحاق أنّ معبداً سافر إلى مكة ، فسمعَ ببطن مرّ غناء ، فقصد الموضع ، وإذا رجل جالس على حرف بِرْكة فارقٌ شعرَه حسنُ الوجه عليه درّاعة مصبوغة بزعفران ، وهو يتغنّى :

حَنّ قلبي من بعد ما قد أنابا ودعا الهمّ شجوه فأجابا[3]
ذاك من منزلٍ لسلمى خــلاه لابس من خلائه جلبابا[4]
عُجْتُ فيه وقلت للرّكب عوجوا طمعاً أن يردّ رَبْعٌ جوابا
فاستثار المنسيّ من لوعة الحبّ وأبدى الهموم والأوصابا

---

(١) الأغانى ١ : ١١ ، وفى ط : « فالنخل فالأبواب » ، وما أثبته س ا والأغانى ، وأبواب جيرون بدمشق ، وبعده فى الأغانى :

إلى البَلاَطِ فما حازتْ قرائنه دورٌ نَزَحْنَ عن الفحشاء والهونِ
قَدْ يكتمُ النّاس أسراراً فأعلمها ولا ينالُون حتّى الموت مكنونى

والأبيات من أصوات الأغانى ، وهى لأبى قطيفة .

(٢) الخبر فى الأغانى ١ : ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) الشعر لعمر بن أبى ربيعة ، والأغانى ١ : ٤٧ .

(٤) الأغانى « مكتس من عفائه » .

فقرع معبد بعصاه وغنّى :

مَنَع الحياة من الرجال ونفعَها حَدَقٌ تقلّبها النّساء مِراضُ[1]
وكأنّ أفئدة الرجال إذ رأوْا حَدَق النساء لنَبْلِها أغراضُ

فقال الرجل له : أنت معبد ؟ قال نعم، وقال له معبد : بالله أنت ابن سُريج؟ قال : نعم ، ووالله لو عرفتُك ما غنّيت بين يديك .

قال معبد : فلمّا قدمت مكة ، قيل لى : إن ابن صفوان قد جعَل بين المغنّين جائزة ، فأتيت بابه ، فطلبت الدّخول ، فقال لى آذِنُهُ : قد أمرنى أن ألاّ آذن لأحد عليه ، قلت : فدعنى أدنو من الباب ، فأغنّي صوتاً ، فقال : أمّا هذا فنعم ، فدنوت من الباب ، فغنّيت ، فقالوا : معبد ، ففتحوا لى وأخذت الجائزة .

* * *

[ذكر إسحاق الموصلى]

وأما إسحاق فذكره صاحب الأغانى[2] ، وقال : كان محلّ إسحاق من العلم والأدب والرواية، وتقدّمه فى الشعر وسائر المحاسن أشهرُ من أن يوصف . وأمّا الغناء فكان أصغرَ علومه، وأدنى ماوُسِم به وإن كان الغالب عليه ؛ وهو الذى صَحّح أجناس الغناء وطرائقها ، وميّزها تمييزاً لم يقدر أحد عليه قبله ولا بعدَه ، من تدقيق المجارى ، وتمييز الأصناف الّتى جعلوها صِنْفاً واحداً ، وهى فى نفسها كذلك ، ولكنها تفترق عند متيقظ مثله ، وأين مثلُه !

(١) الأغانى ١ : ٤٨ ، والشعر للفرزدق ، ديوانه ٤٨٨ .
(٢) أخبار إسحاق الموصلى فى الأغانى ٥ : ٢٦٨ — ٤٣٣

وروى عنه أنه (1) قال : بقيتُ دهراً أُغلِّس إلى هشام (2) أسمع الحديث ، وإلى الكسائي أقرأ عليه جزءاً من القرآن ، وإلى الفرّاء وابن (3) غزالة أسمع اللغة ، ثم آتي منصور زلزل ، فيطارحني طريقتين أو ثلاثاً ، ثم آتي عاتكة بنت شهدة ، فآخذ منها صوتاً أو صوتين ، ثم آتي الأصمعيّ وأبا عبيدة ، فأستفيد منهما وأُناشدهما ، ثم أصير إلى أبي فأعلمه بما صنعتُ ، وأتغدّى معه ، فإذا كان العشيّ رحت إلى الرشيد .

وروى الحديث ، ولقيَ أهلَه ، مثل مالك بن أنس وسُفيان بن عُيينة وغيرهما . وسأل المأمونَ أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب ، لا مع المغنّين ، فإذا أراده للغناء غنّاه ، فأجابه إلى ذلك .

وقال المأمون : لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس من الشّهرة بالغناء ، لولّيته القضاء بحضرتي ، فإنه أولى به ، وأصدق وأعفّ ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة . وكان أجودَ الناس بالمال وأبخلَهم بالغناء . وأعطى لمنصور زلزل لمّا علمه الضّرب بالعود أكثر من مائة ألف درهم (4) .

وأهدى له ابن الأعرابي (5) نسخة من النوادر بخطّه ، فمرّ يوماً على المدائنيّ ، فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : أمرّ على رجل كما قال الشاعر :

نَحمل أشباحَنا إلى مَلكٍ   نأخذ من ماله ومن أدَبِه (6)

---

(1) الأغاني ٥ : ٢٧١ .

(2) الأغاني : « هشيم » .

(3) في حواشي الأغاني عن شرح القاموس : « وعبدالواحد بن أحمد بن غزال ، مقرئ » .

(4) الأغاني ٥ : ٢٧٤ .

(5) الأغاني ٥ « أبو عبد الله بن الأعرابي » .

(6) قال صاحب الأغاني « والبيت لأبي تمام الطائي »

فقال : ومن هو ؟ قال : أبو محمد إسحاق بن إبراهيم .

ومات وهو أشعر أهل زمانه ، وقال : رأيت جريراً فى منامى ينشد شعراً ، فلما فرغ أخذ كُبّة شعر فألقاها فى فمى ، فابتلعتُها ، فتأوّلت ذلك أنه ورّثنى الشعر .

ومرّ به شيخ وهو فى الحديث ، فقال لجلسائه : هذا أشبه النّاس بجرير الذى رأيت ، فسئل الشيخ ، فإذا هو عُمارة بن عَقيل بن بلال بن جرير .

ومن شعره يفتخر [1] :

إذا كانت الأحرار أصلى ومَنْصِبِى
وقام بنصرى خازمٌ وابن خازم
عطست بأنفٍ شامخ وتناولتْ
يداىَ الثريا قاعداً غير قائم

وسمعهما الأصمعى فاستحسنهما ، وأعجب بهما وفضّلهما .

ودخل على مروان بن أبى حفصة وهو يتحدّث مع أبيه فأنشده :

إذا مضر الحمراء كانت أرُومتى ... وقام بنصرى خازم وابن خازم [2]
عطست بأنف ... البيت .

فجعل إبراهيم يحدّث مروان ، وهو ساه عنه ، فقال : مالك لا تجيبنى فقال : إنك ما تدرى ما أقرغ ابنُك فى أذنى .

---

(١) فى الأغانى ٥ : ٢٧٨ : « أن الأصمعى أنشد قول إسحاق يذكر ولاءه لخزيمة بن حازم ، » وذكر البيتين .
(٢) الأغانى ٥ : ٢٦٩

ووجّه إليه[1] أحمد بن هشام بزعفران رطب وكتب إليه :

اشربْ على الزّعفران الرّطب متّكئاً ... وَانْعَمْ نَعِمْتَ بطول اللّهو والطربِ
لحرمة الكأس بين الناس واجبةٌ ... كحرمةِ الودّ والأرحام والأدب

فأجابه إسحاق للوصلى :

اذكُرْ أبا جعفرٍ حقًّا أمُتُّ بهِ ... أنّى وإياك مشغوفان بالأدَبِ
وأنّنا قد رَضَعْنا الكأس دِرّتها ... والكأس حرمتُها أولى من النّسبِ

وجلس[2] عند إبراهيم بن مُصعب للشرب ، فسقى الغلمان مَنْ حضر ، وجاء غلام قبيح الوجه بقدح إلى إسحاق ، فلم يأخذ منه ، فقال له إبراهيم : لم لا تشرب ؟ فقال :

أصبِحْ نديمك أقداحا تسلسِلُها ... من الشّمول[3] وأتبِعْها بأقداح
من كفّ رِيمٍ مليح الوجه ريقَتُه ... بعد الهجوع كمسك أو كتفّاح
لا أشرب الراح إلا من يدىْ رَشأٍ ... تقبيلُ راحتِه تُغْنى[4] عن الرّاح

فدعا له بوصيفة تامّة الحسن، فى زِىّ غلام ، عليها أقبية[5] ومنطقة ، فسقته حتى سَكِر ، ثم أمر بتوجيهها إليه بكلّ ما معها إلى داره .

ومن طرف إسحاق ، أن كلثوما العتّابى كان من العلم وغزارة الأدب

---

(١) الأغانى ٥ : ٣٠١

(٢) الأغانى ٥ : ٣٣٠ .

(٣) الشمول : الخمر .

(٤) الأغانى . « أشهى من الراح » .

(٥) الأقبية : جمع قباء ، بالفتح ؛ وهو ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : ثوب يلبس فوق القميص ويتمنطق به .

وكثرة الحفظ والترسّل والنّظم على ما لم يكن عليه أحد ، فحضر مجلسَ المأمون ، فوضع بين يديه ألف دينار ، وغمز إسحاق بالعبث به ، فأقبل إسحاق يعارضه في كلّ باب ويزيد عليه ، وهو لا يعرف إسحاق ، فقال : أيأذن أمير المؤمنين في نسبة هذا الرجل ، والسؤال عن اسمه ؟ فقال : أفعل ، فقال له العتابى : ما اسمُك ومَنْ أنت ؟ فقال : أنا من الناس ، واسمى كُلْ بَصَل ، فقال له العتابى : أمّا النسبة فمعروفة ، وأما الاسم فمنكور ، فقال له إسحاق : ما أقلّ إنصافَك ، أوَ ما كُلْثوم من الأسماء ! فالبصل أطيبُ من الثّوْم ! فقال له العتابى : قاتلك الله ، ما أملحك ! ما رأيت كالرجل حلاوة ، أيأذن أمير المؤمنين فى صلته بما وصلنى ، فقد والله غلبنى ؟ فقال له المأمون : بل ذلك موفور عليك ، وأمر له بمثله . فانصرف إسحاق إلى منزله ، ونادمه العتّابى بقية يومه .

وكانت هُشَيمة الخمّارة تجيد الشراب ، فلما ماتت قال يرثيها :

أضحت هشيمة فى القُبورِ مقيمةً وخلت منازلُها من الفتيانِ[1]
كانت إذا هجر الحبيبَ محبُّه[2] دبّت له فى السرّ والإعلان
حتّى يلينَ لما تريد قيادُهُ ويصيرَ سيئُه إلى الإحسان

وهو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان ، أصله فارسىّ ، وترك ماهان إبراهيم صغيراً ، فنشأ فى بنى تميم .

وهذا الذى ذكرنا نبذة من أدبه .

وأما محاسنه فى الغناء فلا يأتى عليها الحصر ، قال الواثق : ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننت أن قد زِيدَ فى ملكى ؛ وإن إسحاق نعمةٌ من نعَم المُلْك ،

(١) الأغانى ٥ : ٤١٠ .
(٢) الأغانى : « إذا هجر المحب حبيبه » .

التي لم يحط أحد بمثلها ، ولو أن لها العمر والنشاط بما يشترى لاشتريتهما بشطر ملكي .

وحدث حماد ابنه قال[1] : حدثني أبي قال : غدوت يوماً وأنا ضجر من ملازمة دار الخليفة ، فركبت بكرة ، وعزمت أن أطوف في الصحراء ، وأتفرج ؛ وقلت لغلماني : إن جاء رسول الخليفة فعرفوه أني ركبت في مهم[2] ؛ ومضيت وطفت ما بدا لي ، واغتديت ، وعدت ، وقد حمى النهار ، فوقفت في ظل جناح بشارع[3] لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً ، عليه جارية تحتها منديل دبيقي[4] ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه ، فرأيت لها شمائل ظريفة وطرفاً فاتراً ، وحدثتني[5] أنها مغنية ، فدخلت الدار التي كنت عليها واقفاً ، فعلقها قلبي علوقاً شديداً لم أستطع معه براحاً . وأقبل رجلان شابان ، لهما هيئة تدل على قدرهما ، وهما راكبان ، فأذن لهما ، فحملني حب الجارية وحسن حالهما أن توسلت بهما ، فدخلت معهما ، فظنا أن صاحب الدار دعاني ، وظن هو أني معهما ، فجلسنا ، وأتي بالطعام فأكلنا ، وجيء بالشراب ، فخرجت الجارية وفي يدها عود[6] ، فرأيت جارية حسناء ، فغنت غناء صالحاً ، فعلق قلبي منها ، وشربنا ، ثم قمت للبول ، فسأل صاحب المنزل عني ، فأنكراني ، فقال : هذا طفيلي ، ولكنه ظريف ، فأجملوا عشرته ، فجئت وجلست فغنت في لحن لي :

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن أمام المطايا تشرئب[6] وتسنح

---

(١) الأغاني ٥ : ٤٣٢

(٢) الأغاني : « في بعض مهماتي ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت » .

(٣) الأغاني : « فوقفت في الشارع المعروف بالمخرم ، والمخرم محلة ببغداد » .

(٤) دبيقي منسوب إلى دبيق ، وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر ، وقد خربت الآن .

(٥) الأغاني : فخرصت عليها أنها مغنية » ، وخرصت ، أي خمنت وظننت .

(٦) ط : « تستريح » ، والأجود ما أثبته من الأغاني .

من المؤلفات الأول إذ أملاه حركة، إنه ضاع الطمع في واجبها بتواضع، فأدّته أداء صالحا، ثم غنت أصواتا فيها من صنعتي :

الطلول الدوارس فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أنسها فهي قفر بسابس

فكان أمرها فيه أصلح من الأول، ثم غنت من صنعتي في شعر عبيد(١) :

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا :
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعبا
واعترفنا بما ادّعيت وإن كنت كاذبا(٢)

فكان أصلح مما غنته، فاستعدته منها لأصححه، فأقبل على أحد الرجلين، فقال : ما رأيت طفيليا أصفق وجها منك، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت، وهذا تصديق المثل : « طفيلي وقد يقترح »، فأطرقت ولم أجبه(٣)، وكفه صاحبه عني، فلم يكف، ثم قاموا للصلاة، فأخذت العود الذي للجارية، وأصلحته إصلاحا محكما، وعدت إلى موضعي، فصليت، ثم عادوا، فعاد ذلك الرجل في عربدته علي، وأنا صامت، فأخذت الجارية عودها، وجسته، فقالت : من جس عودي؟ فقالوا : ما جسه أحد، فقالت : والله لقد جسه حاذق متقدم، وشد طبقته، فقلت لها : أنا أصلحته، فقالت : بالله عليك خذه(٤) واضرب به، فأخذته منها وضربت مبدأ طريق عجيب صعب فيه نقرات محركة(٥)، فما بقي منهم أحد إلا وثب، وجلس بين يدي، وقالوا : بالله يا سيدنا أتغني؟ فقلت : نعم، وأعرفكم بنفسي

(١) الأغاني : « ثم غنت أصواتا من القديم والحديث، وغنت في أثنائها من صنعتي رمل » .
(٢) لم يرد هذا البيت في رواية الأغاني .
(٣) الأغاني : « فأطرقت ولم أجبه » .
(٥) الأغاني : « محركة » .

أنا إسحاق الموصلىّ ، والله إنى لأتيه على الخليفة وأنتم تشتمونني منذ اليوم لأنى تملّحتُ معكم بسبب هذه الجارية ! ووالله لانطقتُ بحرف ولا جلست معكم ، أو تخرجوا هذا المعربد النتّ ،ونهضت لأخرج . فتعلّقوا بى وتعلّقت الجارية بى ، فقلت : والله لا أجلس إلا أن يخرَج؛ فقال له صاحبه : مِنْ شِبْه هذا حذرت عليك ، فأخرجوه ، فغنّيت الأصوات التى غنّتها الجارية من صنعتى ؛ فطرب صاحبُ البيت طربا شديدا ، وقال لى : هل لك فى أمرٍ أعرضه عليك ؟ فقلت : ما هو ؟ فقال : تقيم عندى شهراً ، والجارية مع ما عليها لك ، فقلت : أفعل ، فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يعرف أحدٌ أين أنا ، والمأمونُ يطلبنى .

فجئت بذلك منزلى بعد شهر ، وركبت إلى المأمون ، فقال لى : يا إسحاق ، ويحك ! أين تكون؟ فعرّفته الخبر فقال : علىّ بالرجل الساعة ، فعرّفتهم موضعه فأحضره ، وقال : أنت رجل ذو مروءة وسبيلُك أن تُعاون عليها ، فأمر له بمائة ألف درهم ، ونهاه ألاّ يعاشر ذلك المعربد النذل ، وأمر لى بخمسين ألفا ، وقال : أحضِرْ لى الجارية ، فأحضرتُها فغنّته ، فقال : قد جعلتُ لها نوبةً فى كلّ يوم ثلاثاء ؛ تغنّى مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم . فربحتُ والله تلك[2] الرّكبة وأربحت .

وتشبه هذه الحكاية حكاية إبراهيم[3] بن المهدى ،إذ شفع للمأمون فى طفيلىّ قد قدّمنا ذكره ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، هب لى ذنبَه ، وأحدّثك حدثاً عجيباً فى التّطفيل عن نفسى ، قال : قل ، فقلت ؛ خرجت يوماً

(١) الأغانى « أحضرنى »
(٢) الأغانى : « بتلك » .
(٣) الخبر فى العقد ٦ : ٢٠٨ — ٢١٠

فررت فى سكك بغداد ، فشممتُ رائحةُ أبزار من جناح دار ، وقدور قد فاح قتارُها . فسألت خياطاً :عن ربّ الدار ، فقال رجل من التّجار اسمه فلان . فخرجتْ من شُبّاك فى الجناح كفٌّ ومِعصم ، ما رأيت مثلهما قطّ ، فذهب عقلى وبُهتّ ، وإذا رجلان نبيلان ، فقال الخياط : هذان نديماه ، وهما فلان وفلان ، فحرّكت دابتى ، ودخلت بينهما ، وقلت :قد استبطأ كما أبو فلان ، فأتينا الباب ، فدخلنا ، فلم يشكّ صاحبُ الدار أننى منهما ، فرحّب بى ، وأجلسنى فى أجلّ موضع ، فأتينا بالألوان ، فكانَ طعمُها أطيبَ من رائحتها ، فقلت فى نفسى : أكلت الألوان وبقِىَ الكفّ . ثم سرنا إلى مجالس المنادمة ، فإذا أنبلُ مجلس ، وصاحب الدارمقبل باللّطَف والحديث علىّ لمّا ظن أنى منهما ، فخرجتْ جارية تتثنى كأنها خُوط بان ، فسلّمت وجلست ، وأخذت بالعود وجسّته ، فتبيّنت الحذق فى جسّتها ، وغنّت هذا الصوت :

توهّمها طرْفى فأصبح خدها ... وفيه مكانَ الوهم من نظرى أثرُ
وصافحها كفى فآلم كفَّها ... فمن لمس كفى فى أناملها عَقرُ
ومرّ بفكرى شخصها فجرحتُه ... ولم أر شخصاً قطُّ يجرحه الفكر

فهيّجتْ بلابلى ، وطربت، ثم غنّت :

أشرتُ إليها هل علمت[1] مودّتى ... فردّت بطرف العين إنّى على العهد
فحُدتُ عن الإظهار عمداً لسرّها ... وحادت عن الإظهار أيضاعلى عمد

فصحت: السلاح ! وجاءنى ما لم أملك معه نفسى ، ثم غنّت :

أليس عجيباً أنّ بيتاً يضمّنى ... وإياكِ لا نخلو ولا نتكلّمُ

---

(١) العقد : « عرفت »

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها ... وترجيع أحشاء على النار تضطرم
إشارة أفواه وغمز حواجب ... وتكسير أجفان وقلب متيم[1]

فحسدتها على حذقها، فقلت: ياجارية بقي عليك شيء، فغضبت ورمت بالعود، وقالت: متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء! فندمت ورأيت تغير القوم، فدعوت بالعود وغنيت:

يا للمنازل لا يجبن حزينا ... أصممن أم بعد المدى فبلينا
راحوا العشية روحة مذكورة ... إن متن متنا أو حيين حيينا[2]

فأقبلت على رجلي تقبلهما، وتقول: المعذرة والله ياسيدي من تغيير مثلك، وكان مولاها وصاحبه، وصنعوا مثلها، وشربوا بالطاسات طربا، ثم غنيت:

أفي الحق أن أمسى[3] ولا تذكرينني ... وقد سجمت[4] عيناي من ذكرك الدما[5]
إلى الله أشكو بخلها وسماحتي ... لها عسل مني وتبذل علقما[6]

فجاء والله من طرب القوم ما حسبت له أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت حتى إذا هدأ القوم اندفعت أغني:

---

(١) العقد: «وكف تسلم» وما أثبته من أ ، ب
(٢) العقد: «أو حيين حيينا»
(٣) ط: «هل تمسى»
(٤) العقد: «وقد سفحت عيناي»
(٥) بعده في العقد:

فردي مصاب القلب أنت قتلته ... ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

(٦) بعده في العقد:

إلى الله أشكو أنها مادرية ... وأني لها بالود ماعشت مكرما

هذا محبُّكِ مطويٌّ على كَمَدِهْ ... صبٌّ[1] مدامعه تجرى على جَسَدِهْ
له يدٌ تسأل الرّحمنَ راحتَه ... ممّا به ويدٌ أخرى على كَبدِهْ
يا مَنْ رأى كلفًا مستهدفًا أسِفًا ... كانت منيّتُه فى طرفِهِ ويَدِهْ[2]

فصاحت الجارية : السلاح ! هذا والله الغناء يامولاى . وسكروا ، وأمر صاحب الدار غلمانه بحفظهم إلى منازلهم ، وبقيت أشرب معه ـ وكان لجيّد الشراب ـ فقال : ياسيّدي ذهب والله ماخلا من أيامي باطلا إذ كنتُ لا أعرفك ، فمن أنت ؟ فأخبرته ، فقبّل رأسي ، وقال : وأنا أعجب من هذا الأدب ، وأنا منذ اليوم مع الخلافة ، ثم سألني عن قصتي فأخبرته خبر الطعام والمعصم ، فأحضر جواريه [ولا أشعر][3] . ثم قال : مابقيَ غير أمّي وأختى ، ولأنزلنّهما إليك . فعجبت من كرمه ، وسعة صدره ، فقلت : ابدأ بالأخت ، ففعل ، فلمّا رأيت معصمها ، قلت : هي هي . فأرسل إلى عشرة مشايخ وأحضر بدرتين ، وقال : أشهدكم أنى قد زوّجت أختى فلانة من إبراهيم بن المهدى ، وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم . فدفعت إليه البدرة الواحدة ، وفرّقت الأخرى على المشايخ ، وانصرفوا ، وقال : ياسيّدي ، أمهّد لك بعض البيوت ، فأحشمني[4] ، فقلت : بل أحملها لى منزلى فى عمارية ، فوحقك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل إلىّ من الجهاز ماضاق عنه بعض دورى .

فتعجّب المأمون من كرمه ، وأمر بإحضاره فصار من خواصّه .

* * *

قوله : « سُحقًا » أى بعداً .

* * *

(١) العقد : جرى مدامعة »
(٢) لم يرد هذا البيت فى العقد .
(٣) من العقد
(٤) أخجله وأحجبه .

[ذكر زنام الزامر]

وزنام الزامر هو الذى أحدث الناى ، وهو المزمار الذى تدعوه عامّتنا بالمغرب الزّلامى ، فصحّفوه بإبدال نونه لاما ، وإنما هو زنامىّ ، وقال فيه الشاعر :

إنّ فى ناى زنام شغلا يشغل العاقل عن ناى زِنَام

قال القاسم بن زرزور الزامر : حدّثنى زنام الزامر ، قال : لما اعتلّ المعتصم علّته التى مات منها ، قال : هيّئوا لى الزلال حتى أركبه ، فهُيِّئ له فركب ، وأتى فيمن معه ، فمرّ بدجلة بإزاء منازله ، فقال : يازنام ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ازمر :

يا منزلاً لم تبلَ أطلالُهُ حاشا لأطلالك أن تَبلَى
العيش أولَى مابكاه الفتى لابدّ للمحزون أن يَسْلَى
لم أبكِ أطلالك لكننىّ بكيت عيشى فيك إذْ وَلَّى

قال : فزمرت ومازلت أردده ، وهو ينتحب ويبكى إلى أن خرج ، ثم توفِّىَ بعد خمسة أيام .

وزِنام سار المثل بضرب زمره وإتقان صنعته .

وكان الواثق مولعاً بزمره بعد أبيه المعتصم ، حدّث حسين بن الضحاك قال[1] : دخلت على الواثق ، فقال : قل الساعة أبياتاً ملاحا حتى أهبَ لك شيئاً مليحا ، فقلت : فى أىّ معنى ؟ قال : فيما شئت بما ترى بين يديك ، فالتفتّ فإذا بساط قد تفتّحت أنواره ، وأشرق فى نور الصبح ، فخجلت وأُرْتِجَ علىّ ، فقال

(١) الأغانى : ٧ : ١٩٦ ، ١٩٧ .

الواثق : ألست ترى نُور صباح ، وَنَوْر أقاح ! فَنُتح لى ، فقلت :

ألستَ تَرَى الصُّبح قد أسفَرا ومنسكبَ الغيث قد أمْطَرا[١]

وأسفرت الأرض عن حُلّةٍ تُضاحك بالأصفر الأحْمَرا[٢]

وتُعمل كأسين فى فتيةٍ تطارد بالأصغر الأكبرا

يحثُّ كئوسهمُ مُخطَفٌ تجاذِب أردافُه المئزرا[٣]

فكلٌّ ينافس فى برّه ليفعل فى ذاته المنكرا

فضحك ، وقال : تستعمل ماقلت ياحسين إلا الفسق فلا ولا كرامة . ثم قال : قوموا بنا إلى حانة الشطّ . فقام إليها ، وشرب وطرب ، وماترك أحداً من المغنّين والجلساء إلا أمر له بصلة. وكان من الأيام التى سارت أخبارها فى الآفاق ، فلما كان من الغد غدوت عليه ، فقال : أنشدنى ماقلتَ فى يومنا الماضى ، فأنشدته :

ياحانة الشّطّ قد أكرمت مثْوانا عودى بيوم سرور كالذى كانا

لا تُفقدينا دعاباتِ الأمير ولا طيب البَطالة إصراراً وإعلانا

وهاج زَمْر زُنامٍ بين ذاك لنا شجواً فأهدى لنا رَوْحا ورَيْحَانا

---

(١) الأغانى : « ومبكر » .

(٢) بعده فى الأغانى :

وَوافاك نَيْسَانُ فى وِرْدِه وحثّك فى الشُّرب كى تَسْكَرا

(٣) بعده فى الأغانى :

ترجّلِ بالبانِ حتّى إذا أدار غدائره وفرّا

وفضّض فى الجُلّنار البهار والآبنوسة والعَبْهَرا

خلنا تمازج ما شذَّرتْ مقاريض أطرافه شذّرا

وَسَلْسَلَ الرَّطْلُ عمرٌو ثم هَمَّ به المُسْتَغِيثُ بخَلْقٍ أَجْرَانا بأولانا
لازلتِ آهلةَ الأوطانِ عامرةً بأكرمِ النّاسِ أعراقاً وأغصانا

ذكرنا هذه الحكاية لظرفها، ولما وقع لنا من الذِّكر في شعر حسن.

* * *

قوله: «زنيا»، أى دعيًا فى الزمر. قال ابن الأعرابى: الزنيم ابن الزانية.

أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا شىء من نسله إلى سبعة آباء».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كانت العباد فيما مضى إذا عبد الله أحدهم أربعين سنة يسعى نوره بين يديه، فعبد الله عابد أربعين سنة وأربعين، فلم يسع له نور، فابتهل إلى الله تعالى فقال: عبدتك أربعين وأربعين، ولم يسع لى نور؛ فأُرِىَ فى منامه أنه لغير رِشدة، فقال: يارب إن كان أبواى أكلا حامضاً أضرس أنا؟! فسعى نوره بين يديه».

قوله: «جيله»، أى أهل عصره.

الزهيم الأول السيد، والثانى الضامن، أراد أنه يضمن لمن سمعه أن يطربه.

وقال أبو الفضل الدارمى فى زامر أسود:

وحالكِ اللونِ كالليلِ البهيمِ له فضائلٌ مشرقاتُ الحسنِ كالفلقِ
تخالُ مجلسنا وجهاً به حسناً إذ صار فيه كخالٍ معجبٍ لبقِ
تراه يحفظ ما يوحَى إليه به وسِرُّه أبداً يهوى بمنخرقِ

يحدو بأنفاسه الأوتار مجتهداً فتستقيم به الألحان في الطرق
أهدى الشباب إليه حسن بهجته فناسب المسك في لون وفي عبق

الحبب: الفقاقيع تعلو الماء والخمر. أزدري: أحتقر. النَّعَم: الإبل وأكرمها الحمر. أحلَى: أزيَن. بتملِّيها: بطول حياتها ومدّتها، والملاوة: المدة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وأملي لهم ﴾. مرآها: رؤيتها. أذود: أدفع. شرائع: طرق. السمر: الحديث بالليل. ألبخ: أشفق، تسري: تسير ليلا. ريّاها: رائحتها الطيبة. يكْهن: يشعر ويحسن، وتكهّن الرجل: تحدث عن الغيب.

* * *

[ذكر سطيح]

وسطيح الغساني أكهن الناس، وأنذر بسيل العرم، فكان يدرج جسده كما يدرج الثوب، خلا جمجمة رأسه، وإذا مسّت باليد أثرت فيه للين عظمها.

ومن كهانته أنه لما كان ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شُرْفة، فأعظم ذلك أهل المملكة، وكتب إلى كسرى صاحب الشام أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة.

وكتب إليه صاحب اليمن أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة.

وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية.

وكتب إليه صاحب فارس أن بيوت النار خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة[1].

فلما تواترت عليه الكتب، أظهر سريره، وبرز إلى أهل مملكته، فأخبرهم

---

(١) هي النار التي كان يعبدها الفرس.

الخبر ، فقال الموبذان : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى ، رأيت إبلا صِعابًا ، تقود خيلا عِرابا ، حتى اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا .

قال : فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى شىء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجّه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان . فبعث إليه، فوجّه عبد المسيح بن بُقيلة الغسانى ، فأخبره كسرى بالخبر فقال : أيها الملك، ما عندى فيها شىء ، ولكن جهّزنى إلى الشأم إلى خالى سطيح . فجهّزه ، فلما قدم عليه وجده قد احتُضِر ، فناداه فلم يجبه ، فقال[2] :

أصمّ أم يسمعُ غطريفُ اليمنْ رسولُ قَيْلِ العُجم يَهْوِى لِلْوَثَنْ[3]
يا فاصلَ الخطّةِ أعيَتْ مَنْ ومَنْ أتاكَ شيخ الحىّ من آل سَنَنْ
أبيضُ فضفاض الرّداء والرَّسَنْ[4]

فرفع إليه سطيح رأسه ، وقال: عبد المسيح، على جمل مُشيح، أقبل إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملِك بنى ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخُمود النيران ، ورؤيا الموبذان ؛ رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عِرابا ، حتى اقتحمت الواد ، وانتشرت فى البلاد . عبدَ المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهِرَاوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملِكات، بعدد ما سقط من الشرفات ، وكلّ ما هو آت آت ، ثم قال[5] :

(١) ط : « نفيلة » صوابه من ا ، ب والطبرى .
(٢) تاريخ الطبرى ٢: ١٦٧ والفائق ١ : ٤٦١ ؛ والرجز هناك أطول وأكمل .
(٣) الطبرى : « يسرى للوثن » .
(٤) الطبرى : « والبدن» .
(٥) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٨ ، وأول الشعر هناك :
شمّر فإنّكَ ماضى الهمّ شِمّيرُ لا يفزعنّك تفريق وتغييرُ

إن كان ملك بنى ساسان أفرطهمْ فإن ذا الدهر طوراً دهاريرُ
منهم بنو الصَّرْح بهرامٌ وإخوته والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
فربّما أصبحوا منهم بمنزلةٍ تَهاب صولَهُمُ الأسدُ البهاصيرُ
حَثّوا المطيّ وجدّوا فى رحيلهمُ فما يقوم لهم سَرْجٌ ولا كُورُ
والنّاس أبناء عَلّاتٍ فمن علموا أن قد أقلّ ، فمحقورٌ ومَهْجُورُ
والخير والشرّ مقرونان فى قَرَنٍ والخير متّبع والشرّ محذور

فأتى كسرى فأخبره ، فغمّه ذلك ، فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا ، يدور الزمان ؛ فملكوا كلّهم فى أربعين سنة.

قوله : «ينمّ» : من النميمة. مُليح : كثير الظهور .

* * *

فاتفق لِوَشْكِ الحظِّ المبخوسِ ، وَنكَدِ الطّالعِ المَنْحُوسِ ، أنْ أَنطَقَتْنِي بوَصْفِهاَ حُمَيَّا المُدَامِ ، عِندَ الجارِ النَّمّامِ . ثمّ ثابَ الفَهْمُ ، بعدَ أنْ صَرِدَ السَّهْمُ ، فأحْسَسْتُ الخَبَالَ وَالوبالَ ؛ وَضَيعَة ما أودِعَ ذَلكَ الغِرْبال ، بَيْدَ أَنى عاهَدْتُه ، عَلَى عَكْمِ مَا لَفظْتُهُ ، وَأَن يحفظ السِّر وَلَوْ أَحفظتُه ؛ فزَعمَ أنَّه يخزُنُ الأسرَار ، كما يخزُنُ اللّئيمُ الدّينار ، وَأنّه لا يَهتِكُ الأسْتارَ ، وَلوْ عُرِّض لأن يَلجَ النّار .

* * *

الحظّ : البخت والنصيب. و وَشْكه: سرعة زواله . المبخوس: المنقوص. نكد : مشقّة . الطالع : نجم الإنسان، والطالع يقابله الساقط . حُمَيّا : حدّة

ثاب : رجع . صيرد : خرج من قوسه ، وأراد بالسهم اللفظ الذي سمع منه جاره الخبال : الفساد . الوبال : الثقل ، وهو وبال عليه أي ثقيل في العاقبة ، وطعام وبيل : ثقيل متخم ، ومنه استوبلت المدينة إذا لم توافق جسمك وإن أحببتها . أودع : جعل فيه . والغربال ، معلوم ، يشبه به النمام حيث لا يمسك ما جعل فيه ؛ قال الحطيئة يهجو أمه :

تنحّيْ فاجلسِي مني بعيداً ... أراحَ اللهُ منكِ العالَمينا (١)
أغربالاً إذا استودعتِ سرّاً ... وكانوناً على المتحدّثينا

كانون : أبرد أيام الشتاء ، ويريد أنها باردة الحديث .

قال كعب بن زهير رضي الله عنه :

ولا تمسَّكُ بالعهدِ الذي زعمتْ ... إلاّ كما يمسكُ الماءَ الغرابيلُ (٢)

وقال في الحماسة :

ولا أكتمُ الأسرارَ لكنْ أنمّها ... ولا أدعُ الأسرارَ تغلي على قلبي (٣)
وإنّ قليلَ العقلِ مَنْ باتَ ليلةً ... تقلّبه الأسرارُ جنباً إلى جنبِ

وقال آخر :

أعززْ عليّ بأخلاقٍ وُسمتُ بها ... عند البريّة يا فالوذجَ السوقِ
تضيقُ بالسرّ ذرعاً إنْ خُصصتَ به ... حتى يُرى دائماً كالنفخِ في البوقِ

وقال في ضده :

ومستخبرٍ عن سرّ ريّا رددته ... بعمياءَ من ريّا بغيرِ يقينِ

(١) ديوانه ٢٧٧ (طبعة الحلبي) .
(٢) ديوانه ٨ .
(٣) ديوان الحماسة ١٨٥ ، والبيتان لسحيم الفقعسي .

وقال انتصحني إنني لك ناصح وما أنا إن خبّرته بأمين

وقال قيس بن الخطيم[1]:

إذا جاوز الإثنين سرٌّ فإنه ببثٍّ[2] وتكثير الحديث قمين[3]
يكون له عندي إذا ما ضمنته مكان[4] بسوداء الفؤاد مكين

وقال العباس بن الأحنف[5]:

تعتَّبت[6] تطلب ما أستحق به الهجر منك ولا تقدر
وماذا يضرك من شهرتي إذا كان سرك لا يشهر
أمني تخاف انتشار الحديث وحظي من صونه أوفر
ولو لم أصنه لبقيا عليك[7] نظرت لنفسي كما تنظر

قوله : « ببث » بمعنى نشر . محكم : زبط . أحفظته : أغضبته . يهتك : يخرق

* * *

فما إن غبر على ذلك الزمان ، إلا يوم أو يومان ، حتى بدا إلى أمير تلك المدرة ، وواليها ذى المقدرة ، أن يقصد باب قيله ، مجددا عرض خيله ، ومستمطرا عارض نيله ، وارتاد أن تصحبه تحفة تلائم هواه ، ليقدمها بين يدى نجواه ،

---

(1) ديوانه ص ١٠
(2) الديوان : « بنشر »
(3) بعده في الديوان :

وإن ضيع الإخوانُ سراً فإنني كتوم لأسرار العشير أمينُ

(4) الديوان : « مقر » .
(5) ديوانه ١٤٦
(6) الديوان : «تعتبت» .
(7) الديوان : « ولو يكن لى بقيا »

وَجَعلَ يَبذلُ الجعائل لروّاده ، وَيُسَنِّى لِمَنْ يُظفِرُه بمراده ، فأسفّ ذلكَ الجارُ الختَّارُ إلى بذوله ، وَعَمَى فى ادّراع العَارِ عَذلَ عـذوله ، فأتى الوالِيَ ناشرًا أُذُنيه ، وَأَبثّهُ ما كُنت أسررْتهُ إليه ، فما رَاعَنى إلّا انسيابُ صاغيَته إلَىّ ، وانثيالُ حَفَدَتهِ عَلَىّ ، يسومُنِى إيثارَه بالدُّرة اليتيمة ، على أن أتحكّمَ عليه فى القِيمة ، فغَشِيَنِى من الهمّ ، مَاغشِىَ فرْعونَ وَجُنُودَه من اليمّ .

* * *

غبَر : مضى . المدَرة : البلدة . قَيله : ملكه الأعظم .

مجدّدا عرض خيله ، أى ليعرض عليه ماعنده من الأجناد . والنَّيل ، أى العطاء . ارتاد : طلب . تحفة : هدية . تلائم ، توافق . هواه : إرادته . نجواه . حديثه مع الملك .

والجُعْل : حق من دلّك على حاجة ، والجعالة بمعناه ، والجعائل جمعها . يُسنّى : ييسّر وأصل الرّوّاد طلاب المرعى ، واحدهم رائد ، وأصل الوسائل ، أسباب الود .

أسفّ : انحط ودنا ، وأسفّ الطائر : تدلّى نحو الأرض لشىء يأخذه ، وأسفّ الرجل : طلب مذاق الأمور .

والجار الختّار : الخدّاع بذوله : عطاؤه . ادّراعه : لبسه الدرع . ناشراً أذنيه ، أى طامعا ، وهو مثل . أبثّه : قال له سرّا .

قوله : «راعنى» أى أفزعنى .

انسياب : دخول . صاغيته : حاشيته . ومن يميل إليه .

انثيال : انصباب . حَفدته : أتباعه

يسومني : يعرض عليّ ، إيثاره : تفضيله على نفسي .

الدرّة اليتيمة : الجوهرة النفيسة،وبهذا سمّى الثعالبي كتابه الدرة اليتيمة ،أى الدّرّة المنفردة التى لا مثل لها . واليتيمة درّة مشهورة فى البيت الحرام أكبر من بيضة الحمامة ، استخرجها من البحر كلب جاء ليَلَغ ، فتعلّقت محّارتها بفمه ، فنفضها فى البرّ ، فهى من عجائب الدّنيا .

ومن عجائبها الحافر ، وهو حجر ياقوت ، شبه حافر الفرس ألصقه أمير المؤمنين بمصحف عثمان .

والغريبة الثالثة : فرس ذهب لم يصنعه صانع ، إنما وجد فى معدن الذهب وهو عند ملك الحبشة بخانة .

والذى غشى فرعون وجنوده من اليمّ ، هو الغرق . واليمّ : البحر الذى ذهبت نفوسهم فيه .

[تكملة قصة موسى]

ولا بد أن نلمّ بنبذة من خبره ، نكمل بها القصّة حسبما شرطنا ؛ وذلك أنّ موسى عليه الصلاة والسلام ، لمّا خرج فارًّا من فرعون حسبما قدمناه فى الخامسة،توجّه إلى مدين ، فبلغها كالاًّ جائعاً فقيراً ، فوجد الناس يسقُون كما نص الله تعالى:﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأتين تَذُودان ﴾[1] ، أى يحبسان غنمهما،فأخبرتاه بأنهما لا يسقيان حتى يُصدر الرعاء ، وأن لهما أبًا شيخاً كبيراً ، فرحمهما واقتلع الصخرة عن البئر ـ وكان لا يرفعها إلا نفرٌ ـ فلاً وسقى لهما ، ثم تولّى إلى ظلّ شجرة مثمرة فقال : ﴿رَبِّ إنى لِمَا أنزلتَ إلىّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ﴾[2] .قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال هذا موسى ، ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خُضْرة أمعائه من شدة الجوع لفعل ـ أراد خضرة البقل الذى أكل فى طريقه ـ فرجعت الجاريتان بسرعة إلى أبيهما ، فأنكر مجيئهما قبل الوقت الذى جرت العادة بمجيئهما

(١) سورة القصص ٢٣
(٢) سورة القصص ٢٤

فيه ، فأخبرتاه خبر موسى ، فأرسل إلى إحداهما فأتته وهي تستحيي منه ، فقالت: ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾(١) . فمشى معها وهي بين يديه فضرب الريح ثوبها ، فنظر إلى عجيزتها فقال لها: امشي خلفي ، ودليني على الطريق ، فلما أتى الشيخ سأله عن شأنه ، فقص عليه قصته فقال: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾(٢) . فقالت التي دعته: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾(٣) فقال لها الشيخ: أما القوة فقد خبرته بقلع الصخرة، فما يدريك أمانته ؟ قالت له : إني مشيت أمامه فلم يحب أن يخونني وردني خلفه . فقال له: ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين..﴾(٤) إلى آخر القصة

فلما قضى أجله ، وسار بأهله ، وكان في شتاء ، رفعت له نار فلما رأى فكانت من نور الله تعالى، فقال لأهله : ﴿امكثوا إني آنست نارا...﴾(٥) الآية، ومعنى تصطلون، أي من البرد فكان عند إتيانه لها ما أخبر الله تعالى من أنه ﴿نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين﴾(٦) . ثم قال له : ﴿وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ أي أضرب بها ورق الشجر للغنم ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾(٧): من حمل الزاد عليها والسقاء وغير ذلك ، فقال له ﴿ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾(٨) . ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب﴾(٩)

---

(١) سورة القصص ٢٥ [illegible] (٢) سورة القصص [illegible]
(٣) [illegible] (٤) سورة القصص ٢٧
(٥) سورة القصص ٢٩ (٦) سورة النمل ٨
(٧) سورة طه ١٧ ، ١٨ . (٨) سورة طه ٢٠
(٩) سورة القصص ٣١ .

أى لم ينظر فنودى ﴿لا تخف إنك من الآمنين﴾[1] الآيات .

فسأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون ردءاً ، أي عوناً لكونه كان أفصح منه لساناً للجمرة التي كانت أحرقت لسانه فى صغره ، فثقل لسانه فقال تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[2]

فأقبل موسى إلى أهله فسار بهم إلى مصر ، فدخلها ليلا فنزل ضيفاً بأمه وأخيه ، وهم لا يعرفونه وهارون غائب ، فنزل بجانب الدار ، وجاء هارون فسأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف ، فدعاه وأكل معه ، ثم سأله : من هو ؟ فقال : أنا موسى ، فقام كل واحد منهما لصاحبه واعتنقه .

قال له موسى : ياهارون ، إن الله قد أرسلني وإياك إلى فرعون ، فانطلق معي ، فقال : سمعاً وطاعة ، فصاحت أمهما ، وقالت : نشدتكما الله تعالى ألا تذهبا إليه فيقتلكما ، فتركاها ثم انطلقا إليه ليلا فى قول السدى وضربا الباب ، فكلمهما البواب ، فقالا له : ﴿إنا رسول رب العالمين﴾[3] ، ففزع البواب ، فأتى فرعون فأخبره أن مجنونين بالباب يزعمان كذا ، فقال : أدخلهما .

وأما ابن إسحاق فحدث أنهما وقفا على باب فرعون ، يلتمسان الإذن ، يغدوان ويروحان سنتين ، وفرعون لا يعرف بهما حتى دخل مُلْهٍ له ، فقال له : أيها الملك ، إن على الباب رجلا يزعم أن له إلهاً غيرك ، فقال : أدخلوه ، فدخلا وبيد موسى عصاه ، فلما وقفا عرفه فرعون ، فقالا : إنا رسول رب العالمين ، فجاوبه بقوله ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ..﴾[4] الآيات ، ثم ذكره أياديه قبله .

قال له موسى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[4] ، أى

---

(١) سورة القصص ٣١
(٢) سورة القصص ٣٥ .
(٣) سورة الشعراء ١٨
(٤) سورة الشعراء ١٨ ـ ٢٢

اتخذتهم عبيدا ، تقتل من شئت وتسترق من شئت . فقال له ﴿وَمَا رَبُّ العالمين[1]﴾ فأراه الآية الكبرى فى العصا ، أن ألقاها فإذا هى ثعبان مبين ، ملأت ما بين السماطين فاتحة فاها ، قد صار محجنها على ظهرها ، فارفض الناس ، ومال فرعون عن سريره ، فناشد موسى ربه ، فأدخل يده فى جيبه ، فأخرجها بيضاء كالثلج ، ثم ردها ، فعادت هيئتها ، ثم وضع يده على الحية فصارت عصا كما كانت أول مرة ، وأخذ فرعون بطنه — وكان فيما يزعم يمكث الخمس والست ولا يلتمس الخلاء — وكان ذلك مما زين له أنه ليس له شبيه فى الناس — فقال للملأ : إن هذا لسحر عظيم ، فجمع السحرة ، ووعدهم ليوم العيد ، وأن يحشر الناس ضحى ، يحضرون أمرهم مع موسى ، فاجتمعوا لذلك اليوم ، فصف خمسة عشر ألف ساحر ، كل ساحر له نوع من السحر ، فخرج موسى يتوكأ على عصاه ، حتى أتى الجمع ، وفرعون فى مجلسه مشرف على وجوه أهل مملكته فقال لهم موسى : ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كذباً فيسحتكم بعذاب .. ﴾[2] الآية .

فقال بعضهم لبعض : أهكذا يقول ساحرا فخيروه فى أن يلقى أو يلقوا ؟ فقال : بل ألقوا ، فخيلوا بحبالهم وعصيهم أشياء حيروا بها العقول ، من حيات قد ملأت الوادى ، يركب بعضها بعضاً ، ونيران تحرق فى ظاهرها ما مرت به وظلم متكاثفة ، كما وصف الله تعالى ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وجاءوا بسحر عظيم﴾[3] ، ففزع موسى وأخوه لهول ما رأيا وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فى نفسه خِيفة مُوسَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى .. ﴾[4] الآيات . فألقى موسى عصاه ، فجعلت تلقف كل ما خيلوا به ، وكانوا جلبوا آلاتهم فى السفن فى النيل ، فابتلعت السفن ، وأقبلت فاتحة فاها ،

(١) سورة الشعراء ٢٣ .
(٢) سورة طه ٦١ .
(٣) سورة الأعراف ١١٦
(٤) سورة طه ٦٨ .

على قُبّة فرعون بمن فيها ، ففروا وتعلّقوا بموسى يستنقذون به. فأخذها موسى، فإذا هى عصًا فى يده كما كانت، فوقع السّحرة سُجّدًا قائلين: ﴿آمنا برب هَارُونَ وموسى﴾[1] لما تبيّنوا أن أمر العصا إلهى ،ليس من تخاييلهم ، فقال لهم فرعون: ﴿آمَنْتُمْ لهُ قبْلَ أنْ آذَن لكم ...﴾[1] الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى﴾ ، أى لاسلطان لك إلا فى الدنيا ولا سلطان لك بعدها ، ﴿ قالُوا رَبّنا أفْرِغْ علينا صَبْرًا وَتَوَفّنا مسلمين﴾[2]، فقتلهم فكانوا أول النهار سحرة وآخره شهداء .

ثم أمر الله تعالى نبيّه موسى أن يخرج بنى إسرائيل فقال : ﴿أَسْرِ بعِبَادِى لَيْلا﴾[3] .

فأمرهم أن يستعيروا الحلىّ من القبط، فخرجوا ليلا ، وألقى الله على القِبط النوم ، حتى طلعت الشمس ، وكان موسى على ساقة بنى إسرائيل وهارون على المقدّمة ،وعدد بنى إسرائيل ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل ، لا يَعدّون ابنَ العشرة لصغره ، ولا ابن الستين لكبَره . وتبعهم فرعون ، وعلى مقدّمته هامان وهم فى ألف ألف وسبعمائة ألف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فأرسَلَ فِرْعَونُ فى المَدَائِنَ حاشِرِينَ﴾[4]. فَلمّاَ تراءى الجمعان، قالُوا : يامُوسَى أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أن تأتينَا بالذبح ومن بعدما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا ! فقال : ﴿ كلاّ إنّ مَعِى ربى سيهدين﴾[5].

فأتى موسى البحر، وكنّاه أبا خالد ، فضربه بعصاه، فانفلق فكان﴿ كلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم﴾[6]، والطود : الجبل،فصار فى البحر اثنا عشر طريقا فدخل كلّ سِبْط طريقَه، وكلّ سبط يقول:قتل أصحابنا ففتح الله بينهم قناطر،فنظر آخرُهم إلى

(١) سورة طه ٧٠ ــ ٧٣
(٢) سورة الأعراف ١٢٦ .
(٣) سورة الدخان ٤٣
(٤) سورة الشعراء ٣٥
(٥) سورة الشعراء ٦٢
(٦) سورة الشعراء ٦٣

إلى أوّلهم . وجاء فرعون ومَن معه ، فأبت خيله أن تقتحم ، فاقتحمها جبريل على فرس أنثى ، فاقتحمت الخيل فى أثره ، فلما توسط البحر ، أُمِر البحر أن يأخذهم ، فانضم عليهم ، فلما أدرك فرعون الغرق ، قال : ﴿ آمَنْتُ أنّه لاَ إلهَ إلاَّ الذى آمنت به بنُو إسرائيل ﴾[1] وجعل جبريل يدسّ الطين فى فمه لئلا يتمّ الكلمة ، فيرحمه الله ، وميكائيل يقول : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾ .

وأخرج الله بدن فرعون ميتاً ، حتى عرفه بنو إسرائيل ، فهذا هو الذى غشيَ فرعون وجنوده من اليمّ .

* * *

وَلَم أَزلْ أُدَافع عَنهاَ وَلا يُغْـنِي الدِّفاعُ ، وَأَسْتَشْفِـعُ وَلا يُجْدِي الاستِشْفاع ، وَكلَّما رَأَى مِنِّي ازْدِيادَ الاعْتِياص، وَارتِيادَ المَنَاصِ ، تجـرَّمَ وَتضَرَّم ، وَحَرَّقَ عَلىّ الأرَّمَ ، وَنفسِي مَع ذلِكَ لاَ تَسْمح بِمفارَقَةِ بَدْرِي ، ولا بِأَن تنزعَ قلْبِي مِنْ صَدْرِي ، حَتى آل الوعيدُ إيقاعاً ، وَالتقْرِيعُ قِراعاً ، فقادنِي الإشفاقُ من الْحَيْنِ ، إلى أن قِضتُه سَوَادَ الْعَيْن ، بِصُفْرَةِ الْعَيْن ، وَلم يَحْظَ الوَاشي بِغَيرِ الإثمِ وَالشَّيْنِ .

* * *

قوله : الاعتياص : أى التصعّب ، واعتاص الشىء اعتياصا : تصعّبَ وتلوّى . المناص : الملجأ والمفرّ .

وتجرّم : أتى الجُرْم . و تَضرّم : اشتدّ غضبُه . والأرّم : الأسنان. وحرّق:

(١) سورة يونس ٩٠ .

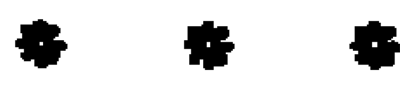
عض بعضَها على بعض ، حتى صوّت ، وذلك لشدة الغيظ ، وهو مثَل . آل : رجع . الوعيد : التّهديد .

قراعا : ضربا ، والقراع : الخبط والضرب ، والتّقريع : الأخذ باللسان ، يريد : عدّدونى ، فلما أبيت ضربونى .

الحيْن : الموت . قضته : عاوضته وبادلته . سواد العين : جاريته التى هى نور عينه .

صفرة العين : لون الدنانير . لم يحظ : لم يأخذ حظوة ، وهى النصيب .

والواشى : النّمام ، سمّىَ واشيا لاستخراجه الأخبار وتوصّله إلى معرفتها ، من قولهم : فلان يوشّى الخبر ، إذا استخرجه ؛ وقيل : سمِّىَ واشياً لتحسينه ما ينقُل من الأخبار ، وثوب موشّى : محسّن بما فيه من النُّقوش . وقيل : هو من الشِّيَه ، وهى العلامة ، كأنه جعل لنفسه علامة من الوصف القبيح . والشين : العيب.



[ذكر بعض حكايات الجاريات المتأدبات]

وعلى وصف الجارية المذكورة بالأدب والجمال نريد أن نسوق فصلا فى الجوارى ذوات الأدب ممّن أهدِيت إلى ملك كحال هذه ، أولها معه سبب :

حدث الأصمعى (١) قال : بعث لى هارون الرشيد وهو بالرّقّة ، فحُمِلت إليه ، فأنزلنى الفضل بن الربيع ثم أدخلنى عليه وقت المغرب ، فاستدنانى ، وقال لى : ياعبد الملك ، وجّهتُ فيك بسبب جاريتين ، أهدِيتا إلىّ ، لهما أدب ، أحببت أن تبرِزهما عندها ، وتشير علىّ بالصواب فيهما .

(١) الخبر فى تاريخ بغداد ١٦ : ٤١٢ ، إنباه الرواة ٢ : ١٩٩ ، المحاسن والأضداد ٢٥٥

ثم أمر بإحضارهما فأحضِرَتا ، فرأيت جاريتين ما رأيت مثلَهما قطّ ، فقلت لإحداهما: ما عندكِ من العلم؟ فقالت : ما أمر الله في كتابه، ثم ماينظر النّاس فيه من الأخبار والأشعار . فسألتها عن حروفٍ من القرآن، فأجابتنى كأنها تقرأ القرآن من كتاب، ثم سألتها عن الأخبار والأشعار والنّحو والعروض، فما قصّرت فى جوابى فى كلّ فنٍّ أخذتُ فيه ، فقلت لها : فأنشدينا شيئاً ، فأنشدت :

يا غياثَ العِبَادِ فى كلّ مَحْلٍ   ما يريد العباد إلاّ رِضَاكا

لا ومَنْ شرّف الإمام وأعلَى   ما أطاع الإلَهَ عبدٌ عصاكا

فقلت : ياأمير المؤمنين ، ما رأيت امرأة فى مَسْك[1] رجل مثلها .

وخبَرْت الأخرى، فوجدتها دونها ، فأمر أن تُصْنَع[2] تلك الجارية لتحمَل إليه فى تلك الليلة ثم قال : ياعبد الملك ، أنا ضَجِر ، وأحبّ أن تُسمِعنى حديثا مما شهدت من أعاجيب الزمان أتفرّج به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان لى صاحب فى بَدْو بنى فلان ، وكنت أغشاه ، وأتحدث إليه ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة ، وهو أصحُّ النفوس ذهناً وأقواهم بَدَنا ، فغبت عنه ، ثم أتيته فوجدته ناحلَ البدن ، كاسفَ البال، فسألته: ماسبب تغيّره؟ فقال: قَصَدْتُ بعض القرابة ، فألفيت عندهم جارية ؛ قد طَلَتْ بالورس بدنَها ، وفى عنقها طبل تنشد عليه :

محاسنها سهامٌ للمنَايا   مُرَيّشةٌ بأنواع الخطوبِ

ترى ريب المنون بهنّ سهما   يُصيب بنَصْلِهِ مُهَجَ القلوبِ

فقلت :

فنى شَفَتى فى موضع الطَّبْل ترتمى   كما قد أبحتِ الطبل فى جيدك الحسَنْ

(١) المسك ، بالفتح : الجلد .
(٢) صنعت الجارية ، بالبناء للمجهول : أحسن إليها حتى سمنت .

هبينىَ عوداً يابسا تحت شِقّةٍ يحتّم فيما بين نحرِك والذَّقَنْ

فلمّا سمعت الشعر ، رمت بالطبل فى وجهى ، ودخلت الخيمه ، فوقفت حتى حمِيَت الشمس على مفرق رأسى ، فلم تخرج ، فانصرفت بقريح القلب ، فهذا التغيُّر من عشقى لها .

فضحك الرشيد حتى استلقى، ثم قال: ويلك ياعبدالملك ! ابنُ ست وتسعين يعشق! فقلت له: قد كان هذا ، فقال : ياعباس ، أعْطِ عبد الملك مائة ألف درهم ، ورُدّه إلى مدينة السلام .

فانصرفت ، ثم أتانى الخادم ، فقال: أنا رسولُ بنتك ـ يعنى الجارية ـ تقول لك: إنّ أمير المؤمنين أمر لها بمالٍ وهذا نصيبك ، فدفع لى ألف دينار ، فلم تزل تواصلنى بالبرّ الواصل ، حتى كانت فتنة محمد ، وانقطع خبرُها عنّى ، وأمر لى الفضل بعشرة آلاف درهم .

وحدثّ على بن الجهم ، قال: لما أفضتِ⁽¹⁾ الخلافة إلى المتوكل ، أهدى إليه الناس على أقدارهم ، فأهدى إليه ابن طاهر جاريةً أديبة ، تسمَّى محْبوبة ، تقول الشعر ، وتلحّنه ، وتحسِنُ مِنْ كلّ علم أحسنَه ، فحلّت من قلب المتوكل محلاً جليلا ، فدخلتُ يوما للمنادمة ، فخرج وهو يضحك . فقال: ياعلىّ ، دخلت فرأيت محبوبة قد كتبت على خدّها بالمسك « جعفر » ، فما رأيت أحسن منه ، فقل فيه شيئاً ، فسبقتنى محبوبة ، فقالت وأخذت عودها ، وغنّتْ :

وكاتبةٍ بالمِسْكِ فى الخدّ جعفراً بنفسى مخطّ المسك مِنْ حَيثُ أثّرا

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٩ : ١٣٣ ، ١٣٤ (ساسى) والمحاسن والأضداد ٢٥١ ، ٢٥٢ .

لئن أوْدَعَتْ سطراً من المِسْك خدّها لقد أودعَتْ قلبي من الوجد أسطُرَا
فيا مَنْ مناها في السَّرِيرةِ جعفرٌ سقَى الله من سقيا ثناياكِ جعفرَا
ويا مَنْ لمملوك يظل مليكه مطيعاً له فيما أسرّ وأجهرا
ويا مَنْ لعيني مَنْ رأى مثل جعفرٍ سَقَى الله صوبُ المُسْكِرَات لجعفرا!

قال: فتقلّبت خواطري، حتى كأنّي ما أحسن حرفًا من الشِّعر، فقلت للمتوكل: أَقِلْني، فقد والله عزب ذهني عني، فلم يزل يعيّرني به.

ثم دخلت عليه بعد ذلك للمنادمة، فقال: يا عليّ، أعلمت أني غاضبت محبوبة، وأمرتها بلزوم مقصورتها، ومنعت أهل القصر من كلامها؟ فقلت: يا سيّدي، إن غاضبتَها اليوم، فصالِحْها غدا. فدخلتُ عليه من الغَدِ، فقال: ويحك ياعليّ! رأيت البارحة في النّوم كأنّي صالحت محبوبة، فقالت جاريته: شاطر، ياسيدي، لقد سمعت الآن في مقصورتها هَيْنَمة، فقال: قم حتى ننظر ما هي، فقامَ حافياً، حتى قربنا من مقصورتها، فإذا هي تغنّي، وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلّمني[1]
كأنني قد أتيت معصيةً ليست لها توبة تخلّصني
فمَنْ شفيع لنا إلى مَلِكٍ قد زارني في الكَرَى وصالَحَني
حتى إذا ما الصباح عادَ لنا عادَ إلى هجره فصَارَمني[2]

فصفّق المتوكل طرباً، فلمّا سمعته خرجتْ تقبّل رجليه، وتمرّغ خدّها في التراب، حتى أخذَ بيدها راضياً عنها.

(١) المحاسن والأضداد: كي أرى أحد.
(٢) المحاسن والأضداد: «فقارقني»

حدث أبو عليّ بن الأسكريّ المصريّ ـ وأسكر هي القرية التي ولد بها موسى عليه السلام ـ قال : كنت[1] من جُلاّس تميم بن أبى تميم ، وممن يخفّ عليه ، فأُتِيَ من بغداد بجارية رائعة فائقة الغناء ، فدعا جلاسه ، ومُدّت الستارة ، فأمرها فغنّت :

وبدا لَهُ من بعدما اندمَلَ الْهَوَى ... برقٌ تألّق موهناً لمعانُهُ
يبدو كحاشيةِ الرّداء ودُونَه ... صعب الذّرى متمنّع أركانُهُ
وبدا لينظر كيف لاح فلم يطِقْ ... نظراً إليه وصدّه أشجانُهُ[2]
فالنّار ما اشتملت عليه ضُلوعه ... والماء ما سَمَحَتْ به أجفانُهُ[3]

قال : فأحسنت ما شاءت ، وطرب تميم ومَنْ حضر ، ثم غنّت :

سَيُسْلِيك عمّا فات دولة مفضلٍ ... أوائله محمودة وأواخِرُهْ
ثَنَى الله عِطفَيْه ، وألّف شخصه ... على البرّ مُذْ شُدّت عليه مآزِرُهْ

فطرب تميم ومَنْ حضر طرباً شديداً ، ثم غَنّت :

أستودع الله فى بغدادلى قمراً ... بالكَرْخ مِن فَلَك الأزرار مطلَعُهُ

فأطرب تميم فى الطرب جدًّا . ثم قال لها: تمنّيْ ما شئت ، فلك مناك ، فقالت: أتمنّى عافية الأمير وسعادته ، فقال : لا بدّ والله ، فقالت : على الوفاء أتمنّي أيها الأمير ، فقال: نعم فقالت : أتمنّي أن أغنّى هذه النوبة ببغداد . فتغيّر وجه تميم ، وتكدّر المجلس ، وقمنا . فلحقني بعضُ خدمه ، فردّني . فلمّا وقفت بين يديه ، قال لى : ويحك ! أرأيت ما امتحنّا به ، ولأبدّ من الوفاء : وما أثق فى هذا

(١) الخبر فى محاسن الأضداد ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) المحاسن والأضداد : « هيجانه » .
(٣) المحاسن والأضداد : « سحت به أجفانه » .

بغيرك ، فتأهبْ لتحملَها إلى بغداد ، فإذا غنّت هناك ، فاصرفها ، فقلت : سمعًا وطاعة ، فأصحبها جاريةً سوداء تخدمها وتعادِ لها ، وأمر لى بناقة وبجمل عليه هودج ، فأدخِلْت فيه ، وسرنا مع القافلة إلى مكة ، فقضينا حجّنا . ثم لما وردنا القادسية ، أتتنى السّوداء ، فقالت لى : تقول لك سيدتى : أين نحن؟ فقلت : نحن نزول بالقادسيّة ، فأخبرتها ، فسمعتُ صوتَها قد ارتفع بالغناء :

لمّا نزلنا القادسيّـــــة حيثُ مجتمع الرِّفاقِ[1]
وشممت من أرض الحجـــاز نَسِيمَ أنفـــاسِ العِرَاقِ
أيقنت لى ولمـــــن أحـــــبّ بجمع شَمْـــلٍ وَاتفاقِ
وضحكت مِنْ فَرَحِ اللّقــا ء كما بكيتُ من الفراقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة : أعيدى أعيدى ، بالله ! فما سُمِع لها كلمة .

فلما نزلنا الياسريّة[1] على خمسة أميال من بغداد فى بساتين متّصلة يَبيتُ الناس بها ، ثم يبكّرون ببغداد . فلمّا قرب الصباح إذا بالسوداء قد أتتنى مذعورة ، فقالت : إن سيدتى ليست حاضرة ، ووالله لا أدرى أين هى ؟ فطلبتها فلم أجدها ، ولا وجدت لها ببغداد خبرًا ، فقضيت حوائجى ببغداد ، وانصرفت إلى تميم ، فأخبرته خبرَها ، فلم يزل واجمًا عليها .

وأخبار القيان كثيرة فلنقتصر على هذا القدر .

* * *

[نبذ من أقوال الحكماء فى الوشاة وبعض حكاياتهم]

ومما جاء فى الواشى ، ما حُكِىَ أن رجلا وَشَى برجل إلى بلال بن

(١) الياسرية : قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى ، بينها وبين بغداذ ميلان ، وفى ا ، ب « الناصرة » ، وهو خطأ .

أبي بردة، فقال للساعي: انصرف، حتى أكشف عمّا ذكرت، فلمّا كشف عن الساعي، إذا هو لغير رِشْدة، قال: نبأنا أبو عمرو ـ وما كَذَبت ولا كُذّبت ـ حدّثني أبي عن جدّي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الساعي لغير رشدة».

وذُكر السعاة عند المأمون، فقال: لولم يكن من عيبهم إلا أنهم أصدق مايكونون أبغض ما يكونون عند الله.

وقال ذو الرياستين: قبول النميمة شرّ من النميمة، لأن النميمة دلالة، والقبول إجازةٌ، وليس مَنْ دَلّ على شيء كمن قبله وأجازه، وقد جعل الله السامع شريك القائل، فقال: ﴿سمّاعون للكذب﴾.

وقال الشاعر:

لعمرُكَ ماسبّ الأميرَ عدوُّه ولكنّما سبّ الأميرَ المبلِّغُ

ووشَى واشٍ بعبد الله بن همام السّلولي إلى زياد، فقال له: إنه هجاك، فقال: أجمع بينكما، قال: نعم؛ فبعث إلى ابن همام، وأدخل الرجل بيتاً، فقال زياد: يابنَ همام، بلغني أنك هجوتني، فقال: كلاّ، أصلحك الله ما فعلت، ولا أنت لذلك بأهل، فأخرج الرجل، وقال: إن هذا أخبرني، فأطرق ابن همام هُنيهة، ثم أقبل على الرجل فقال:

وأنت امرؤٌ إما ائتمنتك خالياً فخنتَ، وإمّا قلت قولاً بلاعِلْمِ
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلةٍ بين الخيانة والإثم

فأعجب زياد بجوابه، وأقصى الواشي ولم يقبل منه.

قال الشاعر:

لا تقبلنّ نميمةً من قائل وتحفظنّ مِنَ الّذي أنبا كَهَا

إن الذى أنبـــاك عنه نميمةً سيدِبُ عنك نميمةً قد حاكها

علىّ بن أبى طالب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى قال: يارب إنى حيث ذهبت لا أنصر ولا أخذَل، فأوحى الله إليه: إن فى عسكرك غمّازا، قال: يارب دلّنى عليه، قال: يا موسى، أبغض الغماز، فكيف أغمِز!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبغضكم إلىّ المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، والملتمسون بين البراءة العيب».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربعة يؤذنون أهل النار على ما بهم من الأذى»، وذكر رجلا يأكل لحوم الناس، ويمشى بالنميمة.

* * *

فعاهَدْتُ اللهَ تَعَالَى مُذْ ذلك الْعَهْدِ؛ ألّا أحاضر نمّاماً من بَعْد، والزُّجاجُ مخصوصٌ بهذه الطِّبَاع الذّميمة، وَبِهِ يُضْرَبُ المثلُ فى النّميمة؛ فقدجَرى عليهسَيْلُ عَينِي؛ ولذلِكُمُ السَّبَبِ لم تمتدّ إليهِ يمينى.

فلا تعذِلونِى بَعْدَ ماقَدْ شَرحتُهُ عَلَىأنْ حُرِمْتُمْ بِىاقتِطَافَ الْقَطائِفِ
فَقَدْبانَ عُذْرِىفى صَنِيعِى وإنّنِي سأَرْتُقُ فَتْقِي من تَلِيدِي وَطَارِفِى
عَلَى أنّمازوّدتُكمْ من فُكَاهَةٍ أَلَذُّ من الحَلْوَى لَدَى كُلِّ عارف

* * *

[من أقوالهم فى النميمة]

قوله: «والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة»، قال السرى[١] فيما يتعلق بالزجاج من النمّ:

رأيك تبدى[٢] للصديق نوافذا عدوك من أمثالها[٣] الدّهرَ آمنُ
وتكشف أسرارَ الأخلّاء مازحًا ويارب مزح راح[٤] وهو ضغائنُ
سأحفظ مابينى وبينك صائنا عهودك، إن العهد للمرء صائنُ[٥]
وألقاكَ بالبشر الجميل مداهنًا فلى منك خلٌ ماعلمت مداهنُ
أنمّ بما استودعته من زجاجة يرى الشىء فيها ظاهراً وهو باطنُ

وقال ابن المعتز:

لحى الله امرأ أعطاك سرًّا فضيّعه وفضّ الله فاهُ
فإنك كلّما استودعت سرًّا أنمّ من الزجاج بما وعاهُ

وقال السرى:

أستودع الله خلًّا منك أو سمعه وُدًّا ويوسعنى غشًّا وتمويها[٦]
كأن سرِّىَ فى أحشائه لهب فما يطيق له ضمًّا[٧] حواشيها
قد كان صدرك للأسرار جندلة ضنينة بالذى تخفى نواحيها
فصاد[٨] من بثّ ما استودعت جوهرةً رقيقة تستشفّ العينُ ما فيها

---

(١) هو السرى الرفاء، ديوانه ٢٦٧، وفيه: «وقال يعاتب صديقا له أسر إليه حديثا فأذاعه».
(٢) الديوان: «تسدى».
(٣) الديوان: «من أوصابها».
(٤) الديوان: «عاد».
(٥) الديوان: «إن الحر للعهد صائن».
(٦) ديوانه ٢٢٧.
(٧) ديوانه: «طيا».
(٨) الديوان: «فصار».

وله أيضاً :

ثنائى عنك ما استشعرت سرًّا   خلالٌ فيك لستُ لها براضِ[1]
وإنّك كلّما استُودِعتَ سرًّا   أنمّ من النّسيم على الرياضِ

قوله : «وبه جرى[2] المثل فى النميمة» ، يقال : أنمّ من الزجاجة على مافيها ، لأنه جوهر لايكتم مافيه .

[نتف من أقوال البلغاء فى وصف الذهب والزجاج]

قال الأصبهانىّ : مازال البلغاء يتعاطون وصف هذا الجوهر[3] ، فعبّروا عن مدحه وذمّه ، فأماذمه فإن إبراهيم بن سيار النظام أخرجه فى كلمتين بأوجز لفظ ، وأتمّ معنى ، فقال : سريعُ الكسر ، بطىء الجَبْر .

وقال فى الذهب : الذهب لئيم ، لأن الشكل يصير إلى شكله ، وهو عند اللئام أكثر منه عند الكرام .

وأما سهل بن هارون ، فكان يوماً بمجلس أحد الملوك ، وشدّاد الحربىّ يعدّد خصال الذهب ، فقال: هو أبقى الجواهر على الدّفن ، وأصبرها على الماء ، وأقلّها نقصا فى النار ، وهو أوزن من كلّ ذى وزن، إذا كان فى مقدار شخصه ، ولو وضعت على ظهر الزئبق فى إنائه قيراطا من ذهب ، لرسبَ حتى يضربَ قعر الإناء ، وسائر الجواهر تطفو فوقه ؛ ولو كان الجوهر ذا وزن ثقيل، ورجع عظيم ولا تشدّ الأسنان المتقلقلة بغيره ، ولا يُوضع فى مكان الأنوف المصطلمة سواه ، وميله أجود الأميال ، والمتند يُمرّه فى العين بلا كحل لصلاح طبعه ، وعليه مدار التبايع مذكان التبايع ، وهو ثمن لكل شىء ، وهو الزرياب[4] والصّفائح التى تكون فى سقف الملوك ، والطبخ فى قُدوره أغذَى وأمرأ .

(١) ديوانه ١٠٧ .
(٢) ا : « وبه يضرب المثل »
(٣) أى الزجاج
(٤) الزرياب : الذهب الخالص .

وسئل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن الكبريت الأحمر ، فقال : هو الذهب ؛ فأدرك سهل بن هرون من الغيرة والحسد مادعاه إلى معارضته ، فقال يذمّ الذهب ، ويفضّل الزّجاج : الذهب مخلوق والزجاج مصنوع ، وإن فضله الذهب بالصلابةَ فضَله الزجاج بالصفاء ، والزجاج أبقى على الدّفن ، والزجاج نور علوىّ، والذهب متاع سيّال ، ولم تتخذ الناس آنية للشراب[1] أجمع لما يريدون من الشراب منه ، والشراب فيها أحسن منه فى كلّ معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ، ولا يثقل اليد ، ولا يرتفع فى السّوْم .

وكان سليمان إذا شرب فى إناء كلحت فى وجهه مَرَدة الجنّ ، فعلّمه الله تعالى صنعة القوارير ، فحسم عن نفسه تلك الجراءة . ومَنْ كَرع فيه فكأنّما كرع فى إناء من ماء وهواء ونور ، وقد تقدح النار من كسر قِنّينة الزجاج إذا كان فيها ماء لأنّ طبع الزجاج والماء ، والهواء والشمس واحد ، وليس فيما يدور الفلك عليه أقبل لكلّ صِبْغ منه وأجدر ألاّ يفارقه؛ حتى كأن ذلك الصّبغ جوهرية فيه . ومتى سقط عليه ضياء أنفذه إلى الجانب الآخر ، وأعاره لونه ، فإن كان الجام ذا لونين ، أراك الوشىُ أحسَن من وشى صنعاء ، ومن ديباج تُسْتَر وإذا وقع شعاع المصباح على جوهر الزّجاج صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً ، وردّ الضياء كل واحد منهما على صاحبه . واعتبروا ذلك بالشّعاع الذى يسقط على المرآة على وجه الماء ، أو على الزجاج ، ثم انظروا كيف يتضاعف نوره ، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعشاه وربما أعماه ، قال الله تعالى: ﴿ اللهُ نور السّموات والأرضِ مثلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المِصْبَاحُ فى زُجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّىّ ﴾[2] ، والزيت فى الزجاجة نور على نور . قال الله تعالى : ﴿ إنّ صرحٌ ممرّد من قوَارِير ﴾[3] .

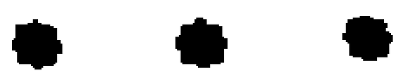
---

(١) ط ، ب : « الشراب » .
(٢) سورة النور ٣٥ .
(٣) سورة النمل ٤٤ .

وقال تعالى : ﴿ وأكوابٍ كانَتْ قوارير قواريرَ مِنْ فضّةٍ ﴾[1] فاشتق اسمالفضة منها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحادى بإبله: « يا أنَيْس ارفُقْ بالقوارير »، فاشتقّ للنساء اسما منه . وقدورُه أطيبُ طعاماً من قدور الحجارة ،وهى لاتصدأ، وإن اتسخت فالماء وحده لها جِلاء ، ومتى غسلت عادت جُدُداً .
واسم الذهب يُتطيَّر منه، وإن سقط عليك قتلك . ومِنْ لؤمه سرعته إلى بيوت اللئام، وإبطاؤه عن بيوت الكرام ؛ وهو من مصائد الشيطان ، ولذلك قالوا : أهلك الرّجال الأحمران ، وهو فتّان قتّال لمن أصابه .

فلم يَبْق فى المجلس أحداً إلا تحيّر من ذلك وتعجّب من بلاغته وحسن بديهته، واحتجاجه فى معارضته من غير رويّة ،وأيقن أنه ليس دون اللسان حاجز ، وأنّه مخراق يذهب فى كلّ فنّ. فإذا صح العقل صحّ تقويم اللسان .
قوله « القطائف » هى ما يجنى من الثمار، يريد بها الحلوى التى حرّمهم أكلها .
والرتق: السدّ والإغلاق وهو ضد الفتق ، ويقال : هو الفاتق الراتق ، أى هو مالك الأمر ،فهو يفتح ويغلق ويضيق ويوسع. ورتق: ضمَّ وجمع ، وامرأة رتقاء: لايصل إليها الرجال . وقوله تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَرَ الّذِين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾[2] أى كانتا سماء واحدة ، وأرضاً واحدة، فجعلت كل واحدة منهما سبع . وقيل : كانتا معاً ففتقناهما بالهواء الذى بينهما وقيل :فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ، فقال : سأسدّ ماخرقته .
قوله : « التليد » ، المال القديم. والطريف: المكتسب. فكاهة:مُلَح .



(١) سورة الإنسان ..
(٢) سورة الأنبياء ٣٠ .

قال الحارث بن همّام : فقبلنا اعتذارَه ، وقبَّلنا عِذاره ، وقلنا له : قِدْماً وقَذتِ النّميمةُ خيرَ البَشر ؛ حتّى انتشر عن حمّالةِ الحطب ما انتشر . ثمّ سألناه عمّا أحْدثَ جارُه القتّات ، ودُخلُله المفتات ؛ بعْدَ أن رَاشَ له نبْلَ السّعاية ، وجذم حَبْلَ الرّعايَةِ ، فقال : أخَذَ في في الاستخذاء والاستكانة ، والاستشفاع إليَّ بذوِى المكانة .

* * *

عِذارُه : شعر خَدّه ، شبه بالشوكة التى تقع على خد الفرس . وقدعذرت الفرس عذراً وأعذرته بالعِذار بمعنى ألجمته ، وأعذرت اللجام : جعلت له عِذارا ، وأنشد ابن رشيق فى معذّر :

وأسمر اللّون عسجدىّ ... يكاد يستمطر الجهاما(1)
ضاق بحمل العِذار ذَرْعا ... كالمُهْر لايعرف اللّجاما
ونكّس الرأس إذ رآنى ... كآبة واكتسى احتشاما
وظنّ أن العِـــذار مما ... يُزيح عن قلبىَ الغَرَاما
وما درَى أنه نبـاتٌ ... أنبت فى قلبى(2) السّقاما
وهل ترى عارضَاه إلاّ ... حمائلا قُلّدتْ حُسَــــاما

قوله: « قِدمًا وقَذَت » ، أى قديما أمرضت وأوجعت .

حمّالة الحطب : هى أمّ جميل بنت حرب عمة معاوية وامرأة أبى لهب ، وكانت تمشى بالنميمة بين النبىّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، وقيل بين زوجها وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل ذلك للماشى بالنّميمة ، لأنّ الحطب يَهيج النار ، والنميمة تهييج الشرّ . وقيل : سميت حمالة الحطب لأنّها كانت تطرح الشوك للنبى صلى الله عليه وسلم فى طريقه ، وكانت عوراء وأبو لهب أحول .

(١) نقله فى التنف ٦٦ (٢) التنف : « جسمى » .

والقعات : النمام بالكذب والنميمة ، وقتّ يقتّ قتاً : مشى بالنميمة ، ونمّ ينمّ نمّا : ضيع الأحاديث ولم يحفظها ، وقيل : النميمة من قولهم : جلود نمّت إذا لم تمسك الماء . والقتات أيضاً : المتسمّع على من ليس يشعر به ، وهو القتّات ، والنمّام والهمّاس والهمّام والغمّاز والمهيْنم ، والمورّش والمِنأس ، وقدمأس يمأس .

دخلله : خاصته العالم بداخل أمره . الفتات : المستبدّ برأيه المتسوّر على ما لا ينبغى له .

راش : جعل لها ريشاً .

السعاية : المشى بالنميمة . جَذَم :قطع .الرعاية :حفظ الصداقة .الاستخذاء: الخضوع . والاستكانة : الذلّ . ذوو المكانة : أهل الجاه .

* * *

وكنتُ حرَّجتُ عَلَى نفسِى ، ألّا يَسْتَرْجِعَهُ أُنْسِى ، أو يَرْجِعَ إلىّ أَمْسِى ؛ فَلَمْ يكُنْ له مِنّى سوى الرّدِّ ، والإضْرارِ على الصّدِّ ، وهُوَ لا يَكْتئبُ مِنَ النَّجْهِ، وَلَا يتّئِبُ مِنْ وَقَاحَةِ الْوَجْهِ ، بَلْ يُلِطُّ بالْوَسائِلِ ، وَيُلِجُّ فى المسائل ؛ فَمَا أَنْقَذَنِى مِنْ إبرامِهِ ، ولا أبْعَدَ عَلَيْهِ نَيْلَ مرَامِهِ ؛ إلا أبياتٌ نفثَ بِها الصَّدْرُ الْمَوْتُور ، والخاطِرُ المبْتُورُ ؛ فإنّهَا كَانَتْ مَدْحَرَةً لشَيْطَانِهِ ، وَمَسْجَنَةً له فِى أوْطَانِهِ . وعِنْدَ انتشارِها بتّ طَلَاقَ الْحبور ، ودَعَا بالْوَيْلِ والثّبور ، ويئسَ من نَشْرِ وَصْلِى الْمَقْبُور ؛ كما يَئِسَ الكفّارُ مِنْ أَصحابِ الْقُبور .

* * *

حرّجت : أثمت وضيّقت عليها بيمين أكيده . الإصرار :العزيمة .والصّدّ: الإعراض عنه . يكتئب : يهتمّ . النّجْه : الجفاء وتغليظ الكلام . يتّئب : يرجع . يُلطّ : يكثر اللزوم بها. ويقال: ألط بالشىء ، إذا لزمه .

إبرامه : ثِقَله . نفَث : نطق وتكلم . الموتور : المظلوم . المبتور : المقطوع بالهم . مَدْحرة : مدفعة ومبعدة ، ودحَرتُ الشيء دحوراً ودَحْراً : أبعدته ودحر هو : بعُد . بتَّ : قطع وأمضى ، وجعله بتًّا وهو مالا رجعة له فيه .

الحُبور : السرور ، وحبَرْته حَبْرتُه : سررته . الثبور : الهلاك ، وثبر الله العدو ثبوراً : أهلكه . يئس : قطع رجاءه . نشرَ : أحيا . المقبور : المدفون . الكُفَّار : الدافنون للموتى .

* * *

فناشَدْناه أنْ يُنشِدَنا إياها ، وَيُنشِقَنَا ريَّاها ، فقال : أجَلْ ، خُلِق الإنسان من عجل ، ثم أنشد لا يَزْوِيهِ خجل ، ولا يَثنيه وَجَلَ :

ونديمٍ مَحَضتُه صِدْق ودِّى ... إذ توَهَّمْتُه صَدِيقاً حَمِيماَ
ثمَّ أوليتُه قطيعةَ قالٍ ... حين ألفيتهُ صَديقاً حميماَ
خِلْتُهُ قبْلَ أنْ يجرَّبَ إلْفاً ... ذا ذمامٍ فبانَ جِلفاً ذَمِيماَ
وَتخيّرتَهُ كَلِيماَ فأمْسَى ... مِنْهُ قَلْبِي بِمَا جَنَاهُ كَلِيماَ

* * *

ناشدناه : سألناه وجعلناه . يُنشِقَنَا ريّاها : يشممنا رائحتها . أجل ، حرف جواب بمعنى نعم .

خلق الإنسان من عجل : قال أبو علىّ : هو على القلب ، ومعناه : خلق العَجَلُ من الإنسان ، قال الزّجاج : ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿وَكان الإنسانُ عَجُولاً﴾[1] ومثله : ﴿وقد بَلَغنيَ الكِبَر﴾[2] أى بلغت الكبر ، ومثله : ﴿فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء آية ١١ ... (٢) سورة آل عمران آية ٤٠
(٣) سورة الكهف آية ٤٥ .

قال الشماخ :

* ليًّا كما عُصِبَ العِلْبـــاء بالعود[1] *

أى العود بالعلباء

وقال القطامى :

* كما بَطَّنْتَ بالفَدَنِ السِّياعا[2] *

أى بَطَّنْتَ بالسياع الفَدَن وهو الطّين بالتبن ، والفَدَن : القَصْر . وقال ابن مقبل :

وابتُذِلَتْ * وَقْعَ المحاجن بالمهرية الذُّقُنِ[3] *

أى ابتُذِلت المهرية بوقع المحاجن ، ومن جعل الجَبَل الطين ، فلا قلب فيه ، وأراد : لم يصبروا عن الآيات لعجلتهم فى طلبها .

وقوله : يزويه ، أى يقبضه . خجل : حياء ، وقد خجل إذا استحيا . يثنيه : يَرُدّه . وَجَل : خوف .

محضته ، أى أخلصته . توهّمته : حسبته . والحميم : الخاصّ من الإخوان ، والحميم الثانى : الماء الحارّ السخن .

والصّديد : الدم المختلط بالقيح . أوليته : ألصقت به . القطيعة : البعد . قال : مبغض . إلفاً : صاحباً . ذمام : عهد . بان : تبيّن . جلفـاً : جافياً . ذميا . مذموماً . كليا الأوّل مـكلّماً ، والثانى مجروحا .

* * *

[نبذ مما قيل فى غـدر الإخوان وقلة الوفاء]

وقد أكثر الناس من التشكّى بغدر[4] الإخوان وقلة الوفاء منهم على

---

(١) ديوانه ١٢٠ ، وصدره :

منْهُ نَجِلْتُ ولم يُوشَبْ به حَسَبِى

(٢) اللسان ــ سيع ــ وصدره :

* فلما أنْ جرَى سِمَنٌ عليها *

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وصدره :

* وصرّح السَّيرَ عن كُتْمَان وابتُذِلتْ *

(٤) ا : « من غدر » .

قديم الزمان وحديثه، ونسوق منه مايليق بهذا الموضع :

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لصديق له : هل بلغك شيء تكرهُ ممّن لا تعرف؟ قال : لا ، قال : فأقلل مِمّن تعرف .

الجاحظ : قرئَ على باب شيخ من أهل الرّيّ : جزى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً ، كأنه اتقى من ثقاته .

وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه وقرّت به العينان بُدّلتُ آخَرَا[1]
كذلك جدّي ،ما أصاحبُ صاحباً من النّاس إلا خانني وتغيّرا

وقال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ على شَعَثٍ ، أيّ الرّجال المهذّب[2] !

ولمّا انحرف ابن الزيات عن إبراهيم بن العباس الصولي ، تحاماه الناس أن يلقوْه ، وكان الحارث بن سنجر صديقاً له ، فهجره من ذلك ،فكتب إليه :

تغيّر لي فيمن تغيّر حارثٌ وكم مِنْ خليلٍ غيّرتهُ الحوادِثُ[3]
أحارث إن أشرِكتُ فيك فطالما نعِمنا وما بيني وبينك ثالثُ

وكتب لابن الزيات :

أخي بيني وبين الدّهـر صاحبُ أيّنا غلبا[4]
صديقي ما استقام فإن نبا دهرٌ عليّ نبا
وثبتُ على الزمان به فعاد به وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا لعاد أخاً به حَدِبا

وكتب إليه أيضاً :

وكنتَ أخي بإخاء الزمانِ فلمّا نبا صرتَ حرباً عَوانا[5]

---

(١) ديوانه ٦٩
(٢) ديوانه ١٤
(٣) ديوانه ١٨٢
(٤) ديوانه ١٥٥
(٥) ديوانه ١٦٦

وكنتُ إليك ألوم الزمانَ فأصبحتُ فيك ألوم الزّمانا
وكنتُ أعِـدّك للنائباتِ فأصبحت أطلبُ منك الأمانا

وقال أبو فراس :

أقلّب طرفى لا أرى غيرَ صاحبٍ يميلُ مع النّعماء حيث تَميلُ[2]
وصِرْنا نرى أنّ المتاركَ محسنٌ وأن خليلاً لا يضرّ خليلُ
تصفّحْتُ أحوالَ الرجال فلم يكنْ إلى غير شاكٍ فى الزمان وُصُولُ
أكلّ خليلٍ هكذا غير منصفٍ وكل زمان بالكرام بخيلُ!

وله أيضاً .

إذا الخلّ لم يهجُرك إلاّ ملالةً فليس له إلا الفِراقَ عتابُ[1]
إذا لم أجد فى بلدةٍ ما أريده فعندى لأخرى عزمَةٌ وركابُ
بمن يثق الإنسان فيما ينوبهُ ومِنْ أيْنَ للحرّ الكريم صِحابُ!
وقد صار هذا الناس إلا أقلّهم ذِئابا على أجسادهنّ ثيابُ

وقال الخباز البَلَوىّ :

ألا إنّ إخوانى الذين عهدتُهُمْ أفاعى رمالٍ لا تقصّر فى اللّسْعِ
ظننت بهم خيراً فلمّا بلوتُهم نزلت بوادٍ منهمُ غيرِ ذِى زَرْعِ

ولابن هارون القرطبىّ :

ذهب الوفاء فلا وفاء يرتجَى تلقى الصديق من الوفا عُرْيانا
يعطيك ودّا صادقاً بلسانه وَيُجِنّ تحت ضلوعِه ألوانا

(١) ديوانه ٣٤ . (٢) ديوانه ٣٨

وقال المعرّى :

فظنّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمنْ على سرٍّ فؤادا[1]
فلو خَبَرتْهمُ الجوزاء خُبْرِى لما طلعت مخافة أن تُكادَا
تجنّبت الأنام فلا أواخِى وغبتُ عن الأنام فلا أعادَى[2]
ولَمّا أن تجهّمنى مُرادِى جريتُ مع الزّمان كما أرادا
وهوّنت الخطُوبَ علَىّ حتّى كأنّى صِرْت أمنحها ودادا

وله أيضاً :

والخلّ كالماء يبدِى لى ضمائرَه مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وكتب المعتصم[3] صاحب المرية إلى ابن عمار :

وزهّدنِى فى النّاسِ معرفتى بهمْ وطولُ اختيارِى صاحباً بعد صاحِبِ
فلم تُرنِى الأيام خِلاً تسرّنى مباديه إلا ساءنى فى العَوَاقبِ
ولا قلت أرجوه لدفعِ ملمّةٍ من الدهر إلا كان إحدى المصائبِ

وقال البحترى :

أما العداة فقد أرَوْكَ نفوسَهُمْ فاقصد بسوء ظنونك الإخوانا

وقال أيضاً[4] :

أما العدوّ فَيُبْدِى ما عنده ويكاشفْ
لكن توقّ وحاذر من الصّدِيق الملاطِفْ

وقال منصور بن إسماعيل التّميمى الفقيه: قال ابن رشيق :

لو قيل لى خذ أمانًا من حادثات الزمانِ[5]

(١) سقط الزند ٥٥٩ (٢) سقط الزند « وزدت على العدو فما أعادى » .
(٣) هو المعتصم بن صادح ، والأبيات فى تمام المتون ٥٤ ، ٥٥ .
(٤) ملحق ديوانه ٢٦٠٩ عن الشريشى (٥) نقله فى التنف ٨١

لما أخذت أماناً إلا من الإخوانِ

وهذا الباب لا يحصَى كثرة .

* * *

وتظنَّيتُه مُعيناً رحيماً فتبيَّنتُه لعينــاً رجيماً

وتراءيتُه مُرِيدًا فجلَّى عَنْه سَبْكِى له مَرِيداً لئيماً

وتوسَّمْتُ أنْ يَهُبَّ نسيماً فأبَى أن يَهُبَّ إلاَّ سَمُوماَ

بتُّ مِنْ لَسْعِهِ الذى أعجز الرّا قِى سليماً وباتَ مِنِّى سليماً

وهذا نهجُه غَداةَ افترقْنا مستقيماً والجسمُ مِنِّى سقيماً

لم يكن رائماً خصيماً ولكنْ كان بالشرّ رائماً لى خصيماً

قلتُ لمَّا بلوتُه : ليتَهُ كا نَ عَدِيماً ولم يكن لى نديماً

بَغَّضَ الصُّبْحَ حينَ نمَّ إلَى قَلْ بِى لأنَّ الصَّبَاحَ يُلفَى نَمُوماَ

ودعانى إلى هوى اللَّيْل إذ كا نَ سوادُ الدُّجى رقيباً كتوماَ

وكفَى مَنْ يَشِى ولو فاه بالصِّدْ قِ أثاماً فيما أتاهُ ولوماً

* * *

قوله : «تظنَّيته» أى حسبته ، وأبدل من إحدى نونيه ياء .

لعيناً : رجيماً : شيطاناً مبعداً مرجوماً بالنجوم ، وقيل : الرجيم : المرجوم أى المشتوم المسبوب ، من قوله سبحانه وتعالى : ﴿لئن لم تنته لأرجمنَّك﴾(١) ، أى لأسبنَّك . وقيل : الرجيم الملعون ، وهو مذهب أهل التفسير ، فمعنى اللعين والرجيم واحد .

تراءيته : ظننته ، من تراءى لى الشيء : ظهر بعض الظهور . مُريداً : محبًا . جَلَّى : كشف . سبكى : تجربى . مَريداً : كثير الشرّ . خبيثاً . لئيما : وضيع القدر خسيس الهمة .

توسّمت : ظننتَ ، وتوسّمت فيه الخير ، أى رأيت فيه سَمْتَه ، أى علامته .

---

(١) سورة مريم ٤٦ .

والنّسيم : الريح الليّنة . والسّموم : الحارّة . لَسْعه : ضرّه . سليم : الأول ملدوغ والثانى سالم : ورائع : الأول حسن المنظر ، والثانى مفزع . بلوتُه : جرّبته . عديماً : غير موجود . يلفَى : يوجَد . هوى . حُبّ . رقيباً : حافظاً . يشى : ينمّ . فاه : نطق .

قوله : بنّض الصبح » ، هو من المثل : الليل أخفى للويل ، وقالوا : أنمّ من الصبح ، لأنه يهتك حجاب الظلام . وقال بعض الحكماء لابنه : اجعل نظرك فى العلم ليلا لأن القلب فى النهار كالطائر ، وهو فى الليل ساكن ، فما ألقيت فيه من شىء وعاه .

[من أقوالهم فى الليل]

فأما أكثر الشعراء فهم إلى الليل أفزع ، ومن النهار أنزع ، لأن الليل أجمع لشتات الهموم والفكر ، وأجلب لشوارد الأحزان والذكر .

قال امرؤ القيس :

وليلٍ كموجِ البحر أرخَى سُدُولهُ عَلَىّ بأنواع الهُمومِ لِيَبْتَلِى(1)

وقال النابغة :

وصدرٍ أراح الليل عازبَ همّهِ تضاعف فيه الحزنُ من كلّ جانب(2)

وقال قيس بن ذريح :

نهارِى نهار الناس حتى إذا بدا لىَ الليلُ هزّتنِى إليك المضاجعُ(3)

وقال الطرماح بن حكيم :

ألاَ أيّها الليل الطويل ألا اصْبِحِ بِصُبْحٍ ، وما الإصباح فيك بأروحِ(4)
بَلَى إن للعينين فى الصبح راحةً لطرحِهمَا طرفَيْهِمَا كلَّ مطرَح

(1) ديوانه ١٨ (2) ديوانه ٣
(3) ديوانه ١٠٧ (4) ديوان المعانى ١ : ٣٤٧ .

وقال ابن المعتز :

لا تلق إلا بليلٍ مَنْ تواصِلُهُ ... فالشمس نمّامةٌ والليل قوّادُ[1]
كم عاشقٍ وظلام الليل يستُره ... لاقى الأحبة والواشون رُقّادُ

وقال المتنبي وأجاد:

كم زورةٍ لك في الأعراب خافيةٍ ... أدهى وقد رقدوا من زَوْرة الذِّيبِ[2]
أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياضُ الصبحِ يُغري بي

وهذا البيت أميرُ شعره على كثرة الجيّد فيه . والبديع فيه أنه قابل الشطر الأول بالثاني حرفا بحرف، فقابل « أزورهم » بقوله : « أنثني » ،و« سواد الليل » ببياض الصبح » ، « ويشفع لي » بـ « يُغْرِي بي » .

وحكى ابنُ جني قال : حدثني المتنبي وقت القراءة قال قال لي ابن حِنْزابة وزير كافور : أعلمت أني أحضرت كتبي كلها ، وجماعة من أهل الأدب يطلبون من أين أخذت هذا المعنى ، فلم يظفروا به ا وكان أ كثرَ مَنْ رأيتُ كتباً .

قال ابن جني : ثم إنيّ عثرت على الموضع الذي أخذ منه ، فوجدتُه لابن المعتز مصراعاً بلفظ [ليّن] صغير [جدًا] جرى فيه معنى بيت المتنبي كله على جزالة لفظه وحسن تقسيمه وهو :

* فالشّمس نَمّامة والليل قواد *

قال: الثعالبي إما أن يكون ألمّ به فحسّنه وزينه ، فصار أولى به ، أو عَثَر على الموضع الذي عثر عليه ابن المعتز فأربى عليه في جودة أخذه ، وإما أن يكون قد افترع المعنى وابتدعه ، فلله درّه ا وناهيك بشرف لفظه وبراعة نسجه ا[3]

قال: ولبعض أهل العصر بيت يجمع خمس مطابقات ولا يستقل إلا بإنشاد بيتين قبله وهو :

---

(١) ديوانه ١ : ٧٧ (٢) ديوانه ١ ١٦١
(٣) يتيمة الدهر ١ : ١١٥ .

عذيرى من الأيام مدّت صروفَها إلى وَجْدِ مَنْ أهوى يدُ المسخ والمحو
وأبدت برأسى طالعاتٍ أرى بها سهامَ أبى يحيى مسدَّدةً نحوى
فذاك سواد الخط ينهى عن الهوى وهذا بياضُ الوخْط يأمرُ بالصَّحْوِ

وقال ابن رشيق :

أيّها الليلُ طِرْ بغير جَناحِ ليس للعين راحةٌ فى الصّباحِ (١)
كيف لا أبغضُ الصّباح وفيه بان عنى أولو الوجوهِ الصِّباحِ

وقال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تخبّر أن المانويّة تَكْذِبُ (٢)
وقاك أذى الأعداء تسرى إليهمُ وزارك فيه ذو الدّلال المحجّبُ

المانويّة هم الثّنويّة ، وهم الذين يقولون : إن الخير كله من النور ، والشر كله من الظلام ، فكذّبهم بأن وجد الخير فى الظلام حيث ستره من أعدائه ، ووقاه شرّهم، وكان عونًا على زيارة حِبِّه، ووجد الضدّ فى النور ، وهذا كله يجرى فى نمط بيت الحريرى .

* * *

قال : فلما سمع ربُّ البيت قريضَهُ وَسَجْعهُ ، وَاستَمْلَحَ تقريظَهُ وَسَبْعَهُ ، بوّأه مَبَاذَ كَرَامتِهِ ، وصَدَّرَه عَلَى تَكْرِمَتِهِ . ثمّ استَحْضرَ عَشْرَ صحافٍ من الغَرَب ، فيهَا حَلْواءُ القَنْدِ والضَّرَبِ ؛ وقال له :

لا يستوى أصْحَابُ النَّارِ وَأصحابُ الجَنّةِ ، وَلا يَسَع أنْ يُجْعَلَ البَرِىءُ كذِى الظِّنَّةِ ، وهَذِهِ الآنية تتنزّلُ مَنزِلَةَ الأبرار ،

---

(١) تزيين الأسواق ٢٠١ ، ديوان الصبابة ١٠٩ ونقله فى التنف ٢٢٠
(٢) ١ : ١٧٨، ١٧٩

فى صَوْنِ الأَسْرَارِ ، فلاَ تُولِهاَ الإبعادَ ، وَلاَ تُلْحِقْ هُودًا بعاد .

* * *

قوله: « قريضه » أى شعره ، وتقدّم السجع .

تقريظه وسبعه : المدح والذمّ ، ويقال : سَبَعه يسبَعه ، إذا رماه بقبيح ،من قولهم : سبعت الذئب إذا رميته ، وقيل: معنى سبعت قلت له قولا غمَّهُ وذُعِر منه ، ويقال : سبعت الوحش : ذعرتها ، والأسد أفزعته

بوّأه : أنزله ، مهاد : فراش . صدّره : قدّمه وأجلسه فى صدر وسادته .

التكرمة: الوسادة وما يجلس الضيف المكرم عليه. ودخل عمر على سلمان رضى الله عنهمافألقى له وسادة،فقال:ماهذا يا أباعبد الله ؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن امرىء مسلم يدخل عليه أخوه المسلم ، فيلقى إليه وسادةً إكراماً له وإعظاماً ، إلّا غفر الله تعالى له » .

قوله : « استحضرَ » :أمر بإحضارها . الغرَب : نوع من الخشب كريم . القَنْد : عصارة قصب السكر . والضرَب : العسل الأبيض .

الظِّنة : التُّهمة ، أراد بالبرىء آنيةَ الغَرَب ، وبالمتَّهم جامَ الزجاج .

والأبرار : الأخيار.صون : حفظ . تُولها : تلصق بها .

عاد : قوم هود ، وأراد: لاتساو بين هود وهو مؤمن ، وبين قوما وهم كفّار ، فهم أضداد كالبرىء والمتهم ،فقدْ خرج من نوعهم ، وإن كانت جنسية الآدمية والقرابة تجمعهم ، وكذلك الزجاج والغَرَب يجتمعان فى الآنية والوعاء ، ويختلفان فى الاحتواء على ما فيهما من الإخفاء والإظهار .

* * *

[ذكر هود عليه السلام وقومه]

وهو هودبن عابر بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح . وعاد هو ابن عوص

ابن إرم بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها من دون الله ، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة باليمن ، فدعاهم هود إلى عبادة الله تعالى ، فكذّبوه وعصوه ، وكانوا جبابرة أقوياء ، طولُ الرجل منهم مائة ذراع ، وطول أقصرهم ستون ذراعا ، قال الله تعالى : ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾[1] . أي عظما وطولا وقوة وشدة ، وعظهم هود عليه الصلاة والسلام ، وقال لهم: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون..﴾[2] الآية، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿مَنْ هو أشدمنا قُوّةً﴾[3]، وقالوا: ﴿سَوَاءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾[4]. وقالوا: ﴿ياهود ما جئتنا ببينة وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ...﴾[5] الآيات ، واستكبروا ولم يؤمنوا ، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين حتى جُهدوا .

فأوفدوا وفدًا يستسقون لهم ، فبعثوا قَيْل بن عنز ، ونعيم[6] ابن هزّال ، ومرثد بن سعد ، وكنيته أبو سعد ، وجُهْلمة بن الخيبريّ ، ولقمان بن عاد ، ومع كلّ رجل منهم رهط من قومه ، فلما قربوا من مكة نزلوا على معاوية بن بكر العقيليّ - وكانوا أخوالاً له وصهراء - فأنزلهم وأكرمهم شهراً ، يشربون الخمر وتغنّيهم قينتان له يقال لهما: الجرادتان . فلما رأى معاوية طول مقامهم عنده؛ وقد بعثهم قومهم للبلاء الذى نزل بهم شقّ عليه ذلك، وقال: هلك أصهارى وأخوالى، والله ماأدرى ماأصنع بهم ! وإنى أستحيي أن آمر بالخروج مَنْ عندى فيظنون أنه ضاق بى مقامهم عندى ، فقال شعراً وأعطاه للجرادتين فغنّتاهم به ، وهو :

ألا ياقيلُ ويحكَ قم فهينمْ لعلّ الله يُصْبحُنا غماما
فيسقى أرضَ عادٍ إنّ عاداً قد أمسوا لا يُبينُونَ الكلاما
وإنّ الوحش تأتيهمْ جهاراً فلا تخشى لعاديهمْ سِهَامَا

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٩ . (٢) سورة الشعراء ٢٨
(٣) سورة فصلت ٦٥
(٤) سورة الشعراء ١٣٦ (٥) سورة هود ٥٣
(٦) الطبرى « لقيم » .

وأنتم هاهنا فيمَ اشتهيتمْ نهاركمُ وليلكمُ التَّماما
فقبِّح وفدكمْ من وفـدِ قوم ولا لُقُّوا التحيَّة والسلاما

فقال بعضهم لبعض : إنما بعثـكم قومكم لمـا نزلَ بهم ، فادخلوا الحرم . فاستسقوا ،فقال مَرْثد بن سعد :والله لاتسقون حتى تطيعوا نبيكم ، فقال له جهلمة:

أبا سعد وإنك من قَبيلٍ ذوى كرم وإنك من ثمُودِ
أتأمرنا لنترك دين رِفْدٍ(١) وزَمْلٍ آل صُـدٍّ والوفود(١)
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى ونتبع دين هودا
فإنّا لانطيعك مابقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ

ثم قال لمعاوية : امسك مَرْثدًا عنا ، لايدخلنّ مكة معنا وهو على دين هود. فدخلوا مكة ، وخرج مَرْثَد ،فأدركهم قبل أن يدعُوا ، فقال : اللهمّ لا تدخلنى فى شيء مِمّا يدعوك به وفدُ عاد .

وقيل : قال : اللهمّ إن كان هود صادقا فاسقنا ، فقد هلكنا ،فأنشأ الله سحائب ثلاثا : بيضاء ، وحمراء وسوداء ، ونودى من السحائب : ياقيل ، اخْتَر لنفسك وقومك،قال:لقداخترتُ السّحابةالسوداء ،لأنها أكثر السحاب ماء. فنودى:اخترت رمادا رِمْدِدا(١) ، لا يُبقى من عادٍ أحدا ، فساق الله سبحانه وتعالى السحابة السوداء إلى عاد،فاستبشروا، وقالوا:هذاعارضٌ مُمطِرنا ، فسخرت عليهم سبع ليال ريحٌ صرصر ، فلم تَدَعْ منهم أحداً إلاّ هلك .

ولما خرجت الريح عليهم ، قال سبعة منهمْ : تعالوْا نقف على شفير الوادى فنرُدّها ، فجعلت الريح تأخذ الواحد منهم فترميه حتى يدقّ عنقه ، فتركتهم كما قال الله تعالى : ﴿ كأنّهمْ أعجازُ نَخْلٍ خاوية ﴾(٣). واعتزل هود وَمنْ معه من

---

(١) الطبرى « : والعبود »
(٢) ط : « ومددا » وصوابه من تاريخ الطبرى (٣) سورة الحاقة آية ٧

المؤمنين فى حظيرة ، مايصيبهم منها إلا نسيم يُلينُ البشرة، وتلذّه الأنفس، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض .

ورجع وفد عاد ، فنزلوا على معاوية ، فأتاهم راكب على ناقة فى الليلة الثالثة من مصابهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا: وأين فارقت هود ؟ فقال : بساحل البحر، وخُيِّرُوا حين دعوا بمكة لأنفسهم ، فقال لقمان : يارب أعطنى عُمرًا ، فعمّره الله عمر سبعة أنسر ، يأخذ الفرخ إذا خرج من بيضته فيغذّيه حتى يموت ، ثم يأخذ آخر حتى بَقِيَ السابع ، فقال له ابن أخيه : مابقىَ من عمرك ؟ قال : عمْر هذا النَّسر ، وهو لِبَد ـ و لِبَد بلسانهم ـ الدّهر. فلما لم يستطع لِبَد النهوض مع النسور، أيقن لقمان بالموت، فماتا جميعا .

واختار قيل أن يصيبه ماأصاب قَومَه ، فاقتطعته الريح فقتلته .

وقال مرثد: يارب أعطنى برًّا وصدقًا وعمر هود ، فعمِّر مائة وخمسين سنة(١)

* * *

ثمَّ أمرَ خادِمَهُ بنقْلِها إلى مَثْوَاه ، لِيَحْكُمَ فِيهَا بما يَهْوَاه .

فأقبل علينا أبو زيد ، وقال : اقرءوا سورة الفَتْحِ ، وأبشِرُوا باندِمالِ القَرْح ؛ فقد جَبَرَ اللهُ ثُكْلَكُمْ ، وَمَنَّى أُكلَكُمْ ، وَجَمَعَ فى ظِلِّ الحَلْوَاءِ شَمْلَكُمْ ، وَعَسَى أن تكرهُوا شيئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكم .

ولمَّا هَمَّ بالانْصِرَاف ، مال إلى استِهْدَاء الصِّحَاف ، فقالَ للآدِب : إن مِن دلائلِ الظَّرْف، سَماحَةَ المهْدِى بالظَّرْف ، فقال :

---

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٩ ـ ٢٢٢ ـ أبسط وأطول .

كلاهُما لَكَ وَالْغُلامِ ، فاحْذِف الكلامَ ، وَانْهَضْ بِسَلام . فوثَبَ في الْجوَابِ ، وَشكَرَ شُكْرَ الرَّوْضِ للسَّحَابِ .

* * *

قوله: « مثواه » ، أى منزله . وقال: اقرءوا سورة الفتح ، أى لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح عليكم . اندمال القرح: الجرح جَبَر: أصلح . ثكلكم: حزنكم على فقدكم الحلواء بسببى ، والحلواء: كل طعام عُولج بحلاوة ، وتمدّ وتقصر . شملكم: عددكم المفترق . وفى معنى الآية قال بعضهم :

لا تكره المكروه عند نزوله ... إنّ المكاره لم تزل متباينَهْ
كَمْ من يدٍ لا تستقلّ بشكرها ... لله فى طىّ المكاره كامِنَهْ

الآدِب : صاحب العرس .

الظّرْف : جودة الرأى . الأصمعى وابن الأعرابىّ : الظّريف : البليغ الجيّد الكلام ، وقالا : الظرف فى اللسان ، واحتجّا بقول عمر رضى الله عنه أنه إذا كان الرجل ظريفاً لم يقطع ، أى إذا كان بليغاً احتجّ عن نفسه بما يسقط عنه الحدّ ، قال الكسائىّ رحمه الله تعالى: وفى الوجه ، يقال لسان ظريف ووجه ظريف . غيره : الظريف الحسَن الوجه والهيئة .

المهدِى: مرسل الهدية ، والظَّرْف: الوعاء . احذف: اقطع بعضه . انهض: تقدّم . وَثَب: بالغ وعجّل جوابه . الرّوض : موضع العشب والأنوار .

* * *

ثمّ اقتادَنَا أبو زيدٍ إلَى حِوَانِهِ ، وَحَكّمنا فِي حَلْوَائِه ، وَجَعَلَ يُقلِّبُ الأوَانِى بيَدِه ، وَيفُضُّ عَدَدَها عَلَى عدَدِه ، ثمّ قال : لستُ أدرِى أأشكُو ذَلكَ النَّمام أم أشكُرُ ، وَأتناسَى فَعْلَتَهُ الّتِي

فَعَلَها أم أذكُرُ، فإنَّهُ وَإن كانَ أسْلَفَ الجرِيعَه، وَنمْنَمَ النَّمِيمَةَ، فمِنْ غَيْمِهِ انْهَلَّتْ هَذِهِ الدِّيمَة، وبِسَيْفِهِ انْحَازَتْ لِي هَذِهِ الْغنِيمَة. وَقَدْ خَطر ببالِي، أَنْ أرجعَ إِلَى أشبالِي، وَأَقْنَعَ بِما تَسَنَّى لِي، وَأَلاَّ أُتْعِبَ نَفْسِي ولاأَجْمَالِي، وَأَنَا أُوَدِّعُكُمْ وَداعَ مُحافظ، وَاسْتَوْدِعُكُمْ خَيْرَ حافظ.

ثم استوى عَلَى رَاحِلَتِه، رَاجِعا فِى حَافِرَتِهِ، وَلاَوِياً إِلى زافِرَتِه.

فغادَرَنَا بَعْدَ أنْ وَخَدَتْ عَنْسُهُ، وَزايَلَنا أنْسُه، كَدَسْتٍ غَابَ عَنْهُ صَدْرُه، أوْ لِيلٍ أفَلَ بَدْرُه.

* * *

حواؤه : موضعه، والحِواء : أخبية قريب بعضها من بعض. ويفضّ : يفرّق. وأسلف الجريعة : قدّم الذنب. نمنم : زيّن، والنمنمة : النقش. غيمه : سحابة. انهلّت : سالت. الدِّيمة : العطية هنا، وانظر معنى هذا الشك الطارىء عليه فى السابعة والعشرين فى قوله :

* يا أخى الحامل ضَيْمِى *

محافظ : راعٍ للمودة. أستودعكم : أتركُكم وديعة فى يده. خير حافظ : هو الله سبحانه وتعالى يشير لقوله تعالى: ﴿فالله خير حافظاً﴾[1]. استوى عليها، أى ركبها، وقال فى الدّرة[2] : الراحلة تقع على الجمل والناقة، والهاء فيها للمبالغة. كالتى فى داهية وراوية، وسمّيت راحلة لأنها تُرْحل، أى يشد عليها الرَّحْل، فهى فاعلة بمعنى مفعولة، كما جاء فى التنزيل : ﴿عيشة راضية﴾[3]، بمعنى مرضية،

---

(١) سورة يوسف ٦٤

(٢) درة الغواص ٢٨١ (طبعة الحسينية).

(٣) سورة الحاقة ٢١

و﴿لا عَاصِمَ اليومَ من أمْرِ الله﴾ [1]، أى لا معصوم ، و﴿من ماء دَافق﴾ [2] أى مدفوق، و﴿حَرَماً آمنا﴾ [3] أى مأمونا، كما جاء مفعول بمعنى فاعل فى قوله تعالى: ﴿حجاباً مستورا﴾ [4] أى ساتراً ، ﴿وكَانَ وَعْدُهُ مأتِيًّا﴾ [5] ، أى آتيا .

فى حافرته : فى الطريق الذى جاء منه . لاوياً : عاطفاً . زافرته : قرابته . وخدَت : أسرعت . عنسه : ناقته الصلبة ، ومنه عنست المرأة ، إذا طال مكثها لاتتزوج . زايلنا : فارقنا . دست : مجلس . صدره : أعيانه . أفل : غاب .

---

(١) سورة هود ٤٣

(٢) سورة الطارق ٦

(٣) سورة القصص ٥٧

(٤) سورة الإسراء ٤٥

(٥) سورة مريم ٦١

المقامة التاسعة عشرة وهي النَّصِيبيَّة

روى الحارث بن همّام ، قال : أَمْحَلَ العِرَاقُ ذاتَ العُوَيْمِ ، لإخلافِ أنواءِ الغَيْمِ ، وتحدّث الرُّكبانُ بريفِ نَصيبين ، وَبُلَهْنِيَةِ أَهْلِها المُخصبين.

* * *

أمحل : أجدب ، أي لم ينزل فيه مطر . إخلاف الأنواء ، يريد النجوم التي من عادتها أن تطلع بالمطر ، وأخلفتْ : لم تجيء بمطر . الركبان : أهل الأسفار . ريف : خصب.

* * *

[ذكر مدينة نصيبين]

نصيبين مدينة ديار ربيعة العظمى ، وهي مطلّة على جبل الجوديّ الذي استوت سفينة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عليه ، وهو جَبَلٌ عالٍ مستطيل .

أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زُوِيَتْ لي الأرض ، فرأيت مدينة أعجبتني ، فقلت : ياجبريل ، أيّ مدينة هذه ؟ قال : نصيبين ، فقلت : اللهمّ عجِّل فتحها » .

قال اليعقوبيّ : هي مدينة عظيمة كثير الأنهار والجنّات والبساتين ، ولها نهر عظيم يقال له الهِرْماس ، عليه قناطر حجارة قديمة روميّة ، وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلِب ، افتتحها غَنْم بن عِياض في خلافة عمر رضي الله عنهما سنة ثمان عشرة .

قال شيخنا ابن جبير [1] : مدينة نصيبين شهيرة العتاقةِ والقِدَم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هَرَم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصِّغَر ، أمامها وخلفها بسيط أخضر مَدَّ البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطّرد في نواحيه ،

(١) رحلة ابن جبير ٢١٧ .

وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفّة الأشجار ، يانعة الثمار . وينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السّوار ، والحدائق تنتظم حافتيه ، وتفيء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبانواس حيث يقول :

طابتْ نَصيبين لى يوماً فطِبتُ لها   لَيْت حظِّى من الدنيا نصيبينُ

فخارجها رياضىّ الشمائل ، أندلسى الخمائل ، يرق نضارة وغضارة ، ويأتلق عليه رونق الحضارة. وداخلها شعث البادية بادية عليه ، فلا مطمح للبصر إليه ، لا تجد العين فيه فسحة مجال، ولا مسحة جمال. وهذا النهر ينساب[1] إليها من عين معينة ،منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ، ويتخلّل البلد منها جزء يفترق على شوارعها ، ويلج فى بعض ديارها ، ويخترق جامعها[2] منه ميزاب ينصبُّ فى صهريجين ، أحدهما وسط الصحن،والآخر عند الباب الشرقى ، ويفضى إلى سقايتين حول الجامع . وعلى النّهر جسر معقود من صمّ الحجارة ، متّصل بباب المدينة القبلى ، وفيها مدرستان ومارستان واحد .

* * *

قوله : وبلهنية أهلها الخصين ، البلهنية : رخاء العيش .

[ذكر أشعار مستحسنة فى أوصاف الرياض]

ونريد أن نصل ما نذكره من خصب نصيبين بأشعار مستحسَنة فى أوصاف الرياض تقع كالصفة لها ، قال إبراهيم بن العباس الكاتب :

تأملْ سماء أظلّت عَلَيْـــكَ فيها مصابيحها تَزْهَرُ[3]
وأرضا تقابلهـــا بالغرو سِ والمرجُ بينهما جعفر[4]
وَمُنْسحبُ نور غداة الربيـــع أنفاسُه المِسْك والعنبرُ

(١) ابن جبير : « يتسرب » .
(٢) ابن جبير : « ويصل إلى جامعها المكرم عنه سرب يخترق صحنه » .
(٣) ديوانه ١٣٣   (٤) الديوان : « شمسهما جعفر »

خلالَ شقائقه أصفرٌ ... وأضعافُ أصفرِه أحمرُ
والماء مطَّرِدٌ بينها ... يضيق بآذيِّه المصْدَر
وللناطقــــاتِ بأكنافِهِ ... دواعِي اشتياق ومستعبَرُ
يشارفه البرّ من جانبٍ(١) ... ومن جانب بحره الأخضَرُ
مجال وحوش ومرمى سفينٍ ... فياعَذْبَ لهو ويامنظَرُ(٢)
ويا حسن دنيا ويا عزمُلْكٍ ... يسوسهم الملك الأكبر
إمامٌ به أمرَ الآمرو ... نَ بالعُرفِ واستُنكِرِ المنكَرُ

وأنشد السيرافى :

ومجلس فتيانٍ إلى جنب حافة ... بقطْرُ بَلّ بين الرّياض الحدائقِ
تَناصِي(٣) ميادينا له أحدقَتْ بهِ ... مواخرها موصولة بالجواسِقِ
وحفّ بريحان وكَرْمٍ مُعَرَّش ... ونهر وأشجار ونَخل بواسِق
ووَرْدٍ ونَسرين وآسٍ وَسَوْسَنٍ ... أفاطيره محفوفة بالشّقائقِ
تزخرفُ بالنوّار حتى كأنما ... بِهِ جنّة محفوفة بالنّمارق

وقال كُشاجم :

وروْضة صنّفَ النّوار جوهره ... فيها فاشتْت من حُسْن ومن طيبِ
كأنّ ماتجتنيه مِنْ زخارفها ... أخلاق مستحسنِ الأخلاق محبوبِ
ما انفكّ للعين فيها أعين ذرُفٌ ... تبكِي بدمع من الأنواء مَسْكوبِ
حتّى كأنّ أفانين النبات بها ... على الميادين ألوانُ اليعاسيب

(١) الديوان : « يساوقه » .

(٢) رواية الديوان :

مجال وحوش ومرق أنيس ... فياعُرْف لَهوٍ ويامنْظَرُ

(٣) ط « تقاضى » تحريف

كأن غُدْرانها بالرَّوضِ محدقةٌ ... تحبير ثوبٍ من الوشىِّ منصوبِ

ولتميم بن المعز [١] :

وقاذفة بالماء فى وسْطِ بركةٍ ... قد التحفت لخفامن الظِّلِّ سَجْسَجا [٢]

إذا اقذَفتْ بالماء سلّته منْصُلاً [٣] ... وعاد عليها ذلك النصل هَوْدَجا

تحاول إدراك النجوم بقذفها ... كأنّ لها قلباً على الجوّ محرّجاً

لدى روضةٍ جادالسّحاب ربوعها ... فزخرفها بين الرياض ودبّجا

على نرجس غَضٍّ يلاحظ سَوسَنا ... وآسٍ ربيعىٍّ يناغِى بنفسَجا

كأن غُصون الأقحوان زمرّد ... تعمَّمَ بالكافور ثم تتوّجا

ونوار نَسْرينٍ كأنّ نسيمه ... من المسك فى جوّ السماء تأرّجا

قال أبو البختري [٤] : تعرضت لأبى لخمة [٥] ـ وكان مجنونا ببغداد ـ له بديهة حسنة ، فقلت له : كيف أنت يا أبا فحمة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحتُ منك على شَفَا جُرُفٍ ... متعرِّضاً لموارد التّلفِ

وأراك نحوى غير ملتفتٍ ... متحرّفا عن غير منحرَف

يامَنْ أطال بهجره كَلَفِى ... أسفِى عليك أشدُّ مِن كَلَفِى

فأخرجت قبضة نرَجس من كمى، فأخذها وشمّها مليا ، وأنشأ يقول :

لما تزوّجت الجنوب بهاطلٍ ... جونٍ هتونٍ زبرج دلاّحِ

أضحى يلقّحها بوسمىّ الصّبَا ... فاستثقلت حملا بغير نكاحِ

حتى إذا حان المخاض تفجّرَتْ ... فأتت بِوُلْدانٍ بلا أرواح

حاكَ الربيع لها ثيابا وشّيتْ ... بيد النّدى وأنامِل الأرْواحِ

---

(١) ديوانه ٨٨

(٢) الديوان « وحفا » ، والسجسج : الذى ليس فيه حرمؤ ذولاقر.

(٣) الديوان : « ردته منصلا » ، والمنصل : السيف

(٤) الخبر فى العقد ٦ ، ١٧٠ ،وفى الأصول : « البحترى » وصوابه مافى العقد .

(٥) كذا فى العقد ، وفى الأصول « قحمة » بالقاف

من أصفرٍ فى أزهـرٍ قد زانهُ تـبْرٌ على وَرَقٍ من الأوضاحِ
رُكِّبْنَ فى عقدالزَّبرْجد فاغتدى نحو الغــــزالة ناظراً بملاحِ

* * *

[فصل فى ذكر ما يستحسن من أشعار المجانين]

ويتصل بهذه الحكاية فصلٌ فى ذكر ما يستحسن من أشعار المجانين ، فإن أبا محمد قد ذكر فى هذه المقامة للصابين ، وذكر المجانين فى غيرها ، لئلا نخلّ بما شرطنا . قال بعض الأدباء [1] : كان رجلٌ من أهل الأدب ، قد ذهب عقله بالمحبّة ، [وخلفه دابة تدور معه ، فاستوقفته] [2] وقلت له : يا أبا فلان ، ماحالك ، وأين النعمة؟ قال : تغيّرقلبي بالحبّ ، فتغيرت النعمة ، ثم بكى وأنشأ يقول :

أرَى التجمّل شيئاً لستُ أحسِنُهُ وكيف أخفى الهوى والدّمع يعلنُهُ
أم كيف صبر محبٍ قلبُه دَنِفٌ الشوق يُنحله والهجرُ يحزنه
وإنه حين لا وصـــلٌ يساعفه يهوى السلوّ ، ولكن ليس يمكنُهُ
وكيف ينسى الهوى مَنْ أنت فتنتُه وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

فقلت : أحسنت والله ، فقال : قف قليلا ، فوالله لأطرحنّ فى أذنيك أدباً أثقل من الرصاص ، وأخفّ على الفؤاد من ريش النعام [3] ، فوقفت ، فأنشد :

للحبّ نار على قلبى مضرّمةٌ لم تبلغ النّارُ منها عُشْرَ معشارِ
الماء ينبع منهـا فى محاجرنا بالرّجال لمـــاء فاض من نارِ !

وأنشد أيضا :

أعاد الصدود فأحيا الغليلاَ وأبدَى الجفاء فصبراً جميلا

---

(١) العقد ٦ : ١٧١ ، ونسب الخبر إلى أبي بكر الوراق
(٢) من العقد
(٣) العقد « المواصل » .

وأحسِب نفسي على ما ترَى ستلقَى من الهجر غمًّا طويلا
وأحسب قلبي على مابدا سيذهب منى قليلا قليلا

قال الحسن بن هانئ : رأيت مانيا الموسوس فأنشدنى :

شعر حَيٍّ أتاكَ من لفظ ميْتٍ صار بين الحياة والموتِ وَقْفَا(١)
قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتّى كاد عن أعين البريّة يخفَى
لو تأمّلتنى لتُبصر شَخْصِى لم تبيّن من المحاسن حَرْفَا

ثم أتيت جعيفران الموسوس ، وهو شيخ كبير من بنى هاشم ، عليه قطيفة ، وفى عُنقة غُلّ من ذهب ،فقال : من أين جئت ياحسن ؟ فقلت : من بيت مانويه : فقال : فى حرِ أم ما نويه ! وقال لى اكتب :

ماغرّد الديك ليلاً فى تنبّهه إلااحتثتُ إليك الدّيرَ مجهودَا(٢)
ولاهدت كلّ عينٍ لَذَّ راقدُها بنومةٍ فى لذيذ العيش محمودا
إلا امتطيْت الدّجى شوقا إليك ولو أصبحتُ فى حَلَقَ الأقيادِ مصفودا
أسعى مخاطرة بالنّفس يا أملى والليل مدّرع أثوابه السُّودا
فلم ترِقّ ولم ترثِ لذى دنفٍ زودته حرُقات القلب تزويدا
هيهاتَ لا غَدْر فى جنٍّ ولا بشر من الخلائق إلا فيك موجودا

ثم قال لى : خرّق رقعةً مانويّة ،فخرقتها ، ثم مضيت فلقيت عرددا المصاب، وحوله الصبيان ، وهو يلطم وجهه ، ويقول : يأيها النـاس ، الفِرَاق مرّ المذاق ، فقلت : أبا محمد ، من أين أقبلتَ ؟ فقال شيّعت الحاجّ إذ كان لى فيهم سَكَن(٣) ، وقلت فى ذلك :

---

(١) العقد ٦ : ١٧٠
(٢) العقد ٦ : ١٧١
(٣) سكن ، أى أهل دار.

هُمُ ارحلوا يومَ الخميس غُـدَيَّةً ... وودعتهمْ لَمَّا استقلُّوا وَوَدَّعُوا
فلما تولّوا ولّت النّفس مَعْهمُ ... فقلت:ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟
إلى جسدٍ ما فيه لحم ولا دمٌ ... وما هو إلاّ أعظمٌ تتقعقعُ
وعينان قد أعماهما الحزن والبُكَا ... وأذن عَصَتْ عُذّالها ليس تسمَعُ

وجعيفران من مجانين الكوفة ، أعطاه رجل درهما ، وقال له : قل شعرا على قافية الجيم ، فقال بديها :

عادَنِي الهــمُّ فاعتلجْ ... كلُّ هَمٍّ إلى فــرجْ[1]
سلِّ عنك الهموم بالــــكأسِ ... والراحِ تنفرجْ

وهو القائل :

ما جعفــرٌ لأبيــه ... ولا له بِشَبِـيهِ[2]
أضحى لقوم كثير ... فـكلُّهُمْ يدّعيــه
هــذا يقول بُنَيِّي ... وذا يخاصِم فيــه
والأمُّ تضحك منهم ... لِعِلْمِهــا بأبيــه

وقال مانى :

مِن الظّباءِ ظباء هَمّهـا السُّخُبُ ... وَحَلْيها الدُّرُّ والياقوت والذّهَبُ[3]
ياحسن ماسرقت عيني وماانتهبتْ ... والعين تسرِق أحيانا ، وتنتهبُ
إذا يَدٌ سرقت فالحدّ يقطعهـا ... والحـدّ في سَرَقِ العَينِ لا يجبُ

(١) العقد ٦ : ١٦٥
(٢) العقد ٦ : ١٦٥
(٣) العقد ٦ : ١٦٩

وله أيضاً :

له وجَنات فى بياض وحمرة خلافتها بيضٌ وأوساطها حُمْرُ[1]
رِقاق يجول الماء فيها كأنّها زُجاج أجيلت فى جوانبها الخمْرُ

وأشعار المجانين فى هذا الباب أكثر من أن تحصى.

* * *

فَاقْتَعَدْتُ مَهْرِيًّا ، وَاعْتَقَلْتُ سَمْهَرِيًّا ، وَسِرْتُ تَلْفِظُنِي أَرْضٌ إِلَى أَرْض ، وَيَجْذِبُنِي رَفْعٌ مِنْ خَفْضٍ ، حَتَّى بَلَغْتُهَا نِقْضاً عَلَى نِقْضٍ . فَلَمَّا أَنَخْتُ بِمَغْنَاهَا الْخَصِيبِ ، وَضَرَبْتُ فِي مَرْعَاهَا بِنَصِيبٍ ، نويتُ أَنْ أُلْقِيَ بِهَا جِرَانِي ، وَأَتَّخِذَ أَهْلَهَا جِيرَانِي ، إلى أن تَحْيَا السَّنَةُ الجمادُ ، وَتَتَمَهَّدَ أَرْضَ قَوْمِي الْمِهَادُ ، فَوَاللهِ مَا تَمَضْمَضَتْ مُقْلَتِي بِنَوْمِهَا ، وَلاَ تَمَخَّضَتْ لَيْلَتِي عَنْ يَوْمِهَا ، دُونَ أَنْ أُلْفِيتُ أَبا زيدِ السَّرُوجِيَّ يجولُ فى أرجاء نَصِيبِين ، وَيَخْبِطُ بِهَا خَبْطَ الْمصابين وَالْمصيبينَ ، وهو يَنْثُرُ مِن فِيهِ الدُّرَر ، وَيحتلِبُ بكفَّيْهِ الدِّرَرَ . فوجَدْتُ بِهَا جِهَادِي قدْ حَازَ مَغْنَماً ، وَقِدْحِي الْفَذَّ قَدْ صار تَوْءَمًا ، وَلَمْ أَزلْ أَتْبَعُ ظِلَّهُ أَيْنَمَا انبَعَثَ ، وَأَلْتَقِطُ لَفظَهُ كلّمَا نَفَثَ ، إلى أَنْ عَرَاه مَرَضٌ امْتَدَّ مَدَاهُ ، وَعَرَقَتْهُ مُدَاه ، حَتى كَادَ يَسْلُبُه الْمَحْيَا ، وَيُسْلِمُهُ إلى أبي يَحْيى .

* * *

قوله : «اقتعدت مهريًّا» ، أى ركبت بعيرا منسوبا إلى مَهْرة ، قبيلة من قضاعة ، إبلهم أنجب الإبل ، زعموا أنه كان يلقحها الوحش ، وهى إبل متوحشة

(١) العقد ٦ : ١٦٨

صغار بيض ، تكون بين عُمَان والشِّحْر ، وتزعم العرب انها إبل الجن لسرعتها، فبقيت أنسالها فى بنى مَهْرة . قال أبو عبيدة : المهرية من الإبل تسير أربعمائة ميل كل يوم ، ثم نسبَت العرب إلى مَهرة كل بعير نجيب .

اعتقلت : حبست ، والاعتقال :أن تحبس الرمح بين ركابك وساقك .
تلفظنى : ترمينى . رفع : مرتفع : خفض : منخفض . يجذبنى : يسوقنى لنفسه.
نِقضاً على نقض : هزيل على هزيل ؛ وأخذ هذا اللفظ من قول أبى الشيص يصف شدة السهر :

أ كَلَ الوجيفُ لحومهمْ ولحومَها   فأتوك أنقاضاً على أنقاضِ
ولقد أتتك على الزمان سواخطاً   فرجَعْنَ عَنْك وهنّ عنه رَوَاضِى

وقال حبيب فى معناه :

وركبٍ يساقون الرّكاب زجاجة   من السَّيْر لم تَقْصِدْ لها كَفُّ قاطبِ[1]
وقد أكلوا منها الغواربَ بالسرَى   وصارت لها أشباحهم كالغواربِ

ولحبيب أيضاً :

وركب كأمثال الأسنَّة عرّسوا   على مِثْلِها والليلُ تسطو كوا كبُهْ[2]
على كلّ روّاد المِلاط تهدّمت   عريكته العلياء وانضمّ جانبُهْ[3]

---

(١) ديوانه ٤١ ، والقاطب : مازج الماء .
(٢) ديوانه ٤٤ ، وفيه :« غياهبه » وبعده هناك

لأمرٍ عليهم أن تَتِمّ صدورُهُ   وليس عليهمْ أن تَتِمّ عواقبُهْ

(٣) رواد : يذهب ويجىء ، والملاط : رأس الكتف. عريكته : سنامه .

رعته الفيافي بعدما كان حقبةً   رعاها ، وماء المزن ينهلُّ ساكبه(١)
فكم جزْع وادٍ جَبَّ ذِرْوةَ غاربٍ   وبالأمس كانت أتمكَّنه مذانبه(٢)

قوله : « أنخت » بركت. مغناها : موضع سكناها . نويت: قصدت . جِراني صدرى ، والجِران : باطن عنق البعير ، يقول : لما أخذ نصيباً فى مرعاها ، أضمر أن يقيم بها ريثما يأتى أرضه المطر . الجماد : التى لا مطر فيها . تتعهد : تتفقّد وتزور . العِهاد . كثرة المطر .

وتمضمضت العين بالنوم ، إذا خالطها ودبَّ فيها ، وتمخّضت المرأة : أضرَّ بها وجعُ الولادة ، وتقول : تمخّضت المرأة عن زوجها إذا تحَمَلَتْ بالولد عنه ، وتمخضت بولدها إذا تحرّكت به ودنتْ ولادتها ، وإذا استعير هذا المعنى لليلة صار تمخّضها عن اليوم السابق لها ، كأنَّ اليومَ آتى فى الليلة ما كان فيه من الحيوان فتحرّكت به ؛ فيريد أنه لم ينقض يومى الذى وردتُ فيه نصيبين حتى وجدت فيه أبا زيد قبل أن أدخل فى ليلتى ، ولأجل هذا قال قبل هذا : تمخّضت مقلتى بنومها ، أراد أنه لقيه قبل الليلة التى ينام فيها ، ولو قال : تمخضّت بيومها لزم أن يكون اليوم الذى يأتى بعدها ، كأنّها كانت تحمله فتلده إذا طلع صبحه من حيث أنه متصل بها ، ولو جعلت «عن» بمعنى الباء لانقلب إلى هذا المعنى ، وإنما دل الكلام على صحة المعنى الأوّل ، وأصله المَخَض بالتّحريك ، ومنه : مخضت اللبن مَخضاً، حرّكته لإخراج زَبده ، ومَخَضَت المرأة وتمخّضت : تحرّك ولدها ليخرج ، ثم يستعار ذلك للأيام وغيرها ، فأما استعارة حمل الولد فكقول عمرو بن حسان فى النعمان :

أجدّك هل رأيت أبا قبيسٍ   أطال بقاءه النّعم الرّكامُ

---

(١) الديوان: « وماء الروض ».

(٢) الجذع: منعطف الوادى . جب : قطع. أتمكنه : أسمنته . المذانب : مسايل الماء.

تمخّضت المنون له بيومٍ أنى ، ولـكلّ حاملةٍ تمامُ

النّعم الركام : الإبل الـكثيرة ، وصُغِّر قابوس ، تصغير الترخيم ، وجعل المنيّة حاملا باليوم الذى هلك فيه وجعل اليوم ولدها على جهة الاستعارة ، وقال حبيب فى معناه :

حتى إذا مَخّض اللهُ السنينَ لهـا مَخْضَ الحليبة كانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ(١)

فهذه استعارة من مَخْض اللبن ، أراد أن السنين تحرّكت لهذه البلدة، أى كانت تمرّ عليهافلا تنالها بمكروه حتى وجدها المسلمون كالزّبدة فى حسنها ولذّتها فأكلوها باستباحة مَنْ فيها .

قوله : « ألفيت » ، أى وجدت . يجول : يتصرّف . أرجاء : نواحى . يخبط : يسأل الناس ، وأصل الخبط نفض ورق الشجر ، يُنفض للإبل فيخزن ثم يدقّ لها فى زمن الشّتاء ، ويبلّ بالمـاء فتعلفه ، ثم يستعار الخبط المعروف ، وقال زهير بن أبى سلمى :

وليس مانعَ ذى قربى وذِى نَسَبٍ يوماً ولا مُعْدِماً مِنْ خابِطٍ وَرَقا(٢)

يقال : خبطتُ الرجل،أى سألته ، وخبط الرجل بالأمر : لم يهتد لصوابه ، والبعيرَ : ضرب بيده الأرض ، والشىء : ضربته ، والدابّةَ الأرض : شدّت وطأها ، والشيطانُ الإنسانَ : صرعه .

قوله : « المصابين » أى المجانين . والمسيبين : الواجدين لـمـا يطلبون ، والمصيب أيضا ضدّ المخطىء ، والمفعول مُصاب ، فيريد أنه يجول فى نواحيها مسرعاً كالمجنون ، أو كالمتيقّن بوجود حاجته .

---

(١) ديوانه ٨ .
(٢) ديوانه ٥٣ .

الدُّرَر : الجواهر ، والدِّرر : اللبان، أراد أنه يتكلم بكلام حسن فيأخذ به العطايا. قِدْحِي النَذّ ، أي سهمي المنفرد. توءما : زوجا، وأراد أنه كان منفردا فصار بأبي زيد زوجا . انبعث : نهض وتوجّه . نفث : نطق . عراه : قصده . امتدّ مداه ، أي طالت مدته . عرقته : أخذت لحمه . مُداه : سكاكينه . يُسْلِمُه : يتركه ، وأبو يحيى : كنية الموت ، وقد تقدّم في المقامة قبل سهام أبي يحيى مسددة نحوى .

* * *

[ذكر ثواب المرضى]

أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات مريضاً مات شهيدا ، ووُقِيَ من فتنة القبر ، وغُدِيَ ورِيح عليه برزقه من الجنة » .

وقال : « مرض يوم يكفّر ذنوب ثلاثين سنة » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الصداع والحمّى يصيب الإنسان وإن ذنوبه مثل أحُد فما يفارقه حتى لايدع من ذنوبه وزن خردلة» .

أنس رضي الله تعالى عنه، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المريض إذا برئ وصحّ من مرضه كان كمثل البرَدَة تقع من السماء في صفاء لونها » .

* * *

فوَجَدْتُ لِفَرْتِ لُقْيَاهُ ، وَانقِطَاعِ سُقْيَاه ، مَا يَجِدُه الْمُبْعَدُ عَنْ مَرَامِهِ ، وَالْمُرْضَعُ عِنْدَ فِطَامِهِ ، ثُمَّ أُرْجِفَ بأنَّ رَهْنَهُ قَدْ غَلِقَ ، وَمِخْلَبَ الحِمَامِ بِهِ قَدْ عَلِقَ ، فَقَلِقَ صَحْبُهُ لإرْجَافِ المُرْجِفِينَ ، وَانثالوا إلَى عَقْوَتِهِ مُوجِفِينَ :

حَيَارَى يَمِيدُ بِهِمْ شجُوهُمْ ... كأنَّهُمُ ارْتَضَعُوا الْخَندريسَا
أسالوا الْغُرُوبَ وَعَطُّوا الجيوبَ ... وَصَكُّوا الخدودَ وَشَجُّوا الرءوسَا
يَوَدُّونَ لَوْ سالمتْهُ المنون ... وغالتْ نفائسَهُم والنُّفوسَا

* * *

قوله : «سقياه» ، أى فوائده التى كان يسقيه بها . مرامه : حاجته . فطامه : قطعه عن الرضاع . أرجف : تحدث ، والإرجاف : خوض الناس فى الفتنة وحديثها . وغلِق : كفّ ، وكان من فعل الجاهلية أن يقول الراهن لمن يمسك رهنه : إن لم آتك إلى كذا فالرّهن لك فإن أتاه بالدَّيْن بعد الأمد قال له : قد غَلِق الرهن .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يغلَق الرهن ، له غُنْمُه وعليه غُرْمُه » .

المخلب : ظفر الطائر الصائد . الِحمام : المنون . انثالوا . انصبّوا واندفعوا . عقوته : موضعه وأصلها فناء الدار .

موجِفين : مسرعين . حيارى : جمع حيْران ، والحيرة : التردّد فى الأمر وعدم التّهدّى له ، قال الواثق :

لا بِكَ السُّقْمُ ولكن كان بى ... وبنفسى وبأمّى وأبى[1]
قيل لى إنك صُدِّعتْ فما ... خالطت سَمْعِىَ حتى ديربى[2]

وقال آخر :

أنا مذ خبرت بالعلة والله عليلُ[3]
ليت حُمّاك بجسمى ولك العمر الطويلُ

---

(١) العقد ٢ : ٤٥٣ .
(٢) العقد : « خالطت سمعى حتى ديربى » .
(٣) ديوان المعانى .

يميد : يميل . شجوهم : حزنهم . الخندريس : الخمر . أسالوا الغروب : أجروا الدموع ، والغَرْبة : الفيضة من الدمع ، والجمع غروب : عطّوا : شقوا . صكّوا : لطموا : شَجُّوا:جرحوا . يودّون : يتمنّوْن. سالمته : تركته وصالحته ، وأصله الصلح . المنون : المنيّة . غالت : أهلكت . نفائسهم : كرائم أموالهم .

[من أقوالهم فى عيادة المريض]

ونذكر هنا من الشعر مايوافق هذا الموضع :

دخل أبو دَهمان القيسىّ يوما على بعض الأمراء يعوده ، فأنشده :

بأنفسنا لا بالطّوارف والتّلدِ ... نقيكَ الّذى تُخْفِى من السُّقْم أوتبدِى[1]
بنا معشرَ العُوّاد مابكَ من أذًى ... فإن أشفقوا ممّا أقول فبي وحدِى

ودخل محمد بن عبد الله بن طاهر على المتوكل يعوده ، فقال :

الله يدفعُ عن نفس الإمام لنا ... وَكلّنا للمنايا دُونَهُ غَرَضُ[2]
فليت أن الذى يَعْرُوه من مرضٍ ... بالعائدين جميعاً لا به المرضُ
ففى الإمام لنا من غيره عِوَضٌ ... وليس فى غيره مِنْهُ لَنَا عِوَضُ

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

أعززْ علىّ بأن أراك عليلاً ... أو أن يكون لك السّقام نَزِيلاَ[3]
لوددتُ أنى مالكٌ لِسَــلامَتِي ... فأعيرُها لك بُكْرَةً وأصيـلا
فتكونَ تبقى سالماً لسلامتى ... وأكونَ ممّا قد عراك بديلاَ
هذا أخ لك يشتكى مانشتكى ... وكذا الخليل إذا أحبّ خليلا

هذا الشعر على فتوره شرُف بمنصب قائله .

وكان المعتصم أميًّا لأن أباه هارون الرشيد ندبه فى صِغَرِهِ للتعلّم فسمعه

(١) العقد ٢ : ٤٥١ وهما للبحترى ، ديوانه ٨٥٦
(٢) العقد ٢ : ٤٥٢ :
(٣) العقد ٢ : ٤٤٩ .

يوما يقول ـ وقد مرّتْ به جنازة : ليتني مكانك ولا أرى هذا البلاء ، فقال له : لا أندبك إلى شيء تتمنّى الموت من أجله ؛ فلهذا لم يكن له علم بالأدب كأخويه الأمين والمأمون .

ولأبي العباس المبرّد :

ياعليلُ أفديك من ألم العِـــلّةِ هَلْ لي إلى اللقاء سبيلُ (١)
إنْ يَحُلْ دونك الحجاب فما يُحْــجَبُ عنّي وبكَ الضنَى والنحولُ (٢)

ولأبي تمام في مالك بن طوق :

ألبسكَ الله منه عافيةً في نومك المعترَى وفي أرَقِكْ (٣)
يُخْرج من جسمك السّقام كما أخرجَ ذمَّ الفعال من خُلُقِكْ

ولابن عبد ربه :

يامَنْ علَيْهِ حجابٌ من جلالته وإن بَدَا لكَ يوماً غيْرَ محْجُوب (٤)
ما أنت وحدك مكسوًّا ثياب ضنًى بل كلّنا لك مُن مُضْنًى وَمَشْحُوبِ
ألقى عليك يداً للضرّ كاشفةً كشافُ ضُرّ نبيّ الله أيوبِ

* * *

قال الراوي : وَكنتُ فيمَنِ التفّ بأصْحَابِهِ ، وأغذّ إلى بابه ، فلمّا انتهينا إلى فِنائه ، وتصدّينا لاستنشاء أنبائه ، برَزَ إلينا فتاهُ ، مفترّةً شفتاه ، فاستطلعْنا طِلْعَ الشّيخ في شكاتِهِ ، وَكُنْهَ قُوى حركاتِهِ ،

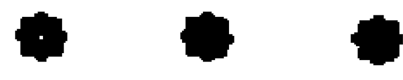
(١) العقد ٢ : ٤٥١ .

(٢) ديوانه ٢١١ العقد ٢ : ٤٥٢ ، وقبله فيهما :

كمْ لوْعَةٍ للنّدَى وكم قلقٍ لِلمَجْدِ والمكْرُماتِ في قَلَقِكْ

(٣) العقد ٢ : ٤٥٤ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

فقال : قد كان فى قبضة المرْضة ، وَعَرْكة الوعْكة ، إلى أن شَفَّهُ الدَّنف واستشفّه التَّلَف ، ثمّ منّ الله تعالى بتقوية ذَمَائه ، فأفاقَ مِنْ إغمائه . فارجعوا أدراجَكم ، وانضُوا انزِعَاجَكُمْ ، فكأنْ قد غَدَا وَرَاح ، وساقاكم الرّاح . فأعظمنا بُشْرَاه ، واقترحْنا أن نَرَاه ، فدخل مؤْذنًا بنا ، ثمّ خرَج آذنًا لنا ، فلقِينا منه لَقًى ، ولسانًا طلقًا ، وجلسنا مُحْدِقينَ بسريره ، محدِّقِينَ إلى أساريره .

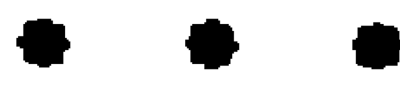


قوله : «أغذ» ، أى أسرع . تصدّينا : تعرّضنا . الاستنشاء : الاستطلاع . أنبائه : أخباره . برز : خرج . مفترّة : ضاحكة . استطلعناه : سألناه أن يُطلِعَنا . طِلع الشيخ فى شكاته : خبر مرضه . كُنْه : حقيقة . عرْكه الوَعْكة : شدة المرْضة ، وعركتُ الشيء : دلكْته بيديك وحككته ، ووعكته الحمّى : كسرته . وشفّه الدنف : أضعفه المرض ونقص جسمه استشفّه : استقصى بقية قوته . ذَمَائه : قوى نفسه إغمائه : ذهاب عقله من الضعف . ارجعو أدراجَكم ، أى فى الطريق الذى جئتم فيه . انضُوا انزعاجكم ، أى أزيلوا زعَجكم وطَيْشَكم ، والانزعاج : ضد القرار . أعظمنا بشراه ، أى وجدنا ما بشّرنا به عظيما ، والبِشارة بكسر الباء : ما بُشِّرَت به ، والبُشارة بضمها : ما يُعْطَى على البِشارة . والبَشارة بفتحها : الجمال ، وفلان بَشيرُ الوجه ، أى حسنه ، وعند أكثرهم أن لفظ «بشّرته» لا يستعمل إلا فى الإخبار فى الخير ، وليس كذلك ، بل يستعمل فى الخير والشرّ قال تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١) ، والعلّة فى ذلك أن البشارة إنما سميت بذلك لاستبانة تأثير خبرها فى بشرة مَن بُشِّر بها ، وقد تتغيّر البشرة للمساءة

(١) سورة التوبة ٢٤ .

بالمكروه ، كما تتغير عند المسرة بالمحبوب ، إلا أنه إذا أُطْلِق لفظها وقع على الخير ؛ كما أنّ النذارة يُطلق لفظها في الشر ، وهذا ذكره الحريري في الدرّة قال ابن عُزيز: البشرى: والبشارة إخبار بما يسر ، قال تعالى : ﴿ لهم البشرى ﴾[1] .

اقترحنا : طلبنا ، واقترحت الشيء : فعلته قبل أن يُفعل. مُؤْذنًا : معلمًا . اقّى : طريًّا . طلقًا : فصيحا. محدقين : محلِّقين ، وأحدق القوم بالشيء إذا أحاطوا به واحتفُّوا حَولَه. وحدّقوا ، أي نظروا إليه نظراً شديداً ، فهم محدِقون إليه ، أي ناظرون ، والحَدَقة : سَواد العين الأعظم . والأسارير : تكاسير جلد الوجه .



[نبذ من الأقوال المأثورة في عيادة المريض]

أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضًا فجلس عنده قدر ساعة ، أعطاه الله تعالى أجْر عمل سنة لا يعصيه فيها طرفة عين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« عيادة المريض إذا دخلتَ عليه ، أن تضعَ يدَك على رأسه وتقول : كيف أصبحت ؟ أو كيف أمسيت ؟ وإذا دخلت عليه تغمّدَتْك الرحمة ، وإذا خرجت من عنده خُضْتَها مقبلا ومدبراً » ـ وأومأ بيديه إلى حَقْوَيْه .

أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَن عاد المريض خاض الرحمة ، فإذا جلس عنده انغمَس فيها » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا دخلتم على مريض فنفّسوا عليه

(١) سورة يونس آية ٦٤ .

فى أجله ، فإنّ ذلك لا يردّ شيئاً وهو يطيّب نفس المريض[١] » .

نفّسوا : وسّعوا عليه بطول عمره[٢]

ودخل كُثَيّر على عبد العزيز بن مروان يعوده فقال له : لولا أن سرورك ما يتمّ بأن تسلمَ وأسقم أنا ، لدعوت ربى أن يصرف مابك إلىّ ؛ ولكن أسأل الله لك أيها الأمير العافية ، ولى فى كنفك النعمة . فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول :

ونعودُ سيّدَنا وسيّدَ غيرِنا ليت التّشكى كان بالعوّادِ[٣]

لو كانَ يُقبَل فِدْيَةٌ لفديتُه بالمصطفى من طارِفى وتلادِى

وكتب آخر إلى عليل :

نُبّئت أنك معتلٌّ فقلت لهم نفسى الفداء له من كُلّ مَحْذُورِ

ياليت عِلّته بى ، غَيرَ أنّ له أجر العليل وأنّى غير مأجورِ

* * *

فقَلّبَ طَرْفَهُ فى الجَماعَةِ ، ثُمَّ قال : اجْتَلُوها بِنْتَ السَّاعَةِ ، وأنشد :

عَافانِى اللهُ وَشُكْراً لَهُ مِنْ عِلّةٍ كادَتْ تُعفّينِى

وَمَنّ بالْبُرْءِ عَلَى أَنّهُ لا بُدّ مِنْ حَتْفٍ سَيَبْرِينِى

ما يتناسَانى ، وَلَكِنّهُ إلى تَقَضّى الأكْلِ يُنْسِينِى

(١) نقله فى الجامع الصغير ١ : ٣٩ .

(٢) العقد ٢ : ٤٤٨ .

(٣) العقد ٢ : ٤٤٨

(٤) العقد ٢ : ٤٨

إنْ حُمّ لَمْ يُغنِ حميمٌ وَلا ... حِمَى كُلَيْبٍ مِنْهُ يَحْمِينِي
وما أبالِي إن دَنا يَوْمُــهُ ... أم أُخِّرَ الْحَيْنُ إلى حِينِ
فأىُّ فخرٍ في حيــاةٍ أرى ... فِيهَا الْبَلاَيَا ثُمَّ تبلينِي

* * *

قوله : قلّب طرفه ، أى حوّل عينيه بنظرهم . اجتلوا : انظروا ، ونسّب الشعر للساعة لما قيل فيها . عاناني: أى سلّمني . تعقيني : تهلكني . منّ : أنعم. حَتْف: هلاك . تقضِّى الأُكل : تمامه وآخره . يُنسيني : يؤخِّرني ، والأصل الهمزة فسهّله للشعر . حُمّ : قدّر . حميم : صاحب .

[ذكر حِمى كليب]

حمى كليب ؛ هو ابن ربيعة أخو مهلهل الشاعر وخال امرئ القيس ، وكان أعزَّ الناس فى العرب. وبلغ من عزه فيهم أنه اتخذ جرْو كلب ، فإذا نزل بمنزل فيه كلأ قذف ذلك الجرْو فيه ، فعوى فحيثُما بلغ عُواؤه لا يرعى أحد عشب ذلك الموضع إلا بإذنه ، وإذا جلس لا يمرُّ أحد بين يديه إجلالاً له ، ولا يُحْتَى أحدٌ فى مجلسه غيرُه ، ولا توقد نارٌ غير ناره ، ولا يُجيرُ تغلبيّ ولا بكريّ رجلاً ، ولا يَحمِى حمَى ولا يُغير إلا بإذنه .

وكان يحمِى الصيد فيقول : صَيْد كذا فى جوارى ، فلا يصيب أحد منه شيئاً ،وكان قد حَمَى حمًى لا يطؤه إنسان ولا بهيمة ، فدخل فيه يوماً فطارت قُنبرة بين يديه من عَلَى بيضها ، فقال لها :

يالكِ من قُنــبرة بمَعْمَرِ ... خلاَ لكِ الجوّ فبيضى واصْفرِى
* ونقِّرى ماشئت أن تنقِّرِى *

وكانت امرأته جليلة بنت مرّة بن شيبان ، وكان لمرّة ـ وهو من بنى بكر ـ

عشرة من الولَد ، منهم الحارث وجسّاس ونَضْله وهمّام ، فجاءت جساساً خالة له اسمها البَسوس ، التى يقال فيها : أشأم من البَسوس ، فنزلت عليه ، ولها ابن وناقة تُسمّى سراب ، بفصيلٍ لها ، فدخل الحى يوماً ، فوجد بيض القُنبرة فدوطئته سَراب فكسرته ، فسأل عنها فأخبِر أنها لخالة جساسٍ ، فقال : أو قد بلغ من قدره أن يُجير دون إذنى ! ياغلام ، ارمِ ضَرْعها ، فخرقه بسهم ، وقتل فصيلها ، ثم طرد إبل جساس ، ونفاها عن المياه ، عن شُبَيْثٍ والأحصّ (غديرين) حتى بلغ غَدير الذّئاب . فجاء جساس ، فقال : نفيت عن المياه مالِى ، حتى كدت تهلكه ! فقال : إنّا للمياه شاغلون ، فقال : هذا كفعلك بناقة خالتِى وفصيلها ، فقال : أو قد ذكرتَها ! أما إنّى لو وجدتّها فى غير إبلِى مرّة استحللت تلك الإبل لها ، فعطف عليه جسّاس فرسه ، فطعنه ، فلمّا أحسّ الموت ، قال : ياجساس ، اسقنى ماء . فقال : تجاوزت شُبيثاً والأحصّ ، واحتزّ رأسه ، وأمال يديه ، وجاء . فقالت أخته لأبيها : إنّ جسّاساً جاء خارجة ركبتاه ، قال أبوها : والله ما خرجتا إلا لأمر . فلما وصله قال : ما وراءك يا بُنىّ ؟ قال : طعنت طعنة لتشغلنّ شيوخ وائل رقصاً . قال : قتلتَ كليبا ؟ قال : نعم ، قال : وددتُ أنّك وأخوتك متّم قبل هذا ، مابنا إلا أن تتشاءم بنا وائل ، ثم لقى أخاه نَضْله فقال :

وإنى قد جنيتُ عليك حربا تَغِصُّ الشّيخ بالماء القَرَاح[1]

فأجابه أخوه نضلة :

---

(١) الخبر فى الميدانى ١ : ٣٧٥ ، برواية مخالفة ، وفيه . « وأقبل جساس يركض حتى هجم على قومه ، فنظر إليه أبوه وركبته بادية من حوله فقال : لقد أتاكم جساس بداهية ، قالوا : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : لظهور ركبته ؛ فإنى لأعلم أنها بدت قبل يومها ثم . قال : ماوراءك ياجساس ؟ فقال : والله لقد طعنت طعنة لتجمعن منها عجائز وائل رقصا ، قال : وماهى ثكلتك أمك ! قال : قتلت كليبا ، قال أبوه : بئس لعمر الله ماجنيت على قومك ، فقال جساس :

تأهبْ عنك أهبةَ ذى امتناع فإن الأمر جلّ عن التلاحى =

فإن تك قد جنيتَ عليّ حربا فلا وانٍ ولارثُ السّلاح

وكان أخوه همّام قد آخى مهلهلا أخا كليب ، وعاهده ألاّ يكتمه شيئاً ، فجاءته أمَةٌ له ، وعنده مهلهل ، فأسرّت إليه الخبر ، فقال له مهلهل : ماقالت لك أمَتُك ؟ فقال : زعمت أنّ أخي جساساً قتل كليباً ، فقال : است أخيك أضيق من ذلك . وتحمّل القوم ، وغدا مهلهل فى ثأر أخيه بالخيل ، واجتمعت أشراف تَغْلب ، وأتوا مُرّة ، فتكلموا معه فى القصاص من جسّاس وإخوته ، فذهب مُرّة إلى الدية ، فغضبت تَغْلِب ووقعتْ فى الحرب ، فدامت بينهم أربعين عاماً .

وكان فيما بينهم خمس وقائع : أوّلها يوم عُنيزة وآخرها قتل جسّاس ، وذلك أنه لما اجتمع نساء تَغلِب للمأتم قالوا لأخته : رحّلى جليلة عن مأتمكِ ، فإنّ قيامها شماتةٌ بنا ، وعار علينا ، فقالت لها : اخرجى ياهذه من مأتمنا ، فإنك شقيقة قاتلنا ، فلما رحلت قالت أخت كليب : رِحْلَة المعتدى ، وفراق الشامت ! ويلٌ غداً لآل مرّة ، من الكرّة بعد الكرّة .

فلما بلغ ذلك جليلة قالت : وكيف تشمت الحرّة بهتك سِترها ، وترقّب وِترها ! أسعد الله جَدّ أختى ، أفلا قالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء !

وجاءت وهى حامل ، فولدت غلاماً وسمّته بالهجرس ، وربّاه جسّاس ، فكان لا يعرف أباً غيره ، فزوّجه ابنته ، فوقع بينه وبين بكرىّ كلام ، فقال له البكرىّ : ما أنت بمنتهٍ حتى ألحقك بأبيك . فأمسك عنه ، ودخل إلى أمه فسألها فأخبرته ، فلما أوَى إلى فراشه ، وضع أنفه بين ثدى زوجته ، وتنفّس

= فإنى قد جنيت عليك حرباً تغصّ الشيخ بالماء القراحِ

فأجابه أبوه :

فإنّى قدْ جنيتُ عليك حَرْباً تُغِصُّ الشيخ بالماء القَرَاحِ
سألبس ثوبها وأذبُّ عنّى بها يوم المذلّةِ والفضاحِ

تنفيسةً تنفَّطَ(١) ما بين ثدييها من حرارتها ، فقامت الجارية فزعةً ، فدخلت إلى أبيها فأعلمته ، فقال : ثائر وربِّ الكعبة .

فلما أصبح أرسل وراء المجرس ، فأتاه فقال له : إنما أنت ولدى ومنى وقد كانت الحرب فى أبيك زمانا طويلا حتى كدنا نتفانَى ، وقد اصطلحنا الآن ، فانطلقْ معى حتى نأخذ عليك ما أخِذَ علينا ، قال : نعم ، ولكن مثلى لا يأتى قومَه إلا بسلاحه ، فأتيا جمعاً من قومهما ، فقصَّ عليهم جسَّاس ما كانوا فيه من البلاء ، وما صاروا إليه من العافية ، ثم قال : وهذا ابن أختى قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ، فلما قدَّموا العقد أخذ بوسط رمحه ، وقال : وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونَصْليه ، وسيفى وغِراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيهِ وهو ناظر(٢) إليه . ثم طعن جساساً فقتله ، ولحق بقومه وكان آخر قتيل فيهم .

وقد قيل فى صورة قتل كليب غير ما ذكرنا ، وحكايات الجاهلية كثيرة الاضطراب ، وقد نسب شعر القنبرة لطرفة .

وقال النابغة الجعدىّ وذكر قتل كليب وحذَّر به عقالا العقيلى :

كليبٌ لعمرى كانَ أكثر ناصرا   وأيسرَ حزماً منك ضُرِّج بالدَّمِ(٣)
رمى ضرع نابٍ فاستمرَّ بطعنةٍ   كحاشية البُرْد اليمانِى المسهَّمِ(٤)
فقال لجساسٍ : أغثنى بشربةٍ   تُدارك بها منًّا علىَّ وأنعمِ(٥)
فقال : تجاوزت الأحصَّ وماءه   وبطنَ شُبيث وهو ذو مترسَّمِ

(١) تنفط : احترق .   (٢) ب : « ينظر » .
(٣) ديوانه ١٤٣ وفيه : « وأيسر جرماً » .
(٤) الناب : الناقة المسنة . والمسهم : المخطط بصور على شكل السهام .
(٥) الديوان : « تمن بها فضلا على وأنعم » .

الترنّم : اتباع الماء فى قعر البئر ، يقول : أىّ افتخار فى حياة تعرض علىّ فيها الامتحانات ، ثم بعد هذه المشقات تردّنى إلى الكبر والشيخوخة ؟ فلم أبال ، أدنا الموت أم تأخر ، إذ المآل إلى الهرم القائد إلى الموت . وأشار بهذا إلى قول النمر بن تولب[1] :

يودّ الفتى طولُ السلامة جاهداً فكيف ترى طولَ السلامة يفعلُ !

وإلى قول حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحّةٍ وحسبك داء أن تصحّ وتسلما

وجاء : كفى بالسلامة داء .

وجاء فى أجر البلايا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى فى الناس ما له خطيئة» .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم » .

* * *

قال : فدعَوْنا لهُ بامْتِدادِ الأجَلِ ، وارتدادِ الْوَجَلِ ، ثمَّ تَدَاعَيْنا إلى الْقِيامِ ، لاتقاء الإبْرَام ،فقال : كلاَّ بل ابْثُوا بياضَ يَوْمِكم عِندِى، لتَشْفُوا بالمفاكَهَةِ وجْدِى ، فإنَّ مُناجاتَكم قُوتُ نَفْسى ، وَمِغْناطيسُ أُنسِى . فتحرَّينا مَرْضاتَهُ ، وتَحَامَيْنا مُعاصاتَهُ ، وَأقبلْنا عَلَى الْحَديثِ نَمْخُضُ زُبْدَه ، وَنُلغِى زَبَدَه، إلَى أنْ حَانَ وَقتُ الْمَقيلِ ، وَكَلَّتِ

(١) خاص الخاص ٧٨

الْأَلْسُنُ مِنَ الْقالِ وَالْقِيلِ .وَكَانَ يَوْمًا حَامِىَ الوديقة ، يأَنِعَ الْحَدِيقةِ، فقال : إِنّ النُّعَاسَ قَدْ أَمَالَ الأعنَاقَ ، وَرَاودَ الآماق ، وهو خَصْمٌ أَلَدُّ ، وَخِطْبٌ لا يُرَدّ ؛ وفصلُوا حَبْلَهُ بالْقَيْلولَةِ ، وَاقتَدُوا فيهِ بالآثار المنقولة .

* * *

قوله ارتداد الوجل ، أى إزالة الخوف . واتقاء الإبرام: خشية التثقيل .

* * *

[ذكر تخفيف العيادة]

قال بعضهم :

إذا ما عُـــدتَ محموماً فخفّف فتخفيف العيادة خــير عادَهْ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخفّوا العيادة ، وأقلّوا الجلوس ؛ والتعزية يوم » .

أبو القاسم الوزير بن عيسى ، قال : أنشدنى أبو بكر أحمد بن موسى ابن مجاهد ، وقد جئته عائدا ، وأطال قوم عنده الجلوس ، فقال لى : يا أبا القاسم ، عيادة ثم ماذا ؟ فصرفت مَنْ حضر ، ثم هممت بالانصراف معهم ، فأمرنى بالرجوع ، ثم أنشدنى عن محمّد بن الجهم :

لا تُضْجِرنّ مريضاً جئتَ عائِدَهُ إن العيادة يومٌ إثر يومينِ
وسلْه عن حاله ، وادعُ الإله لهُ واقعُد بقدر فوَاقٍ بين حَلْبين
مَنْ زارَ غِبًا إذاً دامت مودّته وكان ذاك صلاحا للخليلينِ

وقال آخر :

عيادة المرء يوم بعـــد يومين ِ وجلسةٌ لك مثل اللّحظ بالعين ِ[1]

لا تُبرمَنّ مريضاً فى مُساءلة يكفيك من ذاك تَسْآلٌ بحرفين ِ

مرض[2] يحيى بن خالد ، فكان إسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يعوده وقف عند رأسه ، ودعا له ، ثم يخرج ويسأل الحاجبَ عن منامه وطعامه وشرابه . فلما أفاق قال : ما عادنى إلا إسماعيل بن صبيح ، ودعا له .

وممّن زاد على التخفيف فقطع الزيارة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، مرض أخوه محمد بن عبد الله فلم يعده عبيد الله ، فكتب له محمد :

إنى وجـــدتُ على جفا ئك مِنْ فعـالك شاهدًا[3]

إنّى اعتللتُ فما وجدْ تُ سوى رسولك عائدا[4]

ولو اعتللتَ فلم أجـــد سبباً إليـــك مساعِدًا

لاستشعرتْ عينى الـكَرَى حتى أعـــودَك راقدًا

فأجابه عبيد الله أخوه :

كحلت مقلتى بشوْك القَتادِ لم أذق مذ حُممْتَ طعم الرُّقادِ

يا أخي الحافظ المودّة والنّا[5] زل من مقلتى مكانَ السّواد

منعتنى عليـــك رقّة قلبى من دخولى عليك فى العُوّادِ

---

(١) العقد ٢ : ٤٥٠ . وفيه : « يوم بين يومين » .

(٢) الخبر فى العقد ٢ : ٤٥١ .

(٣) العقد ٢ : ٤٥١ .

(٤) العقد : « فما فقدت سوى رسولك » .

(٥) العقد : « الباذل المودة » .

لو بأذنى سمعت منك أنيناً ... لتفرّى من الأنين فؤادى

ومرض حماد عَجْرد ، فعاده أصحابه إلا مطيع بن إياس ، وكان خاصًّا به ، فكتب إليه يقول :

كفاك عيادتى من كان يرجو ... ثواب الله فى صِلَةِ المريضِ
فإن تحدثْ لك الأيام سقما ... يحول جريضُه دون القَرِيضِ
يكن طول التأوّه منك عندى ... بمنزلة الطّنين من البَعوضِ
فما نفسى عليك تذوب حُزناً ... وما دمعى عليك بمستفيضِ

ولمحمد بن عبد الله فى محبوب له مرض :

ألبسك الله منه عافيةً ... تغنيك عن دعوتى وعن جَلَدِكْ
سقمك ذَا لا لعلةٍ عرضتْ ... بل سقم عينيك دبّ فى جَسَدِكْ
فيامريض الجفون أخي فتًى ... قتلتَه بالجفون لا بيدِكْ

وقال آخر فى محبوب له تركت الحمّى على فِيهِ أثراً :

يا أملِى كيف أنت من ألمكْ ... وكيف ما تشتكيه من سقَمِكْ
هذان يومان لى أعدّهما ... مذ لم تَلُحْ لى بُرُوق مبتسَمِكْ
حسدت حماك حين قيلَ لَنا ... بأنها قبلتْك فوقَ فمِكْ

وقال العباس بن الأحنف :

قالت : مرضت فعُدْتُها فتبرّمَتْ ... وهى الصحيحة والمريضُ العائدُ[1]
والله لو أنّ القلوب كقلبها ... ما رقّ للولد الضعيف الوالد[2]

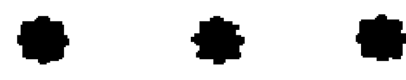
---

(١) ديوانه ٨١ .

(٢) الديوان : « للولد الصغير » .

قوله : «البثوا» ، أى أقيموا . بياض يومكم ، أى طوله ، وبياض النهار : ضوءه : مناجاتكم : محادثتكم .

مغناطيس ، حجر يجلب الحديد تقول له العامة حجر المس . تحرّينا ، أى قصدنا. تحامينا : تباعدنا. نمخض زبده : نحرك ونجمع فوائده ، وكنى بالزبد ، وهو جمع زبدة عن خيار الكلام . نُلغى زَبَده : نترك مالا خير فيه ، وزبد الماء : ما يعلوه من الرغوة . المقيل : النوم فى وقت القائلة . حامى الوديقة : شديد الحرّ . يانع الحديقة : ناعم الرّوضة ، والحديقة كلّ بستان محاّق بحائط أو زرب . راود : طالب . الآماق : العيون ، وأصله طرف العين من جهة الأنف . والخِطب : من يخطب المرأة . والقيلولة : الرقاد فى القائلة . والآثار : الأحاديث .



[نبذ مما قيل فى القيلولة]

قالوا وقال : يقال : قال يقيل قيلولة ومقيلا : نام نصف النهار .

أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم « ثلاث مَنْ ضبطهن ضبط الصوم : من تسحّر ، وقال ، وشرب بعد ما يأكل » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل» . ودخل العباس على ابنه وهو مضطجع ، فضربه برجله ، وقال : قم لا نامت عيناك ! تنام فى ساعة يقسّم فيها الرزق ! وإنّما النوم على إحدى خصال : خُرْق أو حق ، أو خلق ، فنومة الحق بعد العصر ، لا ينامها إلا سكران أو شيطان ، ونومة الخرق نومة الصبح ، ونومة الخلق نصف النهار » .

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعينوا بقيلولة النهار على قيام الليل ، وبالسّحور على صيام النهار .

قال الراوى : فاتّبعنا ماقال ، وقلنا وقال . فضرَب الله على الآذان، وأفرغَ السِّنَةَ فى الأجْفَانِ ؛ حتى خرجنا من حُكمِ الوُجود ، وصُرِفنا بالهجودعن السُّجود، فما استيقظْنا إلاّ والحَرُّ قدْ باخ ، واليومُ قَدْ شاخ، فتكرَّعْنا لصلاة المَجْماوَيْن ، وأدّيْنا ماحَلَّ من الدَّيْن .

ثم تحثحثْنا للارْتحال ، إلى مُلْقَى الرِّحال ، فالتفت أبو زيدٍ إلى شِبْلِهِ ، وَكَانَ عَلَى شاَكِلَتِهِ وَشَكْلِهِ ، وَقال : إنّى لإخال أبا عَمْرة ، قد أضْرَم فى أحْشَائِهِم الجَمْرَة ، فاستَدْعِ أبا جامع ، فإنَّه بُشْرَى كلِّ جائع ، وَأَرْدِفْهُ بأَبى نُعَيْمٍ ، الصَّابِرِ عَلَى كلِّ ضَيْمٍ ، ثمَّ عَزِّزْ بأَبى حَبيب المحبَّبِ إلى كلِّ حبيب ، المُقلَّبِ بَيْنَ إحراقٍ وتعذيب ، وَأَهِبْ بأَبى ثقيف ، فحبَّذا هُوَ مِنْ أليف ، وَهَلُمَّ بأبى عَوْن ، فَمَا مِثْلُهُ مِنْ عَوْنٍ ، وَلَوِ استحضرْتَ أبا جميل ، لَجَمَّل أىَّ تجميل .

* * *

قوله: « السِّنة » النوم . الهجود : الرقاد . باخ : سكن حرُّه . تحثحثنا ، أى تحرّكنا . ملقَى الرحال : موضعها . شبله : ولده . شاكلته : طريقته . شكله : مثله ، وتكون الشاكلة والشكل واحداً وجمع الشكل أشكال وشكول .

إخال : أحسب ، وكنّى الجوع أبا عُمرة ، لأنه يعمر كلّ جوف ؛ قيل لمدنى : أتعرف أبا عمرة ؟ قال : كيف لا أعرفه وقد تربع فى كبدى .

وقال الراجز :

حلّ أبو عَمْرة وَسْطَ حُجْزَتي   وحلّ نسج العنكبوت بُرْمَتِي

أضرم : أوقد ، وكنّى الخوان ـ وهو المائدة ـ أبا جامع للاجتماع حوله للأكل . وأردفه : جيء به خلفه ، وكنى الحُوّارى ، وهو الدرمك أبا نُعيم ، لأن خبزه أنعم الأخباز وأصفاها .

الضّيم : الذلّ ، وجعله صابرا على كل ذلّ ، لأنه لا يصل من صورة البر إلى الخبز إلا بعد علاج شديد ، وتغيير له من حال إلى حال .

وفسر معنى أبي حبيب بقوله : المحبّب إلى كل لبيب . وقوله : المقلّب بين إحراق وتعذيب ، يريد أنّ ما ولى من الجدى النار وقت شيّه احترق ، ومالم يلِها أدركه حرّها فأنضجه وأسال وَدَكه ، فذلك تعذيبه .

أهِبْ : ادْعُ به وصِحْ به .

وكنّى الخل أبا ثقيف لأنه يثقف الطعام ، أى يحذقه فيطيب للأكل .

أليف : صاحب ، وإنما قال : حبذا هو من صاحب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم الإدام الخل » .

وكنّى الملح أباعون ، لأنه يُستعان به على أكل الطعام ، وطعام بلا ملح لا يؤكل ، وقد أشار إلى هذا بقوله : فما مثله من عَوْن .

وكنى البقل أبا جميل لأنه يحسّن بحضرته الإدام ويزيّنه ، أو لأنه يذهب بالجميل ، وهو وَدَك اللحم فيخفّ للأكل وقوله : لجمّل أى تجميل ، أليق بالتفسير الأول ، ولا يمتنع من الثانى ؛ وحدث واثلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحضروا موائدكم البقل فإنه مطردة للشيطان مع تسمية الله تعالى » .

أبو الفضل بن مالك : يعجبنى البقل على المائدة فإذا رأيت السكباج نسيت البقل . السكباج : لحم بخل، والسك بالفارسية ، الخل ، والباج اللحم ، وسمى السكباج بأم القرى لأنه من أجل أطعمتهم .

* * *

وَحَيَّهَلْ بأُمِّ القِرَى ، المُذَكِّرةِ بِكِسْرَى ، وَلاَ تَتناسَ أُمَّ جابِر ، فَكَم لهاَ مِنْ ذاكِرٍ ، وَنادِ أُمَّ الفَرَج ، ثم افتِكْ بِها ولا حَرَج ، وَاخْتِمْ بأَبِى رَزِين ، فهو مَسْلاَةُ كلِّ حَزِين ، وَإِنْ تَقرُنْ به أَبا العَلاء ، تَمْحُ اسْمَك مِنَ البُخلاء . وَإِيَّاكَ وَاسْتِدْنَاءَ المُرْجفين ، قبل اسْتِقْلالِ حُمُولِ البَيْنِ ، وَإِذَا نَزَعَ القَوْمُ عَنِ المِرَاسِ ، وصافَحُوا أَبا إِياس ، فأَطِفْ عَلَيْهِمْ أَبَا السَّرْو ، فإِنَّهُ عُنوانُ السَّرْو .

* * *

وأم الشيء : معظمه وجليله ، ومنه أم القرآن الحمد لله ، وأم القرى لمكة المشرفة ، وأم الشيء أجله ، والقِرى : طعام الضيف ، فكأنه قال : عَجِّل بطعام فاضل يقدّم للضيف .

وكسرى ملك الفرس ، وجعلها تذكِّرُه ، لأنه أوّلُ مَنْ صنعت له ، فاستعملها ، وأمر بإجادة الصنعة فى طبخها ، وقيل : إن غيره طبخها واستعملها فى زمن كسرى فنُسبت إليه .

وكنى الجُوْزَابَةَ بأم الفرْخ ، وهى خبزة توضع فى التنُّور ويعلّق عليها طير أو لحم ، فيسيلُ ودَكه فيها ما دامت تطبخ ، فتفرج عنك هَمَّ الإدام فلا تحتاج إليه فهى خبزٌ بإدامه .

افتكّ بها ولا حرج ، أى كُلها ولا إثم عليك ، وإن كان اللفظ يعطيك معنًى آخر ، فالمراد به هذا .

وكنى الخبيصَ أبارَزين لفضله فى الطعام وشرفه ورجحان ثمنه ، وجمله آخر ما يؤكل ، والرزين من الرِّجال : الكثير الوقار ، وقرن به الفالوذج ، لأنه نوع منه ؛ قال بعض الطفيلية : الحلواء مثل الملك ، يدخل بيتاً فيه قوم جلوس ليس فيه مقسع لأحد ، فإذا نظروا إلى الملك تضايقوا وأوسعوا له .

وكان عبد الله بن جُدْعان سيّداً شريفاً فى قريش ، فوفد على كسرى وأكل عنده الفالوذج ، فسأله عنه فقيل له : هو الفالوذج ، قال : وما هو ؟ قيل لُباب البرّ مع عسل النّحل ، فقال : ابغُوا لى غلاما يصنعه فأتوه به فابتاعه ، وقدم مكة فصنع بها الفالوذج ، فوضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ، ثم نادى : ألا مَن أراد الفالوذج ، فليحضر ! فكان فيمن حضر أمية بن أبى الصلت ، وكان يمدحه كثيراً فقال فيه :

لـكلّ قبيـلةٍ رأسٌ وهادٍ وأنت الرأسُ تقدمُ كلّ هادى[1]
له داعٍ بمـكة مشمعـلّ وآخر فوق دَارَتِهِ ينادى
إلى رُدُحٍ من الشِّيزى[2] مِلاءٍ لباب البرّ يلبـك بالشهاد

ولُباب البرّ : خالص القمح ، ويسمى النّشا . يلبك : يخلط ، والشهاد : العسل ، والفالوذج : الذى رأيت بسجلماسة هو العسل والسمن يوضعان على النار ، ثم يعقدان بالنشا ، ثم يلوّن الـكلّ بالزعفران فيجئ متعقّد الحمرة ، فيقطع قطعاً

---

(١) ديوانه ٢٧ .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع والجفان ، والردح : الجفان الواسعة .

على قدر أكبر التمر ، وفى شكله ، ويؤتى به فى الأعراس بعد الشواء ، ويؤتى بالخبيص آخراً ، وخبيصهم فى غاية البياض ليس كخبيص الأندلس ، ويُقَرَّص قُرصاً على قدر صغار الجبن ، فمن رآها على بعد لم يشك أنها جُبْن . ويعدّ رجال المائدة ، ويؤتى بطبق كبير فيوضع بين أيديهم ، وأمام كل رجل قرصته ، فلا يكاد يكملها بالإكل لإفراط حلاوتها . وأكثر أطعمة أهل القبلة مستملاةٌ من أطعمة أهل المشرق ؛ وكذا أكثر أحوالهم من مَبانيهم وأشكال ديارهم وسطوحها ، واستعمال الإبل فى السواقى والطواحين ، ودقّ النوى لعلفها نعم ، وعلى أنّ البربرية غالبة على ألسنة أهل القبلة فهم يستعملون كثيراً من ألفاظ أهل العراق ، يقولون لفرق الناس الشّماسك ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ، ويسمون البرّادة التى لشرب الماء بُوقالا ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ، وجمع البوقال بواقيل ، قال الحسن بن هانئ :

أضمرتُ للنيل هجرانا ومقليةً — إذ قيل لى إنما التمساح فى النِّيل
فَمَنْ رأى النيل رأىَ العين من كثبٍ — فلا أرى النيل إلا فى البواقيل

وكان رأى التمساح أخَذ رجلا ، فهجا النيل . والبرّادة عندهم آنية من صُفْر ، فيها مخاطيف يعلّق فيها البواقيل ، وترفع للهواء فيبرُد فيها الماء .

قوله : المرجفين ، الطست والإبريق ، لأنّ لهما عند أخذهما صوتا ، بنقر أحدهما فى الآخر ، فكأنّ ذلك الصوت يرجف ، أى يخبر بتمام الطعام والحث على القيام .

أبو بكر الصفار : حضر مجنون بالكوفة طعامَ قوم ، فجلس يأكل ، فجعل الغلام يحرك الطشت والإبريق ، فقال : من هذا الذى يرجف بنا قبل انقضاء حملنا ؟

بينما صُفَيلِىّ يأكل ، سمع صوت دقّ الأسنان ، فامتنع من الأكل فقيل له : ألا تأكل ؟ قال : حتى يسكن هذا الإرجاف الذى أسمع .

وقيل لطفيلىّ : ممّ اصفرّ وجهك ؟ قال : من فترة بين قَصْعتين ، مخافة أن تكون قد فنيت .

استقلال : ارتفاع . حول البين ، أى إبل الفراق ، ويريد بها الموائد لأنها إذا ارتفعت يفرق أهل المجلس ، فيقول : إياك أن تقربهما قبل أن ترتفع الموائد، فيتهيأ الناس للغسل والانصراف ، فإن غسلت الأيدى والموائد باقية توهّم أن ثمّ طعاما يُستأنف أكله

نزع : زال وتنحّى . المراس : غسل الأيدى ودَلك بعضها ببعض .

صافحوا : باشروا ، والغَسُول قد تقدّم فى السابعة .

أطف : اجعله يطوف وقد بيّن لما كناه أبا السرو ، أنه من فعل السرىّ من الرجال، وعنوان السرو : دليل المروءة .

* * *

قال: ففقه ابنه لطائف رموزه، بلطافة تمييزه، فطاف علينا بالطيبات والطيب ، إلى أن آذنت الشمس بالمغيب . فَلَمَّا أجمعنا على التَّوْديع ، قُلْنَا له : أَلَمْ تَرَ إلى هَذَا اليومِ البديعِ ، كيف بَدَا صُبْحُهُ قمطريراً ، ومُسْيُهُ مستنيرا ! فسجَد ثم رفع رأسه ، وقال

لا تيأَسَنْ عنـد النُّوَبْ من فَرْجةٍ تَجْلو الـكُرَبْ
فـكَمْ سَمومٍ هبّ ثمَّ جَرَى نَسِيما وانقلب

وسَحَابٍ مكروه تَنَشَّى فاضْمَحَلَّ وما سَكَبْ
ودُخَانِ خَطْبٍ خيفَ مِنْـــهُ فما استبانَ له لَهَبْ
وَلَطَالَمَا طَلَعَ الأَسَى وَعَلَى تفيئَتِـهِ غَـرَبْ
فاصبِرْ إذا ما نابَ روْ عٌ فالزَّمانُ أبو العَجَبْ
وترجَّ من رَوْحِ الإلـــهِ لطائفاً لاتُحْتسبْ

قال: فاستَمْلَيْنا منه أبياته الغُرّ، وواَلَيْناَ لله تعالى الشكر، وودَّعناهُ مسْرُورين ببُرْئِه، مغمورين ببرِّه :

* * *

قوله: « فقه » ، أى فهم . لطائف : دقائق . رموزه : إشاراته الخفية ، والرَّمْز : الإشارة بالشفتين أو العينين . آذنت : أعلمت . أجمعنا : عزمنا . البديع : العجيب . قمطريرا : مظلما ، ورجل قمطرير : شديد العبوس ، واقمطرّ القوم: اشتدوا . للصُّبْح والمُسْى: اسمان لوقت زوال الظلام والضياء. مستنيرا: كثير الضوء .

والنُّوَب : النوازل . فرْجة : راحة . تجلو للكُرَب : تزيل الهموم ، وأنشدوا فى هذا المعنى :

لا تضيقنّ فى الأمور فقدَ تُكْــشَفُ غَمّاؤهـا بغـير احتيال (١)
رُبّما تـكْرَهُ النفوس من الأمــر له فَرْجَةَ كحل العِقــــــالِ

كذا أنشدوه فَرْجَة بالفتح ، والفُرْجة بالضم فى الحائط وشبهه ، وبالفتح فى الأمر ، وانظر هذا البيت فى الأربعين فى أخبار [أبى] عمرو بن العلاء .

سَموم : ريح حارة . نسيا : رِيحَاليّته . تنشىّ : ابتدأ وظهر . اضمحلّ :

(١) البيتان فى اللسان ــ فرج ونسبهما إلى أمية بن أبى الصلت .

زال . سكب : أمطر . خطْب : أمر شديد . لهب النار : اشتعالها بغير دخان ، وفي هذا المعنى قال أبو نواس :

خَفِّضْ عليك ولاتَـكُنْ قَلِقَ الحَشا ... ممـا يكون وعَـلَّهُ وعَسَاهُ
فالدّهر أقصر مُـدّة مما ترَى ... وعساك أن تُـكْفَى الذى تَخْشاهُ

وقال أيضا :

حَسِّن الظنّ بمَنْ قد عَوّدَكْ ... كلّ إحسان وقـوّى أَوَدَكْ
إن ربا كان يكفيك الذى ... كان بالأمس ، سيكفيك غَدَكَ

الأسى : الحزن . تفيئته ، أى حينه ، وقال الزّبيدى فى الأبنية : جاء على تفيئة ذلك ، وتفِئَتُهُ حينه ووقته . والرّوْح . الرزق : والرَّوْح : السرور والفرحَ ، والروْح : بَرْد نسيم الراحة .

اللطائف : جمع لطيفة ، وهى رِفق الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم ، واللطيف :الرفيق والمحسن ، وأرادفى البيت : ارجُ فى شدائدك الله، فله ألطاف كثيرة لا تحصى بالعِدّة ، فبعد العسر يُسر .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الفرج بعد الشدة]

وأنشد أبو حاتم فى معنى أبيات المقامة :

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ ... وضاقَ لِمَـابه الصّدرُ الرّحيبُ
وَوُطِّنَتِ المكاره واطمـأنّتْ ... وأرست فى مكامنهـا الخطوبُ

ولم ترَ لانكشاف الضُّرّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قُنوطٍ منه غَوْثٌ يَمُنّ به اللطيف المستجيبُ
وكلّ الحادثات إذا تناهت فمقرونٌ بها الفرجُ القريبُ

قال أبو بكر بن الأنبارى : أنشدنى إسماعيل القاضى :

لا تعتبنّ على النوائبْ فالدّهر يُرْغِمُ كلّ عاتِبْ
واصبرْ على حَدَثانِهِ إن الأمورَ لها عواقِبْ
ولكلّ صافيةٍ قذًى ولكلّ خالصة شوائبْ
كم فَرْجةٍ مطويّةٍ لك بين أثناء النّوائِبْ
ومَسرّةٍ قد أقبلتْ من حيث تُنتظر المصائبْ

قال القاضى رحمه الله : ما عرض لى همّ فادح ، فذكرت تلك الأبيات ، إلا رجوت من الله الفرج ، ثم تئولُ عاقبة ما أحذره إلى فاتحة ما أوثر .

قال علىّ الكاتب : أصبحت يوماً مغموماً غمًّا لا أعرف سببه ، فجاءنى رجل بظهر حُوار وإذا فيه :

روّح فؤادك بالضُّحَى ترجع إلى رَوْح وطيبِ
لا تيأسن وإن ألحّ الدهر من فرج قريب

قال : فزال عنى الهمّ ، ووجدت طعم الفرج .

وحكى الأصمعىّ رحمه الله تعالى قال : بِتُّ ليلةً بالبادية وحيداً مغموماً ، فلما انتهى الليل سمعت قائلا يقول ولم أر شخصه :

فرج القضاء بكف مَنْ بقضائه نَزَلَ البلاء

واصبر فكلُّ شديدةٍ لا بدّ يتبعُها رَخـاء

وقال آخر :

سوفَ تبلى كلّ جدّةْ وستقضى كلّ مدّهْ
إنما الدهر عناء وعوارٍ مستردّهْ
شدّة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

وقال آخر :

خف إذا أصبحت ترجُو وارجُ إن أصبحت خائفْ
رُبّ مكروه مخوّفٍ فيه لله لطائفْ

* * *

قوله : استمليدا : كتبدا . الغرّ : الحسان . والينا . تابعنا . مغمورين : مغطين . برثه . إفاقته . برّه : إحسانه وإكرامه .

وحَيَّهَل : قال ابن الأنبارى : فيها ست لغات .

قال عبد الله بن مسعود . إذا ذكر الصالحون فحيّهلاً بعمر ، ومعناه أقبلوا على ذكر عمر ، فتنوّن هَلاً وتنصبه على المصدر ، كأنه قال : مرحباً به .

الثانى : تفتح حيَّ وَهَل وتبنيها كخمسة عشر .

الثالث : تسكن هاء « هلا » هذه الشبهة لكثرة الحركات .

الرابع : حيّهل بتسكينهما جميعاً كبَخْ بخْ .

الخامس : حيّهل إلى عمر : أى هلموا إلى ذكره .

السادس : حيهلى على عمر : أى أقبلوا على ذكره .

تفسير ألفاظ ما تضمنته هذه المقامة

من كلمات لغوية وكنى طفيلية وكنايات صوفية

قوله : ذات الصريم ، يعني به الزمان المتقادم ، ومثله ذات الزمن .

والسمهرية : الرماح ، وفي تسميتها بذلك قولان : أحدهما أنها سميت بذلك لصلابتها ، من قولهم : اسمهرّ الشيء ، إذا اشتدّ . وقيل إنّها منسوبة إلى سمهر زوج رُدَينة ، وكانا جميعاً يقوّمان الرماح بسوق هَجَر فنُسِبَتْ إليهما .

وقوله : نقضاً على نِقض : أي مهزولا على مهزول .

و « الجِران » باطن العُنق ، وقيل منه يُعمل السياط .

وقوله : فضرب الله على الآذان ، أي أنامنا ، ومنه قوله عز وجل ﴿ فضربنا على آذانِهِمْ في الكهف ﴾، أي أنمناهم، وقيل في تفسيره منعناهم السمع .

وقوله : تكرّعنا لصلاة العجماوَيْن ، أي غسلنا أكارعنا ، وهو كناية عن الضوء ، والعجماوان : صلاتا الظهر والعصر ، سُمّيتا بذلك لإسرار القراءة فيهما ، ومنه الحديث : « صلاة النهار عجماء » .

وقوله : هلمّ ، أي قل هلمّ ، وهي تأتي بمعنى هاتِ وبمعنى أقبل ، والأفصح أن يوحد لفظها مع المذكر والمؤنث والاثنين والجمع ، وبه نطق القرآن في قوله تعالى: ﴿ والقائلين لإخوانهم هَلُمّ إلينا ﴾، ومن العرب من يقول المذكر الواحد هَلُمّ ، وللاثنين هَلُمّا ، وللجمع : هلمّوا ، وللمؤنث الواحدة هلمّي والاثنتين هَلُمّا ، والجمع هَلْمُمْن

وقوله: حَيّهل ، أي عجّل وأسرع ، يقال : حيّ هلْ بفلان بتسكين اللام

وفتحها ، وتنوينها وبإثبات النون معها ، ومنه قول ابن مسعود فى عمر رضى الله عنه : إذا ذكر الصالحون فحىّ هَلاً بعمر ، وفى حَيَّهَل لغات أخر أضربنا عن ذكرها ، إذ ليس هذا موضع استيفاء شرحها .

فهذا تفسير الألفاظ اللغوية .

وأمّا تفسير الكنى الطفيلية والكنايات الصوفية :

فأبو يحيى ، كنية الموت

وأبو عمرة : كنية الجوع ، ويكنى أيضاً أبا مالك .

وأبو جامع : الخوان .

وأبو نعيم : الخبز الحوّارى .

وأبو حبيب : الجدى .

وأبو ثقيف : الخل .

وأبو عون : الملح .

وأبو جميل : البقل .

وأمّ القرى : السِّكباج .

وأم جابر : الهريسة .

وأم الفرج : الجوذاب .

و أبو رَزِين : الخبيص .

وأبو العلاء : الفالوذق « كذا فى الأصل » .

وأبو إياس : الغسول .

والمرجفان : الطست والأبريق . وأبو السرو . البخور .

المقامة العشرون وهى الفارقية

حكي الحارث بن همّام قال : يَمَّمْت مَيّا فارِقين ، مع رُفقَةٍ موافقين ، لا يُمارُون فى المُناجاة ، ولا يَدْرُون ما طَعمُ المُداجاة ، فكُنتُ بهِمْ كمَنْ لَمْ يَرِمْ عَنْ وَجارِه ، ولا ظَعَنَ عن أليفهِ وجارِه . فلمّا أنخنا بها مطايا التّسْيار ، وانتقلْنا عَنِ الأكْوارِ إلى الأوْكارِ ، تَواصيْنا بتَذْكارِ الصُّحْبَةِ ، وتناهينا عن التّقاطُع فى الغُربة ، واتّخذْنا نادِيًا نعْتمِرُهُ طَرَفَي النّهارِ ، ونتهادى فيه طُرَفَ الأخبارِ ، فبينا نَحْنُ بِه فى بَعْضِ الأيامِ ، وقَدِ انتَظمْنا فى سِلْكِ الالْتئامِ ، وَقَفَ عَلَيْنا ذُو مِقْوَلٍ جَرِىٍّ ، وجرْسٍ جَهْوَرِيٍّ ، فحيّا تَحيّةَ نفّاثٍ فى العُقَدِ ، قنّاصٍ للأُسْـــدِ والنَّقَد ، ثم قال :

* * *

يممت ، أى قصدت .

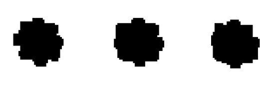
[ذكر ميافارقين]

ميّافارقين ، بلدة منها إلى نصيبين ثلاثون فرسخا ، وميافارقين بديار بكر ، وهى من كور الجزيرة ، وكان تملّكها سيفُ الدولة ، وذكرها المتنبى ، فقال :

تجانفَ عن ذات اليمين كأنّها ... تَرِقُّ لميّا فارقين وترحمُ[1]

(1) ديوانه ٣ : ٣٥٨ .

الفنجديهى : سمعتُ بعضَ الأدباء يقول : سُمّيت ميافارقين ، لأنّ ذا الرمّة أو غيره من العشاق ، لو وصل إليها بالاتفاق ، وشاهد وجوه أهلها الملاح ، والعيون السقيمة الصحاح ، وعاين رشاقة القدود ، ولباقة الخدود ، وسواد الطُّرَر ، وبياض الغُرر ، وسمرة الشّفاه اللمس ، وحمرة الوجنات والجباه المُلُس ، لقال لصاحبته : مَيّافارقينى ، ولا ترافقينى ، فلا يجوز التيمم مع وجود الماء ، ولا حاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء .



قوله : « يمارون» أى يجادلون ولا يخالفون . المناجاة : المحادثة . المداجاة : المساترة بالعداوة. لم يرم: لم يزل. يقال ما رامنى ولا يريمنى ، أى لم يبرح عنى ولا زال ، ولا يقالُ إلاّ منفيًّا وَجاره : لده ، وأصله الجحْر : ظعن : رحل . أليفه : صاحبه . الأكوار : الرحال . الأوكار : البيوت ، يريد أنهم أتموا سفرهم وبلغوا الوطن ، فتركوا النقلة وأقاموا فى البيوت . تناهينا : نهى بعضُنا بعضاً . ناديًا : مجلساً . نعتمره طرفى النهار ، أى نجلس فيه بالغدوّ والعشىّ . طُرَف : غرائب . السِّلك : خيط النظام . وانتظمنا : اجتمعنا فيه . الالتئام : الاتفاق ، يقال: لسان جرىء مقدم على الكلام . جرس : صوت . جَهْورِىّ : عالٍ . نفّاث : ساحر ، والعُقد : ما يعقِدها السَّحرَة وينفثُون عليها بالبصاق . قنّاص : صائد . النَّقَد : غنم صغار .



عِنْدِىَ ياقوم حديثٌ عَجِيبْ   فيهِ اعتبارٌ للّبيبِ الأريبْ
رأيت فى ريعانِ عُمْرى أخا   بأسٍ له حَدُّ الحسام القَضِيبْ
يُقْدِمُ فى المعركِ إقدام مَنْ   يُوقِنُ بالفتك ولا يستريبْ

فيُفْرِجُ الضِّيق بكرَّاتِه ... حتَّى يرى ما كان ضنكا رَحيبْ
ما بارز الأقران إلا انثنى ... عَنْ مَوْقِفِ الطَّعْنِ بِرُمحٍ خَضيبْ
ولا سَمَا يَفْتَحُ مُسْتَصْعِبًا ... مُستغلِقَ البَابِ مَنيعًا مَهيبْ
إلا ونُودِي حِينَ يَسمُو لَهُ ... نَصْرٌ من الله وفَتحٌ قَريبْ
هذا وكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ بَاتَهَا ... يَعِيسُ في بُرْدِ الشَّبابِ الْقَشيبْ
يرتشف الغيدَ وَيرْشُفْنَهُ ... وَهُوَ لَدَى الكُلِّ المُفَدَّى الحبيب
فَلَمْ يَزَلْ يَبْتزُّه دَهْرُهُ ... مافيه من بَطْشٍ وعُودٍ صَلِيبْ
حَتَّى أَصارتْهُ اللَّيالي لَقًى ... يعافُهُ مَنْ كانَ مِنْهُ قَرِيبْ
قد أَعْجَزَ الرَّاقِيَ تَحْلِيلُ مَا ... بِهِ مِنَ الدَّاء وأَعْيَا الطَّبِيبْ
وصارم البيضَ وصارمْنَهُ ... مِنْ بَعْدِ ما كَان المجابَ المجيبْ
وآض كالمنكوس في خَلْقِهِ ... ومَنْ يَعِشْ يَلْقَ دواهِي المَشِيبْ
وها هو اليوم مسجًّى فمَنْ ... يَرْغَبُ في تكفِينِ مَيْتٍ غَرِيبْ



واللبيب والأريب : كلاهما بمعنى العاقل . رَيْعان : أول . أخا بأس : صاحب شدة . الحُسام القضيب : السيف القاطع . المعرك : موضع القتال ، وأراد به فروج الأبكار . الفتك : سَفْك الدم ، وهو أيضاً ركوب الرجل ما همّ به . كرّات : دفعات ورجَعات . ضنكا : ضيقا . رحيب : واسع . بارز : قاتل . الأقران : الأمثال في الشدّة وغيرها . انثنى : رَجَع . خَضيب : مخضوب ، يريد أيضا افتضاض الأبكار . سما : ارتفع وقام . منيع ، أى صعب ممنوع . مهيب : مخوف . يعيس : يتبختر . يرتشف : يقبّل ويمصّ ريقهن . والترشّف :

العصْر الكثير . والغِيد : جمع غَيْداء ، وهى اللينة المفاصل من النّعمة ، وقيل : المائلة العنق فى نعمة . يبتزّه : يجرّده . والبطش : القوة والتناول الشديد . صليب : قوىّ شديد . لقًى : طريحا . يعافه : يستثقله ويكرهه . تحليل : إذهاب وإزالة ، وتحلّل الداء : ذهب شيئاً فشيئا . أعيا : غلَب . صارم : قاطع . البِيض : النساء الحسان . المجاب : الذى تجيبه النساء لحاجته منهنّ . والمجِيب : الذى يجيبهن لحاجتهنّ منه . آض : رجع . المنكوس : المردود إلى حالته الأولى من الضعف ، وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذى خلقكمْ مِنْ ضَعْفٍ ثمّ جَعَلَ من بعدِ ضعفٍ قُوّةً ثمّ جعلَ من بعد قُوّةٍ ضعفا وشيبة ﴾ ، فردّه إلى الحالة الأولى ، وهذا هو النّكس فى الخلق ، والنّكس فى المرض أن يمرض ، ثم يبرأ ، ثم يمرض . والنّكس فى السهام : أن ينكسر السهم ، فيُجعل فى الجعبة محوّلا المكسر إلى فوق ، فإذا أدخل الرامى يده فى الجعبة ليأخذ سهما فوجده محوّلا تركه وأخذ غيره . دواهى المشيب : حوائج الشيخ من الضعف والعلل وغير ذلك .

ونذكر هنا من الأدب ما يليق بالموضع :

* * *

[شكوى الضعف والكبر]

دخل المستوغر بن ربيعة على معاوية وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كيف تجدك يا مستوغر ؟ فقال : أجدنى قد لان منّى ما كنت أحبّ أن يشتدّ ، واشتدّ منى ما كنت أحبّ أن يلين ، وابيضّ منى ما كنت أحبّ أن يسوّد ، واسودّ منى ما كنت أحبّ أن يبيض ، ثم أنشأ يقول :

سلنىَ أنبئك بآيات الــكِبَرْ نَوْمُ العَشاء وسُعَالٌ بالسَّحَرْ

وقلة الطعم إذا الزاد حَضَرْ وتَركُك الحسناءَ من قبل الطُّهُرْ

* والناس يَبْلَوْن كما تَبلَى الشَّجَرْ *

ثم قال : ألا أخبركم بجيِّد العنب ؟ هو ما زَوِىَ عودُه ، واخضر عوده ، وتفرّق عنقودُه . ألا أخبركم بجيِّد الرُّطَب ؟ هو ما كبر لحاه ، وصغر نواه ، ورقّ سَحَاه .

وفى الزبور : مَنْ بلغ السبعين اشتكى من غير علة .

وقال ابن أبى معن :

من عاش أخلقت الأيام جِدَّته وخانه ثقتاه السمع والبصرُ

* * *

قوله مسجّى : أى مغطى .

* * *

[استطراد بذكر بعض الأفاكيه]

ووصف فى أوّل الشعر ذكره بالشدة وفى آخره باللين ، وأذكر من الصفتين ما يكون من شرط ما ذكر .

حكى أبو زياد الكلابى ، قال : كان عندنا أبو الغريب شيخاً فتزوّج ولم يُولم ، فاجتمعنا على باب خِبائه فصحنا : أولِمْ ولو بيربوع ، أو بقرد مجذوع ، قتلتَنا من الجوع : فأولم ، فلما عرّس غدونا عليه فقلنا :

يا ليت شعرى عن أبى الغريبِ إذ باتَ فى مجاسدٍ وطيبِ [1]

---

(١) ذيل زهر الآداب .

معانقــاً للرشأ الرّبيبِ أأخذ الحفار فى القليبِ

* أم كان رخواً يابس القضيبِ *

فصاح : يابس القضيب والله ! ثم أنشأ يقول :

سقياً لعهد خليلٍ كان يأدم لِي زادى ويُذهب عن زوجاتِيَ الغضَبْ

كان الخليل فأضحى قد تخوّنه مرُّ الزمان وتَعلمانى به الشُقَبْ

ياصاح أبلغ ذوِى الزوجات كلَّهمُ أن ليس وصلٌ إذا انحلّتْ عُرَا الذَّنَبْ

والقوافى وقعت فى لفظ يعقوب موقوفة . وعُرَا الذنب : عُروق الذكر .

وكان أبو الهيذاء الأعرابىّ عِنّيناً ، وكان يتجلّد ويقول لقومه : زوّجونى امرأتين، فيقولون : أمّا فى واحدة كفاية ! فيقول: أمّالى فلا ، فزوّجوه أعرابيّة ، وقالوا له : إن كفتك وإلا زوّجناك الأخرى ، فدخل بها ، وأقام عليها أسبوعاً فزاره إخوانُه فى اليوم السابع ، فقالوا له : يا أبا الهيذاء ، ما كان من أمرك فى الأوّل ؟ فقال : عظيم جدًّا ، فقالوا : ففى اليوم الثانى ، فقال أعظم وأجلّ ، قالوا : ففى اليوم الثالث ، قال : لا تسألوا ، فقالت امرأته من وراء السّتْر :

كان أبو الهيذاء ينزو فى الوَهَقْ حتى إذا ما حلّ فى بيت أَفَقْ

فيـه غزال حسن الدّل خَرِقْ مارسه حتى إذا ارفضّ العرَقْ

* تكسّر المفتاحْ وانسدّ الغَلَقْ *

الوَهَق : حبْل يفتح فيه عين واسعة تؤخذ بها الدابة ، والأفَق الجيد . وينزو: يمتدّ ويقصر .

وتزوّج الفرزدق بامرأة من مجاشع ، فعجز عنها فقال :

يا لهفَ نفسِى على نَعَظٍ فجعتُ به حين التقى الرّكَبُ المحلوق والرّكَبُ

ما أبعد ما بين حالته هذه وبينها وقد لقيته جارية ، فنظرها نظرا شديداً ، فقالت له : مالك تنظر ، فوالله لو كان لى ألف حِرٍ ما طمعتَ فى واحد ، قال : ولم يا خناء ؟ قالت : لقبح منظرك وسوء مخبرك فيما أرى ، فقال لها : أما والله لو خبرتنى لغفر مخبرى على منظرى ، ثم كشف لها وأراها مثل ذراع البكر ، فكشفت له عن مثل سنام البعير ، فتسنمها ، وقال :

أدخلت فيها كذراع البكرِ مُدَمْلج الرأس شديد الأسْرِ
زاد على شبرٍ ونصف شبر كأنما أولجته فى جَمْرِ

وسمع بشار كلام امرأة ، فأحبها وأرسل لها أن تواصله ، وألحّ عليها ، فقالت لرسوله : أى معنى له فىّ أولى فيه ، وهو أعمى لا يرانى ، فيعرف جمالى ، وهو قبيح الوجه لاحظّ لى فيه ! فليت شعرى لأىّ شىء يطلب وصال مثلى ! فأدّى إليه الرسول كلامَها، فقال عُدْ إليها فقل لها :

أيزِى له فضل على آيارهم وإذا أشطّ سجدن غير أوابى[1]
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً نظر المؤذن شكَّ يوم سحابِ
وكأنّ هامةَ رأسه بِطِّيخةٌ حُملت إلى ملك بدجلة جابى

وعشق[2] امرأة وتردّد رسوله إليها حتى أبرمها ، فشكته إلى زوجها ، فقال : أجيبيه وعِديه إلى هنا ، ففعلت ووجّهت له ، فجاء ولم يعرف بزوجها ، فقال لها : ما اسمُك بأبى أنت وأمى ! فقالت : أمامة ، فقال :

أمامة قد وُصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فألمسينا

---

(١) الاغانى ٣ : ٢٠٢ ، وأشط : ألعظ .

(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

فوضعت يده على أيْر زوجها ، وقد أنعظ لحسن حديثها معه ، ففزع ووثب قائماً وقال :

علىّ أليّةٌ ماعشتِ حيًّا أمسك طائعاً إلّا بعودِ
ولاأهدى لأرضٍ أنت فيها سلام الله إلا مِنْ بعيدِ
طلبتُ غنيمةً فوضعتَ كفّى على أيْرٍ أشدَّ من الحديدِ
فخير منكِ مَنْ لاخير فيه وخير من زيارتكم قعودِى

فقبض زوجها عليه ، وقال : هممت أن أفضحك ، فقال : كفانى فديتك ما فعلت بى ، والله لا أعود لمثلها أبدا .

سمع(1) الحكم بن عبدل امرأة تتمثل بقوله :

وأعْسِر أحيانا فتشتدّ عسرتى فأدركُ ميسور الغنى ومعى عِرْضِى

فقال لها : ياأخيّة ، أتعرفين قائل هذا الكلام؟ قالت : هو ابن عبدل ، قال : أفتعرفينه عيناً(2) ؟ فقالت : لا ، والله ، فقال : أنا هو ، والذى أقول :

وأنعظ أحياناً فينقدّ جلدهُ وأعذِله جُهدِى فلا ينفع العذلُ
وأزداد نَعْظاً حين أسمع جارتى فأوثقه كى مايثوب له عقلُ
وربّتَا لم أدْرِ ماحيلتى به إذا هو آذانى وغرّبه الجهلُ
فآويته فى بطنِ جارى وجارتى مكابرة قُدْمًا(3) وإن رغِمَ الفحلُ

فقالت المرأة : بئس الجار والله للمغيّبة أنت ، قال : إى والله والتى معها زوجها

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٢ : ٤٠٩ ، ٤١٠ .
(٢) الأغانى : « أفتثبتينه معرفة » .
(٣) التقدم : المضى فى الإقدام .

وابنها وأخوها ، أين قول هذا على إسلامه من قول عنترة على جاهليته :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها[1]
إنى امرؤ سمح الخليقة ماجدٌ   لا أتبع النفس اللجوج هَوَاهَا

وقال أبو الرقعمق[2] :

كل يوم أنا من أيرِىَ فى أمرٍ عُجَابِ
ليس يخليني من همٍّ وحزن واكتئابِ
عينه فى كلّ من دبّ على وجه الترابِ
لم يدع لى ذهبا إلّا رماه بالذهابِ
وابتدى المشؤم أن يَعْـــمَل فى بيع الثيابِ
لعنة الله عَلَيْـــه وبراغيث الكلابِ

وللمنجم البصرى فى ضد ما تقدم ، والمنجم صاحب ابن دريد ، والقائم مقامه بالبصرة فى الإملاء :

لِىَ أيْر أراحنى الله مِنْـهُ   صار همى به عريضا طَوِيلاَ[3]
نام إذ زارنى الحبيب عِنـاداً   ولَقَهدِى به ينيك الرّسُولاَ
حُسِبَتْ زورة علىّ اِخْبِئِين   وانصرفنا وما شفينا غَلِيلاً

ولراشد بن إسحاق[4] :

طالما قمت كالمنارة تهتز اهتزازاً تسمو إليه العيونُ

---

(١) ديوان عنترة ٩١ .

(٢) يتيمة الدهر ، ١ : ٢٦٩ ، وهو أحمد بن محمد الأنطاكى ؛ ترجم له الثعالبى وذكر كثيرا من شعره .

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٤ .

(٤) هو أبو حكيمة ، وفى ثمار القلوب ٣٢٥ وما بعدها بعض أخباره وشعره .

ربَّ يوم رفعتُ فيه ثيابي ... فكأنِّى فى مشبقٍ مختونُ
فعمتْ قوسك الخطوب وأفنتـ ... ـك فنونٌ تنفى عليها الفنُونُ
لم يَدَعْ منك حادثُ الدهر إلا ... جلدة كالرشاء فيها غضونُ
تتثنى كأنهـا صـولجانٌ ... أو كما حُرِّفَتْ من الخطِّ نونُ

وله أيضا فيه :

كأنه حين أطويه وأنشرُه ... سير يُلَفُّ على دوّامة الزِّيقِ
وإن يقم قلت قثاءٌ معقفة ... أوْ عروة رُكِّبَتْ فى رأس إبريقِ

وله أيضا فيه :

أيرٌ ضعيف المتن رثّ القوى ... لو شئت أن أعقده لانعقدْ[1]
إنْ يُمْسِ كالبقلة فى لينهـا ... فطالمـا أصبح مثل الوَتِدْ

وله أيضا فيه :

ينام على كَفِّ الفتاة وتارةً ... له حركات مايُحِسُّ بها الكفُّ[2]
كما يرفع الفرخ ابن يومين رأسَهُ ... إلى أبويه ثم يُدركه الضَّعْف

الفنجديهى : سمعت الحافظ أباجعفر المروزىّ يقول : مازحت شيخنا نجيب ابن ميمون الواسطىّ يوماً ـ وكان شيخاً دمثاً ظريفاً ـ فقلت له : أخبرنى هل بَقِىَ ـ من سلطان الهوى شىء ؟ وهل تقوم للخدمة المكازة الميمونية ؟ فقال : آه آه ، ثم أنشدَ :

تدلّى فوق الخُصيتين كأنه ... رَشَاً على رأس الركيّة ملتفُّ[3]

(١) ثمار القلوب ٢١٦ .
(٢) لإسحاق بن راشد ، شرح المختار من شعر بشار ٢١٧ .
(٣) شرح المختار من شعر بشار ٢١٣ ، ونسبه إلى راشد بن إسحاق ، وهما أيضا فى معاهد التنصيص ٣ : ١٩٧ .

كفرخ ابن ذى يومين يرفع رأسه ... إلى أبويه ثم يدركه الضعفُ

وأنشد أيضاً :

يقوم فى الليل عند البول منحنياً ... كأنه قوس ندّافٍ بلا وَتَرِ
ولا يقــوم إذا ابْتهته سحراً ... كما تقوم أيور الناس فى السَّحر

ثم بكى بكاء شديداً ، وذكّرنا ووعظنا .

وهذه الأبيات المنسوبة لراشد بن إسحاق كلها من قصائد له مطوّلة فى هذا الفنّ ، وأكثر شعره فيه ، وله فيه شعر كثير؛ ومنه انتزع الحريرى قصيدته فى هذه المقامة .

* * *

ثمَّ إنه أعلنَ بالنحيب ، وبكى بكاء المحبِّ عَلَى الحبيبِ . وَلَمَّا رقأتْ دَمْعَتُه ، وانفثأتْ لَوْعَتُهُ ، قال : يانُجْعَةَ الرُّوَّادِ ، وَقُدْوَةَ الأجوادِ ، وَاللهِ مانطقْتُ بِبُهْتان ، وَلاَ أَخبرتكمْ إلاّ عَنْ عِيان ، وَلَوْ كانَ فى عَصَاىَ سَـيْرٌ ، وَلِغَيْرِى مُطَـيْر ؛ لاستأثرتُ بما دَعَـوْتُـكُمْ إليـه ، وَلَمَا وَقَفْتُ مَوْقِفَ الدَّالِّ عليـه ، ولَـكِنْ كيفَ الطَّيَرَان بلَا جَنَاحٍ ، وَهَلْ عَلَى مَنْ لاَ يَجِدُ مِنْ جُنَاح !

* * *

قوله : «أعلن» أى رفع صوته . والنحيب : البكاء . وفى بكاء المحب على الحبيب يقول الشاعر وزاد معنى :

أتتنى تؤنّبنى فى البُكاء ... فأهـــلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى قولهـــا حشمةٌ ... أتبكى بعين ترانى بهـا !

فقلت : إذا استحسنت غيركم أمرت الهكاء بتأديبها

قوله : رقأت ، أى انقطعت . انفثأت : انكسرت وسكنت . لوحته : حرقته . النجعة : المرعى . الروّاد : الطالبون لما . بهتان : باطل . عيان : معاينة .

قوله : « فى عصاى سير » مثل يضرب لمن ليس عنده منفعة ولا له قوّة . والسير : الشراك يدخل فى ثقب فى رأس العصا ويعقد منه حَلقة ، يدخل فيها يده التى تمسك العصا ، فتكون أشدّ لاعتماده عليها ، وضربه بها ، فجعل عصاه عاطلة من سيرها ، وهو يريد أن لا منفعة عنده .

وأنشدُوا :

يا لكَ من هِمّـةٍ وَخيْزْ لو كان لى فى عصاى سَيْرْ

صبراً على النائبات صبراً ما يصنع الله فهو خـيْرْ

فن قليل بدا كثيرٌ كم مطر بدؤُه مُطَيْرْ

* * *

[العصا وما قيل فيها شعراً ونثراً]

وذكر الجاحظ(١) فوائد العصا ، فمنها: سئل يونس عن قول الله عز وجل: ﴿ ولِيَ فيها مآربُ أُخْرَى﴾(٢) فقال : لست أحيط بجميع مآرب موسى ، لكنى أذكر جملة تدخل فى باب الحاجة إليها :

من ذلك أنها تُحمَل للحيّة والعقرب والذئب والفحل الهائج ، ويَتوكأ عليها الكبير والسقيم والأقطع والخطيب والأعرج ، فتنوب للأعرج عن ساق أخرى [وتنوب](٣) للأعمى عن قائده . وهى للقصّار والدبّاغ . وهى المِفْأد(٤) لِلمَلّة ومحرَاك للتنُّور ، ولدقّ الجصّ والسمسم ، ولخبط الشجر ، وللشرطىّ والمكارىّ ، وللراعى

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٦٧ وما بعدها ، مع تزيد واختصار

(٢) سورة طه ١٨

(٣) من البيان والتبيين .

(٤) المفأد : الخشبة التى يحرك بها التنور . والملة : الرماد الحار الجمر

غمه ، والراكب مركبه . ووتد في الحائط، وتركزها فتجعلها قبلة ، وإن شئت مظلة ، وتدخلها في عروة المزود وطرفها في يدك ، والثاني في يد صاحبك ، وإن كان فيها زُجّ كانت عنزة ، فإن زدتَ شيئاً ؛ كانت عُكّازا ، فإن زدت شيئاً كانت مِطْرَدا (١) ، وإن زدت شيئاً كانت رمحاً .

وكانت آيات موسى صلوات الله وسلامه عليه في عصاه، وكانت لا تفارق يد سليمان عليه الصلاة والسلام في مقاماته ، حتى سلّط الله الأَرَضة وهو ميت فسقط، فكانت للجنّ آية .

وكان الحكم بن عبدل أعرج أحدب هجّاء خبيث الهجاء ، وكان الشعراء يقفون بأبواب الملوك فلا يؤذَن لهم ، وكان يكتب على عصاه حاجتَه ويبعث بها ، فلا تُؤخَّر له حاجة ، فقال يحيى بن نوفل :

عصا حَكَمٍ في الباب أوّل داخلٍ ونحنُ على الأبواب نُقْصَى ونُحجَبُ (٢)
وكانت عصا موسى لفرعون آية وهـذى لعمر الله أدهى وأعجَبُ
تُطاع فلا تعصَى ويُحذر أمرُها ويُرغب في المرضاة منها وتُرْهَبُ

فضحك الناس منها وشاعت بالكوفة ، وصارت ضُحكة ، فاجتنب أن يكتب عليها .

وكان لابن عبدل صديق أعمى يقال له يحيى بن عُلَيّة ، وكان ابن عبدل قد أقعِد، فخرجا ليلة إلى منزل بعض إخوانهما ، وابن عبدل يُحمَل والأعمى يقاد ، فلقيهما صاحب العَسَس ، فأخذهما وحبسهما ، فنظر ابن عبدل إلى عصا ابن علية في الحبس إلى جانب عصاه ، فضحك وقال :

حَبْسى وحَبْسُ أبى عُلَيّـــة من أعاجيب الزّمانِ (٣)

(١) المطرد : رمح قصير .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٥ ، الأغانى ٢ : ٤٠٤ .
(٣) الأغانى ٢ : ٤٠٥

أعمى يُقاد ومقعَدٌ لاالرِّجْل معه ولا اليدانِ
يامن رأى ضَبَّ الفلا ةِ قعيد موتٍ[1] فى مكانِ
طِرف وطِرفُ أبى عُلَيّة دَهْرَنا متوافقانِ
من يفتخر بجواده فجيادنا عُكّازتانِ

وقال أيضا :[2]

أقول ليحيى ليلة السجن سادراً[3] ونومى به نوم الأسير المقيّدِ
أعِنّى على حفظ النجوم ورعيها أعنك على تحبير شِعْرٍ مُقَصَّدِ
ففى حالتينا عبرة وتفكُّرٌ وأعجب من ذا حبس أعمى ومقعدِ
كلانا إذا العكاز فارق كفّه يُنيخ صريعا أوعلى الكفّ يسجُدُ
فعكّازةٌ تهدى إلى السُّبْلِ أكْمَهًا وأخرى مقام الرِّجل قامت مع اليدِ

وولى إمرة الكوفة أعرج وولىَ شرطتها أعرج ، فقصد الأميرَ ابنُ عهدل وهو أعرج ، ووجد سائلا أعرج فقال[4] :

ألقِ العصا ودَع التخامع والتمس[5] عملا فهذى دولة العُرْجانِ
لأميرِنا وأمير شرطتنا معاً ياقومنا لكليهما رِجْلانِ
فإذا يكون أميرنا ووزيرُنا وأنا فإنّ الرابع الشيطانُ[6]

فبعث إليه الأمير بمائتى درهم فضة وسأله أن يكفّ .

وكثيراً ماتصرّف الشعراء فى ذكر عصا موسى عليه السلام على أغراضهم ، فمنها ما يحسن ومنها مايقبح . وقال ابن سارة :

ولى عصاً من طريق الذمّ أحمدُها بها أقدّم فى تأخيرها قَدَمِى
كأنّها وهى فى كَفِّى أهُشُّ بها على ثمانين عاماً لا على غنمِى

(١) الأغانى « قرين موت » .
(٢) الأغانى ٢ : ٤٠٦ .
(٣) السادر : المتحير .
(٤) الأغانى ٢ : ٤٠٦ .
(٥) التخامع : التظاهر بالخمع ، وهو العرج .
(٦) فى البيت إقواء

كأنى قوسُ رامٍ وهى لى وَتَرٌ أرمى عليها سِهامَ الشّيب والهرمِ

وقال أبو بكر البلَوِىّ :

كأنّ يمينى حين حاولتُ بسطَها لتوديع إلفى والهوى يصرِفُ الدّمْعَا

يمين ابن عمرانٍ وقد حاول العصا وقد جعلت تلك العصا حيّة تسعَى

قال ابن رشيق : كنت أميل إلى قينة اسمها ليلى ، فعشقها بعضُ خُدّامِ الحصون ، وكان يحْتَسب خدمتها وكنسها منزله لا يثلم جاه متوليها فنهيته عنها فلم ينته ، فقلت فيه :

ظنّ أنّ الحصونَ مُلكُ سليما نَ وليلَى بجهله بلقيسَا

وله فى العصا مآربُ أخرى حاش لله أن تكون لموسى

وقال الصابى :

يُبدِى اللّواطَ مغالطًا ومجانه أبداً لأغراض الورى يستهدفُ

فكأنه ثعبان موسى إذ غدا لحبالهمْ وعصيّهم يتلقّفُ

وقال الصاحب :

هذا ابن مَتّويَهْ له آيةٌ يبتلع الأيْر وأقصى الخصى

يكفُر بالرسل جميعاً سوى موسى بن عمران لأجل العصا

وقال أبو الفرج الأصبهانى فى القاضى الأندبجى ، والتمس منه عكازة فلم يعطها إياه :

اسمعْ حديثىَ تسمعْ آيةً عَجَبا لاشىءَ أعجب منه يَبْهَرُ القِصصَا

طلبتُ عكازة للرِّجْلِ تحملنى ورُمْتها عند من يخفى العصا فعصَى

وكنت أحسبه يهوى عصا عَصَبٍ ولم أكن خلته صبًّا بكل عصا

ولما قدم قتيبة بن مسلم والياً على خراسان سقطت المخصرة من يده ، فتطيّر

به أهل خراسان ، فقال : يا أهل خراسان ليس كما ظننتم ، ولكن كما قال الشاعر :

فألقت عَصَاها واستقرّ بها النّوى كما قرّ عينا بالإيابِ المسافرُ (١)

وأما قول الشاعر :

ويكفيكَ ألاّ يرحل الضيفُ لائمًا عصا العبد والبئرُ الّتي لا تُميهُا (٢)

فقال يعقوب: البئر هنا حفرة تجعل فيها المَلّة ، وتجعل عليها الخبزة ، والعصا تقلّب بها الخبزة على المَلّة ، وينفض بها الرماد .

وقال آخر :

إذا جاء ثقّاف يجرّ قَنَاتَهُ طويلَ العصا نكّبته عن شياهِنَا

فالثّقاف الرسول بين المريب والمريبة ، يأتى كالسائل ، فإذا وقف ثقف الأرض بعصاه ، فإذا سمعت المرأة ذلك خرجت إليه ، فأبلغها الرسالة ، فثقفه علامة بينهما ، وأراد بالشياه النساء .

قوله : « غيمى » ، أى سحابى . مُطَير : تصغير مطر ، أى لو كان لى قوة ومال لآثرت بذلك نفسى . استأثرت : اختصصت . جناح : إثم .

* * *

قال الرّاوى : فطفِق القومُ يأتمرون فيما يَأمُرُون ، ويتخافتُونَ فيم يأتون ، فتوهمَ أنّهُم يتمالئون على صَرْفِه بحِرْمان ، أو مطالبته بِبُرْهان ، ففرط منه أنْ قال : يا يلامع القَاع ، ويَرامع البِقَاع ، ما هذا الائتِمار ، الّذى يأباه الحَيَاء ، حتى

(١) اللسان ــ عصا ، ونسبه إلى عبد ربه السلمى
(٢) اللسان ــ عصا ، من غير نسبة

كأنكم كُلِّفتم مَشقّة لا شُقّة ، أو استُوهِبْتم بلدةً لا بُرْدة ، أوْ هُزِزْتُم لِكُسْوَةِ البيت ، لا لِتَكْفين الميْت ، أفٍ لمن لا تندى صَفاتُه ، ولا ترْشَحُ حَصاتُه !

فَلَمّا بَصُرَتِ الجَماعَةُ بِذَلاقَتِهِ ، وَمَرَارَةِ مَذَاقَتِهِ ، رَفَأَه كلٌّ مِنْهمْ بِنَيْلِهِ ، وَاحْتَمَلَ طَلَّهُ خَوْفَ سَيْلِهِ .

* * *

يأتمرون : يتشاورون . يتخافتون : يتكلمون سراً . فيما يأتون ، أى فيما يفعلون معه . توهم : ظنّ . صرفه . ردّه .

حِرمان : خيبة . بُرهان: حجّة . فرط : سبق : يَلامع : جمع يَلْمَع وهو السراب . القاع : منخفض الأرض . يَرامع : جمع يَرْمَع وهى الحصى البيض ، وقيل الحجارة الرخوة .

البِقاع : جمع بقعة، وأراد أن لهم ظاهراً وليس لهم خبرة، كالسراب يخيّل أنه ماء ولا حقيقة له ، واليرمع تظنه فضة وهو حجر .

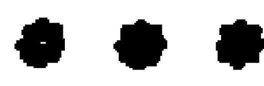
الارتياء : تدبير الرأى ، وأصله الهمز لأنه من الرأى . استوهبتم : طلبت منكم هبة . بردة : ثوب يلبس . هَزَزتم : حرّكتم . البيت : الكعبة .

أف : خيبة ، وقد تقدم أن الصخرة والحصاة يكنى بهما عن يد البخيل . ذلاقته : حدّة لسانه. رَفأه : وصله. والطل والسّيل هنا : القليل والكثير.

* * *

قال الحارث بن همام : وكانَ هذا السائِلُ واقفاً خلْفِى ،

ومحتجباً بظهرى عن طَرْفى . فلمّا أرضاه القوم بِسَيْبِهِمْ ، وحقّ علىّ التّأسّى بهِمْ ، خلعت خاتمِى مِنْ خِنْصَرِى ، وَلفتُّ بَصَرِى ، فإذا هو شيخنا السّروجىُّ بلا فِرْية ولا مِرْية ، فأيقنتُ أنّها أُكْذُوبة تكذّبها ، وأحبُولَةٌ نَصَبَها ، إلا أنّى طويتُه على غَرِّهِ ، وَصُنْتَ شَفَاهُ عَنْ فَرِّه ، فحصبتُهُ بالخاتَمِ ، وقلت : أرْصِدْه لنفقة المآتِمِ ، فقال : واهاً لَكَ فما أضْرَمَ شعلتك ، وأكرم فعلتك ، ثم انطلق يسعى قُدْما ، ويهرول هَرْولَته قِدْمًا .



سيبهم : عطاؤهم . وحق : وجب . التأسّى : الاقتداء . خلعت : جذبت وأخرجت . الخنصر : الأصغر من الأصابع ، ويليها البنصر ثم الوسطى ثم السبابة وتسمى المسبّحة والمشيرة ، ثم الإبهام ، وقال أبو العلاء المعرّى :

شغلت عن المرء من خمسة اثـنتين نخصّهما الفخر[1]
يُشار إليك بسبّابة وتثنى على فضلك الخِنْصَرُ
فمن أجل ذا رُفعتْ هذه إلى خالق الخلْق تستغفرُ
ومن أجل ذا كُسِيَتْ خاتما يزين وحُوِّبَتِ البنصرُ

وقال صريع الغوانى يلغز بخاتم :

وأبيض أمّا رأسه فمدوّرٌ نَقِىٌّ وأمّا جسمه فَمُعَارُ[2]

(١) لم أجدها فى ديوانه (٢) ديوانه ٢٣٨

ولم يُتَخَذْ إلا انسكن وسطه[1] خضيبة رأس ما عليه خُمَارُ
لها أخوات أربع هنّ مثلها ولكنها الصغرى وهن كبارُ

لفتّ: رددت . فرية : كذب . مرية : شكّ ، وتقول: بين القوم أكذوبة يتكاذبون بها ، أي أحاديث كذب . تكذّبها : استعملها . أحبولة : آلة يصاد بها . وطويته على غَرِّه ، أي سترت عليه طريقته الملتزمة من الحيل ، والغرّ بالنقط : كسور الثوب، يقال: اطو الثوب على غَرِّه ، أيعلى كسور طيّه الأولى.
جابر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « طيّ الثوب راحته » .

صنت : حفظت وكتمت . شغاه : عَيّبه . فَرَّه : كشفه. والشّغا : بروزسنٍّ على أخواتها ، وخروج الحنك الأعلى على الأسفل .

وحصبته : رميته ، والحصباء : الحصى الصغار ، وحصبته : رميته بالحصباء، فاستعاره للخاتم .

أرصده : أعده . واهاً : عجبا . ما أضرم شعلتك ، أي ما أكبر توقّد ذهنك ، والشعلة لسان النّار ، وإنما تعجّب منه لأنه قد عرفه وأعلمه أنه قد عرف مكره حين قال له : أرصده ، ثم ستر عليه ، وأهل الشرق يتختّمون ويتصدقون بخواتمهم . وفي البديعية[2] بعد تشك تقدم من أبي الفتح : قال ابن هشام : فوالله ما آنسني عن وحدتي إلا خاتم ختمت به خنصرَه ، فلما تناوله أنشأ يقول :

ومنطقٍ من نفسه بقلادة الجوزاء حُسْنَا
متألف من غير أسرته على الأيام خِدْنَا
كمُتَيّمٍ لَقِيَ الحبيب فضمّه شغفاً وحزنَا

---

(١) الديوان : « وما يشترى إلا لتسكن وسطه » .
(٢) المقامة البخارية من مقامات البديع ٩٧ ، ٩٨ .

عِلْقٌ سَـنِيٌّ قــدره لـكنَّ مَنْ أهداهُ أسنَى
أقسمت لو كان الورى فى المجد لفظا كنتَ معنى

قال: فبهته حتى سفرت الخلوة وجهها، فإذا والله أبو الفتح، والطلا زغلوله(١)، فقلت أبا الفتح، شبت وشبَّ الغلام، فأين الـكلام، وأين السلام؟ فقال:

غريباً إذا جمعتنـا الطريقُ أليفاً إذا نظمتنا الخيامُ

قوله، يسعى، أى يسرع المشى. قُدُماً: أى قدامه وقبالته. يهرول: يسرع، والهرولة جرى بين المشى والعدو. قِدْما، أى قديما وأوّلاً، ومعناها كما فعل فى أول مرة حين سعى قدما.

* * *

فنزعتُ إلى عِرفانِ مَيّتِه، وَامْتِحانِ دَعْوى حَمِيّتِهِ، فقرعْتُ ظُنْبُوبِى، وَأَلْهَبْتُ أُلْهوبِى، حتى أدركتُه عَلَى غَلْوة، واجْتَلَيْتُهُ فى خَلْوة، فأخذتُ بِجُمْعِ أردانِه، وَعُقْتُهُ عَنْ سَنَنِ مَيْدانِه، وقلت له: والله مالك مِنّى مَلْجأ وَلا مَنْجَى، أوْ تُرِيَنِى مَيّتَك المُسجَّى، فـكشف عَنْ سَرَاوِيلِه، وأشارَ إلى غُرمولِه. فقلت له: قاتلك الله! فَمَا أَلعبك بالنُّهى، وأَخْيَلَكَ على اللُّهي! ثم عُدْت إلى أصحابى عود الرَّائدِ الذى لا يكذبُ أهلَه، ولا يبرقِش قولَه، فأخبرتهم بالذى رأيْتُ وما وريتُ ولا رَاءيْت، فقهقهوا مِنْ كيت وكَيْت، ولَعَنُوا ذلك المَيْت!

* * *

(١) الطلا: ولد الظبية

نزعت : اشتقت . امتحان : تجربة . قرعت : ضربت . ظنبوب : مقدّم عظم الساق ، ويقال: قرع لهذا الأمر ظنبوبه ، إذا أسرع وجدّ فيه ، ويبيّنه قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزِعٌ كان الصُراخُ له قَرْعَ الظنابيبِ(١)

أى كانت إغاثتنا له إسراعنا فى نصرته . ألهبت : أشعلت . ألهوبى: شدة جرى . والغلوة : مقدار رمية السهم . اجتليتُه : نظرتُه . بجُمع أردانِهِ ، أى بجميع أطراف ثوْبه . عقته : صرفته عن وجهه . سَنَن: طريق . مَيْدانه : موضع جريه وطَلقهِ . مَلجأ : موضع يُلْجَأ إليه . مَنْجى : موضع تنجو فيه. عُرْ عرِه : ذِكْره . قاتلك الله ، أى قتلك الله ؛ وأكثر ما يقع فاعلت على الاثنين ، وقد يكون عن الواحد ، نحو ناولت وسافرت ؛ وقيل: معنى قاتله، لعنه ، وقيل عاداه . النُهَى : العقول ، واحدها نُهْيَة ، ومنه نهيتُه عن كذا فانتهى . واللُّها : العطايا، واحدها لَهْوة ، وأصله القَبْضة من الطعام، تُجعَل فى فم الرَّحا . يكذب : يحدّث بالكَذِب : يُبَرْقِش : يُزيِّن، والبرقشة التزيين بألوانٍ شتى . ورّيت ، يقال: ورّيت الخبر أُوَرّيه تورية : سترتُه وأظهرت غيره، وفى الحديث الشريف ، أنه صلى الله عليه وسلم كان إذ أراد سفراً، ورّى بغيره ، وهو مأخوذٌ من الوَرَاء، كأنه جعل الخبر وراءه ولم يُظهِرْه . راءيت: استعملتُ الرياء ، يريد أنه صرّح لهم بذكر العورة ، ولم يَكْنِ عنها . قهقهوا : أكثروا الضحك .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب » . والقهقهة من الشيطان والتبسم من الله . من كيت وكيت ، أى من هذه القصّة التى أسمعهم ؛ وكيتَ وكيتَ ، كناية عن الحديث المدمج المتداخل . والله أعلم .

تم الجزء الثانى بحمد الله ويليه الجزء الثالث

وأوله المقامة الحادية والعشرون

---

(١) المفضليات ١٢٤

فهرست المقامات

صفحة

فهرس الموضوعات

(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

صفحة